الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

التفسير الوعظي

لسورتي الفاتحة والبقرة

تأليف
الدكتور محمد محمود الطرايرة

قدم له
فضيلة الدكتور صلاح الخالدي

التفسير الوعظي
لسورتي الفاتحة والبقرة

التَّفْسير الوَعْظيُّ لسورتَي الفَاتِحةِ والبَقَرةِ

الدكتور محمد محمود الطرايرة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٥٣١٤ / ١٠ / ٢٠١٨)

رقم التصنيف : ٢٢١،٥

المواصفات : / تفسير القرآن // سور القرآن/ / القرآن الكريم

الطبعة الثانية ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

للتواصل مع المؤلف

+962 79 617 69 69

m-Tarira@hotmail.com

د-محمد الطرايرة

عمان - الأردن

التفسير الوعظي
لسورتي الفاتحة والبقرة

تأليف
الدكتور محمد محمود الطرايرة

قدم له
فضيلة الدكتور صلاح الخالدي

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم لكتاب التفسير الوعظي لسورتي الفاتحة والبقرة

الحَمْدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشْرفِ الخَلقِ والمُرْسلينَ، نَبيِّنَا مُحمَّدٍ وعلى آله وصَحْبِه أجْمَعينَ، والتَّابِعينَ لهُمْ بإحْسَانٍ إلى يَومِ الدِّينِ، وبعدُ:

فمعرفةُ مَعاني القُرآنِ الكريمِ، والعملُ بمُقْتضاها، واجبٌ على كلِّ مسلمٍ ومُسلمةٍ، وأكثرُ المسلمين في هذا الزمانِ بحاجةٍ إلى مَن يُبيِّنُ لهم معانيَ القرآن، بِلُغَةٍ واضحةٍ وسهلةٍ وميسورةٍ، ويُرشدُهم لما فيها من علمٍ وعملٍ وهدايةٍ، وهذه مهمةُ طلبةِ العلمِ والعلماءِ، إذ لِزَامٌ على مَن علَّمه الله القرآنَ أن يُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم، فالعلماءُ ورثةُ النَّبيِّ محمَّد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا، وقد قالَ الله لنبيِّه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

ومِمَّن نحْسبُهم على علمٍ وخيرٍ الشيخُ الفاضلُ د.محمَّد الطَّرايرة، الذي كتبَ هذا التفسيرَ الوعظيَّ الميسَّر، وحقَّقَ به أغراضًا جليلةً، من خِلالِ بيانِ المعاني اللغويَّةِ والشَّرعيَّةِ للآياتِ، ثم رَبْطِ معاني الآيات بواقعِ المُسْلمينَ اليومَ، وتنزيلِها عليه في قَالَبٍ وعظيٍّ مؤثِّر.

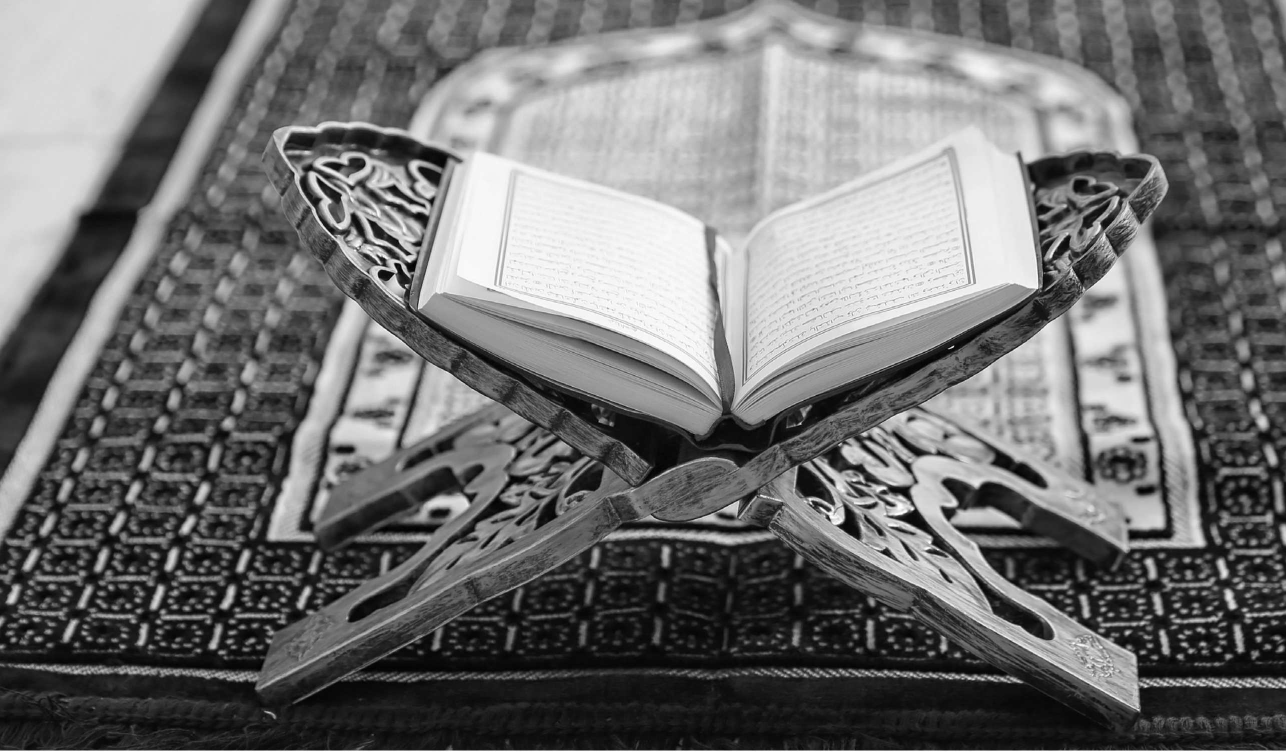

وقد اطَّلعتُ على ما كتب فوجدتُه أفاد وأجاد، وبذل جهدًا مشكورًا، بطريقةٍ فريدةٍ من غير محاكاةٍ ولا تقليدٍ لغيره، وممَّا يُمَيِّزُ هذا التفسيرَ الوعظيَّ أنَّ مؤلِّفَه قريبٌ من الناس، فطبيعة عمله في المساجد والجامعات ومراكز التحفيظ ونحوها، أتاحت له فرصةَ الوقوفِ على واقع فئاتٍ مختلفةٍ من المسلمين، وعَلِمَ من أحوالهم الشيءَ الكثير، وقد انعكس ذلك على مادةِ كتابه، فهذا الكتابُ يستهدفُ المُسلمينَ الذين يعيشون في زمانِنا المُعاصِرِ بشكلٍ مباشر، ويُعالج مشكلاتِهم، ويُراعي أحوالَهم، وقد تمَّ له ذلك بلُغَةٍ علميةٍ من جهة، وسهلةٍ مقنعةٍ من جهة أُخرى.

ولذا فأنا أنصحُ بتعميمِ هذا الكتاب ونَشْرِه، في المساجدِ ومراكزِ التَّحفيظ وقاعاتِ الانتظار، وعلى الأئمة والخطباء والوُعَّاظ وأساتذة المدارس، فأمَّتُنا بحاجةٍ إلى رَجعةٍ صادقةٍ إلى كتاب ربِّها، وأرجو أن يُسهمَ هذا الكتابُ في تحقيقِ ذلكَ.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آله وصَحْبه والتَّابعينَ، والحمدُ لله ربِّ العَالمين.

صلاح عبد الفتاح الخالدي

٤ صفر ١٤٤٠هـ

١٣/ ١٠/ ٢٠١٨م

مقدمة المؤلف

الحَمْدُ لله الذي أكْرَمَنا بالإسْلامِ، وشَرَحَ صُدُورَنا لِتِلاوةِ القُرْآنِ وفَهْمِهِ، وأَعَدَّ لِمَنْ صَدَقهُ في ذلك الدرجاتِ العُلا في الجِنَانِ.

أَحْمَدُه على نِعَمِه التي لا تَنْقَطِعُ، وآلائِهِ التي لا تَنْقَضِي...سُبْحانَهُ، ما يفتحُ للنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فلا مُمْسِكَ لَها.

وَأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على الرَّحْمَةِ المُهداةِ، سيدِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، البَشِيرِ النَّذيرِ، الذي اصْطَفَاهُ رَبُّنا مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ، وجَعلَهُ رسولًا للنَّاس أجْمَعِينَ، صَلواتُ رَبِّي عليه وعلى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرينَ، وعلى أصْحَابِهِ حَمَلَةِ الشَّرعِ ومَصَابيحِ الهُدى، وقُدواتِ المُؤمنينَ الصَّالحينَ، وبعدُ:

فَهذا تفسيرٌ لسُورَتَيْ الفاتحةِ والبَقرةِ، قَصَدْتُ مِنْهُ تقْريبَ عباراتِ التّفسيرِ مِنْ عُمومِ النَّاسِ، لا سِيَّما أنَّ عددًا من كُتبِ التَّفسيرِ فيها لُغةٌ عاليةٌ وصعبةٌ على أكثرِهِم، فحَرَصْتُ على انتقاءِ العباراتِ القريبةِ من الأفهامِ، والاهتمامِ بتفسيرِ المَعنى بأكثرَ من مُفردةٍ وعبارةٍ.

وَهذا التَّفسيرُ يَنْتفعُ به كذلك صِنفٌ من طلبةِ العِلمِ والدُّعاةِ إلى الله تعالى، مِمَّن تصدَّرَ لمَجالسِ الوعْظِ والإرشادِ في مُختلفِ مُؤَسّساتِهِ.

وفِكْرته كذلك تقْتصرُ على تقديمِ آياتِ الله تعالى على هَيْئةِ مواعظَ، تَنْفعُ قارِئها وحافِظَها، من خلالِ توضيحِ المقصودِ منها، وبيانِ السِّياقِ الذي جاءتْ فيه، وذِكْرِ سَببِ نُزولِها إن وُجِدَ، ثمَّ محاولةِ ربْطها بالواقعِ الذي نعيشهُ دونَ تَكلُّفٍ أو إسْهابٍ في ذلكَ.

وَهذا التَّفسيرُ أَسْمَيتهُ ووَسَمْتُهُ بعُنْوانِ: «**التَّفسيرُ الوَعْظِيُّ**»، مُسْتمِدًّا ذلكَ من عددٍ من آياتِ القرآنِ العظيمِ الَّتِي بيَّنَتْ أنَّ الله تعالى أنزلَ كتابَه، وذَكَرَ فيه ما ذَكَرَ، ليكونَ موعِظَةً وتَذْكرةً للنَّاسِ لعلَّهُم يَهْتدون، وذلك كقولِ الله تعالى: ﴿ **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة ٦٦]، وقوله: ﴿ **هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران ١٣٨]، وقوله: ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [هود ١٢٠]، وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [النور ٣٤]، وقوله: ﴿ **طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ② إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ** ﴾ [طه ١-٢]، وقوله: ﴿ **كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ⑫ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ⑬ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ⑭ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ⑮ كِرَامٍ بَرَرَةٍ** ﴾ [عبس ١١-١٦]، وغيرِ ذلكَ من الآياتِ الدَّالةِ على أنَّ القرآنَ موْعظةٌ لمَنْ كانَ له قلبٌ، أوْ ألْقى السمْعَ وهوَ شهيدٌ.

وَمنْ تأمَّلَ حالَ كثيرٍ منْ أهلِ الشَّهواتِ والذُّنوبِ، مِمَّنْ غفَلَتْ قلوبُهُم، ولم تَسْتقِمْ جوارِحُهم، وَجدَ أنَّ وصولَ مواعظِ القُرآنِ لهُم، مِفتاحٌ من مَفاتيحِ هِدايتِهم، ورُجُوعِهم إلى طريقِ الاسْتِقامةِ والهُدى، خاصّةً أنَّ كثيرًا منهُم يُحِبُّ اللهَ تعالى ويُحِبُّ سماعَ كلامِهِ، وعندَهُ شغَفٌ وشوقٌ عجيبٌ للعيشِ معَ معانِي الآياتِ وظِلالِها، بأسلوبٍ يكونُ قريبًا منهُ ومنْ فُؤادِه، وقد كانَ هذا سببًا من أسبابِ الخوضِ في هذا العِلم، فإنِّي لا أعلمُ واعظًا للنَّفْس أجْودَ وأقربَ وأحْلى منْ كلامِ اللهِ جلَّ في عُلاه.

وقد حَرَصْتُ على تَفْسيرِ القُرآنِ بالقرآنِ، وذِكْرِ الأحاديثِ الخادمةِ لفهْمِ الآيةِ، وأخْذِ المَوعظةِ منْها، والمرورِ على مُجملِ أقوالِ أهلِ التَّفسيرِ والفقهِ إنْ لَزِمَ.

وكانَ منْ منْهجِي في ذِكرِ الأحاديثِ ألّا أذْكُرَ حديثًا إلّا راجعتُ كلامَ أهلِ التَّخصُّصِ فيهِ تصحيحًا وتضْعيفًا، ثمَّ حَرَصْتُ على ذكرِ الصَّحيحِ منْها غالبًا، مشيرًا إلى الأحاديثِ الَّتي حصلَ فيها خلافٌ أو كانتْ ضعيفةً، حالَ ذِكْرِها.

وَجُلُّ هذا التَّفسيرِ قائمٌ على مراجعَ ثابتةٍ لا أخْرُجُ عنها إلَّا إذا احْتجْتُ، وهيَ كتابُ «تفسيرِ القرآنِ العظيمِ» لابنِ كثيرٍ، وتفسيرُ «التَّحريرِ والتَّنويرِ» لابنِ عاشورٍ، وتفسيرُ «أضواءِ البيانِ» للشَّنقيطيِّ، وكتابُ «أيْسَرِ التَّفاسيرِ» لأبي بكرٍ الجزائريِّ، رحِمَهُمُ اللهُ جميعًا.

وقد استفدتُ كذلكَ منَ التَّفسيرِ الوسيطِ للقُرآنِ الكريمِ، الَّذي قامَ عليْهِ مجموعةٌ منَ العُلماءِ بإشرافِ مَجْمعِ البُحوثِ الإسلاميَّةِ في الأزهرِ، وكذا من تفسيرِ «المنار» لمُحَمَّد رَشِيد رِضا رَحِمَه الله.

وَأُقدِّمُ تفسيرَ سورتَيْ الفاتحةِ والبقرةِ هنا، على أنْ أُلحِقهُما بأخَواتِهما منْ سُورِ كتابِ اللهِ العزيزِ بإذنِ اللهِ تعالى حالَ انتهائي مِنْها.

ولا يفوتُني في مُقدَّمةِ هذا التَّفسيرِ أنْ أذكُرَ أنّي وَدِدْتُ لو كانَ في الوَقْتِ مُتّسعٌ لأُعطيَ كتابَ اللهِ أكثَرَ من ذلكَ، ولكنِّي عاهدْتُ نفسِي على الرُّجوعِ إلى ما كتبْتُ إنْ أمَدَّ اللهُ في العُمرِ، وأُحقِّقَ كلَّ ما أرجوهُ فيما قدَّمْتُ، خاصَّةً معَ نضوجِ الشَّخْصيَّةِ العِلميَّةِ شيْئًا فشيئًا.

وَلا يفوتُني قبلَ أنْ أترُكَكم وآياتِ القرآنِ، أنْ أشْكرَ كُلَّ منْ أعانَ على إِخراجِ هذا الكتابِ، سائلًا اللهَ تعالى أنْ يتقبَّلَ منهُم ويُكرِمَهم بما هوَ أهْلُه، حريصًا على عدمِ ذِكرِ أسْمائِهم؛ فإنَّ ذِكْرَ اللهِ تعالى لهُمْ في المَلأِ الأعْلى يكفيهِم.

مقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله تعالى أولًا وآخرًا على ما أكرم به من نفاذ الطبعة الأولى، وأقدم لحضراتكم الطبعة الثانية مراعيًا فيها تصحيح عدد من الأخطاء المطبعية في الطبعة الأولى، والتي كان فيها عددٌ في آيات كتاب الله، فأستغفر الله تعالى من ذلك وأتوب عليه، مع أن الطبعة الأولى تمت مراجعتها أكثر من خمسِ مرات، وعلى يد غير واحد من الإخوة والأخوات المتخصصين.

كما لا يفوتني أن أشير إلى أن فكرة التفسير الوعظي ليست بِدْعا من القول، فإنَّ التفسير الوعظيَّ دأبُ غالب المفسرين في تفسيرهم، وهو جزءٌ من التفسير الموضوعي للمتخصصين في هذا الشأن.

بل إنَّ عددًا من أئمة التفسير قد خصُّوا مواعظ القرآن بتفسير مستقل، فكانت فكرة هذا الكتاب وهذا العنوان مسبوقة بجهد هؤلاء الأعلام.

ومن هذه التفاسير تفسير «تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم» لابن بَرّجَان، وهو الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي الإفريقي المتوفى سنة ٥٣٦ للهجرة.

ومن هذه التفاسير كذلك تفسير «روح البيان» للشيخ إسماعيل البروسوي، واسمه إسماعيل حقي بن الشيخ مصطفى الاستانبولي الآيدوسي الحنفي أبو الفداء، وقد اختصره الشيخ الصابوني وسمَّى المختصر: «تنوير الأذهان من تفسير روح البيان للبروسوي».

ومن التفاسير المحدثة التي اعتنت كثيرًا بالجانب الوعظي تفسير « تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للشيخ السعدي رحم الله الجميع.

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

سورةُ الفاتحةِ سورةٌ مَكّيَّةٌ، وهيَ منْ أوائلِ السُّورِ الَّتي نزلتْ على نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليستْ هيَ أوَّلَ ما نَزَلَ.

سُمِّيت بالفاتحةِ؛ لأنَّ القرآنَ افتُتِح بها عندَ كتابتِهِ، وبها تُفتتحُ القِرَاءةُ في الصَّلاةِ. ومنْ أسْمائِها الَّتي صحَّت الأدلةُ بإثباتِها: أُمُّ الْكِتَابِ، وأمُّ القرآنِ، والسَّبعُ المَثانِي؛ فقدْ أخرجَ البخاريُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمُّ القُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ».

وأخرج أحمدُ والترمذيُّ وغيرُهُما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الحَمْدُ للهِ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ المَثَانِي».

وهيَ أمُّ القرآنِ وأمُّ الكِتابِ؛ لأَنَّهُ يُبدأُ بها في أوَّلِ القرآنِ، ومن أهلِ العِلْمِ من قَالَ: بل لاشْتِمالِها على المَعانِي الَّتي جاءَ بها القُرآنُ منَ الثَّناءِ علَى اللهِ، وإخْلاصِ العبوديَّةِ لهُ والاستعانةِ بهِ، وتعظيمِه بذِكرِ صفاتِهِ، ولاشْتِمالِها على ذِكرِ اليوْمِ الآخِرِ، كما أنَّ فيهَا ذِكْرَ الصِّراطِ المُسْتقيمِ، وذِكْرَ الأتْقياءِ والأشْقياءِ.

وقدْ بَلغَ من عَظمةِ آياتِ أمِّ الكتابِ، أنْ ألَّفَ ابنُ القيِّمِ كتابًا نفيسًا مطبوعًا في ثلاثةِ مُجلداتٍ، تكلَّمَ فيهِ عنْ آيةٍ من آياتِها، تعْلمونَها منِ اسم الكتابِ الَّذي هوَ «مَدارجُ السَّالكينَ بيْنَ مَنازلِ إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعينُ».

وَسُمِّيت السَّبعَ؛ لأنَّ آياتِها سَبعٌ بإجماعِ أهلِ العِلْمِ. والمَثاني: جمعُ مَثْنًى بمعنى مُـرَدَّدٌ ومُكَرَّرٌ، فإنَّها تُكرَّرُ وتُـردَّدُ في كلِّ ركعةٍ في الـصَّلاةِ. وقيلَ: لأنَّـها يُثْنى بِها على اللهِ تعالَى. قـالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحِجْر ٨٧].

وَاشْتُهرتْ كذلكَ عندَ غيرِ واحدٍ من العلماءِ بأنَّها الكافيَةُ والشَّافيةُ والواقِية، لآثارٍ دلَّت على ذلكَ، ستَأْتي الإشارةُ إليهَا في مَعْرضِ هذا التَّفسيرِ بعونِ اللهِ تعالَى.

وَقدْ جاءَ في فضْلِها أحاديثُ وأحكامٌ متعددةٌ أخْتارُ منها:

١- أخرجَ البخاريُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ (أَيْ: قرَصَتْهُ حيَّةٌ أو عقربٌ)، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ (أَيْ: مجموعةٌ أقلُّ من عشَرَة) الَّذِينَ نَزَلُوا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ، فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لاَ يَنْفَعُهُ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَالله إِنِّي لَأَرْقِي (القائلُ والراقِي هنا هوَ راوِي الحديثِ أبو سعيدٍ رَضِيَ الله عَنهُ كما في الرِّواياتِ الأُخرى)، وَلَكِنْ وَالله لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا (تُعطونا أجرًا ومالًا)، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ (اتفقوا معهم على إعطائهم)، فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عَلَيْهِ، وَيَقْرَأُ: الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ (فُكَّ من حبلٍ مشدودٍ به)، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ (علةٌ ولا مرضٌ)، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لاَ تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ»، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا» فَضَحِكَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالحديثُ دلَّ على أنَّ سورةَ الفاتحةِ رُقيةٌ تُقرأُ على من بهِ عِلةٌ أو مَرضٌ، وأنَّها شافيةٌ بإذْنِ الله ما توافرتْ شروطُ الرُّقْيةِ بها؛ منَ اعتقادِ القارئِ والمَقروءِ عليه أنَّ الشِّفاءَ بيدِ الله وحْدهُ، وألَّا يُرجى ويُدعى فيها إلَّا الله، وأنْ تكونَ بالقرآنِ أو الذِّكرِ، وأن تكونَ بكلامٍ واضحٍ لا غُموضَ فيه، فإنْ كانتِ الرُّقيةُ من ساحرٍ أو ممَّن يُعرفُ بالشَّعوذةِ، فرُقْيتهُ مَرْدودةٌ عليه، وإنْ كانَ ظاهرُها الخيرَ.

تأمَّلوا معي قصَّةً أُخرى في ذلكَ أخْرجها أبو داودَ وغيرُه بسندٍ صحيحٍ عَنْ خَارِجَةَ بْنِ الصَّلْتِ عَنْ عَمِّهِ، أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ فَأَتَوْهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ جِئْتَ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ بِخَيْرٍ، فَارْقِ لَنَا هَذَا الرَّجُلَ فَأَتَوْهُ بِرَجُلٍ مَعْتُوهٍ فِي القُيُودِ، فَرَقَاهُ بِأُمِّ القُرْآنِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً، وَكُلَّما ختمَها جمعَ بُزَاقَهُ، ثُمَّ تَفَلَ فَكَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ فَأَعْطَوْهُ شَيْئًا، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَهُ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلْ

فَلَعَمْرِي لَمَنْ أَكَلَ بِرُقْيَةِ بَاطِلٍ، لَقَدْ أَكَلْتَ بِرُقْيَةِ حَقٍّ» (يعني: هناكَ ناسٌ يأخذونَ أجرًا على رقيةٍ محرَّمةٍ باطلةٍ يستعينونَ فيها بالجنِّ وغيرِ ذلكَ بخلافِ ما فعلتَ أنت). وفي روايةٍ: «فَمَرَّ عَلَى قَوْمٍ عِنْدَهُمْ رَجُلٌ مَجْنُونٌ مُوثَقٌ بِالْحَدِيدِ». وفي رواية: «فَأَعْطَوْنِي مِائَةَ شَاةٍ». والحديثُ دلَّ على جوازِ أخْذِ الأجرِ على الرُّقيةِ إذا كانت موافقةً للشرعِ.

٢- أخرجَ البُخاريُّ عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال ٢٤]. ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ»، قَالَ: «﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة ٢] هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ».

٣- أَخرجَ مُسلمٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، قَالَ: «بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ (يعني: صوْتًا كصَوْتِ البابِ إذا فُتِحَ)، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ».

٤- أخرجَ التِّرمذيُّ وأحمدُ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقولُ اللهُ تَعَالَى: مَا فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ مِثْلُ أُمِّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سأل».

وَمقصودُ الحديثِ هُنا كما قالَ أهلُ العلمِ، أنَّ اللهَ تعالى أعْطَى هذه الأمَّة ثوابًا على قِراءةِ كِتابِها أكثرَ ممَّا أعْطى غيرَها منَ الأممِ على قراءةِ كُتُبِها، وهذا فَضْلٌ من اللهِ سُبحانَهُ على هذه الأمَّة الطَّيبةِ المُبارَكةِ.

وقِسمةُ الفاتحةِ بين الرَّبِّ وبين العبدِ مَعْناها كما قالَ العُلَماءُ: «المُرادُ قِسمَتُها مِن جِهةِ المَعْنى، لِأَنَّ نِصفَها الْأَوَّلَ تَحْمِيدٌ للهِ تَعَالَى وَتَمْجِيدٌ لهُ وَثَناءٌ عَلَيْهِ وَتَفْوِيضٌ إِلَيْهِ، وَالنِّصْفَ الثَّانِي سُؤَالٌ وَطَلَبٌ وَتَضَرُّعٌ وَافْتِقَارٌ».

دلَّ عَلَى ذلك ما أخْرَجه مُسْلمٌ في صَحِيحِهِ عَنْ أَبي هُريرة رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ الله تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاة بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ الله تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ الله تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قَالَ: هَذا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

تَأمَّلُوا لو اسْتحضرَ العبْدُ هَذِهِ المُناجاة في صَلاتِهِ، كيفَ يَكُونُ حُالُهَا، وكيفَ يكونُ إقبالُه فيهَا على الله.

٥- أخرجَ النَّسائيُّ في الكُبرى والحاكمُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَسِيرٍ، فنزَلَ، فَمَشَى رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى جَانِبِهِ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ الْقُرْآنِ»؟ قَالَ: فتَلَا عَلَيْهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٦- ومِمَّا يَدُلُّ على فَضْلِهَا ومَكَانتِها، عدمُ صِحَّةِ الصَّلاةِ إلا بِقَراءَتِها في جَمِيعِ الرَّكَعَاتِ عِندَ جُمْهُورِ الفُقَهاءِ، وذلك للإمام ولِمَنْ صَلَّى مُنفردًا؛ للحَدِيثِ المُتَّفَقِ عليهِ عَنْ عُبادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ».

وعِنْدَ الحَنَفيَّةِ: تَجِب قِراءتُها فِي رَكَعَات النَّوافِلِ وفِي الأُوْلَيَيْنِ مِنَ الفَرِيضَةِ الثُّلاثيَّةِ والرُّباعيَّةِ.

أمَّا المَأمومُ في صَلاةِ الجَماعَةِ، فقدْ ذَهبَ أئمةُ الشَّافعيَّةِ إلى أنَّ قِراءتَها وَاجِبَةٌ عليهِ في الصَّلاةِ السِّرِّيَّةِ والجَهْرِيَّةِ، اسْتِدْلالًا بالحَديثِ الَّذي أخرجهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وحسّنَ إسنادَهِ بعضُ أهلِ العِلْمِ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: كُنَّا خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَقَرَأَ، فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: «لَعَلَّكُمْ تقرؤون خَلْفَ إِمَامِكُمْ»؟ قُلْنا: نَعَم يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «لَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ؛ فَإِنَّهُ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا». وَفِي رِوَايَةٍ لأبي دَاوُد قَالَ: «وَأَنا أَقُول مَالِي يُنَازعنِي الْقُرْآن؟ فَلَا تقرؤوا بِشَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ إِذا جَهَرْتُ إِلَّا بِأُمِّ الْقُرْآن».

وَعندَ الحَنفيَّةِ: لا يَقرأُ المَأْمومُ خَلْفَ الإمَامِ جَهْرِيَّةً كانت الصَّلاةُ أَوْ سِرِّيَّةً، ويُكرَهُ ذَلكَ تَحْرِيمًا.

أما عِندَ المَالِكيَّةِ، فقراءتُها مَنْدوبةٌ في الصَّلاةِ السِّرِّيَّةِ، ومَكروهةٌ في الجَهريَّةِ.

وذهبَ الحَنابلةُ إلى أنَّ قراءتَها خلفَ الإمامِ ليستْ واجِبةً، وتُجزِئ عنها قراءةُ الإمامِ، ولكنَّها تُستحبُّ في الصَّلاةِ السِّرِّيَّةِ وفي سَكتاتِ الإمَامِ.

والَّذينَ ذهبُوا إلى سكوتِ المأمومِ حالَ قراءةِ الإمَامِ، استدلُّوا بقولِ الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف ٢٠٤]، ولِقَولِ النَّبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّما جُعِلَ الإمَامُ لِيُؤتمَّ بِهِ فإذا كبَّرَ فكبِّرُوا وإذا قرأَ فأنْصِتُوا».

ولِلْعُلَماءِ أقْوالٌ أُخَرُ واسْتِطرادٌ غَنِيٌّ فِي فِقْهِ المَسْألَةِ، يَجِدُهُ البَاحِثُ فِي كُتُبِ الفِقْهِ، وفي كُتُبِ التَّفَاسِيرِ التِي اهتمَّت بِبيانِ الأحْكامِ.

﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ الاسْتِعاذَةُ لَيستْ آيَةٌ مِنْ آياتِ سُورَةِ الفَاتِحَةِ بِإجْمَاعِ العُلَماءِ، ولكنْ يُستحبُّ قَوْلُها فِي مواطِنَ عِدَّةٍ جاءَت بِها الأدِلَّةُ؛ كقِراءةِ القُرآنِ، ودُخولِ المَسْجدِ والخروجِ مِنه، ودُخولِ الخَلاءِ، وعندَ نزْغِ الشَّيْطانِ، وغيرِ ذلكَ.

وَقِراءَتُها فِي الصَّلاةِ مُسْتَحَبَّةٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ.

وَعِنْدَ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: يُسْتَحبُّ الإسْرارُ بِهَا، وَيُقْتَصرُ فِي قِراءَتِها عَلى الرَّكْعَةِ الأُولَى فَقَطْ.

والاسْتِعَاذَةُ اسْتِعَانَةٌ بِالله والْتِجاءٌ إليهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، واعْتِرَافٌ بِقُدْرَةِ الرَّبِّ وَعَظَمَتِهِ، وكَذا اعترافٌ بِضَعْفِ العَبْدِ واحْتِياجِهِ إلَى عَوْنِ الله وَحِفْظِهِ.

والاسْتعاذةُ من الشَّيْطانِ خُصوصًا، إنَّما تكونُ لِنَحفَظَ أنْفُسَنا مِنْهُ، وَمِنْ هَمَزاتِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ، فَالْعَدُوّ الشَّيْطَانِيّ لَا يَقْبَلُ إِحْسَاناً وَلَا تَلَطُّفًا، وَلَا يَبْتَغِي غَيْرَ هَلَاكِ ابْنِ آدَمَ وإِضْلالِهِ، لِشِدَّةِ الْعَداوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أبينا آدَمَ مِنْ قَبْلُ. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأَعْرَافِ ٢٧]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فَاطِرٍ ٦].

والشَّيْطَانُ مَأْخُوذٌ مِنَ الفِعْل «شَطَنَ» أَيْ بَعُدَ، فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ، وَبَعِيدٌ بِفِسْقِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ، وهو مُبْعَدٌ مِنْ رَحْمَةِ الله.

وقالَ بعضُهم: إنَّه مِنْ شيطَ، أي: التهَبَ واحترَقَ.

والعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ من تَمَرَّدَ مِنْ جِنِّيٍّ وإِنسِيٍّ وحَيَوانٍ شَيْطَانًا. قَالَ الله تعالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأَنْعَامِ ١١٢].

والرَّجِيمُ أَيِ: المَرْجُومُ بِشُهُبِ السَّماءِ وَبِاللَّعْنِ، والمَطْرُودُ مِنْ رَحْمَةِ الله.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾

آيةٌ افْتَتَحَ بِهَا الصَّحابةُ القُرْآنَ عِنْدَ كِتابَتِهِ، واتَّفَقَ العُلَماءُ عَلَى أَنَّها بعْضُ آيَةٍ مِنْ سورةِ النَّمْلِ التي قالَ اللهُ تَعالى فيهَا: «إِنَّهُ مِن سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». وذِكْرُها في كِتابِ سُلَيْمانَ إِلَى مَلِكَةِ سَبأٍ علامةٌ عَلَى أنَّها مِنْ سُنَنِ الأَنْبياءِ، أَكْرَمَ اللهُ هَذِهِ الأمَّةَ بإحْيائِها في شريعَتها.

وأكْثَرُ أَهْلِ العِلْمِ عَلَى أنَّها آيةٌ مِنَ القُرْآنِ، كُتِبَتْ لِلْفَصْلِ بَيْنَ السَّوَرِ إلا سُورَةَ التَّوْبَةِ، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا أخْرَجَهُ أبو دَاوُدَ وَغيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ، حتى تَنَزَّلَ عليهِ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وقد اخْتُلِفَ في كَونِها آيَةً مِنْ سُورَةِ الفَاتِحَةِ أو لَيسَتْ آيَةً، فَهِيَ آية عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ لَا تَصِحُّ الصَّلاةِ إلا بِقِراءَتِها.

وَعِنْدَ جُمْهُورِ الفُقَهاءِ: البَسْمَلَةُ لَيْسَتْ آيَةً مِنْ سُورَةِ الفَاتِحَة، وَإِنْ كَانَتْ تُقْرَأُ إِيذانًا بِبِدايَةِ السُّورَةِ.

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّة: يُجْهَرُ بِهَا فِي الصَّلاة، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلف.

وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ لا يُجْهَرُ بِالْبَسْمَلَةِ فِي الصَّلاةِ، بَلْ تُقْرَأُ سِرًّا، وَهَذا هُوَ الثَّابِتُ عَنِ الْخُلَفاءِ الْأَرْبَعَةِ، وَطَوائِفَ مِنْ السَّلفِ وَالْخَلَفِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ.

وَمَعْناها: بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ وأَتَبَرَّكُ وَأَسْتَعِينُ وأَبْدَأُ، وَلَفْظُ الجَلالَةِ «الله»: عَلَمٌ عَلَى الرَّبِّ، وهو الإِلَهُ المَعْبُودُ بِحَقٍّ، الذي يَخْلُقُ عِبادَهُ ويَرْزُقُهُمْ وَيُدَبِّرُ شُؤُونَهُمْ، وَلَهُ مَا في السَّمَواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، وَهُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبارَكَ وَتَعالَى.

وَعِبارَةُ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ وَحْدَهَا، شُرِعَ قَوْلُهَا فِي مَواطِنَ مُتَعَدِّدَة في الشَّرْعِ، كَما هو الحالُ عِنْدَ الأكْلِ والشُّرْبِ، وَلِبسِ الثَّوْبِ، وَعِنْدَ دُخُولِ المَسْجِدِ وَالخُرُوجِ مِنْهُ، وَعِنْدَ الرُّكُوبِ، وعِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ ذي بَالٍ، وَكَذلِكَ عِنْدَ الذَّبحِ وَالنَّحْرِ.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسْمانِ مُشْتَقَّانِ مِنَ الرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ المُبالَغَةِ، وَرَحْمنُ أَشَدُّ مُبالَغَةً مِنْ رَحِيمٍ عند أَكْثَرِ أهلِ العلمِ، وتظهرُ هذه المبالغةُ بالفروقِ التي ذكرها أهلُ التَّفسيرِ بين لفظتيْ الرَّحمنِ والرَّحيم ، ومنها:

١- الرَّحْمَنُ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالرَّحِيمُ رَحِيمُ الْآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ فِي الدُّنْيا أَنَّه يَرْزُقُ وَيُكْرِمُ الفَجَرَةَ والكَفَرَةَ وَالعُصَاةَ، وَيُنْعِمُ عليهم بأَلْوَانٍ مِنَ النِّعَمِ، كَمَا يُعْطِي أَهَلَ الطَّاعَةِ والإِيمانِ، وَلَكِنَّ رَحْمَتَهُ فِي الآخِرَةِ لا تَكُونُ إِلَّا لأَهْلِ الإِيمانِ، كَمَا فِي قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأَحْزَابِ٤٣].

وهذَا على الغالبِ، فإنَّ لفظةَ «الرَّحيم» قد تأتِي في سياق الامْتِنانِ بنعمِ الله وفضْلِه على النَّاسِ جميعًا في الدُّنْيا، كما في قولِ الله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [الإسْراء٦٦].

٢- الرَّحْمَنُ اسمٌ يَخْتَصُّ بِهِ رَبُّنَا، وَلا يَجُوزُ إِطْلاقَهُ عَلَى أَحَدٍ، أَمَّا الرَّحِيمُ فَإِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ غَيْرَهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التَّوْبَةِ١٢٨].

وهذا الاسْمُ من الأَسْماءِ التي أَنْكَرَها كفارُ قريشٍ عِنادًا وتَعَنُّتًا، حتَّى إِنَّهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ لَمَّا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: «اكْتُبْ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»، قَالُوا: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ» رَواهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩﴾ [الفرقان ٦٠].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾

ابْتِداءُ سُورةِ الفَاتِحَةِ بِحَمْدِ الله والتَّذْكيرِ برُبُوبيَّتِه للعالمينَ، فيه تشويقٌ واسْتِئْناسٌ لما سيُتلى في هذه السُّورَة وَغَيْرِها، وفيه مُناجاةٌ لله تعالى فيها التَّخَلِّي عَنْ الشِّرْكِ والعِنادِ، وفيها تَسْليمُ الأمْرِ لله بِحَمْدِهِ والثَّناءِ عَلَيْهِ.

وهَذا الحَمْدُ ثناءٌ جميلٌ عَلَى الله تعالى وَشُكْرٌ خَالِصٌ عَلَى نِعَمِهِ التي لَا يُحْصِيهَا الْعَدَدُ؛ شَرَحَ صُدُورَنَا للإسْلامِ، وعَافانا في أبْدانِنا وأهْلِينا، وبَسَطَ لَنا مِنْ طِيبِ العيشِ والرِّزْقِ ما بَسَطَ، وأعَدَّ لِمَنِ اتَّقَى جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ، فَلِرَبِّنَا الحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النمل ١٥].

قَالَ ابنُ جَرِير الطبري: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناءٌ أَثْنَى بِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَفِي ضِمْنِهِ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ فَكَأَنَّهُ قَالَ: قُولُوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وجُمهورُ أهلِ العلمِ على أنَّ ثَمَّةَ فَرْقًا بَيْن لفظَتَي «الحَمْدِ» و«الشُّكْرِ» مِن وجْهينِ هُما:

١ - الحَمْدُ: ثناءٌ على الله بالْقَوْلِ على نِعَمِهِ وَعَلَى صِفَاتِه؛ فَيُحْمَدُ سُبْحَانَهُ على الرِّزْقِ والعافِيَةِ وَغيْرِهما من النِّعَمِ، ويُحْمَدُ كذا على أنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحيمُ المَلِكُ القُدُّوسُ، وهكذا.

أما الشُّكْرُ فلَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى نِعَمِهِ لا على صِفَاتِه.

٢ - والحَمْدُ يَكُونُ فَقَطْ بِاللِّسَانِ، أَمَّا الشُّكْرُ فيَكُونُ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْأَرْكَانِ.

قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ الله عَنهُ: «الحَمْدُ لله» كَلِمَةٌ أَحَبَّهَا الله لِنَفْسِهِ، وَرَضِيَهَا لِنَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تُقَالَ».

وفي الحَدِيث: إِذَا قَالَ العَبْدُ فِي صَلَاتِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ الله: «حَمِدَنِي عَبْدِي»، وَفِي الحَدِيثِ كذلكَ عِنْدَ التِّرْمِذِي وَالنَّسائِي وَابْن مَاجه، بِسَنَدٍ حَسَن، عَنْ جَابِر بْن عَبْدِ الله رَضِيَ الله عَنْهُما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ لله».

وَأخرجَ ابْنُ مَاجه بِسَنَدٍ حَسَن، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَنْعَمَ الله عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً، فَقَالَ: الحَمْدُ لله، إِلَّا كَانَ الذي أعطَاهُ أَفْضَلَ مِمَّا أَخذ». أَيْ: لَكانت نعمةُ توفيقِه إلى أنْ يَحْمدَ الله، أَكْبَرَ مِن نِعَمِ الدُّنْيا؛ لِأَنَّ ثَوَابَ الحَمْدِ لَا يَفْنَى، بِخلافِ نَعِيمِ الدُّنْيا الذي لَا يَبْقَى. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكَهْف ٤٦].

وأخرجَ أَحْمَدُ وَغيْرُهُ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَن شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ وَالصُّنابحيِّ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، أَنَّهُمَا دَخَلَا عَلَى رَجُلٍ مَرِيضٍ يَعُودَانِهِ فَقَالَا لَهُ: كَيفَ أَصْبَحْتَ، قَالَ أَصْبَحْتُ بِنِعْمَةٍ. فَقَالَ لَهُ شَدَّادٌ: أَبْشِرْ بِكَفَّارَاتِ السَّيِّئَاتِ وَحَطِّ الْخَطَايَا؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِذَا أَنَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا. وَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي وَابْتَلَيْتُهُ فَأَجْرُوا لَهُ مَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ».

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الرَّبُّ: هُوَ المَالِكُ المُتَصرِّفُ الخَالِقُ، الَّذي دَبَّرَ أَمْرَ الخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ وَعَظَمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

وَالْعَالَمِينَ: جَمْعُ عَالَمٍ، وَهُوَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشُّعراء ٢٣-٢٤]، وَقَالَ اللهُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القَصص ٧٠].

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾

تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنِ الْبَسْمَلَةِ.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤﴾

مَالِكِ أَوْ مَلِك كَمَا فِي قِرَاءَةٍ صَحِيحَةٍ: لَفْظَةٌ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْمُلْك. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس١-٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غَافِر ١٦].

وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا مِنَ التَّعْظِيمِ مَا فِيهَا، وَلِذَلِكَ يَقُولُ اللهُ لِقَارِئِهَا: «مَجَّدَنِي عَبْدِي»، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيح.

وَيَوْمُ الدِّينِ هُوَ يَوْمُ الْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ لِلْخَلَائِقِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَتْ الْآيَةُ الَّتِي ذَكَرَت مَقُولَةَ مُنْكِرِي الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصَّافات ٥٣]، أَيْ: مَجْزِيُّونَ مُحَاسَبُونَ، فَيُحَاسِبُهُم رَبُّنَا بِأَعْمَالِهِمْ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنَّ شَرًّا فَشَرٌّ، إِلَّا مَنْ عَفَا عَنْهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النُّور ٢٥].

وَرَبُّنَا مَلِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ جَاءَ تَخْصِيصُ مُلْكِهِ هُنَا بِيَوْمِ الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ فِي أَرْضِ الْحَشْرِ وَالْحِسَابِ شَيْئًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَ اللهِ حُكْمًا كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النَّبأ ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طَه ١٠٨]، وَقَالَ: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هُود ١٠٥].

وَمَجِيءُ هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فِيهِ سَدٌّ لِتَجَرُّؤِ الْعِبَادِ عَلَى الذُّنُوبِ، فَإِنَّ الِاعْتِمَادَ عَلَى الرَّحْمَةِ وَحْدَهَا دُونَ الْخَوْفِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ، يُهَوِّنُ أَمْرَ الْمَعْصِيَةِ عِنْدَ فَاعِلِهَا، فَكَأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ فِي الْعُبُودِيَّةِ هُوَ مِفْتَاحُ الْإِحْسَانِ فِيهَا وَقَبُولِهَا.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

هَذِهِ الآيَةُ إِذَا قَرَأَهَا المُصَلِّي، قَالَ اللهُ تَعَالَى كَمَا فِي الحَدِيثِ: «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

والآيَةُ هنا تُذكرُ حَقَّ اللهِ عَلَى عِبادِهِ؛ أَنْ يُفْرِدُوهُ بِالعِبَادَةِ ولا يُشْرِكوا به شيْئًا.

ولفظة ﴿نَعْبُدُ﴾، أَيْ: نُطِيعُ أَوَامِرَكَ وَنَجْتَنِبُ نَوَاهِيَكَ، فِي أَقْوالِنا وأفعالِنَا، حُبًّا وَخَوْفًا وَطَمَعًا، مُخْلِصِينَ لَكَ الْدِّينَ، لا لغَيْرِكَ.

ولفظةُ ﴿نَسْتَعِينُ﴾، أَيْ: نَطْلُبُ إِعَانَتَكَ فِي تَحْقِيقِ العُبُودِيَّةِ الحَقَّةِ، وَنَتَبَرَّأُ مِنْ حَوْلِنَا وَقُوَّتِنَا، وَنَطْلُبُ العَوْنَ مِنْكَ يَا رَبَّنَا عَلَى عَظَائِمِ الأُمُورِ وَكُلِّ مَا لَا يَقْدِرُ البَشَرُ عَلَيْهِ. قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَلِّمًا ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».

وَهَذَا فِيهِ تَعْرِيضٌ بِكُلِّ مَنْ زَعَمَ عُبُودِيَّتَهُ للهِ، ثُمَّ اسْتَعَانَ بِغَيْرِهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا هُوَ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أَهْلُ الشِّرْكِ مِنَ الاِسْتِعَانَةِ بِآلِهَتِهِمْ مِنَ الأَصْنَامِ، وَكَمَا يَفْعَلُ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُعَظِّمُونَ غَيْرَ اللهِ وَيَسْتَعِينُونَ بِهِمْ، أَكْثَرَ مِنْ تَعْظِيمِهِمُ لِلرَّبِ جَلَّ وَعَلَا وَالاِسْتِعَانَةِ بِهِ.

واعلموا يَرْحَمُكُمُ اللهُ أَنَّ الاسْتِعانةَ بالمَخْلُوقِ فيما يَقْدِرُ عليه مِمَّا لا حَرَجَ فيه، مع ضَرُورةِ تَعلُّقِ القَلْبِ وَتوكُّلِهِ على اللهِ؛ فقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة ٢].

ولَفْظَةُ ﴿إِيَّاكَ﴾ مفعولٌ به، والأصلُ فيها أنْ تتأخرَ عن الفِعْلِ، لكنَّها قُدِّمَتْ، وهذا أسْلوبٌ بلاغِيٌّ نَفِيسٌ يُفيدُ الاِهْتِمَامَ وَالحَصْرَ، أَيْ: لا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَتوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ، ولا نَستَعينُ إلا بك، وَهذا هُوَ كَمالُ الطَّاعَةِ. قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢٢]، وفي الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل ٣٦]، وكذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢٥].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فَالْأَوَّلُ تَبَرُّؤٌ مِنَ الشِّرْكِ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤٌ مِنَ الحَوْلِ والقوةِ، والتفويضُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ تَأَمَّلوا: الآياتُ فِي أَوَّلِ سُورةِ الفَاتِحةِ عَظَّمتْ رَبَّنا بِصِيغَةِ الغَيْبَةِ، ثُمَّ تَحوَّلَ الكَلامُ فِي هَذِهِ الآيَةِ إلى صِيغَةِ المُخاطَبِ، ومِمّا قاله أهلُ العلمِ في مناسبةِ ذلك، أَنَّ القارِئَ لَمَّا أَثْنَى عَلَى اللهِ وعظَّمهُ؛ فَكَأَنَّهُ اقْتَرَبَ وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى، فناسب أَنْ ينتقلَ إلى صيغةِ الَّذي يَشعُرُ بالقربِ.

وتأمَّلوا كذلك كيف جاءتْ لَفْظَتي: ﴿نَعۡبُدُ﴾ ﴿وَنَسۡتَعِينُ﴾ بِصِيغَة الجَمْع، معْ أنَّ القَارِئ وَاحِدٌ، والمَعْنَى فِي ذَلِكَ كَمَا بيَّنَهُ أهلُ العلم أنَّ حرفَ النُّونِ هنا يُفيد التَّعْظِيم؛ أَيْ: تَعْظِيمَ حَالِ المُصَلِّي الوَاقِفِ بين يَدَيْ رَبِّهِ، فَإِنَّه بِوقُوفِه وَقِراءتِه شَرِيفٌ، وَجَاهُهُ وَمَقَامُهُ عَرِيضٌ وكَبِيرٌ، أَوْ أن تكونَ صِيغَة الجَمْعِ جَاءَتْ إِخْبارًا عَنِ المُصَلِّينَ العَابِدينَ عُمُومًا، والقَارِئُ أَحدُهُمْ.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾

أَرْشِدْنَا وَوَفِّقْنَا إلى صِرَاطِكَ المُسْتَقِيم، إلى الطَّرِيقِ الْوَاضِح الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ ولا تَعارِيجَ، إلى كِتَابِ الله وسُنَّة نَبِيِّه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى هَدْيِ الصَّحابَة وسَلَفِ الأُمَّة الذين شَهِدَتْ لَهُمُ الآيَاتُ والأحاديثُ بالأَفْضَلِيَّة.

والهِدَايَةُ نَوعانِ؛ هِدايَةُ إِرْشَادٍ وَبَيَانٍ لِطَرِيقِ الخَيْرِ والشَّرِّ، وهِيَ التي هَدَى الله إليها النَّاسَ جَمِيعًا، فَأَرْسَلَ إليهم الرُّسُلَ وأَنْزَلَ عليهمُ الكتبَ.

وهِدَايَةُ تَوفِيقٍ وإِعَانَةٍ، وهِيَ التي لا تَكُون إلَّا لأَهلِ الإِيمَانِ والتَّقْوى.

فالمُصَلِّي والقَارِئُ يسْأَلُ الله تَعالى أنْ يُرشِدَهُ إلى طَرِيقِ الحَقِّ ويُبَصِّرَهُ فيه، وأنْ يُوفِّقَه ويُثَبِّتَهُ ويُعِينَهُ في طَرِيقِ الهِدايةِ، فإنَّ شياطينَ الإِنْسِ والجِنِّ قاعدونَ على الصِّراطِ المُستقيم لِيَصُدُّوا عبادَ الله عنْهُ، كما في قولِ الله تعالى فِي حِكَايَةِ غِوَايَةِ الشَّيْطَانِ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الأعراف ١٦].

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾

هذا هو الصِّراطُ الذي ندعو رَبَّنا أن نكونَ مِنْ أَهْلِهِ. و﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ هُمُ المَذْكُورُونَ في سُورَةِ النِّسَاءِ في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النِّساء ٦٩]، فَهؤلاءِ هُمْ خِيارُ الأُمَمِ السَّابِقَة وخِيارُ أُمَّتِنا، وهمُ الذين أَنْعَمَ الله عليهم بالهِدَايَة والطَّاعَة والعِبادَةِ والاسْتِقامَةِ، وامْتِثالِ أَوامِرِ الله واجْتِنابِ نواهيه، يا ربِّ، اهْدِنَا طَرِيقَتَهُم في العُبُودِيَّة وأَلْحِقْنا بِهِم.

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ لا نُريدُ صِراطَ المَغْضُوبِ عَليهم، وهمُ الذين عَلِمُوا الحَقَّ وعَدَلُوا عنهُ ولمْ يَتَّبِعُوه، بل تَمرَّدُوا وبَدَّلوا الشَّريعَةَ، فاستَحقُّوا غضَبَ الله، كاليهودِ الذين قالَ الله تعالى فِيهِمْ: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المَائِدَة ٦٠].

ولا نُريدُ صِراطَ الضَّالِينَ، وهم كلُّ منْ حرَّفَ ديانَتَهُ وضلَّ عن طَريقِ الهُدى بسببِ جَهْلِه وفَقْدِهِ للعِلْمِ واتِّباعِه للهوى، كالنَّصارى الذين قالَ الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المَائِدَة ٧٧].

والمَقْصودُ أنَّ طَريقَ أهلِ الإيمانِ والهداية يَجْمعُ بينَ العِلْمِ والعَمَلِ؛ العلمِ بالحقِّ والْتِزامِه تَطْبيقًا، ولذلك جُعِلَتْ مُخالَفَةُ اليَهودِ والنَّصارى فيما يَعْتقِدون، وفيما تَميَّزوا به من عباداتٍ وعاداتٍ مَقْصدًا من مقاصِدِ أحْكامِ الشَّريعة؛ حتى لا نَقَعَ فيما وقَعُوا به من تَحْريفِ الدِّين والمَيلِ عنْهُ.

أخيرًا: كلمة «آمين» ليستْ منَ الفاتحة، ولكنْ، يُسْتَحَبُّ لِمَنْ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهَا: آمِينَ، سواءً كانَ إمامًا أو مأمومًا أو مُنْفرِدًا. أخرجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فَقَالَ: «آمِينَ»، مَدَّ بِهَا صَوْتَهُ. وَلِأَبِي دَاوُدَ: رَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ.

وأخرج البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». وَلِمُسْلِمٍ: أَنَّ رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ: آمِينَ، وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وأخرجَ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي مُوسَى مَرْفُوعًا: «إِذَا قَالَ، يَعْنِي الْإِمَامَ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فَقُولُوا: آمِينَ؛ يُجِبْكُمُ الله».

وآمين معناها: اللهمَّ اسْتَجِبْ، ولا تخيِّبْ رَجاءَنا.

سورة البقرة

سُورَةُ الْبَقَرَةِ مَدنيَّةٌ، وَسُمِّيَتْ بِذلك لأَنَّ فِيهَا قِصَّةَ الْبَقَرَةِ الَّتِي أَمَرَ الله بَنِي إِسْرَائِيلَ بِذَبْحِهَا لِتَكُونَ آيَةً، وسيأتي بيانُ ذلك في موضِعِه بعونِ الله.

وقدْ جاءَ في فَضْلها أحاديثُ متعددةٌ، أخْتارُ منها:

١- أخرجَ البُخاريُّ ومسلمٌ، واللفظُ لِلْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ أُسَيْدَ بنَ حُضَيْرٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ (يعني تحرَّكتْ واضطَّربتْ) فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتْ، فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، وَلَمَّا أَخَّرَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ (شَيْءٌ مِثْلَ السَّحَابِ عَلَى رَأْسِهِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ (أَجْسَامٌ لَطِيفَةٌ نُورَانِيَّةٌ)، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ» قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ الله أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ وَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ، فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لَا أَرَاهَا، قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ».

وفي روايةٍ لابنِ حبَّانَ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ نَزَلَتْ لِقِرَاءَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ مَضَيْتَ لَرَأَيْتَ الْعَجَائِبَ».

٢- أخرجَ مسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ».

٣- أخرجَ التِّرْمذيُّ والحَاكِمُ في الْمُستدركِ، بسندٍ حسَّنَهُ بعضُ أهلِ العِلْمِ وضَعَّفَهُ غيرُهم، عَنْ عَبْدِ الله ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سمِعَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ تُقْرَأُ، خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ، هِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ». وَسَنَامُ كُلِّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ، كما هو حالُ سنامِ الجَمَلِ، وَهَذَا وَصْفُ تَشْرِيفٍ، وقدْ وُصِفَتْ بذلك إمَّا لِطُولِها واحْتِوائِهَا عَلَى أَحكامٍ كَثِيرَةٍ، أَوْ لِمَا فِيهَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ الذي تَحْصلُ به الرِّفْعَةُ الْكَبِيرَةُ والعُلُوُّ في الدنيا والآخرة.

٤- وفيها آيةُ الكرسيِّ التي جاءَ في فَضْلِها حديثٌ أخرجه مسلمٌ عنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟ «قَالَ: قُلْتُ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة ٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَالله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ».

٥- وفي فضلِ آيةِ الكُرْسيِّ كذلك، أخرجَ البُخاريُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ (يعني: يَسْرق) فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَالله لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»؟، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لاَ أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ»، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ الله، وَهَذَا آخِرُ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ الله بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ الله حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي الله بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ ، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ الله حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ -وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ- فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لاَ، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ».

٦- وَفي فَضلِ آخرِ آيتين فيها، أخرجَ الإمامُ أحمدُ عن حُذيفة رَضِيَ الله عَنهُ حديثًا قال فيه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيتُ هذِه الآياتِ مِن آخرِ البَقرةِ من كَنْزٍ تَحتَ العَرْشِ، لم يُعطَها نبيٌّ قبلي».

٧- وَعِندَ الترمذيِّ وأحمدَ وغيرِهما بسندٍ صَحِيحٍ عنِ النُّعمان بن بَشير رَضِيَ الله عَنهُما قَالَ: قالَ رسولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الله تَعَالَى كَتَبَ كِتابًا قبلَ أن يَخْلُقَ السَّمواتِ والأرْضَ بألفيْ عام، وهُوَ عند العَرْشِ، وإنَّهُ أنْزلَ مِنهُ آيتينِ خَتَمَ بهما سورةَ البَقرةِ، ولا يُقرآنِ في دارٍ ثلاثَ ليالٍ فيَقْرَبُها الشَّيْطانُ».

٨- وعِندَ البُخاري عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ».

٩- وفي فَضْلِها وفَضْلِ سُورة آلِ عِمْرانَ أخرجَ الإمامُ مسلمٌ في صحيحهِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَؤوا الْقُرْآنَ (وفي رِوايَة: تَعلَّمُوا الْقُرْآنَ) فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحابِهِ، اقْرَؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ (وفي رِوايَة: تَعَلَّمُوا الزَّهْرَاوَيْنِ)؛ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ (سحابتان)، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ (أَيْ جماعتان)، صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ (وفي رواية: تَعَلَّمُوا الْبَقَرَةَ، فَإِنَّ تَعْلِيمَهَا بَرَكَةٌ) وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ» (أَيْ: أصحابُ البطالةِ والكسالةِ لطولها ولتعوُدِهم الكَسَل).

١٠- وأخرجَ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رضيَ الله عنها، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «من أَخَذَ السَّبْعَ الأُوَلَ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَهُوَ حَبْرٌ». أَيْ: أخذَها حفظًا وفهمًا.

﴿الٓمٓ ١﴾

الحُرُوفُ المُقَطَّعَةُ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ مِمَّا اسْتَأْثَرَ الله بِعِلْمِهِ، وهذا مرويٌّ عنِ الخلفاءِ الأربعةِ وغيرِهم.

والعُلماءُ على أَنَّ هَذِهِ الحُرُوفَ لَهَا مَعْنى، ولكنّا وَقَفْنا حَيْثُ وَقَفْنا، وَقُلْنا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آلِ عِمْرَانَ ٧]؛ لأَنَّه لَمْ يَصِحَّ فيها عن النبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيءٌ.

قال بعضُ العلماءِ: إِنَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ الحُرُوفُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ بيانًا لِإِعْجازِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ الخَلْقَ عاجِزُونَ عَنْ مُعارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ تَرَكَّبَ مِنْ هَذِهِ الحُرُوفِ المُقَطَّعَةِ الَّتِي يَتَخاطَبُونَ بِهَا، حَتَّى أهلُ الفَصاحة والبَلاغة مِمَّن أُنْزلَ عليهِ هَذا القرآنُ عَجَزُوا.

فهِيَ حروفٌ تشيرُ إلى عظمةِ كلامِ اللهِ وإعجازِهِ، وأنَّه ليس من كلامِ البَشَرِ، وَلِهَذَا نجدُ السُّورَ التي افْتُتِحَتْ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ قَدْ جَاءَ فيها الِانْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَبَيَانُ إِعْجَازِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالِاسْتِقْرَاءِ، وَهُوَ الْوَاقِعُ فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً، ومن أمثلة ذلك: قولُ الله تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرة١-٢]، وقولُ الله: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آلِ عِمْرَان١-٣]، وقولُ الله: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأَعْرَاف١-٢]، وقولُ الله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إِبْرَاهِيم١]، وقولُ الله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فُصِّلَت١-٢]، وقولُ الله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الشُّورَى١-٣]، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ مِن حِكمتِها بيانُ وقوعِ التحدي بها.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾

الْكِتَابُ هو الْقُرْآنُ، وَالرَّيْبُ: الشَّكُّ والتُّهْمة.

والآيةُ تدلُّ على أَنَّ هَذَا الْقُرْآن لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [السَّجدَة١-٢]، أي: فلا تَرْتابوا في ذلك، وأيقنوا به، فقدْ كانَ القرآنُ بينَ أَيْدِيهم، يتنزَّلُ عليهم بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء٨٢].

وقدْ تحدَّى اللهُ من كانَ في قلْبِهِ شكٌّ بذلك، بقولِهِ سُبْحانه: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرة ٢٣] .

والآيةُ هنا فيها ثناءٌ على القرآنِ وأهلِهِ بوصْفِه أنَّه هدىً للمُتَّقين، أَيْ: هادٍ لهم من الضَّلالة، ومُبيِّنٌ لهم طريقَ الاستقامةِ والفَلاحِ، وَهُو مُرْشِدٌ لهم ودَالٌّ إِلَى مَا فِيهِ صَلاحُ الدُّنْيا والآخرةِ، ونافعٌ لأَهْلِهِ في عقيدتِهم، وفي أخْلاقِهم، وفي تشْريعاتِهم السِّياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ والاجْتِماعيَّة.

وقدْ كانَ النَّاسُ في مكَّة قبلَ هجرةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المَدينةِ، على صِنْفينِ في موقِفِهم من القُرْآنِ الذي فيه غيبٌ؛ كانَ هناك مؤمنونَ ومُشْركونَ.

فلما هاجرَ إلى المَدينةِ ظهرَ النِّفاقُ صِنفًا ثالثًا، فضْلًا عن وجودِ أهلِ الكتابِ فيها؛ فأَصْبحت الأصنافُ أربعةً؛ المؤمنونَ والمشركونَ والمنافقونَ وأهلُ الكتابِ.

والسِيَاقُ القرآنيُّ هنا بدأ ببيانِ حَال أهلِ الإيمانِ والتّقْوى مع الدّينِ الحقِّ والعُبوديَّة للربِّ، ومعَ هذا القرآنِ العَظيمِ، وسيأتي بيانُ حالِ باقي الأصْنَافِ في السِّياقِ القرآنيِّ القَادمِ فتأمَّلوا.

الآيةُ تَدلُّ عَلى أنَّ أهْلَ التَّقوى لهم حالةٌ تخُصُّهم معَ القرآنِ، فإنَّهم ينتفِعونَ به ويهتدون بأوامِرِهِ ونَواهيه، كما نصَّت الآية: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وأهلُ التَّقوى همْ أهلُ الإيمانِ الذين يَتّقونَ الشِّركَ والمَعاصِيَ، ويُقْبلونَ على ما يُحِبُّه ربُّهُم ويرْضاه، وهُمُ الَّذينَ تجَرَّدُوا عَنِ المُكابَرَةِ، ونَزَّهُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ التَّقْلِيدِ والاتِّباعِ الأعمى لِلْمُضِلِّينَ والمُسْتكبرِين.

قال بعضُ العلماءِ في ضبطِ التَّقوى: «وَالتَّقْوى الشَّرْعِيَّةُ هِيَ امْتِثَالُ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابُ الْمَنْهِيَّاتِ مِنَ الْكَبَائِرِ، وَعَدَمُ الِاسْتِرْسَالِ عَلَى الصَّغَائِرِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا».

أما غيرُ أهلِ التَّقوى ممَّن عَمِيَ قلبُه من الكَفَرَةِ والمُنافقين، وممَّنْ أبَى إلا أنْ يكفرَ بالقرآنِ العظيم، فلا ينتفعُ بشيءٍ منه، ولا ينالُه تُوفيقٌ من الله لهُداه، كما قال ربُّنا: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ ٤٤]، وقال سبحانَهُ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإِسْرَاءِ ٨٢].

والمُتَّقون جاءتْ الآياتُ هنا بمزيدِ بيانٍ لِصفاتِهم وأحْوالهم، قال الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾

المُتَّقونَ يُؤْمِنُونَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ والقَدَرِ، وَيؤمنونَ بالجنة والنَّار ولقاءِ الله تعالى، وَيُؤْمِنُونَ بِالحَيَاةِ بَعْدَ المَوْتِ وَبِالْبَعْثِ، فَهَذَا غَيْبٌ كُلُّهُ غاب عن النَّاسِ. أخرجَ الإمامُ أحمدُ والدَّارِميُّ أنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ عامرَ بْنَ الجَرَّاحِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، سأل النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! أَحَدٌ خَيْرٌ مِنَّا؟ أَسْلَمْنَا وَجَاهَدْنَا مَعَكَ. قَالَ: «نَعَمْ، قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْنِي».

إنَّ مثلَ هذه الآياتِ فيها تعريضٌ بالمشركينَ الذين بيَّنَتْ كثيرٌ من الآياتِ إنكارَهم للغيْبِ وعدمَ إيمانِهم؛ كقولِ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ ٧].

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البَقَرَة٣] ومن علاماتِ أهْلِ التَّقوى أنَّهمْ يُقيمونَ الصَّلاة، أيْ: يُؤَدُّونَها كما أمرَ الله منْ أداءِ فُرُوضِها، وإتمامِ رُكوعِها وسُجودِها وتلاوتِها، والخُشوعِ فيها، والمُحافظَةِ على مَواقِيتِها وشروطِها.

وكذلِكَ هم يبذلونَ عزيزًا على النَّفسِ من أجلِ مَرْضاةِ الله سبحانَهُ، ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ أيْ: يُؤَدُّونَ الصَّدقاتِ الواجبَةَ منَ الزَّكاةِ والكفَّاراتِ والنَّفقةِ على النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْعِيالِ، وكذلك يُنفقونَ ويُؤَدُّونَ صَدقاتٍ لم تَجِبْ عليهمْ؛ كالهِبَةِ والوصيَّةِ والوَقْفِ، وكفالةِ الأَيْتامِ، والوقوفِ مع أهلِ الحاجةِ، وغيرِ ذلك، وكذلكَ هم يُجاهِدونَ في سبيلِ الله بأمْوالِهمْ.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ ﴾

المُتَّقونَ المُهتدونَ يُصَدِّقُونَ بِما جِئْتَ بِهِ مِنَ عندِ الله من القرآنِ، وبِما جاءَ بِهِ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ من التوراةِ والإنجيلِ وغيرِهما، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ، وَلَا يجحدونَ ما جاءَهُم مِنْ رَبِّهِمْ.

أهلُ الإيمانِ يؤمنونَ بالكتبِ السَّماوية وبمنْ أنْزلَتْ عليهمْ من الرُّسُلِ، ويُدركونَ ويعلمونَ أنَّه لا يسَعُهم ولا يَسَعُ العالَمِين منَ اليَهودِ والنَّصارى وغيرِهُم بعدَ بعثةِ مُحمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أنْ يُؤمنوا به وبما جاء بِهِ، ولا يُقبلُ منهم غيرُ ذلكَ.

قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البَقَرة٢٨٥]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النِّساء١٥٠-١٥١]. فهذه الآياتُ وغيرُها تدلُّ دلالةً ظاهرةً على أنَّ منْ كفرَ بمحمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما أُنْزِلَ عليه من القرآنِ كافرٌ بالله العظيم وبدينِه.

﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ أَيْ: آمنوا بِالْبَعْثِ وَالْقِيامَةِ، وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالحِسابِ وَالمِيزانِ، وإيمانُهم هذا إيمانُ يقينٍ وعلمٍ، لا مِرْيَةَ فيه ولا شَكَّ، عقيدةٌ راسخةٌ في قلوبِهم لا يَهزُّها شيءٌ.

﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾

أُولَئِكَ المُتَّصِفُونَ بالْإِيمَانِ بالْغَيْبِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَالْإِنْفَاقِ مِنَ الَّذِي رَزَقَهُمُ الله، وَالْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ الله إِلَى الرُّسُلِ جميعًا، وَالْإِيقَانِ بِالدَّارِ الْآخِرَةِ، ويستعِدُّون لَهَا بعملِ الصَّالِحَاتِ وَتَرْكِ المُحَرَّمَاتِ؛ أولئِكَ على نُورٍ وَبيانٍ واستقامةٍ وَبَصِيرَةٍ مِنَ الله تَعَالَى، فقدْ سدَّدَهُم رَبُّنَا ووفَّقَهم لما يُحِبُّ ويَرضى، وشَرَّفهم بأن اصطفاهُم وهداهُم للإيمانِ.

وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فازوا بالدَّرجاتِ العُلا، ونَجَوْا من كلِّ شرٍّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

أربعُ آياتٍ في بدايةِ سورةِ البقرةِ رفعَتْ شأنَ أهلِ الإيمانِ بدينِ الإسْلامِ، لِحُسْنِ حالِهِمْ مع القرآنِ بعد أن أثنتْ عليه وأكَّدتْ صِدقَه.

هُنا جاءتْ آيتانِ تُبيِّنانِ حالَ الَّذِينَ لا يُفكِّرُونَ فِي عَاقِبَةِ أُمُورِهِمْ، ولا يَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ الْعَوَاقِبِ، فكفروا بالقرآنِ وبما جاءَ به. جاءتْ تذمُّ حالَ فَرِيقٍ مِنَ المُشْرِكِينَ لا يُرْجى إيمانُهُم، ولا يَنْتَفِعونَ بالإنْذارِ والتَّخْويفِ، وهؤلاءِ همْ الذين كفَروا ظاهرًا وباطنًا وجَهروا بذلِكَ.

ولفْظةُ «كُفْر» في اللغة تعني السَّتْرُ والتَّغْطِيةُ، والكَفَرةُ غطَّوا الحقَّ وسَتَرُوه، وغطوا عُقُولَهم عن قبولِه والرِّضا به، ولم يُؤمنوا بما أُنزِلَ على محمدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

جاءتْ الآيةُ هُنا لِتُخبرَ أنَّ الله تعالى عاقبَهُم بِحِرْمانِهِم من الإيمانِ والهِدايةِ، جزاءً لسوءِ صَنيعِهِم الذي قام على الشِّركِ والجحودِ والعَداءِ للدِّينِ وأهْلِه. قالَ الله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يُونُس ٩٦-٩٧].

وكأنَّ الآية تُعلمنا أنَّنا لا نملكُ للكافرينَ إلَّا أنْ نُبلِّغَهُم دينَ الله، وندعوهُم بقوَّةٍ وصِدْقٍ، فَمَنِ اسْتَجابَ منهم، فلَهُ الحَظُّ الأَوْفَرُ، وَمَنْ تولَّى، فَلا نحزَنُ عَلَيْهِمْ. قالَ الله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر ٨]، فإنَّهُم حُرِمُوا الهِدايةَ، ولم يَنْفذ الإيمانُ إلى قلوبِهم بِما كسبت أَيْديهِم، مع أنَّ دلائِلَ صدقِ هذا الدينِ ظاهِرةٌ وبيِّنَةٌ. قال الله تعالى:

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ ﴾

لفظةُ «الخَتْم» تعني السَّدُّ على الشَّيءِ وإغْلاقُه فلا يفتحُ، وتأتي اللفظةُ بِمعنى: طَبَعَ، أيْ: طَبَعَ وخَتَمَ الله على قلوبِهم فلا يَفقهونَ ولا يعقِلونَ، وكذلك طَبَعَ على سَمْعِهم فلا يسمعونَ سَماعَ انْتِفاعٍ، ولَيْسَ للإيمانِ طريقٌ إلى قلوبِهم، بلْ هُم في ضَلالَتِهم ماضونَ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: نُبِّئْتُ أَنَّ الذُّنُوبَ عَلَى الْقَلْبِ تَحُفُّ بِهِ مِنْ كُلِّ نَوَاحِيهِ حَتَّى تَلْتَقِيَ عَلَيْهِ، فَالْتِقَاؤُهَا عَلَيْهِ الطَّبْعُ، وَالطَّبْعُ الْخَتْمُ.

وَكذلِكَ جَعَلَ الله على بَصَرِهِم غِشَاوَةً: والغِشاوَةُ هي الغِطاءُ يكونُ على البَصَرِ فَيَحْجِبُهُ عن الرُّؤية، فهذِه أبصارُهُم لم تنتفع بِمَا تَرَى مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْكَوْنِيَّةِ، ولمْ تستدلَّ بذلكَ على وحدانيةِ الله أو وجودِه.

وكذلك لهُم عذابٌ عظيمٌ فِي الآخرة؛ يخلُدون في نارِ جهنَّم، ويتقلَّبون في دركاتِها بسببِ إعْراضِهم واسْتكبارهِم عنِ الحقِّ، وتماديهم في الباطِلِ واتِّخاذِهمُ الهوى إلهًا. قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية ٢٣]، وقال الله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ ﴾ [الصَّف ٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام ١١٠]، وقال: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء ١٥٥]. اللهمَ يا مُقلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قُلوبَنا على دِينِكَ.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ٨ ﴾

صِنفٌ ثالثٌ لا يَخْلو مِنهُ مجتمعٌ مسلمٌ، جاءَ ذِكره وبيانُ حالِه بعدَ أن ذَكرتْ الآياتُ حال أهلِ الإيمانِ وأهلِ الكفرِ.

شرعت الآيات ببيانِ حالِ أهلِ النِّفاقِ، وهُمْ قومٌ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ.

والنِّفاقُ نفاقانِ؛ نفاقُ اعتقادٍ يقومُ على بُغْضِ الإسْلامِ والقرآنِ وَهُوَ الَّذِي يَخْلُدُ صَاحِبُهُ فِي النَّارِ، وَنفاقٌ عَمَلِيٌّ يقومُ على أعمالٍ لا تليقُ بالمؤمنِ كالكَذبِ في الحَديثِ والغَدْرِ والخيانةِ، وهو من كبائرِ الذُّنُوبِ وإنْ لمْ يُوصَفْ فاعِلُهُ بالكُفرِ.

والنِّفاقُ إنَّما ظَهَرَ أهلُهُ في المدينةِ، لَمَّا قامتْ دولةُ الإسلامِ هناك، وقَوِيَتْ شوكتُها بعدَ غزوةِ بدرٍ، وقد أظهرهُ عددٌ من أهلِ المدينةِ من اليهودِ، ومِمَّنْ كانوا على الشِّركِ من أهلِ يثربَ، ومنَ الأعْرابِ مِمَّنْ هم حولَ المدينةِ؛ أظْهَرُوه ليأمَنوا على أنْفُسِهِم وأموالِهِم، وليَسْهُلَ عليهِمُ الكَيْدُ للإسْلامِ والمُسْلمينَ.

وأمْرُ المُنافقينَ وحالُهم يَشْتَبِهُ على كثيرٍ من النَّاسِ، ولذلكَ اسْتَطرَدَ السياقُ القرآنيُّ في ثلاثَ عَشْرةَ آيَةً تَذْكُرُ خُبْثَهُمْ وَمَكْرَهُمْ، وتذكرُ سُوءَ عَوَاقِبِهِمْ، وَسَفَهَ أَحْلامِهِمْ.

سياقٌ قرآنيٌّ يستطرِدُ في ذكرِ أوْصافِهِم؛ لِيَجْتَنِبَها أهلُ الصِّدقِ منَ المؤمنينَ، ويَحذروا أصْحابَها، ولِئَلَّا يَغْتَرَّ بظَاهِرِ أَمْرِهِم المُؤْمِنُونَ، فَيَقَعُ بِذَلِكَ فَسادٌ عَرِيضٌ. قال ابنُ كثير: «وَهَذَا مِنَ المَحْذُورَاتِ الْكِبَارِ، أَنْ يُظَنَّ بِأَهْلِ الْفُجُورِ خَيْرٌ».

وتفسيرُ الآيةِ هنا، أنَّ من صِفاتِ هؤلاءِ المنافقينَ أنَّهُم إذا جاؤُوا وجالسوا أهلَ الإيمانِ والإسلامِ قالوا: آمنا باللهِ وباليومِ الآخرِ، ولكنَّ حقيقةَ أمرِهِم أنَّهم كاذبون، كما جاءَ في قولِ الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون ١].

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٩﴾

ومن صفاتِهِم التي تَدُلُّ على جهلِهِم باللهِ العظيمِ، أنَّهُمْ يُخادعون اللهَ والمؤمنين؛ يُخادِعُون أهلَ الإيمانِ بما أظْهروه لهم منَ الإسلامِ لِيَحْموا أنفسَهُم وأمْوالَهم، وزعمُوا مُخادعةَ الله تعالى -الذي يَعْلَمُ خائنةَ الأعْيُنِ وما تُخْفي الصدورُ- بأنَّ إيمانَهُم الذي أظهروه في الدنيا سَيُنْجيهِمْ عندَ الله في الآخِرةِ، حَتَّى إنَّهم يحلِفون للرَّبِّ العظيمِ يومَ القيامةِ أنَّهم آمنوا، كما دلَّ على ذلكَ قَوْلُ الله تَعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المُجادَلَةِ ١٨].

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الحقيقةُ التي جهِلَها هؤلاءُ، أنَّهم بما ظَنُّوه وعملوه، ما يَغْرون ولا يَخْدَعون إلَّا أَنْفُسَهُم. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّساءِ ١٤٢].

وخِداعُ المنافقِ لنَفسِهِ، يكْمُنُ في أنَّه أهْلَكَ نفسَه وعرَّضَها لِغضبِ الله وسَخَطِه وعَذابِه، من حيثُ ظَنَّ أنَّه أحسنَ لها، ولكنَّهم كما نصَّت الآية مغرورونَ بليدونَ، لا يشعرونَ بِغفلتِهِم.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ١٠﴾

النِّفاقُ مرضٌ وخللٌ يقومُ في قلبِ صاحِبِه، يكونُ مستورًا ومحجوبًا عن غالبِ النَّاسِ. يَعني: لا تَسْأَل: لِمَ يفعلونَ ذلك؟ واعْلَمْ أنَّ مرضَهم هَذَا مرضُ دينٍ لا مرضُ جسدٍ، هَذَا مرضُ الشَّكِّ وعدمِ اليَقينِ.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ أَيْ: زَادَهُمْ رِجْسًا وخُبثًا ولم يَشْرَحْ صُدورَهم لما يُحِبُّ ويرْضى. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التَّوبَة ١٢٤-١٢٥].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ كذَّبوا بما جاءَهُم من الحقِّ، فأعَدَّ الله لهم عذابًا أليمًا موجعًا، بعدَ أن فَسَدَ حالُهُم في الدنيا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١﴾

ومنْ عجيبِ أحوالِ المنافقين أنَّهم إذا نصحهم وذكَّرهم أهلُ الإيمانِ والدَّعوةِ إلى الله؛ اغْتَرُّوا بأفعالِهم حتَّى عدُّوها إصلاحًا، وظنُّوا أنْفُسَهم على هدىً ونورٍ، مع أنَّ أفعالَهم قائمةٌ على الكفرِ والتَّكذيبِ وإقامةِ المعاصي في الأرضِ، وقائمةٌ على موالاةِ الكافرينَ ونُصْرتِهم، وتثبيطِ عزائمِ المؤمنينَ وصَدِّهم عن الجهادِ والدَّعوةِ.

وظَنُّهم هَذَا إِفْراطٌ فِي الْغَبَاوَةِ أَوِ الْمُكابَرةِ، وَجَهْلٌ فَوْقَ جَهْلٍ.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ١٢﴾

ما يَزْعُمونَ أَنَّهُ إِصْلَاحٌ، هُوَ عَيْنُ الْفَسَادِ، وَلَكِنَّ جهلَهُم والغِشاوةَ التي على أعيُنِهم، والخَتْمَ الذي على قلوبِهم وأسماعِهم، كلُّ ذلك أعماهُم عنِ الحقِّ.

المنافقونَ دومًا يزعمون أنَّ كلامَهم وأفعالَهم فيها الحِذْقُ والفطنةُ وخدمةُ المصلحةِ العامةِ، والصَّحيحُ أنَّهم مُفْسِدونَ مُهْلِكونَ للحَرْثِ والنَّسلِ.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

ومنْ مَصائِبِهم وَصْفُ إيمانِ أصحابِ رسولِ الله بإيمانِ السُّفهاءِ، والسَّفيهُ من به خِفَّةٌ في عقلِه، وعندَهُ ضعفٌ في الرَّأيِ وقِلَّةِ ضَبْطٍ للأمورِ، ومعرفَتُه قليلةٌ فيما ينفعُ ويضُرُّ.

المنافقونَ كما دلَّتِ الآيَةُ رفضوا إيمانَ الصَّحابةِ القائمِ على التَّوحيدِ والاتِّباعِ، وأبَوْا أن يكونوا مع الصَّحابة بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ وَعَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ؛ زاعمينَ سَفَهَهُم !!! هُم يريدونَ دينًا على طريقَتِهم، وهَذَا ما يَعْمَدُ إليْهِ دومًا أهلُ الفسادِ؛ يرمونَ الصَّالحينَ بِما ليسَ فِيهم، لعلَّهم يشْغلُونَهم عن مُدافعتِهم وبيانِ باطِلِهم وسوءِ فِعالِهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ الله سبحانَهُ هُو منْ أجابَهم على افترائِهم: السفاهةُ محصورةٌ فيكم أيُّها الجاهلونَ بحالِكُم، وسفاهَتُكُم ظاهرةٌ بتَذَبذُبِكُم وعدمِ استقرارِكُم عقيدةً وخُلُقًا.

تَأملُوا كيفَ ردَّ عليهِم القرآنُ مقولتَهم مَع أنَّ عادتَه الإعراضُ عنِ الجاهلينَ، لكنَّ القرآنَ تصدَّى لإسرافِهِم وتعدِّيهم؛ لأنَّ مقولتَهم حَملَتْ جفاءً ما بعْدَهُ جفاءٌ في حقِّ خيرِ النَّاسِ؛ أصحابِ محمدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ إِنَّهُ مَقامُ بَيَانِ الحَقِّ مِنَ البَاطِلِ، فَتَحْسُنُ فِيهِ الصَّرَاحَةُ وَالصَّرَامَةُ وَالقُوَّةُ.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

هَذَا مِنْ سَفَاهَتِهِم: يُظهِرونَ الإيمانَ والموالاةَ لأهلِ الإيمانِ الحَق، يُوهِمونَهُم بِذلِكَ لِيَحفظوا أَنفُسهُم وأموالَهُم، بَل لِيشتَرِكوا فِيما يَغنِمُهُ المُسلِمونَ في معارِكِهم، ولكنَّهم إذا انْصَرَفُوا وَذَهَبُوا وَخَلَصُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ؛ الَّذِينَ هُم سَادَتُهُم وَكُبَرَاؤُهُم وَرُؤَسَاؤُهُمْ مِن أَحْبَارِ اليَهودِ وَرُؤوسِ المُشْرِكِينَ وَالمُنَافِقِينَ، قَالُوا لَهُم: إِنَّا عَلَى دِينِكُم وعَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُم عَلَيْهِ، وإِنَّما نَسْتَهْزِئُ بِالقَومِ، وَنَسْخَرُ مِنْهُم، وَنَلْعَبُ بِهِمْ.

ولَفْظَةُ «لَقُوا» تُشيرُ إِلَى أَنَّ لِقاءَهم بِالمُؤمنينَ، إِنَّما هُوَ صُدْفَةٌ وَلَمحاتٌ قَلِيلَةٌ، بِخِلافِ ما تُفيدُهُ لَفظَةُ «خَلَوْا»، فإنَّها تدلُّ على حرصِهم وحبِّهم لذلك.

﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾

أَخبَرَت الآياتُ القرآنيَّةُ أنَّ الله سُبحانَهُ وتَعالى يَخْدعُ المُنافِقينَ ويَمْكُرُ بالكافِرين، كما في قولِ الله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النِّساء ١٤٢]، وقولِه سُبحانَه: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال ٣٠]، وَأَخْبرَ هُنا أَنَّهُ يَسْتهزِئُ بِهِم.

ومِثْلُ هذهِ الأَفْعالِ مِن الله تَعالى، إنَّما ذُكِرَتْ جزاءً عَلَى خِداعِ المُنافِقِينَ وَاسْتِهزائِهِم وَمَكْرِ الكافِرين، فَهِيَ مِن بابِ المُقابَلَةِ عَلَى صَنيعِهِم، وَهِيَ مِن الله سُبْحانَهُ عَدْلٌ وكَمالٌ؛ لِأَنَّها مِن المُجازاةِ بِالمِثْلِ، فَمِن مَكْرِ الله وَاسْتِهزائِه بالكافِرينَ والمنافقينَ وخِداعِهِ لَهُم اسْتِدراجُهُم. قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آلِ عِمرَانَ ١٧٨].

وَمِن مَكْرِهِ بِهِم سُبحانَهُ أَنَّهُ قَبِلَ إسلامَهُم الظَّاهِرَ في الدُنيا، وأَنَّه يَحْشُرُهم يومَ القِيامةِ مَعَ المُؤمنين، ثُمَّ يَحرِمُهم مِن نُورِ المُؤمنين، ويَحْصُلُ التَّمايزُ هُناك في المَوقِف. قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحَديد ١٣].

وهُنا بَيَّنَتِ الآيةُ كَيْفَ يَستهزِئُ بِهِم جَزاءَ اِسْتِهْزائِهم بالمُؤمنينَ، في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، أي: يَزيدُهُم وَيُمهِلُهُم وَيُمْلِي لَهُم، ويَترُكُهم في عُتُوِّهِمْ وتَمَرُّدِهِم وتَجاوُزِهم وكُفرِهم وضَلالَتِهِم.

وَالْعَمَهُ: انْطِماسُ الْبَصِيرَةِ وَتَحيُّرُ الرَّأْيِ. يَعني: طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَخَتَمَ عَلَيْهَا، وَأَعْمَى أَبْصارَهُم عَنِ الْهُدَى وَأَغْشَاهَا، فَلا يُبْصِرُونَ رُشْدًا، وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا.

يا الله ما أَروَعها مِن آياتٍ لِمَن اسْتَحضَرَ ظِلالَها مِن أَهلِ الإيمانِ، أَيُّ فَخامةٍ هذه؛ هَل رأَيْتُم يا أهلَ التَّقوى مَن الَّذي يُدافِعُ عَنكُم ويَنْتَقِمُ لَكُم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج ٣٨]، يعني: لا تَظُنُّوا أنَّ إنعامَ الله عَلَى المُنافقينَ علامةُ رِضا. قال رَبُّنا: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آلِ عِمران ١٩٦-١٩٧].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ ﴾

المُنافِقون سلكُوا طريقَ الضَّلالِ، واسْتحَبُّوا العمى عَلَى الهُدَى، ودَفعُوا رَأسَ مَالِهم وَهُوَ الإيمانُ لِشِراءِ الكُفرِ، آمِلينَ أن يَربحُوا عِزًّا وغِنىً فِي الدُّنْيا، لكنهم خَابوا وخسِروا تِجارَتَهم وصَفْقَتَهُمْ فِي هَذِهِ البَيْعَةِ، فَإنَّهم خَرجُوا مِن الهُدَى إِلَى الضَّلالَةِ، وَمِنَ الجَمَاعَةِ إِلَى الفُرْقَةِ، وَمِنَ الأَمْنِ إِلَى الخَوْفِ.

﴿ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ أَيْ: مَا كَانَت طريقَتُهم عَلَى الصَّواب، وَمَا كَانُوا رَاشِدِينَ فِيما اِعتقَدُوه وَفَعلُوه.

سُؤالٌ نافعٌ أَورَدَهُ أَهلُ العِلمِ حَوْلَ سَببِ عَدمِ قَتلِ النَّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمُنافِقينَ مَعَ أَنَّهُ يَعلَمُهُم، وقدْ كانتْ أَسماؤُهُم عِندَ حُذيْفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ الله عَنهُ، والجَوابُ عنْ ذَلِك من وُجوهٍ:

١ - النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يكُن يَعْلَمُ أَسماءَ جميعِ المُنافِقين، وإِنَّما أَخبَرَ حُذَيْفة بِأَسماءِ أُولئِكَ الأَرْبَعةَ عَشَرَ مُنافِقًا فِي غَزْوةِ تَبُوك، الَّذِينَ هَمُّوا أَنْ يَفْتِكُوا بِرَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَقْتُلوهُ فِي ظَلْماءِ اللَّيْلِ، أَمَّا غَيْرُهم فَلا يَعْلَمُهم. قالَ الله تعالى: ﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ ﴾ [التوبة ١٠١]، ولَكِنَّ الله أَطْلَعَهُ عَلَى صِفاتِهِم، فَأَمْكَنَهُ الحَذَرُ مِمَّن ظَهَرت فِيه هَذِه الصِفات. قالَ الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ [محمَّد ٣٠].

٢ - مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ رَضِيَ الله عَنهُ: «أَكْرَهُ أَنْ يَتحدَّثَ الْعَربُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»، يَعنِي: قَدْ يَجهَلُ كثيرٌ مِن العَربِ سَبَبَ قَتلِهم فينْفِرونَ مِن الدِّينِ.

٣ - مَا قَالَهُ الإمام مَالِكٌ رَحِمَهُ الله: إِنَّما كَفَّ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ المُنَافِقِينَ؛ لِيُبَيِّنَ لِأُمَّتِهِ أَنَّ الحَاكِمَ لَا يَحْكُمُ بِعِلْمِهِ.

٤ - لأَنَّ المُنافِقِينَ قالُوا ونَطقُوا بِما عصموا به أنفسهم وأموالهم؛ نطقوا بالشهادتين، ونحنُ لنا الظَّاهر، والله يتولى السَّرائِر، وهَذا ما أشار إليه الإمامُ الشَّافِعيُّ.

﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾

مَثَلُهُم أَيْ: مَثَلُ المنافقينَ الذينَ اشتَرَوُا الضَّلالةَ بالهُدى؛ لأن الآيةَ جاءتْ في سياقِ الحديثِ عنهم وعنْ صفاتِهم.

والمَثَلُ في اللغة: الشبيه والنَّظيرِ، ويسْتعمِلُهُ العربُ في لُغتِهم لتقريبِ الصُّورةِ وزيادةِ توضيحِها، وترسيخِها في الذِّهنِ والفهمِ.

والقرآنُ جاءَ بالأمثالِ واستعملها وبيَّنَ حكمةَ ذلك بقولِ الله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العَنكَبُوتِ ٤٣].

المنافقونَ جاءَهُمْ الهُدى من عندِ الله بعد أنْ كانوا في ظُلْمةِ الشِّرْكِ، واكْتَسبوا النُّورَ المَذْكورَ في المَثَلِ بإيمانِهم والتفافِهم حولَ المُؤمنينَ، وبنُطْقهم الشَّهادتينِ بألسِنتِهم ومَعْرفةِ الحلالِ من الحرام والخَيْرِ من الشَّرِّ، لكنَّهم أضاعوا ذلك ونافقوا وأَبْطَلُوا ذَلِكَ النُّورَ؛ فَوَقَعُوا فِي حَيْرَةٍ عَظِيمَةٍ، فَإِنَّهُ لَا حَيْرَةَ أَعْظَمُ مِنْ حَيْرَةِ الدِّينِ.

المنافقون لَمَّا فعلوا ذلك؛ أذهبَ الله نورَ الهدايةِ عنهُم، وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتِ الشَّكِّ وَالْكُفرِ وَالنِّفَاقِ والكذبِ، ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ أي: لَا يَهْتَدُونَ إِلَى سُبُلِ خَيْرٍ وَلَا يَعْرِفُونَهَا.

مَثَلُهم هَذَا كَمَثَلِ من سعى في تحصيلِ ما يُوقِدُ النَّارَ لِتُضيءَ له في الليلةِ المُظْلمةِ، ثُمَّ لَمَّا أوقدَها وسَطَعَ ضُوءُها وأنارتْ ما حولَه، وَانْتَفَعَ بِهَا وَأَبْصَرَ بِهَا مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمالِهِ، وتَأَنَّس بِهَا، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ، سُرْعانَ ما انْطفأتْ، وذَهَبَ نورها، وَصَارَ فِي ظَلَامٍ شَدِيدٍ أحاط به من كل جانب، لَا يُبْصِر وَلَا يَهْتدي، وبقي في مكانِهِ حائرًا.

هَذَا هو حالُ صنفٍ من المنافقينَ آمنَ ثم كفرَ، أشارَ إليه قولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المُنَافِقُونَ ٣].

﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾

الأصَمُّ هو الذي لا يَسْمَعُ، والأَبْكَمُ هو الذي لا يتكلمُ، والأعمى هو الذي لا يرى.

والآيةُ هنا تُبيِّنُ أنَّ الظلماتِ التي وصلَ إليها المنافقونَ بعد إيمانِهم، حَجَبَتْهُم عن الهُدى، وعَطَّلتْ حواسَّهم عن الانتفاعِ الحقيقيِّ منها، فأصْبحوا صُمًّا لا يسمعونَ كلامَ الدِّينِ والإيمانِ، وبُكْمًا لا يتكلمونَ إلا بالسُّوءِ

والكيدِ للإسلامِ وأهلِهِ وإيذائهم، وكذلك أصبحوا عُمْيًا عن رؤيةِ الآياتِ ودلائلِ التوحيدِ الحقِّ، كما قالَ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف ٢٦].

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي لا يعودونَ إلى الهُدى بعد أنْ أضاعُوه، ولَا يتوبونَ ولا هم يذَّكَّرُونَ.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾

الصَّيِّبُ هو المَطَر. والظُّلماتُ التي فيه، تنشأُ منْ كَثافةِ المَطرِ وتتابُعِهِ، ومن السُّحُبِ التي يَنْزِلُ منها، ومن ظلمةِ اللّيل إن نَزَلَ ليلًا.

والرَّعْدُ: صوتٌ مدوٍّ في الهواءِ. والبرقُ لمعانٌ ضوئيٌّ شديدٌ، يظهرُ ويَختفِي سريعًا.

والبرقُ والرَّعْدُ متلازمانِ غالبًا، ولكنَّنا نرى البرقَ ثمَّ نسمعُ بعدَهُ الرَّعدَ؛ لأنَّ سرعةَ الضُّوءِ تَفوقُ سرعةَ الصَّوتِ أضعافًا مضاعفةً.

وأمَّا الصَّواعقُ، فَجمْعُ صَاعِقَة، وهي شرارةٌ قويَّةٌ تتولَّدُ من كهربائيَّةِ السَّحابِ، يَصْحبها بَرْقٌ، ويَعْقُبُها سماعُ صوتِ الرَّعْدِ.

والأيةُ هُنا تُبيِّنُ مثلًا آخرَ لِلمُنافقينَ وما هم عليه؛ لإظهار تفنُّنِهِم في فنونِ النِّفاقِ، وتَنقُّلهم فيه من حالٍ إلى حالٍ، فتارةً يَظْهرُ لَهُمُ الحَقُّ، ويَشُكُّونَ تَارَةً أُخْرَى، وحالُهم في ذلك كَمَثَلِ المَطرِ الغزيرِ المُنْهَمِرِ من السَّحابِ في السَّماءِ، النَّافِعِ الذي يحتاجُهُ النَّاسُ، لكنَّهُ يَحْوِي ظلماتٍ ورعدًا وبرقًا، وكلُّ من سَمِعَ صوتَ الرَّعدِ هَذَا، يسدُّ أذُنَيْه بأنامِلِهِ حتَّى لا يَسمعُ؛ خَشيةَ أن يموتَ من شِدَّةِ الصَّوتِ الذي يَصْحبُ هذه الصَّواعِقِ، ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾.

وهكذا المنافقونَ؛ يَنزِلُ عليهِمُ الهُدى كَمَا يَنْزِلُ المَطَرُ ويؤمنونَ، لكنَّ إيمانَهُم فيه ظلماتُ الشَّكِّ والتَّردُّدِ والكفرِ والنِّفاقِ والاسْتيحاشِ مِمَّا يسمعُ، وفيه خوفٌ وفزعٌ كما هو حالُ منْ يَسمَعُ صَوتَ الرَّعْدِ، كَمَا قَالَ تعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المُنَافِقُونَ ٤]، وقَالَ سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التَّوْبَة ٥٦-٥٧].

ولفظةُ «البرق» تُشيرُ إلى نورِ الإيمانِ الذي يُضيءُ سريعًا أحيانًا عند سماعِ القرآنِ أو سماعِ موعظةٍ، لكنَّهم يتحوَّلُونَ سريعًا إلى نِفَاقِهِم وإرْجَافِهِمْ ومَرَضِهِمْ.

المنافقُ لا يستقِرُّ على حالٍ؛ يُقْدِمُ حينَ يلمَعُ البرْقُ، ويُحْجِمُ ويتوقَّفُ خوفًا من صوتِ الرَّعدِ، والمطرُ يَنْهَمِرُ، وحَيْرَةُ المُنافِقِينَ كحَيْرَةِ السَّائِرِينَ فِي اللَّيْلِ المُظْلِمِ المُرْعِدِ المُبْرِقِ.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إنْذارٌ لهم بأنَّهمْ لنْ يُفلِتوا منْ عذابِ الله، وأنَّهُ سَيجازيهِمْ على ما قدَّموا، وَلَا ينْفَعُهُمْ حذَرُهُمْ شَيْئًا؛ لِأنَّ الله مُحِيطٌ بِهِمْ بِقُدْرَتِهِ، وَهُمْ تحْتَ مَشِيئَتِهِ وَإِرادَتِهِ وقَهْرِه.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٢٠﴾

اسْتِطْرادٌ قرآنيٌّ فيه مزيدُ بيانٍ لحالِهم، وتمثيلُهُ بما يحصُلُ للسَّائرِ مع البرقِ. تأمَّلوا: ضوءُ البرقِ يلمعُ سريعًا ثُم يذهبُ، وعندما يلمعُ؛ يكادُ يذهب بالبصرِ، ويضيء للماشي في ظلمته فيمشي، فإذا أظْلَمَ؛ توقَّفَ عنِ السَّيْرِ والمشْيِ ووقفَ في مكانِهِ.

وهكذا المنافقُ؛ يكادُ نورُ القُرآنِ والإيمانِ أنْ يفْضَحَهُ ويَكْشِفَ عَوْرَاتِه، حتَّى يُحرمَ من الانتفاعِ ببصرِهِ في رؤيةِ دلائلِ العظمةِ والتَّوحيدِ للرَّبِّ.

المنافقُ : إذا جاءتْهُ موعظةٌ ربَّما ينتفعُ ويستأنسُ ويستنيرُ بها، ويسيرُ في طريقِ الاستقامةِ، لكنَّهُ سُرْعانَ ما يرجعُ إلى حيرتِهِ ونفاقِهِ إذا عرضتِ شبهةٌ أو مصيبةٌ، ويتوقفُ عن سلوكِ سبيلِ المؤمنينَ؛ لظلمةِ قلبِهِ ومرضِهِ.

وبعضُ العلماءِ قال: الآيةُ هنا بيَّنَتْ حالَ المنافقينَ، بأنَّهُ إِذَا كَانَ الْقُرْآنُ مُوافِقًا لِهَوَاهُمْ وَرَغْبَتِهِمْ عَمِلُوا بِهِ، كَمُنَاكَحَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَإِرْثِهِمْ لَهُمْ، وَالْقَسْمِ لَهُمْ مِنْ غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ، وَعِصْمَتِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ مَعَ كُفْرِهِمْ فِي الْبَاطِنِ، وَإِذَا كَانَ غَيْرَ مُوَافِقٍ لِهَوَاهُمْ كَبَذْلِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ الْمَأْمُورِ بِهِ فِيهِ، وَقَفُوا وَتَأَخَّرُوا. وَإِلَى هَذَا الحالِ أشارت الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور ٤٨-٤٩].

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: (كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ) أَيْ: إِذَا أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ بِالْمَالِ وَالْعَافِيَةِ قَالُوا: هَذَا الدِّينُ حَقٌّ، مَا أَصَابَنَا مُنْذُ تَمَسَّكْنَا بِهِ إِلَّا الْخَيْرَ، (وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) أَيْ: وَإِنْ أَصَابَهُمْ فَقْرٌ أَوْ مَرَضٌ أَوْ وُلِدَتْ لَهُمُ الْبَنَاتُ دُونَ الذُّكُورِ قَالُوا: مَا أَصَابَنَا هَذَا إِلَّا مِنْ شُؤْمِ هَذَا الدِّينِ وَارْتَدُّوا عَنْهُ. وَهَذَا الْوَجْهُ يَدُلُّ عليهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج ١١].

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ لو شاءَ ربُّنا لأذهبَ بَصرَهم وسَمْعَهم جميعًا عندَ قَصْفِ الرَّعدِ وعندَ وميضِ البرقِ، فكذلك: فَلْيحْذَرِ المنافقونَ من إصْرارِهم على غيِّهم وضلالِهم، ولِيستقيموا خيرًا لهم؛ لئلا يفقدوا نِعَمَ الله عليهِم.

وهَذَا فيه إنذارٌ آخرُ لهم بأنَّ الله جعلَ لهُمْ السَّمْعَ والأبْصارَ لِيَنْتَفِعوا بها ويهتدوا، ولكنَّهم عطَّلُوها وصَرَفُوها إلى ما لا نفع فيه، بل إلى ما فيه الخُسْران المُبينُ.

مشيئةُ الله هي التي أبْقَتْ لهم حوَاسَّهم لِحِكَمٍ متعددة؛ لعلَّهُمْ يرجعونَ، أو استدراجًا لهُمْ، وإقامةً للحُجَّةِ عليهِمْ، وغيرِ ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ إذا أراد سبحانه بعباده شيئًا؛ كان، وله في ذلك الحكمة البالغة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾

نداءٌ منْ رَبِّ العالمينَ للنَّاسِ جميعًا؛ مؤمنِهم وكافرِهم وفاسقِهم، من كانَ موجودًا زمنَ تَنزُّلِ الخِطَابِ ومن جاءَ بعدهُمْ.

نداءٌ منْ شأنِهِ أنْ يُحْيِيَ فيهِمْ ما ماتَ ويُذكِّرَهُمْ بما نَسُوا أو تَنَاسَوْا.

نداءٌ تلمسُ فيه تَأنيسَهُمْ وإرْشَادَهم إلى ما فيه صلاحُهُم، لعلَّهم يرشُدون.

ونداءُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ دومًا ما يكونُ في القرآنِ مُرشدًا إلى ضرورةِ توحيدِ الله تعالى، ونَبْذِ كلِّ معبودٍ سواهُ، ولذلك جاءَ في تَتِمَّة الآيةِ التي بعدها: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة ٢٢].

لكنَّ الخِطَابَ هنا جاءَ بعدَ بيانِ حالِ ثلاثِ طَوائفَ وُجِدَتْ على هذه البسيطةِ، فكأنَّ النِّداء لِثَلاثَتِهِمْ:

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أيُّها المؤمنونَ بالمداومةِ والثَّباتِ على طريقِ العبوديَّةِ والحرصِ على الإتْيانِ بها على أتمِّ وأحْسَنِ وجهٍ من الإخلاصِ والمتابعة.

و﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أَيُّها الكافرونَ ولا تشركوا به شيئًا.

و﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أَيُّها المنافقونَ، ولا تروغوا روغانَ الثَّعالبِ، فإنَّ رَبَّكُمْ مُطَّلِعٌ على السَّرائرِ، وما تُخْفيهِ أنفُسكُمْ.

والعبادةُ أُسُّها وأصْلُها التَّذَلُّلُ والخضوعُ، والتزامُ الأوامرِ واجتنابُ النواهي.

﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ ربُّكُمْ هو الذي خَلَقَكُمْ منَ العدَمِ، وخَلقَ آباءَكم وكلَّ منْ كان قَبْلَكم، وهو المالكُ المُتصرِّفُ المُدبِّرُ لِما خلقَ.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أَيْ: لتحقِّقُوا حقيقةَ التَّقوى القائِمةِ على إحْسانِ العبوديَّةِ، ولِتتَّقُوا وتَنْجوا من العذابِ الذى هو عاقبةُ المخالفينَ لأمرِ الله تعالى.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾

تأمَّلوا وتَدَبَّروا نِعمَ الله عليكُمْ، التي لا يقدِرُ عليها إلا رَبُّكم الذي اتَّخَذْتُم من دونِه أندادًا.

هُو الَّذي جَعلَ لَكُمُ الأَرْض فِراشًا، أَيْ: مَهْدًا؛ مَهدَها وَبسَطَها حَتَّى أَصْبحَت لَكُم كَالْفِراشِ، مُقرّرة لا تتحرَّكُ، ومُوطَّأَةً ومُثبَّتةً بِالرَّواسِي الشَّامِخاتِ، فتنتفِعون فيها على الوجْهِ الذي تُحِبُّون؛ تَقْعُدونَ علَيْها وَتنامُون، وَتزْرَعُون وَتحْصُدون، وَتبْنُونَ علَيْها بُيوتَكُم.

وَهُوَ الَّذي جَعَلَ السَّماءَ بِناءً، أَيْ: سَقْفًا، كَما فِي قَوْلِ الله تَعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء ٣٢].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ وَهُوَ الَّذي أَمْطَرَكُم ماءً مِنَ السَّحابِ الذي في السَّماءِ، فَأَخْرجَ بِهِ مِنْ أَنْواعِ الزُّرُوعِ وَالثِّمارِ ما هُوَ مُشاهَدٌ؛ رِزْقًا للناس وَلِأَنْعامِهِمْ.

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ الأَنْدادُ: الشُّرَكاءُ والنُّظَراءُ. يا مَن اِستَحْضَرَ هذِه النِّعم وظَهرَت لَهُ عَظَمَةُ الله وقُدرَتُه وعِلمُه فِيها: لَا تجْعلوا للمُنْعِمِ بِها شُركاءَ تعبُدونَهم مِن دونِه. كَيْفَ تتخِذونَ هذِه الأَنْدادِ وأَنتُم تَعْلَمُونَ أَنَّها لا تَصلُحُ لِلأُلوهِيَّةِ، ولا تَملكُ خَلقًا ولا تَدبيرًا ولا نَفْعًا ولا ضَرًّا.

هؤلاءِ المُخاطَبونَ اتخذوا الأصنامَ والكواكِبَ والنُّجومَ والنَّارَ آلهةً، واعتقَدُوا فِيها ما لَيْسَ فِيها، ولَمْ يُخلصوا دينَهم لله وحْدَهُ.

واليومَ فَضْلًا عَن ذلِك، اتخذوا شرائِعَ الشَّرقِ والغربِ واستبدَلوا بِها شَرْعَ الله، وَجعَلوها نِدًا لله وشَرْعِه. أَخرَجَ البُخَارِي ومُسلِم عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وهُوَ خلقك». الحَديث.

وأَخْرجَ أحمدُ والنَّسائيُّ في الكُبرى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنهُ وعن أبيه، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرَاجِعُهُ الْكَلَامَ، فَقَالَ: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ، فَقَالَ: «جَعَلْتَنِي لله عَدْلًا، مَا شَاءَ الله وَحْدَهُ».

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

هذِه الآيَةُ مِن الآياتِ التِي تُقرِّر النُّبوَّةَ وتُثبتُها، وَتُثْبِتُ أَنَّ هَذَا الدِينَ مَا جَاءَ مِن عِندِ البَشرِ، ومَا كانَ لَهُم ذلِك.

يا مَن كَفرْتُم! إِنْ كُنتُم فِي شَكٍ مِمَّا نزّلنا عَلى مُحمدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن القرآنِ، وزَعمتُم أَنَّ هَذا القُرآن مِن عِندِه لا مِن عِندِ الله، فَأتُوا بِسورةٍ مِنْ مِثْلِ مَا جَاءَ بِه، وعَارِضُوه، وادعُوا شُهداءَكُم وأَعْوانكُم مِن الآلِهَةِ وغيرِها، واستَعينوا بِمَن شِئْتُمْ مِنْ دُونِ الله ليُساعِدوكُم في ذَلِكَ إِنْ كُنتُم صادِقِينَ في مقُولَتِكم ودعَواكُم.

هَذا كلامُ رَبِّ العالمينَ المُعجِزُ بلفظِه ومَعانِيه، أُحكِمَت ألفاظُه وفُصِّلَت مَعانيه، فِيهِ مِن الإِخبارِ عَن الغَيْبِ مَا فِيه، وفِيه مِمَّا يُصلِحُ العِبادَ والبِلادَ مِن التَشريعاتِ مَا فِيه، هَاتوا مِثلَ سُورةٍ مِنهُ إِن كُنتُم صادِقِين.

وهذِه الآيَةُ لَيْسَت هِي الآيَة الوَحيدة التِي وَقعَ فِيهَا التَحدي لأَهلِ الكُفرِ، مِن الذين أَتقَنُوا فُنونَ اللُّغةِ وكانَت لهُم فِيها صَوْلاتٌ وجَوْلاتٌ، وإنَّما جَاءَت مَواضِعُ أُخرَى تحدَّاهُم فِيها بِأَن يَأتُوا بِمِثلِ هَذا القُرآن. قالَ سُبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء ٨٨]، ثُمَّ تحداهم بِأَنْ يَأْتُوا بعشْرِ سُورٍ فَقَطْ كما في قَوْلِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود ١٣] ثُمَّ جاءَ أَقلُّ مَا وقعَ بِه التَحدي فِي الآيَةِ هُنا وفِي آيةٍ أُخرى فِي قَوْلِ الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس ٣٨].

والأَصْلُ فِيهم مَع شِدَّةِ عَداوتِهم وبُغضِهم، أَن يَستَجيبُوا لِذلِك وَيَسعَوا فِيه، وأَنْ يَنتَصِروا لآلِهتِهم، ولكِنَّهُم عاجِزونَ عَن ذلِك، فهَذا القرآنُ إِلى زمانِنا لَم يستطِعْ أحدٌ أَن يُعارِضَهُ بِمِثلِه.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

هذِه الآيةُ مِن أكبرِ مُعجزاتِ هَذا الدِّين؛ رَبُّنا يقولُ لَهُم: فَإِن لَم تَأتوا بِسورةٍ، وَلَنْ تَفْعَلُوا ذلِكَ أَبدًا وإِن طَالَت بِكُمُ السُّنُون، فاتَّقوا عذابَ الله بدُخولِكم في دِينِه، بعدَ أَنْ تيقَّنتم صِدقه.

وقَدْ كانَ الأمرُ كَما قالَ القرآنُ: عَجزُوا عَنِ الإِتيانِ بسورةٍ، ولمْ يُفلِحوا بِمُعارضةِ القُرآنِ، فَثبَتَتْ لَهُم مُعجِزَتُه، وَثبَتَ إِرسالُ مُحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ مِن عِندِ الله، ومَع ذلِك لَم يُؤمنوا ولَم تَتحرَّك قُلوبُهُم نَحْوَ الهِدايةِ فقالَ اللهُ لَهُم: فاتقُوا النَّارَ بِمَا عِندكُم إِن كُنتُم أَهلًا لِذلِك، واحْذَرُوا إِنْ لَمْ تَمْتَثِلُوا أَمْرَهُ عَذابَ النَّارِ التِي أعدَّها اللهُ وأَرْصَدَها لِمَن كَفَر بِالله ورَسُولِه وكانَ على طَرِيقَتِكُم. أَنْتُم وَقُودُها الذي يُشعِلُها ويزيدُ لَهبَها وسَعيرَها، مَع الحِجارةِ التِي فِيها، إِن بَقيتُم علَى كُفرِكُم. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجِنّ ١٥].

وذَكَرَ الحِجارةَ هُنا فِي الآيةِ لِيَسْتَحضِروا هَوْلَ العُقوبةِ وشِدَّتَها؛ فَإِنَّ الحَجَرَ إِذَا اشْتَعَلَ صارَ أَشَدَّ إِحْراقًا، وَأَبْطَأَ انْطِفَاءً. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التَّحريم ٦].

وَمِنَ الْحِجَارَةِ التي تكونُ فِي النَّارِ أَصْنامُهُمْ التِي ظَنُّوا وزَعَمُوا أَنَّها مَصدرُ عِزَّتِهم، فكانَت سَببًا في زِيادةِ عذابِهم وإِحراقِهم، وَقَدْ جاءَ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأَنْبِياء ٩٨].

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ذَكَرَ اللهُ تَعالَى فِي الآيَةِ قبلَها ما أَعدَّهُ مِن عذابٍ ونكالٍ للأشقياءِ الكافِرينَ بِهِ وَبِرُسُلِه، أُولئِكَ الذينَ جَحَدوا آياتِ اللهِ تَعالَى فِي كتابِه.

هُنا جاءَتِ الآيةُ فِيها بُشرَى لأَوْلِيائِهِ أهلِ العملِ الصَالحِ مِن المُؤمنينَ بِأنّ لهُم جناتٍ فِيها نَعيمٌ مُقيمٌ، وهَذا حالُ القرآنِ دومًا؛ يجمعُ بينَ التّرهيبِ والتّرغيبِ، ويأتي بَعْدَ ذِكرِ حالِ الأشقياءِ ذكرُ حالِ السُعداءِ، أَوْ العكس، ولِذا وُصِفَ في مُحكَمِ التّنزيلِ بالمثاني في قولِ الله تعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ﴾ [الزُّمر ٢٣].

والجنَّةُ مِن جَنَّه إذا سَترَه. قالَ أهلُ العِلمِ: المَستُورُ في الجنةِ هُوَ حقيقةُ نَعيمِها الذِي لَمْ نَرَهُ، أَو سُمِيَتْ الجَنَّةُ الجنَّةَ لِكثرةِ شَجرِها والتِفافِه فَتَستَّر مَن يَتمتّعُ فِيها، أَوْ لِكثرةِ ظِلالِها مِن كَثرةِ شجرِها.

والآيةُ هُنا ذَكرَتْ أَنَّ هَذِه الجَنَّاتِ تجْري مِن تحتِها الأَنْهار، أَيْ: تسيرُ الأَنْهارُ بِسُرعةٍ مِن تحتِ أشجارِها وغُرَفِها، وهَذا مِن كمالِ النَّعيمِ في الجناتِ، أَن تجريَ المياهُ خِلالَ الجنَّاتِ ومِن بينِها ومِن تحتِ قُصورِها، فإنَّ الله تعَالَى أودعَ في النفوسِ حُبَّ ذلِك. وقَدْ جاءَ ذِكرُ أنواعِ الأنهارِ التي يتمتَّعُونَ بها وبجريانها في قولِ الله تَعالَى: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى ﴾ [مُحمد ١٥].

﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ ﴾

ومِن نعيمِ أهلِ الجنةِ فِي الجنةِ، أَنَّهُ يُطافُ عليهِم بِثمارِ الجنَّةِ فيظُنّوا أنّها جاءَتهم مِن قَبل، فالآيةُ أخبرَتْ أنَّ الذِي تَشابَهَ عليهِم هُوَ لَوْنُها وشَكْلُها فقَط، أَمّا اللذّةُ والطعمُ فهُوَ مُتجددٌ مُتنوّعٌ. ولِلعُلماءِ فِي تأويلِ هذِه الآيةِ طَريقتان:

١- كُلّما رُزِقوا مِن طِيبِ ثِمارِها قَالوا: هَذا الذِي رُزِقْنا مِن قبلُ فِي دارِ الدُنْيا. ﴿ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ ﴾ أَيْ: يُشبه ثَمرَ الدُنْيا لَونًا وَشكْلًا، غيْرَ أَنَّ ثَمرَ الجنَّةِ أَطيب. قالَ ابنُ عبَاس رَضِيَ الله عَنهُما: «لا يُشبِه شَيءٌ مِمَّا في الجنَّةِ مَا فِي الدُنْيا إلّا فِي الأَسماءِ».

٢- كُلّما رُزِقوا مِن طيبِ ثِمارِها قالوا: هَذا مِثلُ الذي كانَ بِالأمسِ مِن ثمارِ الجنةِ. ﴿ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ ﴾.

أَيْ: يُشبِهُ مَا أَكلُوهُ فِي الجنَّةِ بِالأمسِ لونًا وشكلًا، ولَكِنَّ الطَعْمَ يَختلِف.

﴿ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ ﴾ ومِن تمامِ النَّعيمِ وكمالِهِ في الجنَّات، أُنْسُ الأزواجِ بِبعضِهِم. وأزواجُ الجنَّاتِ مُطهراتٌ عن عوارضِ الدُّنيا مِن بولٍ وغائطٍ وحيضٍ وغيْرِ ذلك، وقد جاءَ فِي وصْفِهِنَّ قولُ ربِّنا: ﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴾ [الصَّافات ٤٨]، وقَوْلُه: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ [الرَّحْمن ٥٨]، وقَوْلُه: ﴿ وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴾ [الوَاقِعَة ٢٢-٢٣]، وغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ المُبيِّنةِ لِجَميلِ صِفاتِهِنَّ.

﴿وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هَذَا هو تمامُ السَّعادةِ، فإنَّهم مع كلِّ هَذَا النَّعيم خالدونَ في مقامٍ أمينٍ من الموتِ والانقطاعِ، فلا آخِرَ له ولا انْقضاءَ، بل هو نعيمٌ سرمديٌّ أبديٌّ على الدوامِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾

القرآنُ فيه ضربٌ للأمثالِ، وقد سبق معنا في سورة البقرةِ شيءٌ منها في قول الله تعالَى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ [البقرة ١٧]، وما بعدها.

وَضَرَبَ الله أمثالًا أخرى في كتابِهِ كمثالِ العنكبوتِ والذُّبابِ وغيرِ ذلك، كما في قولِ ربِّنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج ٧٣]، وقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت ٤١].

وهذِهِ الأمثالُ ظَنَّ أهلُ النِّفاقِ والشِّركِ الذينَ عَجزُوا عَنْ تحدي القرآن، أنَّهم وجدُوا فيها طريقًا للغمزِ واللَّمزِ في كِتابِ الله تعَالَى، فقالوا: الله أعلى وأجلُ مِن أن يَضرِبَ هذِه الأمْثال.

وقالُوا: ما فائدةُ ذِكرِ العنكبوتِ والذُّبابِ، وأيُّ شَيْءٍ يُصْنعُ بهذَا، يُشيرونَ إلى سَخافةِ ذلكَ ممَّا لا ينْبغي أن يُنسَب إلى الله، يقصِدونَ بكلامِهم هذا إلى إبطالِ القرآنِ، وبثِّ الشَّكِ وإلقائِه في نُفوسِ المُسلمين.

أنزلَ الله تعَالَى لَهُم هذِه الآيَة؛ ليُعلِّمَهُم أنَّهُ لا يَسْتَحيي ولا يَسْتنكِفُ ولا يَخْشى أن يَضْرِبَ ويَذْكُرَ أيَّ مثلٍ يكونُ فِيهِ بيانٌ للحقِّ، صَغُرَ هَذَا المَثَلُ أوْ كبُرَ، قليلًا كانَ أوْ كثيرًا، فيضْرِبُ مثلًا بالبَعُوضةِ التِي هِيَ مِن أصْغرِ وأحقرِ ما يرى النَّاسُ، وهُو يَضرِبُ بِما هُوَ فوقَ ذلكَ في الصِّغرِ والحقارة.

ومِنَ العُلماءِ مَن قالَ: ﴿فَمَا فَوۡقَهَا﴾ أيْ: فَما هُوَ أكبرُ مِنها حجمًا؛ لأنَّه ليسَ شيءٌ أحقرَ ولا أصغرَ مِن البعوضةِ. وَالْبَعُوضَةُ وَاحِدَةُ الْبَعُوضِ، وَهِيَ حَشَرَةٌ صَغِيرَةٌ طَائِرَةٌ ذَاتُ خُرْطُومٍ دَقِيقٍ تَحُومُ عَلَى الْإِنسَانِ لِتَمْتَصَّ بِخُرْطُومِهَا مِنْ دَمِهِ غِذَاءً لَهَا.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ الناسُ في قبولِ مَا يَضْرِبُهُ الله مِن أمثالٍ قسمانِ: مُؤمنونَ يَعلَمُونَ أَنَّهُ كلامُ الرَّحْمَن وأَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِهم، ولَا يَلتفِتونَ إِلى مُحاولاتِ تَشكيكِ المُشكِّكين. والقسم الثاني كافرونَ بِها، ويُنكِرونَها ويَقولونَ كَالمُعترِضين: مَاذا أَرادَ الله بِهَذا مَثَلا.

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ هَذا هُوَ جوابُ استِفهامِهم لـمَّا قَالوا: مَاذا أَرادَ الله بِهَذا مَثَلا. الجوابُ: هذِه ثَمرةُ الأَمثالِ: يزدادُ بِها أهلُ الضَلالةِ ضلالًا، ويزيدُ الله بِها أهلَ الإيمانِ هدايةً وثباتًا ويقينًا.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الفاسِقُ في اللُّغةِ: هُوَ الخارجُ عَن الطاعةِ. فالفاسقُ يشملُ الكافِرَ والعاصِي، ولكِنَّ فِسْقَ الكافِرِ أَشَدُّ وأَفْحَش، والمُرادُ مِن الآيةِ الفاسِقُ الكافِرُ؛ لِسياقِ الآيات.

خِتامُ الآيةِ هُنا يُبيِّنُ أَنَّهُ لا يَضِلُّ بِضربِ هذِه الأمثالِ ويَسخَرُ مِنها ويُنكِرُها إِلَّا مَن فَسَق، أَيْ: خَرَجَ عَن طاعةِ الله بِكُفرِهِ ونفاقِه.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾

ثَلاثُ صِفاتٍ للفاسِقينَ بَيَّنَتْها الآيةُ الكَريمَةُ:

١ - ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ عَهْدُ الله: هُوَ مَا عَهِدَ بِهِ. أَيْ: مَا أَوْصَى بِرَعْيِهِ والحفاظِ عليهِ. وقَدْ ذَكَرَ القرآنُ عُهودًا مُتعدِّدة أَخذها عَلَى النَّاسِ عمومًا وعلى بعضِ الأُمَمِ خُصوصًا، فمِنهم مَن أَوْفى بِالعهودِ، ومِنهُم مَن نَقَضها ولَم يُوَفِّ بِها، وهذِه علامةُ فِسقِه وعدَمِ انتِفاعِه بالقرآن وأَمثالِه.

فمِن العهودِ: ما أَخذَهُ الله عَلى بَنِي آدمَ أَنْ لا يَعْبُدُوا غَيْرَهُ، قال الله تَعالَى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يس٦٠]، وقالَ الله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾ [الأعراف١٧٢].

ومنها العَهْدُ الَّذِي أَخذَهُ الله عَلَى الْأُمَمِ عَلى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِم، أَنَّهُم إِذا بُعِث بَعْدَهُم رَسولٌ مُصدِّقٌ لِما مَعَهُم لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ كَما جاءَ في الآيَةِ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آلِ عِمْران٨١].

ومِنها الْعَهْدُ الَّذِي أَخذَهُ الله عَلَى أهلِ الْكتابِ في قولِ الله تعالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران ١٨٧].

ومِنها الْعَهْدُ الَّذِي أَخذَهُ الله عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ غَيْرَ مَرَّةٍ مِنْ إِقامَةِ الدِّينِ وَتَأْيِيدِ الرُّسُلِ، وَأَنْ لا يَسْفِكَ بَعْضُهُمْ دِماءَ بَعْضٍ وَأَنْ يُؤْمِنُوا بِالدِّينِ كُلِّهِ، وَقَدْ ذَكَّرَهُمُ الْقُرْآنُ بِعُهُودِ الله تَعالَى وَنَقْضِهِمْ إِيَّاهَا فِي أَكْثَرِ مِن آيَةٍ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة ٤٠]، وقولُه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة ١٢-١٣]، وقولُه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة ٨٤-٨٥].

فهذِهِ عهودٌ نَقضَها أصحابُها؛ ولَمْ يستقيمُوا علَيْها، واسْتَمرَّت أجيالُهُم عَلَى ذلِك بعدَ بِعثةِ رسولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومجيئِهِ بدلائلَ كثيرةٍ على نُبُوَّتِه، فكانَ ضلالُهُم عَنِ الإيمانِ، وعَنِ الانتفاعِ بالقرآنِ بما كسبتْ أَيْديهِم لا غيْر.

٢- ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ هؤلاءِ الفاسِقونَ: قطعُوا وتركُوا صِلةَ ما أَمرَ الله بِأَن يكونَ مَوصُولًا، فَلَم يُؤمِنوا بِجميعِ الرُّسلِ وفرَّقُوا بينَهُم، وفَرَّقُوا بَيْنَ أقوالِهم وأفعالِهم، وكانُوا بِبقائِهم على كُفرِهم سَببًا في تَقطيعِ أرحامِهم مَعَ مَن آمنَ واهتدَى مِنهُم، كَما أشارَ إلى ذلِك قوْلُ الله تعالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد ٢٢].

٣- ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أهلُ الفِسقِ يَبْغونَها عِوجًا، ويَصُدُّونَ عَنْ سبيلِ الله مَن آمَنَ، وأفعالُهُم وأقوالُهُم فِيها هلاكٌ لِلحرْثِ والنَّسلِ. قالَ الله عَن حَقيقةِ فِعالِهم التي ظَنُّوها نَجاةً وربحًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ خَسِروا رحمةَ الله ورِضوانه وجَنَّته. قالَ الله تعالَى بعدَ أن أثنى عَلَى أهلِ الإيمانِ الذين يَصِلونَ ما أَمرَ الله بِه أَنْ يوصَل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد ٢٥].

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾

إنكارٌ وتعجُّبٌ مِن حالِ مَن كَفَرَ بالله العَظيمِ، وأنْكَرَ وِحدانيتَهُ وقُدرَتَهُ على البعْثِ، وجَعَلَ لَهُ نِدًا، واتَّخذَ مَعَهُ شَريكًا.

هَذِهِ الآيَةُ كَقوْلِ الله تَعالَى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غَافِر ١١] . أَيْ: أَمَتَّنا مَرَّتَيْن: الأُولى: عِندما كُنَّا عَدماً فَخلَقْتَنا. وعِندَ بَعضِ العُلَماءِ: عِندما كُنَّا نُطفَةً وعَلَقةً ومُضغَةً قبلَ نَفْخِ الرُوحِ.
والثانِيةُ: عِندَما أَمَتَّنا فِي الدُنيا بِقبضِ أرواحِنا.
وأَحْيَيْتَنا مرتَيْن: الأولى: لما نُفِخَت فِينا الرُوح، وأُخرِجنا مِن بُطُونِ أُمهاتِنا أَحياء؛ فهذِهِ مَرَّةٌ.
والثانيةُ: بَعدَ أَنْ بُعِثنا مِن قُبورِنا أَحياءَ ورجَعنا إِلَى الله تَعَالَى بالوُقوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ لِلحِسابِ.

كَأنَّ الله تَعالَى يقولُ لهُم: مَن خَلَقَكُم مِن العَدَمِ، وَمَن أَماتَكُم، ومَن القادِرُ عَلَى بَعثِكُم مِن قُبورِكُم كَما خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ، أفلا تُؤمِنُون.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾

تأمَّلوا يا مَن جَحدتُم عَظَمَةَ الخالِقِ، هَذَا تذكيرٌ لكُم بِما تَعلمُونَهُ في قرارةِ أنفُسِكُم وتَعتقِدُونَهُ.

إنَّ الذي تكفرونَ بِهِ، هُوَ الذي خلقَ لكُم مَا في الأَرْضِ جميعًا لتنتفِعوا بِها علَيْها، ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السماءِ وقَصَدَها وأَقْبَلَ عليْها، فسواهُنَّ وخلقهُنَّ سبعَ سماواتٍ بعضُهُنَّ فوقَ بعضٍ، مُحكَماتٍ لا خَلَلَ فيهِنَ ولا عَيْبَ، وهَذا خَلقٌ أعظَم.

وهذه الآيَةُ فيها بيانٌ لخلقِ الأرْضِ أوَّلًا، وأنَّ خَلقَها كانَ قبلَ خَلْقِ السَّماواتِ؛ فإنَّ الْأَرْضَ للسَّماواتِ كَالْأَسَاسِ، وَالْأَصْلُ أَنْ يُبْدَأَ بِالْأَسَاسِ، ثُمَّ بَعْدَهُ بِالسَّقْفِ.

ولعلَّكمْ تأمَّلتُم كيف أقامَ عليهِمُ الحُجَّةَ بذكرِ خَلْقِ الأَرْضِ أوَّلًا؛ وما ذاك إلا لأنَّ الأرض ظاهرةٌ آثارُها وعظمتُها لهم، وَلِأَنَّ الامتنانَ عليهم بنعمةِ الأرضِ وتسخيرِها أَقْوى وَأَعَمُّ، فكانت الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِخَلْقِ الْأَرْضِ أوضحَ، وكانَ قُبحُ الكفرِ بالخالقِ أَشْنَعَ وأسوأ.

فأمَّا قوْلُهُ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النَّازِعَات ٢٧-٣١]، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ دَحْيَ الْأَرْضِ كَانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّماءِ، فالدَّحْيُ هُوَ مُفسَّرٌ بِقوْلِهِ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، وَكَانَ هَذا بَعْدَ خَلْقِ السَّماءِ، فَأَمَّا خَلْقُ الْأَرْضِ فَقَبْلَ خَلْقِ السَّماءِ بِالنَّصِّ، كما أَجَابَ ابْنُ عبَّاسٍ فِيما ذَكرَهُ الْبُخارِيُّ، بأن الله تَعالَى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّماءَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّماءِ، فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخرَيْنِ، ثُمَّ دَحى الْأَرْضَ، ودَحْيُها: أَنْ أَخرَجَ مِنهَا الْماءَ والْمَرعى، وخَلَقَ الْجِبالَ والْجِمادَ والْآكامَ وما بيْنَهُما فِي يوْمَيْنِ آخرَيْنِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ وَقوْلُهُ ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، فَأَصْلُ خَلْقِ الْأَرْضِ قبْلَ خَلْقِ السَّماءِ، ودَحْوُها بِجِبالِها وَأَشْجارِها ونَحْوُ ذَلِكَ بَعْدَ خَلْقِ السَّماءِ.

ومنْ أهلِ العلمِ من جَمَعَ بين الأدلَّة بأنَّ الله تَعالَى خَلَقَ السَّماء أوَّلًا؛ رفعَ سَمْكَها فسوَّاها وأَغْطَشَ ليلها وأَخْرَجَ ضُحاها، ثم خلق الأرضَ ودحاها فأخرجَ منها ماءَها ومَرْعاها، ثم استوى إلى السَّماء فَسوَّاهُنَّ سَبْعَ سماواتٍ، وهو قولٌ قويٌّ.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ إخبارٌ بإحاطةِ علمِ الله تَعالَى بكلِّ شيءٍ، وتَدليلٌ على قُدْرتِهِ وعظمتِهِ ووجوبِ إفْرادِهِ بالعُبوديَّةِ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾

أَيْ: واذكُرْ يا أيُّها النَّبيُّ دليلًا من دلائلِ عظمةِ من أرْسلكَ، واقْصُصْ على قومِكَ وعلى أهلِ المدينةِ من اليهودِ وغيرِهم ما لا يَعلمُهُ إلا نبيٌّ أُوحِيَ إليه من رَّبِّهِ.

اذكُرْ لهم وذَكِّرْهُم بمنَّةِ الله تَعالَى وفضْلِهِ على بني آدم، كيف ذَكرَهم في الملأ الأعْلَى قبلَ أنْ يَخْلُقَهُمْ، إذ قالَ ربُّكَ للمَلائكةِ التي خلقَها من نورٍ خلقًا عظيمًا: إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خليفة، والخليفة هو الإنسانُ؛ آدمُ وحواءُ وذريَّتُهما.

هَذا الإنسانُ يَعمُرُها ويَسْكُنُها، ويكونُ خليفةَ الله فيها، يحكم بما أمره الله، يَحْكُمُ بالعدلِ والعِلْمِ، كما أشارَ إلى هَذا المعنى قولُ الله تَعالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص ٢٦].

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ سؤالُ الملائكةِ هنا لِربِّهِم سُؤالُ استعلامٍ وتعجُّبٍ واستكشافٍ عنِ الحكمةِ في ذلك، يقولونَ: يا ربَّنا، ما الحكمةُ في خلقِ هؤلاءِ مع أنَّ منْهُم منْ يفسدُ في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي، ويَسفِكُ ويُسيلُ الدماءَ بالقَتْلِ وَالجَرْحِ، ونحنُ لا نفعلُ ذلك، بل نحن نسبِّحُ بحمدكَ: أَيْ نُنَزِّهُكَ بألْسِنَتِنا وأفْعالِنا عن النَّقائِصِ والشِّرْكِ، وهَذَا التَّسْبيحُ والتَّنْزيهُ منَّا مصْحوبٌ بحمدِكَ على النِّعمِ، نقولُ: سبحانَ الله وبحمدِهِ.

ونقدِّسُ لك، أَيْ: اعتِقَادُنا فيك كما تُحِبُّ؛ نَنْسِبُ لك ما هو من صِفاتِك، من الطَّهارةِ من الأَدْنَاسِ، ومِمَّا أضافهُ إليك أهلُ الكفرِ، فحقيقتُنا أنَّا مُطهَّرونَ من أنْ نَعْصِيَك تعظيمًا وإجلالًا لك. ولعلَّ في كلامِهِم تعريضًا بأنَّهُمْ أجدرُ بالخِلافَة منْ هَذَا الإنسانِ.

والسؤَالُ الذي يَذْكرُهُ أهلُ العلمِ هنا: كيفَ عَرَفَت الملائِكةُ بعضَ صفاتِ بني آدمَ من إفسادِهِ وقتْلِهِ؟

والجوابُ: إمَّا أنَّهُم فهِمُوا ذلِك مِن طبيعةِ المادةِ التي أخبرهُم رَبُّنا أنَّ آدمَ سيُخلَق مِنها؛ فإنَّه خُلِقَ مِن صلصالٍ من حَمَإٍ مَسْنُون، أَيْ: مِن طينٍ يابسٍ مِثْلَ الفُخارِ، مُتغيِّرِ اللَّوْنِ والرائِحةِ.

أَوْ أنَّهُم فهِموا مِن الخليفةِ أنَّهُ الذي يفصِلُ بَيْنَ الناسِ، والفصْلُ بَيْنَ الناسِ لا بُدَّ أن يَسْبِقهُ خُصوماتٌ ومظالِمُ بيْنَهم.

أَوْ أنَّ الله تَعالَى أَعْلَمهُم ذلِك بِعلمٍ خاصٍّ، كَما جاءَ عَن غيْرِ واحدٍ من الصَّحابةِ أنَّ الملائكةَ لَمَّا أَخْبرَها رَبُّنا بذلِك قَالَتْ: وما يكونُ ذلِك الخليفة؟ قالَ: يكونُ لَهُ ذريةٌ يُفسِدونَ في الأرضِ ويَتحاسَدونَ ويَقْتُلُ بَعضُهُم بَعْضًا.

أوْ أنَّهُم قاسوهُم على مَن سَبَقَ مِن الجِنِّ الذينَ خُلِقوا قَبْلَهُم، وسَفكَت بَعضُهُم دِماءَ بَعْض، كَما جاءَ عَن ابنِ عباسٍ رَضِيَ الله عَنْهُما قالَ: أَوَّلُ مَن سَكنَ الأَرْضَ الجِنُّ، فَأفسدوا فيها وسَفكوا فِيها الدماءَ، وقَتَلَ بَعْضُهُم بعضًا. قالَ: فَبعَثَ الله إِلَيْهِم إبليس، فَقَتَلَهُم إبليسُ ومَن مَعهُ حَتَّى أَلحَقَهُم بِجزائِر البُحُورِ وأَطْرافِ الجِبالِ. ثُمَّ خلَقَ آدمَ وأَسْكنَهُ إِياها، فلِذلِك قالَ: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ .

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أَيْ: قالَ الله تَعالَى لَهُم: إنِّي أَعلمُ مِنَ المصالِحِ والحِكَمِ في خلْقِ هَذا الصَّنفِ ما لا تَعلمونَ أَنْتُم؛ فَسَيكونُ في بَني آدمَ مِن صِفاتِ الصلاحِ والخَيْرِيَةِ ما يكونُ، وسَيكونُ فيهم الرُّسل والصديقونَ والعُبَّادُ والزهادُ والعلماءُ العاملون والشهداءُ، والآمرون بالمعروفِ والناهونَ عَنِ المُنكرِ، وهَذِه الصِفاتُ تفوقُ ما عَلِمتُم مِن صِفاتِ الفَسادِ والقَتْلِ.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ ﴾

تكريمٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى وتَشْرِيفٌ وتَفْضِيلٌ لِنبيِّه آدمَ عليهِ السلامُ، أَن اخْتَصَّهُ بِعِلمِ أسماءِ كُلِّ شَيْءٍ مِن حولِه، لِيُظْهِرَ لِملائكتِهِ شيئًا مِن عِلمِهِ وحِكمَتِهِ سُبحانَهُ أَن جَعَلَ في الأَرْضِ خَليفَةً.

اللهُ تَعَالَى عَلَّمَ آدمَ الأسماءَ التي يتعارفُ بِها الناسُ ويَحْتاجونَها، أَو أَنَّهُ خَلَقَ في آدمَ عليهِ السلامُ عِلمًا ضروريًّا تفصيليًّا، يَعرِفُ بِهِ أسماءَ كُلِّ ما حولَه ووظائِفَه وخصائِصَه.

علَّمَهُ الأسماءَ ومدلولاتِها: إِنْسَانٌ، ودَابَّةٌ، وطَيْرٌ، وسَمَاءٌ، ونَجْمٌ، وأَرْضٌ، وسَهْلٌ، وبَحْرٌ، وجَمَلٌ، وحِمَارٌ، وعَلَّمَهُ أسماءَ الملائكةِ وأشباهَ ذلِك مِن الأُمَمِ وغيرِها. أَخرجَ البُخارِيُّ عَن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عَن النبيِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «يَجْتَمِعُ المؤمنونَ يومَ القيامةِ، فيقولونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنا إِلى رَبِّنا؟ فيأتونَ آدمَ فيقولونَ: أنتَ أبو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيدِهِ، وأَسْجَدَ لكَ ملائِكتَهُ، وعلَّمكَ أسماءَ كُلِّ شَيْءٍ، فاشْفَعْ لَنا عِندَ رَبِّكَ حَتَّى يُريحَنا مِن مَكانِنا هَذَا» الحَديث.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّنا جَلَّت حِكمَتُه وتَعالَتْ قُدرتُهُ عَرَضَ هذِه المُسَمَّياتِ على الملائكةِ طالبًا أسماءَها، قائِلًا لَهُم: أَنْبِئُوني بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِن كُنتُم صادِقِين أَنَّكُم أَجْدرُ بِالخِلافةِ مِنه، أَوْ إِن كُنتُم صادقِينَ أَنَّكُم أَفضلُ مِنهُ، فإِذا كُنتُم لا تَعلَمونَ أَسماءَ هؤلاءِ الذين عَرَضْتُ عليكُم وأَنْتُم تُشاهِدونَهُم، فكيفَ قَصرْتُم حِكمةَ خلقِ آدمَ وبَنيهِ على سَفْكِ الدماءِ والإفسادِ، بَلِ الأمرُ أكبرُ مِن ذلِك، إنَّهُ الأُجْدَرُ بِأَن يكونَ خَليفَةَ اللهِ في الأَرْضِ.

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ ﴾

هَذَا تقديسٌ وتنزيهٌ مِن الملائكةِ للهِ تَعَالَى، وأَنَّهُم ما سَألوا إِلَّا لِيَعلَموا ويَعرِفوا الحِكمَةَ. تنزيهٌ فيهِ اعترافٌ بالعَجزِ والقُصورِ عَن أَن يُحيطَ أَحدٌ بِشيءٍ مِن عِلمِه إِلّا بِما شاءَ، وأَنْ يَعلَموا شيئًا إِلَّا ما عَلَّمَهُم وأَلْهَمَهُم اللهُ تَعالَى، فإِنَّهُ مَن أَحاطَ عِلمُهُ بِكلِّ شَيْءٍ، الحكيمُ في خَلقِهِ وأَمْرِهِ وفِي تَعليمِهِ مَن يَشاء ومَنعِهِ عَمَّنْ يَشاء، لَهُ الحِكْمَةُ فِي ذلِك، والعَدلُ التَّامُّ.

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ ﴾

لمَّا أَظْهَرَتِ الملائكةُ عَجزَها عَن معرفةِ أسماءِ مَخلوقاتِ الله تَعَالَى في الأرضِ وفي السَّماءِ، خاطَبَ الله تَعَالَى نَبيَّهُ آدمَ عليهِ السلامُ بِاسمِهِ إظهارًا لفضلِهِ فِي المَلَإِ الأَعْلَى وتكريمًا لَهُ ورِفعةً، فقالَ سُبحانهُ: أَنبئهُم بأسماءِ مخلوقاتِ الله مِن الملائكةِ وغيرِهِم.

فلَمَّا ظَهَرَ فَضْلُ آدمَ عليهِ السَّلامُ عَلى الملائِكةِ عليهِمُ السَّلامُ بِالعِلمِ، بذِكرِ وبيانِ ما علَّمهُ الله تَعَالَى مِن أسماءِ الأشياءِ ووظائِفِها وخصائِصِها، قالَ الله تَعَالَى للملائكةِ: أَلَم يَتقدَّم إِليكُم أنِّي أَعلمُ مَا لا تَعلَمون، أعلمُ الغَيبَ الظاهِرَ والخَفِيَّ، أَعْلَمُ السِّرَ كَما أَعْلَمُ العلانِيةَ، أَعْلَمُ ما تُظهِرونَهُ بأَلْسِنتِكُم وما كُنتُم تُخفونَ في أنفُسِكُم، أَعْلَمُ أَنَّ آدمَ وذُريتهُ بِما أُوتوا مِنَ العِلمِ أَقدرُ على حَمْلِ أمانةِ الاستِخلافِ فِي الأَرْضِ وتحقيقِ مُرادِ الله تَعَالَى فيها.

وقَدْ أَوْرَدَ أهلُ التَّفسيرِ هُنا اجتِهادَ الصَّحابةِ رُضوانُ الله عليهِم ومَن بَعدَهُم في مَعرِفةِ ما كَانَت تكتُمُه الملائِكةُ؛ هَلِ المَقصودُ ما كَتمهُ إبليسُ في نفسِهِ مِن الكِبرِ والتَّكبُرِ عَن طاعةِ الله، أَوْ ما كَتمَتهُ الملائكةُ مِن قولِهِم: لَم يَخلِق ربُّنا خلقًا إلَّا كُنَّا أعلمَ مِنهُ وأكرَم، وأَنَّهم أحقُّ بالاستخلافِ مِنهُ.

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤ ﴾

هذِه كرامةٌ عظيمةٌ مِنَ الله تَعَالَى لآدمَ امتنَّ بِها على ذُرِّيَّتِهِ، حَيْثُ أُخبرَ أَنَّهُ تَعَالَى أمرَ الملائِكةَ بالسجودِ لأبينا آدمَ سجودَ إكرامٍ وإعظامٍ واحترامٍ وسلامٍ.

وَحَقِيقَةُ السُّجُودِ طَأْطَأَةُ الجَسَدِ أَوْ إِيقاعُهُ عَلَى الأَرْضِ.

وهَذَا الأمرُ بالسجودِ كانَ بَعْدَ أَن ظَهرتْ مَزيَّةُ آدَمَ بِما عَلَّمهُ الله؛ فتأمَّلوا قدْرَ العِلمِ ومكانَتهُ فِي الشَّرعِ يرحمُكُم الله.

امتثَل الملائكةُ كُلُّهُم لذلك إلَّا إبليسَ الذي لَمْ يكُن مِن جنسِ الملائكةِ التي خُلقت مِن نورٍ، بَلْ هُوَ أصلُ الجِنِّ الذي خُلِقَ مِن نارٍ، فَهُوَ ليسَ مِن جِنسِهم ولا مِن عُنْصرهم، إلَّا أنهُ كانَ قَدْ تشَبَّه واخْتَلَطَ بِهِم، وتَوسَّم وتمَثَّل بأفعالِهم، وكانَ عابدًا مُطيعًا مِثلَهم؛ فلهَذا دَخلَ في الخطابِ لَهُم، وذُمَّ في مُخالفَةِ الأَمْرِ.

إبليسُ كَفَرَ باللهِ لَمَّا استَنْكَفَ ورَفَضَ وأَبَى السجودَ لآدمَ استكبارًا وتعاظُمًا في نفسِهِ، ولَمَّا امتَنَعَ مِن طاعةِ اللهِ امتِناعَ طَعْنٍ في حِكمَةِ اللهِ وعِلمِهِ، زاعمًا أنَّه خيرٌ مِن آدمَ لأنَّه خُلِقَ مِن نارٍ، وهَذَا كُفرٌ لا محالَة. قالَ اللهُ تَعالَى في بيانِ حالِهِ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٞ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف ١٢].

ظهَرتْ من إبْليسَ نَزْعةٌ كانَتْ كامِنةً في جِبلَّتِهِ وفي طَبْعِه، وهيَ نَزْعةُ الكِبْرِ والعصيانِ والحسدِ، فَهِيَ لَمْ تَظْهَر مِنهُ مِن قَبلُ، لأنَّ الملأَ الذينَ كانَ مَعَهُم كانوا عَلَى أَكْمَلِ حُسْنِ الخِلقةِ، وعلى أكملِ الوجوهِ فِي التعامُلِ، ولَم يكُن مِنهُم مُثيرٌ لِما سَكَنَ في نفسِهِ مِن الأمراضِ، ولَكِنْ لَمَّا طَرَأَ على ذلِك مخلوقٌ جديدٌ هُوَ آدمُ، وأُمِرَ أهلُ المَلأِ الأعلى بتَعظيمِهِ، كُشِفَ مَا فِي نَفْسِ إِبْليسَ مِن الكِبرِ، والكِبْرُ هُوَ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ فِيهِ الرَّبُّ كَمَا قالَ أهلُ العلمِ.

وَمَا جَرى فِي الملأِ الأعلى سُنَّةٌ كونيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ، جعلهَا اللهُ مَبدأً في هَذَا العالَمِ، وهيَ سُنَّةٌ أَنْ تكونَ الحوادثُ والمضائِقُ والبلاءاتُ هِيَ مِعيارُ الأخلاقِ والفضيلةِ، بِمعنى: لا تَحكُم على نَفْسٍ وتُزكِّيها إلَّا بَعْدَ تجربتِها ومُلاحَظَةِ تصرُّفاتِها عِندَ حدوثِ الحوادثِ.

إبليسُ لَمَّا عَصَى رَبَّنا وامْتَنَعَ مِنَ السُجودِ، أَخرجهُ مِن الجَنَّةِ وأَبْلَسَهُ، أَيْ: آيسه مِن الخَيْرِ كُلِّهِ، وَجَعَلَهُ شيطانًا رَجيمًا عُقُوبةً لِمعصيتِهِ، كَمَا بَيَّنَت ذلِك سُوَرُ الأَعْرافِ والحِجْرِ وطَه.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾

ومِن مِنَّةٍ وفَضْلٍ وإكْرامِ اللهِ تَعَالَى كذلكَ لِنبيِّهِ آدم عليهِ السلامُ بَعدَ أَن أَمَرَ الملائكةَ بالسُجودِ لَهُ، أَن أَسكَنَهُ هُوَ وزوجُهُ حواء الجَنَّة، يَسْكُنا مِنها حَيْثُ شاءا، ويأْكُلا مِن ثَمرِها مَا شاءَا رَغَدًا، أَيْ: هنيئًا واسعًا طيِّبًا لا عناءَ ولا تَعبَ فِيهِ.

وهذِهِ الجَنَّةُ هِيَ الجنةُ التي فِي السَّماءِ، وهِيَ جَنَّةُ الخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ اللهُ المُؤْمِنِينَ والمُصدِّقِينَ رُسُلَهُ، والتي نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَن تكونَ مَوْعِدَنا.

ثُمَّ إنَّ الله تَعالَى بَعدَ أَنْ أباحَ لَهُمُ التنعُّمَ مِن أَيِّ موضعٍ في الجَنَّةِ؛ نهاهُما عَن الأكْلِ مِن إِحدى أشجارِ الجَنَّةِ اختبارًا وامتحانًا وتكليفًا، والنَّهْيُ عن الأكلِ قَد يكونُ لشجرةٍ بِعيْنِها أَوْ لِجنسِ ثَمرةٍ في الجَنَّةِ كشجرِ العِنبِ أِو التينِ أَو غَيْرِهما.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

أَيْ: فأكَلا من الشَّجرةِ ووَقعا في الزَّللِ والخَطأ والذَّنبِ والمعصيةِ، بَعْدَ أنْ وَسْوسَ لهُما الشَّيطانُ بالأكلِ من الشَّجرةِ التي جاءَ النَّهْيُ عَنها، ووَعدهما بالمُلْك والخُلْدِ، كَما قالَ الله تَعالَى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف ٢٠]، وكذلك جاءَ قولُ الله تَعالَى في بيانِ ما قالَه إبليسُ: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه ١٢٠].

وبسببِ أكْلِهما من الشَّجرةِ؛ أخْرجَهما مِمَّا كانا فيه منْ نَعيم الجنَّة منْ لباسٍ ومنزلٍ ورزقٍ هنيءٍ وراحةٍ، وجُعلَتْ العداوةُ بينهم وبينَ إبْليسَ وذريَّته منْ شياطينِ الجنِّ بعد أن أُهْبِطُوا جميعًا من الجنَّة إلى الأرْضِ، وقيل لهم كذلك: ولكُمْ في الأرضِ التي نَزلتُمْ إليها مستقرٌّ، أَيْ: عيشٌ وقرارٌ، ولكمْ فيها متاعٌ، أَيْ: أرزاقٌ ولذائذُ وآجالٌ. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أَيْ: إلى أجلٍ مؤقتٍ ومقدارٍ معينٍ، ثم تقومُ القيامةُ.

تأمَّلوا؛ خطيئةٌ واحدةٌ حُرِمَ بسببِها أبونا آدمُ عليه السلامُ من خيرٍ كثيرٍ، فَماذا نقولُ للمُكِبِّ على المعاصي المُصرِّ عليها المُجاهرِ بها.

إنَّ المؤمنَ يرى ذنوبَهُ كأنَّه جالسٌ تحت أصلِ جبلٍ يُوشِكُ هَذا الجبلُ أن يقعَ عليه من خوفِهِ ووجلِهِ واستحضارِهِ عظمةَ الرَّبِّ، فجاهدوا أنفسَكم وشيطانَكم الذي كانَ سببًا فيما جرى، واستعينوا بالله واصْدقوهُ في توبتِكم، ولا تَقْنطُوا منْ رَحمةِ الله؛ فإنَّ الموعدَ دارُنا الأولى الجنَّةُ. قال الله تَعالَى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأَعْراف ٢٧].

وهنا سؤالٌ ذكرهُ أهلُ العلمِ وأجابوا عنهُ: إبليسُ طُرِدَ منَ الجنَّةِ، فكيف دَخلها ووسوسَ لهما؟

والجوابُ: أنَّه مُنِعَ من دُخولِ الجنَّة مُكرَّمًا، فأمَّا على وجهِ الرَّدعِ والإهانةِ، فلا يَمْتنعُ. وقالَ بعضُهم: قدْ تكونُ الوسْوسةُ لهما وهو خارجُ باب الجنَّة، وقالَ بعضُهم: يُحْتَمل أنَّه وَسوسَ لهما وهو في الأرْضِ، وهما في السَّماءِ.

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ ﴾

أخذَ آدمُ ما أَلْقى اللهُ تعَالَى إليه من كلماتٍ يَدْعو بها لِينَالَ التَّوبَةَ والمَغْفِرةَ والرِّضا له ولِزَوجِهِ، فَغَفَرَ اللهُ الذَّنبَ بِكَرَمِهِ، وتَابَ عليه وعليها. قالَ أهلُ العلمِ: المقصودُ بهذه الكلماتِ قولُ اللهِ تعَالَى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣].

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أَيْ: إنَّه يتوبُ على عِبادِهِ كلَّما تَابوا إليه وأنابوا، رَحْمَةً بهم ولُطفًا. قال اللهُ تعَالَى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء ١١٠].

﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ ﴾

لَمَّا وقعَ نبيُّ اللهِ آدمُ أبو البشرِ هو وزَوجُه في المَعْصيةِ، فأكلا من الشَّجرةِ التي جاءَ النَّهي عنها، بعدَ أنْ وَسوسَ لهما الشيطانُ، أَهْبَطَهم اللهُ جميعًا إلى الأرضِ، وجعلَ العداوةَ بينهم وبينَ إبليسَ وذريَّتِه منْ شياطينِ الجنِّ.

ثم أخبرتْ الآيةُ هنا أنَّ اللهَ سَيَهْديهِمْ وذُريَّاتِهِم هدايةَ إرْشادٍ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، إنْسَهُم وجِنَّهُم، وذلك بإنْزالِ الكتبِ وإرْسالِ الرُّسلِ؛ فمن اتَّبعَ الهُدى فآمنَ وعَمِلَ صالحًا فلا خَوفٌ عَلَيْهِمْ فيما يستقبلونَه من أمرِ الآخرةِ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ على ما فاتَهم من أمورِ الدُّنْيا من مالٍ وعيالٍ.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩ ﴾

والذينَ جَحدوا آياتِ اللهِ وأنْكروها، وكذَّبوا بالرُّسلِ وبما جاءوا به، جزاؤُهم نارُ جهنَّم خالدينَ فيها لا مَحيدَ لهم عَنْها، ولا هروبَ ولا خروجَ منها.

والآيةُ فيها تَعريضٌ بالمُشْرِكينَ الذين كذَّبوا بمعجزةِ القُرْآنِ، وكذَّبوا بنبيِّ هذه الأمَّةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾

أسلوبٌ قرآنيٌّ عجيبٌ، فيه تهييجٌ لبني إسْرائيلَ ليدخلوا في دينِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تهييجٌ بدأ بذكرِ أبيهِمْ الذي يُنْسبونَ إليه العبدِ الصَّالحِ المطيعِ، نبيِّ اللهِ إسرائيل، وهو يعقوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ، الذي تُعَدُّ الأمَّةُ اليهوديةُ من ذريَّتِهِ.

الآيةُ فيها نداءٌ لهم: يا أيَّتُها الأمَّةُ اليهوديةُ، كُونوا مِثْل أبيكُم في متابعةِ الحَقِّ.

ثم جاءَ التَّهْييجُ بتذكيرِهِمْ بِنِعَمِهِ سبحانَه على أجدادِهِم؛ فَإِنَّ النِّعْمَةَ عَلَى الآباءِ والأجدادِ نِعْمَةٌ عَلَى الْأَبْنَاءِ لِأَنَّهَا سُمْعَةٌ لَهُمْ، وَقُدْوَةٌ يَقْتَدُونَ بِهَا، وَبَرَكَةٌ تَعُودُ عَلَيْهِمْ؛ كيف فَجَّرَ لهم الحَجرَ فخرجتْ منه اثْنتا عَشْرةَ عينًا، وكيفَ أنْزَلَ عليهِمُ المَنَّ والسَّلوى، وأنْجاهُمْ منْ عبوديةِ آلِ فرعونَ، وجَعلَهُمْ مُلوكًا، وجعلَ منهم الأنبياءَ والرُّسلَ، وأنْزلَ عليهِمُ الكتبَ.

ثُمَّ كيفَ أنعمَ على من نَزَلَ خطابُ القُرْآنِ لهم، وهم اليهودُ في زمنِ نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إِذْ بَوَّأَهُمْ قُرًى فِي بِلَادِ الْعَرَبِ، وَجَعلَهُمْ فِي بُحْبُوحَةٍ مِنَ الْعَيْشِ مَعَ الْأَمْنِ وَالثَّرْوَةِ وَمُسَالَمَةِ الْعَرَبِ لَهُمْ.

والمطلوبُ من تذكيرِهِمْ بالنِّعم أنْ يتفكروا بِنِعَمِ اللهِ عليهم، ولا يَحْسُدوا غيرَهُم من العَربِ على النُّبوَّةِ والكِتابِ، وأنْ يَشكروا المُنْعمَ بتوحيدِهِ واتِّباعِ ما أنْزَلَ.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ أخَذَ اللهُ تَعَالَى العهدَ عليهم أنْ يؤمنوا برسلِهِ ويعملوا الصَّالحاتِ، ولا يكتموا شيئًا من دينِهم؛ فإنَّهم إنْ فعلوا ذلك رضيَ عنهم، وغفرَ لهم السَّيئاتِ، وأدخلهم الجنَّاتِ كما وعدهم وعهدَ إليهم.

ومن رسلِهِ الذين يَلزمهم أنْ يؤمنوا به وفقًا للعهدِ والوعدِ والميثاقِ محمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال اللهُ تعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [المائدة ١٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران ١٨٧].

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ الرَّهبةُ: هي الخوفُ والخشيةُ. أَيْ: فخافونِ واخشونِ ولا تَخْشَوْا غيري من كُبَرائِكُم وأحْبارِكُم.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾

دَعْوَةٌ صريحةٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ليدخلوا في الإِسْلَامِ، نداءٌ من الله تَعَالَى لبني إسرائيل بأنْ يؤمنوا بالقرآنِ الذي أنْزلَهُ على محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد جاءَ القرآنُ بالحقِّ والصِّدقِ والهَدْيِ الذي جاءتْ به التَّوراةُ.

والتوراةُ بَشَّرتْ بنَبِيِّنا عليه الصَّلاة والسَّلام، وهُمْ يعرفونَهُ كما يعرفونَ أبناءَهُمْ.

ثمَّ يُناديهم بأنْ لا يكونوا أوَّلَ كافرٍ بالقرآنِ وما جاءَ فيه، بل كونوا أوَّلَ المؤمنينَ.

وهنا مسألةٌ: كيف يكونونَ أوَّلَ منْ كفَرَ به وقد كفرتْ به مِنْ قبلِهم قريشٌ وبعضُ قبائلِ العربِ؟!

والجوابُ عن ذلك فيه احتمالاتٌ:

١ – ما قالَه ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ وعندَكُم فيه من العِلمِ ما ليس عندَ غيرِكم.

٢ – ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ من جنسِكُم من أهلِ الكتابِ، أو مِنْ بني إسرائيلَ.

٣ – ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أيْ: من أهلِ المدينةِ.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ اعلموا أنَّ أكثرَ ما جعلَ بني إسرائيلَ يُعرضونَ عن آياتِ القُرآنِ حبُّ الدُّنيا واسْتبقاءُ سيادتِهم فيها، فقد كانَ لرؤسائِهِمْ مآكلُ يأكلونها من سَفَلتِهم وعوامِّهم.

هنا جاء النَّصُّ القرآنيُّ موجِّهًا ومعلِّمًا: لا تبيعوا دينكم بِعَرَضٍ من الدُّنيا، ولا تكْتموا ما في توراتِكم من بيانٍ لِصفَةِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتَّبشيرَ به، ولا تُغيِّروا ولا تُبدِّلوا ولا تعطِّلوا أحْكامَ آياتِ الله التي أُنْزِلَتْ عليكم، في مقابلِ رِشْوة تأْخذونها، أو جاهٍ تحْرِصون عليه، أو أيْ حظٍّ من حُظوظِ الدُّنْيا وزُخرُفِها. لا تُجامِلوا ولا تُداهِنوا على حسابِ دِينِكم من أجلِ ثمنٍ قليلٍ زائلٍ.

لا تكتمُوا شيئًا مِنها يا بني إِسْرائيلَ عُدوانًا وظلمًا، ولا تلوُوا أعْناقَ آياتِ كتابِ الله لأغْراضِكم الدُنيويَّةِ الرخيصةِ.

والخطابُ وإنْ كانَ يَجْري في سِياقِ هِدايةِ بني إِسْرائيلَ وإرْشادِهِم، لكنَّ كلماتِه تعني الكثيرَ لنا نحنُ معاشِرَ المسلمينَ، بلْ معاشرَ طلبةِ العلمِ والدُّعاةِ إلى الله. أخرجَ ابنُ ماجه عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالَ: قالَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «منْ تعلَّمَ العلمَ لِيُباهِيَ به العلماءَ، ويُجاريَ به السفهاءَ، ويَصْرِفَ به وجوهَ النَّاسِ إليه؛ أدْخله اللهُ جهنَّمَ».

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ أيْ: خافونِ فلا تكتموا الحقَّ وتُظهِروا خِلافَهُ وأنتم تعلمونَ.

﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾

ومن توجيهاتِ آياتِ الله لهم، ولنا بطريق الأَوْلى: لا تَخلطوا الحقَّ بالبَاطِلِ. يعني: لا تتعمَّدوا إظهارَ الباطلِ في صُورةِ الحقِّ، وإظهارَ الكذبِ كأنَّه الحقُّ، فيَلْتَبِسَ الأمر على العوامِّ الذين يَغلِبُ عليهمُ الجهلُ.

بطريقةٍ أخرى: لا تَلبِسوا اليهوديَّةَ والنَّصْرانيَّة بالإسلامِ؛ ولا تؤمنوا ببعضِ الكتابِ وتكفروا ببعضِهِ، ولا تكتموا عِلمَكمْ بأنَّ محمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيٌّ، ولذلكَ قالَ في ختامِ الآيةِ: «وأنتم تعلمونَ».

وقد وجدنا زمانَنا هَذَا أقوامًا يستغيثون بالأمواتِ، وآخرين ينصرونَ الظَّلمةَ، ويُعينونَ المفسدينَ في الأرضِ، ولا يعدو الواحدُ منهم أن يكونَ أداةً بأَيْديهم، يستدلُّونَ لِمَا يفعلونَ بآياتِ من القُرآنِ وأحاديثَ من السُّنة، يُلَبِّسونَ ويَخْلِطونَ فيها الحقَّ بالباطلِ.

وهَذَا يُذَكِّر بما فعلَهُ الخوارجُ لَمَّا قاتلوا عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رافعينَ شعارَ «لا حكم إلا لله»، ومن قبلِهِمْ امتنعَ أقوامٌ عن دفعِ الزَّكاةِ، لأنَّ منْ أمَرَ الله بدفعِ الزَّكاةِ له ماتَ، يَقصِدونَ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قول الله تَعَالَى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾ [التَّوْبَة ١٠٣].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾

أمرٌ منَ الله لهمْ بأنْ يَعملوا الصَّالحاتِ بعد أنْ أمرهم بالدُّخولِ في الإسْلامِ؛ أمرَهُم أن يُصَلُّوا معَ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَدفَعُوا الزَّكاة إليه.

﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ثمَّ جاءَ الأمْرُ بلزومِ جماعةِ المسلمينَ بأمرِهِمْ بأنْ يَرْكعوا مع الرَّاكعينَ، أيْ: كونوا مع المؤمنينَ ومنهم، لا كما يفعلُ المنافقونَ.

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾

يقولُ الله تَعَالَى لبني إسْرائيلَ مُوبِّخًا: إنَّكمْ تدْعونَ غيرَكُم من المُشْركينَ وتُذَكِّرُونَهم بالبرِّ والخَيْرِ، وتدْعونَهُمْ للإيمانِ بما عِندَكُمْ من النُّبوَّةِ والتَّوراةِ، ولكنَّكم لا تُؤمنونَ بما جاءتْ به كُتُبكم من وجوبِ التَّصديقِ بالرُّسلِ والإيمانِ بالكتبِ، وتجحدونَ ما تعلمونَه من الحقِّ عمدًا وتهاونًا، مع أنَّكم تتلونَ الكتابَ.

يا أهلَ الكتابِ! أفلا تعقلونَ ما أنتم صانعونَ بأنفسِكُم؛ فتَنْتبهون مِن رَقدتِكُم وغفلتِكم!

وهنا مسألةٌ علميَّةٌ يذكرُها أهلُ التَّفسيرِ تتعلقُ فيمنْ ابْتُلِيَ بذنبٍ ما، أو ابْتُلِيَ بالذُّنوبِ، هل يدعو إلى الله تَعالَى ويُذكِّر غيْرَه، أم لا ينْبَغي له ذلك لئلا يكون مِمَّن يأمرُ النَّاس بالبرِّ وينسى نفسَه؟

والذي عليه المُحقِّقونَ من أهلِ العلمِ أنَّ تركَ المعاصي واجبٌ، والأمرَ بالمعروفِ واجبٌ آخرُ، وتَرْكُ أحدِهما لا يعني تركَ الآخرِ، فمنْ خالفَ عملُه قولَه، يلزمُهُ أن يعملَ بطاعةِ الله، لا أنْ يتركَ الدَّعوةَ إلى الله.

فالعالمُ يأمرُ بالمعروفِ وإنْ لم يفعلْهُ، وينهى عن المنكرِ وإنْ ارتكبَهُ، ولكنَّهُ قطعًا مذمومٌ على ترْكِ الطَّاعةِ وفعْلِه المعصيةَ، لعلمِه بها ومخالفتِه على بصيرةٍ، فإنَّه ليس منْ يعلمُ كمنْ لا يعلمُ.

وقد جاءَ في القرآنِ قولُ شعيبٍ عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود ٨٨].

وأخرجَ أحمدُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ».

وأَخرجَ البخاريُّ عن أسامةَ بن زيدٍ رَضِيَ الله عَنهُ وعن أبيه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ (تخرجُ) أَقْتَابُ بَطْنِهِ (أمعاؤُه) فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ؟، أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾

هذه الآيةُ فيها ما يعينُ بني إسرائيلَ على التزامِ ما أُمِرُوا به، واجتنابِ ما نُهوا عنهُ، وفيها ما يعينُ كل مُؤمِّلٍ للآخرةِ على السَّيرِ في طريقِها، فينالُ رحمةَ الله وفضْلَه.

صحيحٌ أنَّ السِّياقَ جاءَ في بني إسرائيلَ، لكنَّ المُوفَّقَ مِمَّنْ يستمعُ لهذه الآياتِ يرى أنَّها تُخاطِبُه هو لا غيرَهُ.

الآية تقولُ: اسْتعينوا على طلبِ الآخرةِ بالصَّبرِ والصَّلاةِ؛ فالصَّبرُ يحبسُ الإنسانُ به نفسَه عن شهواتِها وأهوائِها وأمراضِها، والصَّابرُ صبرًا شرعيًّا يحتمِلُ كلَّ ما لا يُلائمُهُ ويُناسِبُه، فإنَّ الجنَّةَ حُفَّتْ بالمكارِه. قَالَ الْغَزَالِيُّ: «ذَكَرَ الله الصَّبْرَ فِي الْقُرْآنِ فِي نَيِّفٍ وَسَبْعِينَ مَوْضِعًا، وَأَضَافَ أَكْثَرَ الْخَيْرَاتِ وَالدَّرَجَاتِ إِلَى الصَّبْرِ وَجَعَلَهَا ثَمَرَةً لَهُ».

وأمَّا الصَّلاةُ فإنَّها تعينُ على الثَّباتِ، كما قالَ الله تعَالَى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت ٤٥]، وفيها من المَنافعِ والفوائدِ ما يُسعد العبدَ ويعينُه في طريقِ عبوديَّتِهِ.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الصَّلاةُ فيها مشقَّة ثقيلةٌ على النَّفسِ، فإنَّ النَّفسَ بطبعِها لا تُحبُّ أيَّ قيدٍ عليها؛ فالصَّلاةُ تحتاجُ إلى وضوءٍ وسَيْرٍ إليها وانتظارٍ لوقتِها، وقد نتركُ بسببِها ما نُحبُّ من اللعبِ واللهوِ والرَّاحةِ.

لكنْ انتبهوا: ثمَّة صِنفٌ منْ النَّاسِ ينتظرُ الصَّلاة انتظارًا، ولا يجدُ طمأنينتَهُ وراحتَهُ إلّا فيها، ولَذّةُ هذه الطَّاعةِ بخصوصِها تُنسيهِ كلَّ مشقَّةٍ أو تعبٍ، بل المشقَّةُ في البعدِ عنها؛ هَذا هو صِنفُ الخاشعينَ.

والخشوعُ هو التَّذلُّلُ وكسرُ النَّفسِ للرَّبِّ العظيمِ، وحتَّى نُدرِك كيْفيَّةَ تحْصيله، وما هو منشأُ الخُشوعِ وسببُهُ، جاءَ قولُ الله:

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يظنُّونَ هنا بمعنى: يعلمونَ، كقولِ الله تعَالَى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف ٥٣].

والآيةُ هنا تتكلَّمُ عَن صِنفٍ علِمَ أهلُهُ تمامَ العلمِ واعتقدوا وصدَّقوا واستحضروا على الدَّوامِ أنَّهم محشورونَ وراجعونَ إلى ربِّهم بعدَ الموتِ، وواقفونَ بين يديهِ ليُحاسِبَهم. هؤلاء: لَمَّا أَيْقنوا بالمعادِ والجزاءِ، سَهُلَ عليهم فعلُ الطَّاعاتِ وتركُ المنكراتِ.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

تذكيرٌ وخطابٌ آخرُ لبني إسرائيلَ بنِعَمِ الله على أجْدادِهم وآبائِهم، لعلَّهم يؤمنونَ حقَّ الإيمانِ، ويَصْدُقونَ في توحيدِهم وعبوديَّتِهم، ولعلَّهم يُحسنونَ شُكرَ هذِه النِّعَم، فإنَّ مِن طَبعِ النفوسِ الْكَرِيمَةِ امْتِثالَ أَمرِ الْمُنعِمِ؛ لِأَنَّ النِّعْمَةَ تُورِثُ المَحبَّةَ.

وقَدْ تَقدَّمَ معَنا عَددٌ مِن نِعَمِ الله التي أَكْرَمَهُم بِها، ولكِنَّ الآيَةَ هُنا خَصّت إِحدى نِعَمِ الله العظيمةِ عليهِم، وهِيَ نِعمةُ تَفْضيلِهِم عَلَى سائِرِ الأُمَمِ مِن أَهْلِ زمانِهِم بِما أُعْطوا مِنَ الْمُلْكِ والرُّسلِ والكُتُبِ. كَما قالَ تَعالَى:

﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان ٣٢]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة ٢٠].

فالآيةُ هُنا تدُلُ على أَنَّهُم أفضلُ أهلِ زمانِهم، لا أفضلَ الأُمَمِ مُطلَقًا؛ فإنَّ أفضلَ الأُممِ على الإطلاقِ أُمَّةُ محُمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما دَلَّ على ذلِك قولُ اللهِ تعالَى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران ١١٠]. ولَعلَّكُم لاحَظتُم في الآيةِ الكريمةِ أنَّ الخَيْريَةَ هُنا لَيسَت خَيريَةَ لَونٍ أَوْ جِنسٍ، وإنَّما خَيْريَةُ الإيمانِ والدعوةِ إلى اللهِ.

أَخرجَ التِرمِذيُّ وابنُ ماجه وغيرُهما عَن مُعاويَةِ بن حَيْدَةَ القُشَيريِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنكُم تُتِمُّون سبعينَ أُمَّةً، أَنْتُم خيرُها وأَكرمُها على اللهِ».

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨ ﴾

بَعدَ سِياقٍ قُرآنيٍ استَطرَدَ في بَيانِ النِّعَمِ على بَني إسرائيلَ، واستَطرَدَ في تَوجيهِهِم وتَربيتِهِم، جاءَتِ الآيةُ هُنا تُخَوِّفُهُم وتُحذِّرُهم وتُذكِّرُهُم بيومٍ سيَقِفونَ فِيهِ للحِساب بَيْنَ يدي اللهِ، وهُوَ يومُ القيامةِ الذي لا يُغني فِيه أحدٌ عن أَحدٍ، لا الآلهةُ ولا غَيرُها، كما في قولِ اللهِ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ [الأنعام ١٦٤]، وقولِه سُبحانَه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا ﴾ [لقمان ٣٣].

﴿ وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ ﴾ يعني: إن ماتوا علَى كُفرِهِم ولَم يُؤمِنوا؛ فَلا شفاعةَ ولا واسِطةَ لهُم في هذا اليومِ، ولا يُقبلُ سَعيُ أيِّ أحدٍ إليهِم، كما في قولِ اللهِ: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر ٤٨]، وكما قالَ عَن أهلِ النارِ: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴾ [الشعراء ١٠٠-١٠١]، فَمَنْ ماتَ علَى الكُفرِ؛ فلا شفاعةَ لهُ، إلَّا ما ثَبَتَ مِن شفاعةِ نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعمِّهِ أبي طالِب لِتخفيفِ العذابِ عنهُ، لا لإخراجِه مِن النارِ. أمَّا الشفاعةُ لأهلِ التوحيدِ فَهيَ ثابتةٌ في نصوصِ الوَحْيِ وللهِ الحَمدُ والمِنَّةُ.

﴿ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ ﴾ أَيْ: لا يُقبلُ مِنها فِديةٌ ولا بَدَلٌ ولا عوَضٌ في هذا اليومِ، كما قالَ تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ [آل عمران ٩١]، وقالَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [المائدة ٣٦].

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أيْ: ولا أحدٌ يَغضَبُ لهُم فينصُرُهم ويُنقِذُهم مِن عذابِ الله، كما قالَ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطَّارِق ١٠].

قالَ ابنُ جريرٍ: «بطُلَت هُنالِك المُحاباةُ، واضمَحلَّتْ الرِّشى والشَّفاعاتُ، وارتَفعَ مِنَ القومِ التعاونُ والتناصُرُ، وصارَ الحُكمُ إلى عَدلِ الجبارِ الذي لا يَنفَعُ لديهِ الشُّفعاءُ والنُصراءُ، فَيَجزي بِالسيئَةِ مِثلَها وبِالحَسَنةِ أضْعافَها».

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾

نِعمُ الله تَعالَى عَلَى بَني إسرائيلَ كثيرةٌ، والقرآنُ اعتنى بِذكْرِها وتَفصيلِها؛ فإنَّ فيها عِظاتٍ وعِبرًا لِكُلِّ مَن كانَ لَهُ قلبٌ.

مِن نِعَمِ الله عليهِم أَن أَنقَذَهُم وخَلَّصهُم مِن آلِ فرعونَ، فصَحيحٌ أنَّ الإنجاءَ حَصَلَ لأسلافِ المُخاطبينَ وأجدادِهِم وليسَ لَهُم، ولكِنَّ القرآن امتنَّ عليهِم بذلكَ؛ لِأَنَّ تَنجِيَةَ أَسْلافِهِمْ وأَجدادِهِمْ تَنجِيَةٌ لَهُم، فَلَوْ بَقِيَ أَسْلافُهُمْ فِي عَذَابِ فِرْعَوْنَ لَكانَ ذَلِكَ لاحقًا لِمَن بَعدهُمْ.

وفِرْعَوْنُ: مَلِكُ الْقِبْطِ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وآلُ فِرْعَوْن هُم أَقارِبُه وعَشِيرَتُه وأَتْبَاعُهُ، وفِرْعَوْنُ لَيسَ اسمًا لهذا المَلِكِ، وإنَّما هُوَ لَفظٌ يُطلَقُ عَلَى كُلِّ مَن مَلَكَ مِصرَ في زمانٍ معيَّنٍ، كَما أَنَّ قَيصَرَ عَلَمٌ عَلَى كُلِّ مَن مَلَكَ الرُّومِ، وكِسْرى لِكُلِّ مَن مَلَكَ الفُرسَ، وتُبَّعٌ لِمن مَلَكَ اليمن، والنَّجاشِيُّ لِمَن مَلَكَ الحَبَشَةَ، وهَكَذا.

إذاً، يقولُ تَعالَى: واذكُروا يا بَنِي إسرائيلَ نِعمَتِي عَلَيْكُم إِذ خَلَّصتُكُم وأَنقذتُكُم مِن آلِ فِرعَوْنَ الذين كانوا يُذيقُونَكُم أَشَدَّ العذابِ وأَسواَهُ وأفظَعَهُ، مِنْ إذْلالِكُم واحتِقارِكُم وتكليفِكُم وتسخيرِكُم فِيما هُوَ شاقٌ عليْكُم.

ومِن عذابِه لَهُم أَنَّ فِرعَوْن أَمرَ هُوَ وأَهلُ مجلِسِهِ المُقرَبونَ (المَلأ) بِقتلِ ذكورِ بني إسرائيلَ مرتَيْنِ؛ الأُولى: عِندما أخبَرَهُ كَهنتُهُ ومُنجِّموهُ بِقربِ وِلادةِ مَن سَيَذهَبُ مُلكُهُ على يَدَيْه، فأَمَرَ بِقتلِ كُلِّ مولودٍ ذَكرٍ ففعَلَهُ زمانًا طويلًا ثُمَّ كَفَّ عنهُ؛ مَخافَةَ أَنْ تَفنى بَنُو إسرائيلَ، وتَقعَ الأعمالُ الشاقةُ عَلَى القِبطِ، وهذِهِ التي أشارَت إِلَيْها الآيةُ هُنا.

وأمَّا المرةُ الثانيةُ، فكانت حينَ جاءَ مُوسى بدعْوَتِه، حيثُ أُمَرَ بذلِك عُقُوبةً لِبني إسرائيلَ وإذلالًا لهُم، ولِكَيْ يتشاءَموا مِن مُوسَى ودَعوتِه فينْفضُّوا عنهُ ويبتَعِدوا عَن دَعوتِه، وهِيَ التي جاءَ فيها قولُ الله تَعالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ ﴾ [غَافِر ٢٥].

واسْتِحياءُ نِسائِهم أَيْ: تَرْكُ النِساءِ على قَيْدِ الحياةِ للخدمةِ، ولاستعمالهِنَّ في مَشاقِّ الأعمالِ وأراذِلِها.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾ أَصلُ البلاءِ: الاختبارُ، وقَدْ يكونُ بالخيْرِ، وقَدْ يكونُ بالشَّرِ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ ﴾ [الأنبِياء ٣٥]، وقالَ: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الأعْرَاف ١٦٨]، و قدْ أجمعَ جُمهورُ المُفسِّرينَ عَلَى أنَّ المُرادَ بالبلاءِ هُنا، هُوَ الإشارةُ إلى ما كانُوا فِيه مِن العذابِ المُهينِ، مِن ذبحِ الأبناءِ واستِحياءِ النِّساءِ، فإنَّهُ بلاءٌ كبيرٌ وعظيمٌ.

﴿ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٠ ﴾

نعمةٌ أُخرى مِن نِعَمِ الله عَلَى أجدادِهِم وأسلافِهِم، والتي هِيَ نِعمَةٌ لَهُم.

وهذِه النِّعمةُ كَانَ بِها تَمامُ الإنْجاءِ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ، وَفِيهَا بيَانُ مِقْدارِ إِكْرامِ الله تَعَالَى لَهُمْ، وَفيها مُعْجِزَةٌ لِمُوسَى عَلَيهِ السَّلَامُ الذي هُوَ رسولُ الله إلى بَنِي إِسرائِيلَ.

لَمَّا خرجَ مُوسى عليهِ السلامُ ومَن آمنَ مَعهُ مِن بني إسرائيلَ بوحيٍ مِن الله، لِمُغادرةِ الأَرْضِ المِصرِيَّةِ هَرَبًا مِن فِرْعَوْنَ وجُنودِهِ، لَحِقَهُم فِرْعَونُ وجُنودُهُ لِيقتُلُوهُم، حَتَّى إذا وَصَلوا البَحرَ، أَوْحى الله إِلى مُوسَى: «أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ»، فضَربَهُ، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشُّعَراء ٦٣]، يَعني: فانْشَقَّ مِن نِصفِهِ، فكانَ كُلُّ شِقٍّ كالجبلِ العظيمِ، ثُمَّ سارَ مُوسى ومَن مَعهُ، وفِرعونُ خلفَهُم يَتبعُهُم، حَتَّى إذا انتهى موسى ومَن مَعهُ مِن البحرِ، أَطبَقَ الله على فِرْعَوْنَ وآلِهِ الماءَ وأغرقَهُم، وأَكرَمَ الله تَعالَى مَن نَجَّاهُم بِرؤيةِ فرعونَ وجُنْدِهِ وهُم يَغرَقونَ؛ لِيكونَ ذلِك أَشْفَى لِصُدورِهِم، وأَبلغَ في إِهانَةِ عَدُوِّهِم، فكانَ يومًا عظيمًا خلَّدَ القرآنُ ذِكرَهُ.

بَلْ خلدَتْهُ السُّنةُ بِشُكرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّها، أَنْ نَجَّى فِيه نَبِيَّهُ ومَن مَعَهُ مِن بَطشِ الظالمينَ، وشُكرُها كانَ بِاستِحبابِ صيامِ ذلِك اليومِ. أخرجَ الإمامُ البُخارِيُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُما، قالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ فَرَأَى اليَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عاشُوراءَ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟»، قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى الله بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ: «فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ»، فَصَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ.

﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٢﴾

مِن غرائبِ بَني إسرائيلَ أَنَّهُم بَعدَ كُلِّ هذِه النِّعَمِ وكُلِّ هَذَا الاصطِفاء، وبَعدَ أَن نَجّاهُم مِمَّن كانَ يَدَّعِي الرُّبوبِيَّةَ والأُلوهِيَّةَ في الأَرْضِ وأَغرقَهُ وقومَهُ، وبَعْدَ أن رَأَوْا مُعجزاتِ سَيِّدِنا مُوسَى عليهِ السلامِ، أقولُ: بَعدَ كُلِّ هَذا، مَرُّوا بَعدَ خُروجِهِم مِن البَحرِ على قومٍ يَعكِفونَ على عبادةِ الأَصْنامِ فَقَالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأَعْراف ١٣٨]، فَصَبَرَ عليْهِم مُوسى عليهِ السلامُ وعَلَّمَهُم وأرشَدَهُم إلى التَّوحِيدِ الخالِصِ.

بَلْ دَلَّتِ الآياتُ هُنا عَلَى استِعدادِهِم للضَّلالِ، وسُرعةِ رَجعَتِهم عَن طريقِ التَّوحيدِ.

والآيةُ تشيرُ هُنا إلى ما حَصَلَ مَعَهُم بَعدَ أَن وَصَلُوا طُورِ سيناءَ فِي طريقِ توجُّهِهِم إلى الأَرْضِ المُقَدَّسةِ، فقدْ ذَهَبَ مُوسى عليهِ السَّلامُ لِميقاتِ رَبِّهِ لِيُناجِيَهُ ولِيَتَلَقَّى مِنهُ الأَلْواحَ التي فِيها التَّوراةُ والشَّريعَةُ، ومَكَثَ هُناكَ أرْبعينَ ليلةٍ، وهِيَ التي ذُكِرَت فِي قولِ الله تعالَى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾ [الأَعْراف ١٤٢]، فلَمّا ذَهَبَ وغابَ عنهُم، واستَخلَفَ عَلَيهِم أخاهُ هارُون عَلَيْهِما السلامُ، اسْتَضْعَفُوهُ وظَنُّوا أَنَّ مُوسَى هَلَكَ، فاتَّخذوا العِجلَ إلَهًا ومعبودًا مِن دُونِ الله، وهذا العِجلُ أَغراهُم بِهِ السَّامِرِيُّ كَمَا في سُورةِ طَه، وصَنَعَهُ لهُم مِن ذَهَبٍ وفِضَّةٍ مِنْ حُلِيِّهِمْ، فظَلَمُوا أنفُسَهُم بِشركِهِم ظُلمًا كثيرًا. قالَ الله تعالَى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ [الأَعْراف ١٤٨]، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طَه ٨٧-٨٨].

هُنا فِي هَذَا السِّياقِ فِي سورةِ البَقَرةِ يُذَكِّرُهُم بالمَغفِرةِ والعَفوِ لِذنبِهِم وجُرمِهِم العظيمُ بالشِركِ مَعهُ وعبادةِ غَيْرِه، لِعَلَّهُم يُحسِنونَ شُكرَ هذِهِ النِعَمِ والآلاءِ المُتتابِعَةِ.

والآياتُ والسِياقُ فِيه تسْليَةٌ للنَّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِما كانَ يُشاهِدُ مِن جُحودِهِم لنُبُوَّتِهِ وللكِتابِ الذي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، هَذا طَبْعُهُم مُنذُ القِدمِ.

﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ٥٣﴾

بَعدَ أَن نَجَّاهُم وأَكرمَهُم بِما ذَكرتْ الآياتُ، أَنزَلَ اللهُ تَعالَى على عبدِهِ مُوسى عليهِ السَّلامُ التَّوراةَ الَّتِي بِهَا صَلاحُ أُمُورِهِمْ وَانْتِظَامُ حَيَاتِهِمْ وَتَأْلِيفُ جَمَاعَتِهِمْ.

وهذِهِ التَوْرَاةُ وَصفَتْها الآيَةُ بِأنَّها فُرقانٌ، يُفْرَقُ بِهِ بينَ الحَقِّ والباطِلِ، والهُدى والضَلالِ، لَعَلَّهُم يَهتَدُونَ وَيستَقِيمونَ عَلَى الطَّرِيقِ. قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأَنۡبِيَاء ٤٨].

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾

رَجعَ مُوسى عليهِ السلامُ إِلى قومِهِ فَوجدَهُم عَلَى حالتِهِم التي ذَكرَتْها الآياتُ السابِقَةُ؛ يعبُدونَ العِجلَ مِن دُونِ اللهِ، فَأحرَقَ العِجلَ وذَرَّهُ ونَثَرَهُ فِي اليَمِّ، ووَعَظَهُم وذَكَّرَهُم وأرجَعَهُم إِلى الجادَّةِ وإِلى طريقِ الاستِقامةِ، وأمرَهُم بِالتَّوبةِ إِلى مَن بَرَأَهُم وخلَقَهُم، فَرجِعوا وتابُوا. قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأَعۡرَاف ١٤٩].

ثمَّ خَرجَ إِلى رَبِهِ بِسبعينَ رجُلًا خيِّرًا صالِحًا، اختارَهُم مِن قَومِهِ لِيطلُبوا مِن اللهِ التوبَةَ عليْهِم وعَلَى قومِهِم، فَأَخذَتهُم الصاعِقَةُ لَمَّا سَأَلُوهُ رُؤيَةَ اللهِ كَما سَيأتِي، ثُمَّ بُعِثوا، فسألَ مُوسى رَبَّهُ التَّوبَةَ لِبَني إسرائيلَ مِن عبادةِ العِجلِ، فَأَمرَهُم رَبُّنا بِأن يَقتُلَ بعضُهُم بعضًا.

هكذا كانَت صِفَةُ توبةِ اللهِ تعَالَى عَلَى بَني إسرائيلَ مِن عبادةِ العِجلِ؛ أَمرَهُم أَن يقتُلَ كُلُّ واحِدٍ مِنهُم كُلَّ مَن لَقِيَ مِن وَلَدٍ ووالِدٍ وغيْرِهِما، ولا يُبالي مِن قَتلٍ فِي ذلِكَ الموطِنِ، ففعَلُوا ما أُمِروا بِهِ، فَغَفَرَ اللهُ تَعَالَى لِلقاتِلِ والمقتولِ؛ ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

رَوَى ابنُ جريرٍ بِإسنادٍ جَوَّدَهُ بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ بني إِسرائِيلَ ونَبِيَّهُم حزنوا عَلَى مَن قُتِلَ، فَأَوحى اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ إِلى مُوسى: ما يَحزُنُكَ؟ أَمَّا مَن قُتِلَ مِنكُم فَحيٌّ عِندي يُرزَقون، وأَمَّا مَن بَقِيَ فَقَد قَبِلتُ توبَتَهُ؛ فَسُرَّ بِذلِكَ مُوسَى وبَنو إِسرائِيلَ.

والمُتأمِّلُ لِما جرَى مَعَ بَني إسرائيلَ، يَلْحَظُ شِدةَ ما أُمِروا بِه، يعني: لَيْسَ سهلًا أن يُؤمَرَ التائِبُ بِقَتلِ غَيْرِه، لَكِن تأمَلوا جُرمَهُم العَظيمَ، كَيْفَ يَسهُلُ علَيْهم تبديلُ دينِهم، وكيفَ يَعدِلونَ عَنِ التَّوحيدِ وصَرْفِ العبوديَّةِ للهِ لأَبسَطِ ما يُعرَضُ عَلَيْهم، هُم شَدَّدوا عَلَى أَنفُسِهِم فشَدَّدَ اللهُ عَليهِم، ومَعَ ذلِكَ كانَ مَا أُمِروا بِهِ كَفَّارةً لِذنبِهِم وجَابرًا لِما لَحِقَهُم مِنَ الإثمِ، فَسقطَتِ العقوبةُ الأُخرَوِيَّةُ عنهُم، وهِيَ أَشدُّ وأَعظَمُ.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

سياقٌ قرآنيٌ مُستمِرٌ يُذكِّر مَن تنزلَت آياتُ القرآنِ في زَمَنِهِم بِنعَمِ اللهِ عَلَى أسلافِهِم وأَجدادِهِم كَمَا قُلنا، نِعمٌ على أجدادِهِم هِيَ نِعمٌ عَليهم، وهِيَ مَكتُوبةٌ عِندهُم في التوراةِ ومَعلومةٌ لديهِم، والحديثُ عَنها لا يَكونُ إلَّا بِوحيٍ، لَعلهُم يُؤمِنونَ بِرسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يكونونَ كأَسلافِهِم.

الآيتانِ هُنا تذكُرانِ مَا حَصلَ مَع مُوسى والسبعينَ رَجُلًا، الذين اختارَهُم لَمَّا ذهبوا لِيَسأَلوا رَبَّنا أن يتوبَ على بَني إسرائيلَ مِمَّا فعلُوا بِعبادَتِهم العِجلَ، مُوسى يُناجي رَبَّهُ، والذينَ مَعهُ طَمِعوا فِي رُؤيةِ اللهِ تَعالَى، فَطَلبوا مِن نَبيِّهِم رُؤيةَ اللهِ لِيكْمُلَ إيمانُهم ويُصدِّقوه. تأمَّلوا: كُلُّ هَذا ولَم يَكمُل إيمانُهم.

فأماتَهُم رَبُّنا بِصاعِقةٍ مِن عِندِه، وهُم يَنظُرونَ إلى بَعضِهِم البَعض. والصاعِقةُ: نارٌ مُحرِقةٌ كالتي تكونُ مَع السُّحبِ والأمطارِ والرُّعودِ، سَبَّبَتْ رجفَتَهُم وخَوفَهُم ثُمَّ مَوْتَهُم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

ثُمَّ أنعَمَ عَلَيْهِم بِإحيائِهِم بَعدَ دُعاءِ مُوسى بذلِك، لِيُكمِلوا ويَستَوْفُوا آجالَهُم المَكتُوبةَ عِندَ اللهِ؛ مُعجِزةٌ أُخرى لِنبيِّ اللهِ مُوسى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ. قالَ اللهُ تَعالَى عَن دعاءِ مُوسى لَهُم بَعدَ الصَّاعِقةِ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأَعْرَاف ١٥٥].

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾

لَمَّا ذكَرَ تعالَى ما دفَعَهُ عنهُم مِن النِّقَم، شَرَعَ يُذكِّرُهُم بِما أَسبَغَ عليْهِم مِن النِّعَم، فقالَ: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ أيْ: السَّحابَ الأَبيَض، ظُلِّلوا بِهِ فِي التيهِ لِيقيَهم حرَّ الشَّمسِ.

﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ الله عنْهُما، قالَ: كانَ المنُّ ينزِلُ عليْهِم على الأشجارِ، فيَغْدونَ إليْهِ فيأكُلونَ مِنهُ ما شاؤُوا.

والمَنُّ المَشهورُ هُوَ الطَّلُّ الذِي يَسقُطُ عَلَى الشَّجَرِ فيُجمَعُ فيُؤكَلُ؛ إن أُكِلَ وَحدَه كانَ طعامًا وحلاوةً، وإِن مُزِجَ وخُلِطَ مَعَ الماءِ صارَ شرابًا طيِّبًا، أكرَمَهُم الله بِهِ بِلا كَلَفةٍ ولا تَعبٍ.

وأمَّا السّلوَى فطائِرٌ سَمينٌ مِثلُ الحَمامِ، كانوا يَأكُلونَ مِنهُ.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أَمْرُ إِباحةٍ وإِرشادٍ وامتِنانٍ.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ومَا ظَلَمونا بتركِهم لِشُكرِنا، وإقبالِهم على مَعصِيَتِنا، ولَكِن ظلَموا أنفُسَهُم بِمُخالفتِهِم أوامِرَ الله، ولذلِك نالَهُم ما نالَهُم مِمَّا ذَكرَتِ الآياتُ.

قالَ أهلُ العِلمِ: «ومن هاهُنا تَتبيَّنُ فضيلةُ أصْحابِ مُحمَدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ عنهُم، عَلَى سائِرِ أصحابِ الأنبياءِ فِي صَبرِهِم وثَباتِهِم وعَدَمِ تَعنُّتِهِم، كَمَا كانوا مَعهُ فِي أَسفارِهِ وغَزواتِهِ التي فِيها الحَرُّ الشديدُ والجُهدُ، لَم يَسأَلوا خَرقَ عادةٍ، ولا إِيجادَ أَمرٍ». قُلتُ: رَضِيَ الله عَنهُم وأَرضاهُم، وجَعلَنا حَتَّى المَماتِ عَلَى خُطاهُم.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾

كانَت الآياتُ قبلَ هذِه الآيةِ تُعدِّدُ نِعمَ الله المُتتابعةِ الكثيرةِ عَلَى بَني إسرائيلَ؛ نَجَّاهُم مِن آلِ فِرعَونَ بعدَ أَن فَرَقَ لَهُم البَحرَ، وغَفرَ لَهُم عِبادَتَهُم العِجلَ مِن دونِ الله، وآتَى مُوسَى التَوْراةَ فِيها هُدىً لَهُم ونُورٌ، وسَألوا مُوسَى رُؤيَةَ الله جَهرَةً فأَخذَتْهُم الصَّاعِقةُ ثُمَّ أَحياهُم ربُّنا، وظَلّلهم بِالغَمامِ وأَنزَلَ عليْهِم المَنَّ والسَّلوَى.

ثُمَّ تَأتِي الآياتُ هُنا لِتُبيِّنَ شيئًا مِن نِعَمِ الله الأُخرى علَيْهِم، كُلُّ ذلِك رجاءَ أَن يُخلِصوا فِي عَقيدَتِهِم ويُحسِنُوا العَمل.

فِي هذِه الآيَة: بَعدَ خُروجِهِم مِن مِصرَ وحُصولِ مَا ذَكَرَتهُ الآياتُ السابِقَةُ مَعهُم؛ أَمَرهُم الله بِدخولِ الأَرْضِ المُقدّسةِ التي كَانَت بِأَيْدِيهِم فِي زَمَانِ أَبِيهِمْ يَعْقُوب، لَمَّا ارْتَحَلَ هُوَ وَبَنُوهُ وَأَهْلُهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ أَيَّام يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا بِهَا حَتَّى خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَمرهُم رَبُّنا أَن يَدخُلوا بَيْتَ المَقدِسِ، ويَأْكُلوا ويَنالوا مِن خَيْراتِه، وأَنْ يُقاتِلوا ويُجاهِدوا مَن فِيهِ مِنَ الْعَمَالِقَةِ الكَنعانِيينَ الجَبَّارِينَ، ووَعدَهُم بِالنَّصرِ، لكنَّهُم لَم يُطيعوا وَضَعُفوا، وخَافوا القومَ الجَبارينَ فِيها، وامتَنَعوا مِن الدُّخولِ وردُّوا قائلينَ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المَائِدَة ٢٤]، فَباؤُوا بِغضبٍ مِن الله، وعَاقبهُم بالتَّشريدِ والضَّياعِ، وحرمَهُم مِن دخولِ الأَرضِ المُقدّسةِ أربعينَ عامًا يَتيهُونَ فِي الأَرضِ، كَما جاءَ فِي قولِ الله تَعالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المَائِدَة ٢٦].

وَبعدَ مُرورِ فَترةِ العذابِ وخُروجِهم مِن التِّيهِ الذي تَوفَّى الله فيهِ نَبيَّهُ مُوسَى عليهِ السلامُ، أَمرَ الله نَبيَّهُ يُوشَع بن نُونٍ عليهِ السَّلامُ باستِئنافِ القِتالِ لِفتحِ الأَراضِيَ المُقدّسةِ وهزيمَةِ أَهلِها، فَجمَعَ يُوشَعُ عليهِ السَّلامُ مَن تَبقّى مِن قومِهِ وقَاتلَ بِهِم، حَتّى تَحقّقَ لَهُم النَّصرُ، ومَنَّ الله عليهِم بالفَتحِ.

وبَعدَ أَن وَضعَتِ الحربُ أوزارَها، أَوحَى الله إِلى نَبيِّهِ يُوشَع عليهِ السَّلامُ بِدخولِ الأَرْضِ المُقدّسةِ مِن بابِها دُخولَ الخاشِعينَ لله تَعالَى عِندَ الفَتحِ بِالفِعلِ والقَولِ، الخاضِعينَ لَهُ فِي سَاعةِ النَّصرِ والاستِعلاءِ، وأَن يَعترِفوا بِذُنوبِهِم ويَستغفِروا لامتِناعِهِم مِن القِتالِ فِي المَعركَةِ الأُولَى فِي عهدِ مُوسى عليهِ السلام، وأَن يَشكُروا الله عَلَى نِعمِهِ.

فقَوْلُ الله تَعالَى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾ أَيْ: تَمتَّعوا كَما شِئْتُم بِخَيْراتِها وثِمارِها الكَثيرَةِ وعِنبِها ورُمَّانِها وَتِينِها ولَبَنِها وعَسَلِها.

وقَولُه سُبحانهُ: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ أَيْ: خاضِعِينَ لله تَعالَى، رَاكِعينَ مُنْحَنينَ تعظِيمًا لَهُ وشُكرًا.

وقَولِه جَل وعَلاَ: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ أَيْ: حُطَّ عَنَّا خطايَانا، اغفِر لنا فإِنَّا نُقِرُّ بِذُنُوبِنا.

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أيْ: إذا فعلتُم ما أمرناكُم غفرنا لكُم الخطيئاتِ وضعّفنا لكُمُ الحسناتِ، وزدناكُم مِنْ خيرَيِ الدُّنْيا والآخرةِ.

وهَذا أمرٌ نافعٌ لِكُلِّ مَن أنعمَ الله عليْهِ بنعمةِ الفتحِ والنَّصرِ، يَشكُرُ الله ويخضعُ لَهُ، ويتذكَّرُ نِعمتَهُ عليْهِ ويُحْسِنُ شُكرَها، وهَذا حالُ نَبيِّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فُتوحاتِهِ كَما ذكَرَت كُتُبُ الأحاديثِ والسِّيَرِ.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩﴾

لَيسَ كُلُّ قَوْمِ مُوسَى عليْهِ السَّلامُ بَدّلوا أمرَ الله، بَل كَانَ في قَومِ مُوسى الصَّالِحونَ الآمِرونَ بِالمعروفِ والنَّاهونَ عَنِ المُنكَرِ كَما قالَ الله تَعالَى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف ١٥٩].

لما طُلب منهم ما جاءَ في الآية السابقةِ، استَجابَ الذينَ ظَلَمُوا من قوْمِ مُوسَى عليه السَّلامُ لأمر الله، عَلَى صُورةٍ تُوحِي بِدناءةِ أخلاقِهم وقِلّةِ حيائِهم وفسادِ باطِنِهم، عَاندُوا واستهزؤوا وخَالَفَ كثيرٌ مِنهُم ما أُمِرُوا بِهِ. وكَعادتِهم: استخفُّوا بما أُمِروا بِهِ، كَما دَلَّ عَلَى ذلِك ما أَخرَجَهُ البُخارِيُّ ومُسلِمٌ فِي صَحيْحِهِما عَن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، عَن رسولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ. يَعنِي: بَدّلوا فِي القَولِ والفِعلِ سُخريةً وتلاعُبًا؛ أَمَّا الفِعلُ فالله سُبحانَهُ وتَعالَى قالَ لهُم ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ فَلَمْ يَدخُلوا خاضِعينَ، وإِنَّما دَخلُوا مُستهزئينَ مُستكبِرينَ رَافِعي رُؤوسِهِم، يَزحَفُونَ عَلَى أستاهِهِم، أيْ: عَلَى أَدبارِهِم، وقالَ الله تَعالَى لهُم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ فقالُوا: حَبةٌ فِي شَعْرةٍ، وفِي روايةٍ أيْضًا في الصحيحِ قالُوا: «حِنطَة»، فأيُّ كُفرٍ بالله تَعالَى واستهزاءٍ هَذا.

﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ أنزَلَ الله سُبحانَهُ وتَعالَى بالذين سَخِروا واستَهْزَءُوا وظَلَموا مِنهُم بَأْسَهُ وعذابَهُ الأليمَ الذي لا يُرَدُّ عَن القومِ الظالِمين.

فَسّرَ غَيْرُ واحِدٍ مِن أهلِ التفسيرِ الرِّجزَ بالطّاعونِ، مُستدلِّينَ بِما أخرجهُ البُخارِيُّ عَنْ أَسامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ الله عَنْهُما، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ الطَّاعُونَ فَقالَ: «بَقِيَّةُ رِجزٍ وَعَذابٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا وَقَعَ بِأَرضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَهْرَبُوا مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ بِأَرضٍ فَلَا تَهبِطوا عليْهِ».

صحيحٌ أنَّ السِّياقَ القُرآنيَّ جاءَ مُذكِّرًا لليهودِ مِن بَني إسرائيلَ بِما حَصَلَ مَعَ أجدادِهِم حَتَّى لا يَسلُكُوا طريقَهُم، ولكِنَّ الآياتِ هذه ومَا فِيها، تَحمِلُ تحذيرًا لَنا مِن أَن نَتّبعَ خُطاهُم، فَنَهلِكَ كَما هَلَكُوا.

ولَنا أَن نَسأَلَ بَعدَ بَيانِ ما فعلهُ أولئِكَ في أوامِرِ الشَّرعِ: هَلْ وُجدَ في زمانِنا مِن أبناءِ أُمتِنا وجِلدَتِنا مَن استَخَفَّ بالشَّرعِ وبِأوامِرِه، ومَن استَهزَأَ بِبَعضِ الأحاديثِ وبِالعُلَماءِ وبالدُّعاةِ، ومَن غَيَّرَ وبَدَّلَ دِينَ اللهِ تَحتَ سِتارِ الحِرصِ والعَقلِ والتَّجديدِ، ومَن يُجاهِرُ بالمعاصي عُتُوًّا واستِعلاءً وغطرسةً، والجوابُ لكُم يَرضَى اللهُ عنكُم.

﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠ ﴾

نِعَمٌ مُتجدِدةٌ عليهم؛ مُوسى عليهِ السَّلامُ في التيهِ في الصَّحراءِ يَدعُو اللهَ تَعالَى أَن يَسقِيَ بَني إسرائيلَ الماءَ، فَقَدَّرَ اللهُ معجِزةً لِسيِّدنا مُوسَى يرونَها بأعيُنِهِم فِيها تكريمٌ لهُم.

أَكرَمَهُم بِاستِجابةِ دُعائِه بأَن أمرَ مُوسى عليهِ السَّلامُ أَنْ يضرِبَ بعصاهُ حَجَرًا يرتحِلُ معهُم أَيْنما حلُوا، فيُخرِجَ اللهُ مِنهُ كُلما ضَربَهُ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا بِعَدَدِ أَسباطِهِم، وَهُم ذُرِيَّةُ يَعقوبَ مِن أَولادِهِ الاثْني عشر.

وَعَصا مُوسَى عليهِ السَّلامُ هِيَ الَّتي أَلْقَاها فِي مَجْلِسِ فِرْعَوْنَ فتَلَقَّفَتْ ما أَلقاهُ السَّحرَةُ، وَهِيَ الَّتي كَانَتْ فِي يَدِ مُوسَى حِينَ كَلَّمَهُ اللهُ فِي بَرِّيَّةِ سِيناء قَبْلَ دُخُولِهِ مِصرَ.

﴿ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡ ﴾ أَعْلَمَ اللهُ كُلَّ سِبطٍ مِن أسباطِهم، بالعَينِ الخاصَّةِ بِهِم لِيشرَبوا مِنها، حتَّى لا يَتدافَعوا ويَختَلِفوا.

﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ كُلُوا مِنَ المَنِّ والسَلوى الذي تَقدَّمَ إنزالُه، واشرَبوا مِن هَذا الماءِ الذي أَنْبعتُهُ لكُم بلا سَعْيٍ مِنكُم ولا كَدٍّ ولا تَعَبٍ.

﴿ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ النِّعْمَةُ قَدْ تُنْسِي الْعَبْدَ حاجَتَهُ إِلَى الْخَالِقِ، فَيَهْجُرُ ما كانَ قَدْ عاهدَ اللهَ عليْه، ويقعُ فِي الْفَسادِ. قَالَ تَعالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العَلَق ٦-٧]. ولِذلِكَ قالَ اللهُ لهُم بَعدَ ذِكرِ النِعَمِ: ﴿ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ أَيْ: لا تَتَمادُوا فِي إفسادِكُم، ولا تُقابِلوا النِّعَمَ بالعِصيانِ، فتُسلَبوها.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

مِمَّا أنعمَ اللهُ بِهِ على بني إسْرائيلَ فِي التِّيهِ، المَنُّ والسَّلوَى، وهوَ طعامٌ طيبٌ نافعٌ هنيءٌ قريبٌ منْهُم كمَا تقدَّم، لكنَّهُم ضَجِروا واعترَضُوا، وطَلبُوا من نبيِّ اللهِ موسى عليه السلام طعامًا أدنى مِمَّا أَنعمَ اللهُ عليهِم بِهِ، طَلَبوا أن يَدعُوَ اللهَ تعَالَى لَهُم أن تُخرِجَ لَهُم الأرْضُ مِن خيْراتِها مِمَّا اعتادوا عليْهِ مِن البُقولِ، وهِيَ سائِرُ أنواعِ الخُضارِ كالجَزَرِ والبَطَاطِس ونَحوِهما، وطَلَبوا القِثَّاءَ وهُوَ الخِيارُ ونَحوِه، وطَلبوا الفُومَ وهُوَ الثوْمُ، وقِيلَ: الحِنطَةُ، وهُوَ البُرُّ والقَمْحُ الذي يُعمَلُ مِنه الخُبزُ، وطَلَبوا العَدَسَ.

ودُعاؤُهم وطَلَبُهم هَذَا، كأنَّ فِيهِ كراهةً لِمَا رزقَهُم رَبُّهُم حَتَّى إنَّهُم لَم يصبِروا علَيْهِ، كما ذكَرَت الآيَةُ.

﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ فِيهِ تَقريعٌ لَهُم وتَوْبيخٌ علَى سُوءِ اختيارِهِم، فإنَّهُم إنَّما سَألوا هذِه الأَطعِمةَ التِي ليستْ كالمَنِّ والسَّلْوى في طِيبِهَا ورُقِيِّهَا، لِمَا عُرفَ عنْهم من كثْرةِ تَقلُّبِهِم، وحِرصِهم على الجدَلِ.

والآية تُنكرُ عليهِم طَلَبَهم أطْعِمَةً هِيَ أَقَلُّ نفعًا مِمَّا هُم فِيه مِن العَيْشِ الرَّغِيدِ، والطَّعامِ الهَنيءِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ.

﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ يقولُ لَهُم مُوسى عليهِ السَّلامُ: الذي طلبتمُوهُ موجودٌ وكثيرٌ في أَيِّ بلدٍ دخلتُمُوهُ فاسْعَوا لأنفُسكِم فِي ذلِكَ. يَعنِي: لا يَحتاجُ ما طَلَبْتُم إلى دعاءٍ، فَلَم يُجِبْهُم إِلَى ما طَلَبوا عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وَقِيلَ: أَرادَ اهبِطُوا مِصرَ أَيْ: بَلَدَ مِصرَ، وهو بَلَدُ القِبطِ. أَيِ: ارجِعُوا إِلَى مِصرَ الَّتي خَرَجْتُم مِنهَا، وَالأَمْرُ لِمُجَرَّدِ التَّوْبِيخِ إِذْ لَا يُمكِنُهُمُ الرُّجُوعُ إِلَى مِصرَ.

﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ومِمَّا عاقبَ الله بِهِ جَميعَ بني إسرائيلَ بَعدَ كُلِّ هَذَا، أَنْ قَدَّرَ عليْهِم أَن يَعيشوا أَذِلاءَ مُهانينَ، يَرضُونَ بأَيِّ حياةٍ ويَحرصونَ عليْهَا وإِن كانَت دَنِيَّةً ذليلةً، تُبغِضُهم فِيها كُلُّ شُعوبِ الأَرضِ. قالَ أهلُ العِلمِ: وَمَعْنَى لُزُومِ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ لِلْيَهُودِ، أَنَّهُمْ فَقَدُوا الْبَأْسَ وَالشَّجَاعَةَ، وَبَدَا عَلَيْهِمْ سِيمَا الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ مَعَ وَفْرَةِ مَا أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ انصرفُوا ورجَعوا بَعدَ كُلِّ فِعالِهم بِغضَبِ الله وسَخَطِهِ الذي استَوجبُوهُ عليهِم، وسَبَّبَ عُمُومَ العِقابِ لَهُم جَميعًا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ استكبَروا عَن اتِّباعِ الحَقِّ، وكَفروا بآياتِ الله، وأهانوا حَمَلَةَ الشّرعِ وَهُمُ الأنبياءُ وأَتباعُهُم، وانتَقَصوهُم وقَتلوا كَثيرًا مِنهُم بَعدَ أَن كَفَروا بِهِم وبِما جاءوا بِهِ.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ وهَذَا سَبَبٌ آخَرُ لِما كَتَبهُ الله عليهِم؛ هُم أَقبَلوا عَلَى الحرامِ والمَعاصِي، وتَجاوَزوا الحَدّ واعتَدوا فيما أُمِروا بِهِ، فَكَانَ جَزاؤُهُم عدلًا بِما كَسَبوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾

الآياتُ السَّابِقةُ تكلَّمتْ عَن غالبِ حالِ بَني إسرائيلَ، كَيْفَ خالَفوا الأَوَامِرَ، وارتَكبوا الزَّواجِرَ، وكَيْفَ استَحقُّوا العُقوباتِ التي حَلَّت بِهم. تَأتيكَ الآيةُ هُنا لِتُنبِّه على أَنَّ مِن بني إسرائيلَ وغَيرِهم مَن آمَنَ وأَحسَنَ العَمل.

جاءَتِ الآيَةُ هُنا لَتفتح لِمَن عاصَرَ نُزولَ القرآنِ ومَن جاءَ بَعدَهُم أبوابَ التَّوبةِ، ولِتُذَكِّرَ مَن يَستَمِعُ لِهذِهِ الآياتِ بِأَنَّ إيمانَهم وعَملَهُم الصالِحَ سَبَبُ نَجاتِهم.

الأَصنافُ المذكورةُ في هذِهِ الآيةِ الكريمةِ لا خوفَ عليْها مِمَّا يَنتظِرُها بَعدَ الموتِ، ولا تَحزَن عَلَى مَا تَركت فِي الدُّنيا مِن مالٍ وعِيالٍ، فإِنَّ الله تَعالَى أَعدَّ لَها نُزُلًا كريمًا، وفضلًا عظيمًا؛ لأَنَّها آمَنت بالله واليومِ الآخِرِ ولَم تُنكِرِ البَعثَ والحِسابَ، ودَاوَمَت عَلَى عَملِ الصَّالحاتِ مِمَّا أُمِرتْ بِهِ.

هذِه الأصنافُ المذكورةُ هِيَ: الذينَ آمَنوا : وهُم أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين آمنوا برسالتِه، وسُمُّوا مُؤمِنينَ لِكثْرَةِ إيمانِهِم وشِدَّةِ يَقينِهِم، ولأَنَّهُم يُؤمنونَ بِجميعِ الأنبياءِ ومَا جاءوا بِهِ، لا يُفرِّقون بَين أحدٍ مِن رُسُله.

والذينَ هادوا، أَيْ: اليهودُ المتمسكونَ بالتَّوراةِ التي هي رسالةُ موسى عليه السَّلامُ، مِمَّن لم يُحَرِّفوا كتبَ أنبيائِهم.

والنَّصارى الذين تمَسَّكوا بالمسيحيَّةِ ولم يُحرِّفوها.

واليهودُ والنَّصارى يلزمُهُم بعد هَذا البيان أن يَتخلَّوا عن فكرةِ أنَّهم أحبابُ الله، وأنَّ الله لا يُعذِّبهم. قالَ الله تعالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة ١٨].

والصابئونَ: المائلونَ من عقيدةٍ إلى عقيدةٍ، والمرادُ: أتباعُ بعضِ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ السَّابقةِ، فهؤلاءِ كانوا من أهلِ الكتبِ السَّماويَّة، ثُمَّ بدَّلوا وحَرَّفوا وانْتقلوا في ديانتِهم حَتَّى صاروا من عبدةِ الكواكبِ. والآيةُ جاءتْ فيمنْ بقيَ منْهم على دينِ إبراهيمَ عليه السَّلام قبل نَسْخِهِ.

أو همْ قومٌ باقونَ على فِطرتِهمْ وليس لهم دينٌ يستقِرُّونَ عليه؛ ولهَذا كان المشركونَ يَصِفونَ من أَسْلمَ بالصَّابئِيِّ، أَيْ: أَنَّهُ خرجَ عن سائرِ أديانِ أهلِ الأرضِ ذاكَ الزَّمانِ.

وذلِكَ كُلُّهُ قبلَ بَعثةِ النَّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمَّا بعدها فلا يُطلقُ على مَنْ آمنَ منهم إلا وَصْفُ الإسلامِ، ولا يُقبلُ من أحدِهم شيءٌ ما لمْ يُؤمِنوا بنبيِّنا وقرآنِنا. قال الله تَعالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران ٨٥].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

جاءَ الخطابُ هنا كعادةِ القُرآنِ في خطابِ بني إسْرائيلَ؛ خطابٌ يكونُ للأبناءِ يُخبِرُ عما حصَلَ مع الآباء لِيعتَبِروا ويَتَّعِظوا ويُؤمنوا.

الله تَعالَى أخذَ على بني إسرائيلَ العهودَ والمواثيقَ، بأنْ يُؤمِنوا به وحدَهُ ولا يُشركوا بِهِ شيئًا، وأنْ يعملوا بالتَّوراةِ ويُبلِّغوها.

وَقدْ ذَكرَ أهلُ التَّفسيرِ هنا، أنَّ اللهَ تَعالَى لَمّا أخذَ عليهم الميثاقَ أبَوْا ولم يُطيعوا، فأراهُمْ شيئًا من عَظمتِهِ وقُدْرتِهِ، ورفعَ الطُّور (الجبلَ) على رؤوسِهِم ليمتثلوا أمْرَ اللهِ وعهْدَهُ، ويأخذوا ما أعطاهم اللهُ تعالَى من شرعٍ في التَّوراةِ بقوَّةٍ وعزيمةٍ وحزمٍ وهمَّةٍ وامتثالٍ وإتقانٍ، كما قالَ تَعالَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف ١٧١]، أيْ: لعلَّكم تُحقِّقونَ تَقْوى اللهِ ومَخافتَهُ كَما أمَرَ.

وتأمَّلوا كيفَ خاطبَهم هنا بأنْ يأخذوا الكِتابَ، ويُبلِّغوا الدِّين بقوَّةٍ، وكأنَّ الآيةَ تُخاطِبنا نحنُ، بأنْ نأخذَ ما شرَعَه اللهُ لنا بِقوَّةٍ، فنُطيعُهُ فيما أمَرَ، ونَنْتهي عمَّا نَهى، ولا نجْبُنَ ولا نُداهِنَ ولا نكسَلَ عنْ تبليغِ دينِ اللهِ تعَالَى للنَّاسِ كلِّهم. قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مَرْيَم ١٢].

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

بعدَ كلِّ هذه المواثيقِ وما رَأوْه منْ قدرةِ اللهِ وعظمتِهِ، تولَّوْا ولم يُوفوا عهدَهم بعدَ أنْ أعْطَوه، بل نَكَلوا وأخْلَفوا وأشْركوا، لكنَّ فضْلَ اللهِ عليهِم عظيمٌ؛ تابَ عليهم بعدَ أنْ تابوا، وغَفرَ لهم بعد أنْ وعَظَتْهم رُسُلهم فرَجَعوا، ولولا ذلك؛ لكانوا من الخَاسِرينَ الهَالِكِينَ.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾

تذكيرٌ لليهودِ بما حلَّ من البَأسِ بأهلِ القريةِ التي عَصَتْ أمْرَالله، وذلكَ لَمّا حرَّمَ اللهُ عليهِم أنْ يصْطادوا يوم السَّبت ليَتفرَّغوا للعِبادةِ، وأحلَّ لهم ذلك باقي الأيَامِ؛ فاسْتخفُّوا بأمرِ اللهِ واحْتالوا على ما أمَرَهم بِهِ وصاروا يَحبِسونَ الحِيتانَ التي ابْتلاهُم اللهُ بكثرَتِها يومَ السَّبتِ، يحْبِسُونَها بطرائقَ خاصَّةٍ، ثم يأخذونَها بعدَ يومِ السَّبتِ، كما دلَّ على ذلك قولُ اللهِ تعَالَى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف ١٦٤]، وقد أنكرتْ عليهم طائفةٌ من عُلمائِهم وصالحيهم ذلك، فقالوا: إنَّما صِدْناه يومَ الأحدِ حينَ أخَذْناهُ. وفي ذلك نزلَ قولُ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف ١٦٤].

فكانَ منْ سوءِ مُنْقلَبِهم وجزائِهم أنْ مَسَخَهُم الله قردةً وخنازيرَ خاسئينَ، أيْ: ذليلينَ مُهانينَ؛ بسببِ اعْتدائِهم على أمرِ الله ونهيِه.

أخرج مسلمٌ عن عبدِالله بنِ مسْعودٍ رَضِيَ الله عَنهُ، وقدْ سُئِل صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنْ القردةِ والخنازيرِ التي كانتْ بعدِهم، هل هي منْ نَسْلِ القردةِ والخنازيرِ التي مُسِخَ إليها اليهود؟ فأجابَ بقولِه: «إِنَّ الله لَمْ يُهْلِكْ قَوْمًا -أَوْ قَالَ: لَمْ يَمْسَخْ قَوْمًا- فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كانت قبل ذلك».

فالقردةُ والخنازيرُ ليستْ منْ نسْلِهم، وإنَّما هي منْ نسلِ القردةِ والخنازيرِ التي أوجدها الله قبْلَهم، أما هم فقد مُسِخوا على هيئتِها ثمَّ أماتهُم الله.

وقد رُوِيَ عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ الله عَنْهُما قولُهُ: «فَمَسَخَهُمُ الله قِرَدَةً بِمَعْصِيَتِهِمْ، يَقُولُ: إِذْ لَا يَحْيَوْنَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، قَالَ: وَلَمْ يَعِشْ مَسْخٌ قَطُّ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ وَلَمْ يَنْسِلْ».

﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٦٦﴾

أيْ: فجعلنَا ما أحْلَلْنا بهؤلاءِ من البأسِ والنَّكالِ والمسْخِ إلى قردةٍ وخنازيرَ، عقوبةً فيها عِبْرةٌ لمَا حولهم منَ القرى، لمنْ يسكنُ فيها من النَّاس يومئذٍ.

ومنَ العلماءِ من قالَ: لِمَا بيْن يديها وما خلفها أيْ: لِمَا فعلوهُ من معاصي سبقتْ تحايُلَهم يومَ السَّبتِ، وكذلك للمعاصي التي فعلوها بعد ذلك؛ فكانتْ آخِرَ ما عُوقبوا بهِ.

وكذلك فيها موعظةٌ وزَجْرٌ للمُتَّقِينَ من بعدِهم من بني إسْرائيلَ ومن غيرِهم ممَّنْ يبْلغُه خبرُهُم، لعلَّهم يَحْذرونَ نقمة الله وعذابَه، وأنْ يُصيبَهم ما أصابَ أولئكَ؛ فيَستقيمُوا ولا يُبدِّلوا شرْعَه. أخرجَ ابنُ بطَّة في كتابِهِ «إبْطالُ الحِيَل» حديثًا جوَّدَ إسنادَه وحسَّنَه غيرُ واحدٍ منْ أهلِ العلمِ، قالَ فيه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَرْتكِبوا ما ارتكبَ اليهودُ، فتسْتَحِلُّوا محارمَ الله بأدنى الحِيَلِ».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٦٧﴾

هذه نعمةٌ منْ نِعَمِ الله تَعَالَى على بني إسْرائيلَ تُذَكِّرُهُم بها هذه الآيةُ، وهي نعمةٌ فيها معجزةٌ لنبيِّهم موسى عليه السلامُ، بل فيها إثْباتُ نُبوَّة محمدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أخبرَهم عن قصَّتِها ممَّا لا يعلمُهُ إلا أحبارُهم وكُبّارُهم.

مجملُ هذه النِّعمةِ أنَّه وُجدَ قتيلٌ بينهم؛ فأحْيَا اللهُ المقتولَ فأخبرَهم بمنْ قتلَهُ؛ فحُفِظَ بسببِ ذلك دماءٌ كثيرةٌ.

وتفاصيلُ هذه القصَّة كما يذكرُها أهلُ التَّفسيرِ: أنَّه كانَ ثمَّةَ رجلٌ منْ بني إسْرائيلَ عقيمٌ لا يُولدُ له؛ فقتلَهُ قريبٌ له ليَرِثَه، ثمَّ أرادوا معرفةَ القاتلِ خشيةَ أنْ يُتَّهمَ به أقوامٌ؛ فتسيلَ بسببِ ذلك الدماءُ، فجاءوا لنبيِّ الله موسى عليه السَّلام؛ فأخبرَهم أنَّ الله يأمرُهم أنْ يذبَحوا بقرةً؛ فعجِبوا منْ ذلك وظنُّوا أنَّه يسخرُ منهم ويستهزئُ بهم، لأنَّهم إنَّما سألوه عن القتيلِ وعمنْ قتلَه؛ فما شأنُ البقرةِ في ذلك؛ ﴿ **أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾؛ فأخبرَهم أنَّ هَذَا وحيُ الله لهم، وما كانَ مستهزئًا في ذلك ولا لاعبًا، ولا يقول قولَ الجاهلينَ الذينَ يقولونَ ويفعلونَ ما لا ينبغي لهم.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

طلبوا أن يبين الله تَعَالَى لهم صِفَتَها، ومنْ الجوابِ يظهرُ أنَّهم إنَّما سألوا عن سِنِّها، فأخبرَهم بأنَّها لا فارِضٌ، يعني: ليستْ كبيرةً هرِمَةً مُسِنَّةً، ولا بِكْرٌ يعني: ليستْ فتيَّةً صغيرةً في أوَّلِ عُمُرِها، بلْ هي متوسِّطةٌ بينَ السِّنينِ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ، وهذه تكونُ أقوى وأنفسُ وأغلى، ثمَّ حثَّهم وطلبَ منهم بعدَ هَذَا البيان أنْ يمتثلوا ويُبادِروا إلى ذبحِ البقرةِ.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

بعد أنْ سَألوا عن سِنِّها، سَألوا عن لونِها؛ فأخبرَهم أنَّ فيها صفارًا شديدًا فاقعًا صافيًا، يُدْخلُ السُّرورَ في نفسِ منْ نظرَ إليها.

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

هنا في هذهِ الآيةِ عادوا وسَألوهُ عن مَزيدِ صفاتٍ حولها، فقدْ تشابهَ البقرُ عليهم لِكثرتِه، فإذا بيَّنَ لهم ذلك اهتدوا إليها ووجدوها، وامتثلوا وذَبحوها، وعلَّقوا ذلك بقولهم «إن شاء الله»؛ تأدُّبًا مع الله.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾

هذه البقرة ليست ذلولًا، أَيْ: ليست مُذلَّلةً بالحرثِ، وهي لا تسقي الحَرْثَ، يعني: ليست مُعدَّةً لسقي الحرثِ كذلك، لا يحملونَ عليها الماءَ. وهيَ مُسَلَّمةٌ، أَيْ: صحيحةٌ في خَلقِها وقوائِمها لا عيبَ فيها. ولا شِيَةَ فيها، أَيْ: ليس فيها لونٌ غيرُ لونِها، لا بياضٌ ولا سوادٌ.

هذه الصِّفاتِ تدلُّ على أنَّها لم تُستَعملُ فى الحَرْثِ ولا فى سِقايةِ الزَّرْعِ.

﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ كثرةُ أسئلتِهِمْ حولَ البقرةِ التي أُمِروا بذبْحِها ومُماطلتِهم تدُّل على أنَّهم كادوا ألا يفعلوا، كأنَّهم أرادوا ألا يذبَحوها، وقدْ كانَ بإمكانِهم أنْ يذبحوا أيَّ بقرةٍ، ويُسارِعوا للاستجابة، لكنْ كعادتِهم صاروا يسألونَ عن صَفاتِها حَتَّى انْتهوا إلى البقرةِ التي أُمِروا بذبِحها، شَدَّدُوا فشُدِّدَ عليهم؛ فإنَّ في بعضِ رواياتِ القِصَّة عنْ الصَّحابةِ والتَّابعينَ أنَّهم لم يَجِدوا هذه البقرةِ إلا عنْدَ مَنْ طلبَ أَضْعافَ أضعافِ ثمنِها، فاشْترَوْها.

والقصَّةُ فيها تحذيرٌ لأبناءِ هذهِ الأمَّة بألا يُكْثِروا من الجِدالِ فيما أمَرَ الله بفعلِه، وفيما نهى عنه، ممّا لا تأثيرَ له، ولا يَظهرُ منه إلا التَّعنتُ والتعجيزُ، لئلا يكونَ ذلك علامةَ كراهة شرع الله، فيصيبُنا ما أصابَهم. أخرجَ الإمامُ مسلمُ عن أبي هريرةَ رَضِيَ الله عَنهُ، أنَّ رسولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «ما نهيتُكم عنه فاجْتَنبوه، وما أمرْتُكم به فافْعلوا منه ما اسْتَطعتم؛ فإنَّما أهلكَ الذين من قبلِكم كثرةُ مسائِلهم، واختلافُهم على أنبيائِهم».

﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢﴾

أَيْ: فاخْتلفْتُمْ فيمنْ قتَلها، كلُّ فريقٍ يدَّعي على الآخرِ أنَّه قتَلها.

﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ يعني: كانَ من نِعَمِ الله عليكم يا بني إِسْرائيلَ أَنْ عرّفكم بالقاتلِ، وأظهَرَ ما كتمَهُ بعضُكم من معرفةِ القاتلِ.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

لَمَّا ذبحوا البقرةَ، أوحى الله إليهم أنْ اضربوا الميّتَ بأَيِّ عُضْوٍ من أعضاءِ هذه البقرة، بشيءٍ من لحمِها أو عظمِها، فلمّا ضربوهُ قامَ من موتِه فأخبرَ أنَّ فلانًا قتلهُ، ذكرَ لهم اسمَ قاتِلِه، ثم عادَ ميّتًا كما كانَ.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هَذَا تَنْبِيهٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى على قدرتِه وإحيائِه الموتى بما شاهدوه من أمرِ القتيلِ، فإنَّ مَنْ أَحْيَا نَفْسًا وَاحِدَةً بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ جَمِيعِ النُّفُوسِ، كما قال ربُّنا: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان ٢٨].

وكذلك أراهُمْ معجزةً لنبيِّ الله موسى عليه السلام؛ رجاءَ أن يعقلوا ويستقيموا.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

بعدَ كلِّ ما حَضَرُوه وشاهدوه من آياتِ الله تَعَالَى، وبعدَ كلِّ هذه النِّعم التي لم تنقطعْ عنهم، قستْ قلوبُهم وأصبحتْ بعيدةً عن الموعظةِ والانتفاعِ بها، حَتَّى أَصْبَحتْ كالحِجارةِ التي لا تلينُ أبدًا، بل أصبحَ بعضُها أشدَّ قسوةً منها، بلْ إنَّ من الحجارةِ منْ هو أَلينُ منْ هذه القلوبِ، ومنْها مَن يُظْهِرُ خشوعًا لله وتعظيمًا بانقيادِه، كما قال ربُّنا عنْ كلِّ ما خلقَ من جماداتٍ وغيرها: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء ٤٤]، وجاءَ في الصحيحينِ قولُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنْ جبلِ أحدٍ: «هَذَا جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه»، وفي صحيحِ مسلمٍ: «إِنِّي لأعرفُ حجرًا بمكَّةَ كانَ يُسلم علي قبلَ أنْ أُبعثَ، إنِّي لأعرِفُه الآنَ»، وغير ذلك مِمَّا في معناه. قالَ الله تَعَالَى في هذه الآيةِ عن خشوعِ الحجارةِ للرَّبِّ: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الحجارةُ منها ما تتفجَّرُ منها العيونُ الجاريةُ بالأنهارِ، ومنها ما يشَّقق فيخرجُ منه الماءُ، ومنها ما يهبطُ من رأسِ الجبلِ من خشيةِ الله، فالحجارةُ مع شدةِ قساوتِها يكونُ منها كلُّ هَذَا، وهؤلاءِ (بنو إسرائيل) لم يُظْهِروا خشوعًا يليقُ بعظمةِ مَنْ خلقَهُم وأكْرَمَهُم.

وتأمّلوا نداءَ الله لنا بها يَخُصُّ قلوبَنا، تأمَّلوا كيفَ نهانا ربُّنا عنْ أنْ نكونَ مِثْلَهم في ذلكَ، فإنَّ نِعَمَ الله علينا عظيمةٌ وربِّي، وآلاءَه وعظمَتَه وقدرتَه لا تنفكُّ عن شيءٍ ممَّا حوْلنا. قالَ الله تَعالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد ١٦].

ثمَّ احْذَروا سببَ قسوةِ قلوبِهم الذي بيَّنَهُ قولُ الله تَعالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة ١٣].

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ خبَرٌ مُرادٌ بِهِ التَّهْديدُ والْوَعيدُ لَهُمْ مُباشَرةً أو تعريضًا.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥﴾

هَذا خطابٌ للمؤمنينَ من أمَّةِ محمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعد أن اسْتطرَدتْ الآياتُ السابقةُ في بيانِ خصالِ بني إسرائيلَ وصِفاتِهم، خطابٌ فيه نفعٌ عظيمٌ لنا، خطابٌ يُبيِّنُ لنا أنَّهم مِنْ أبعدِ النَّاسِ عن الإيمانِ.

أفتَطْمعونَ وتظنُّونَ وتأمَلونَ أَيُّها المؤمنونَ أن ينقادَ هؤلاءِ لكُمْ بالطَّاعةِ ويَدْخلوا جميعًا في دينِكم، ومنهم -قديمًا وحديثًا- فريقٌ من علمائِهم وأحْبارِهم حرَّفوا التَّوراةَ التي هيَ كلامُ الله، من بعدِ ما فَهِموها ووَعُوها وعَقَلوها كما وصفتْ الآيةُ، حرَّفوها بعدَ أنْ قستْ قلوبُهُمْ عنْ الطَّاعةِ والذِّكرِ، حرَّفوها وهم يَعلمونَ أنَّهم مُخْطِئونْ ومذنبونَ فيما ذهبوا إليه من تحريفِهِ وتأويلِهِ.

هؤلاءِ هُمْ الذين قالَ الله تَعالَى عنهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة ١٣].

صحيحٌ أنَّنا مأمورونَ بدَعْوتِهم إلى الله وإلى الدُّخولِ في الإسْلامِ، لكنَّا لا نأمُلُ منْ هذهِ الدعوةِ دخولَهم جميعًا في الإسْلامِ، وهم من يَحملونَ في قلوبِهِم نارًا تَلظَّى عليه وعلى أهلِهِ كما أخبرتْ بذلك نُصوصُ الشَّرْعِ، وإنَّما نرجو بدعوتِهم دخولَ أفرادٍ منهم صادفتْ الدَّعوةُ فيها نفوسًا طيبة فانتفعتْ واهْتَدتْ، وكذلكَ ندْعوهم إلى الإسْلامِ لإقامةِ الحجَّةِ عليهم في الدُّنيا والآخِرَةِ.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ومنْ صِفاتِ هؤلاءِ الذينَ تَطْمعونَ بإيمانِهِم من اليهودِ، أنَّ منْهُم صنفًا نافقوا بعد أنْ أظْهروا إيمانَهم، هؤلاءِ إذا جالسوكم وحادثوكم زعموا أنَّهم مؤمنونَ بدينِكم ونبيِّكم، لكنَّهم إذا أَمِنوا مراقبَتَكم، واخْتَلوا ببعضِهم، أنْكروا على بعضِهم مُصارَحَتَهم للمسلمينَ بما عندَهُم في التَّوراةِ، من علْمٍ بصْدقِ نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو مكتوبٌ عندَهم، ومصارحتَهم للمسلمينَ بما قضى اللهُ لهم وعليهِم.

يعني: يطلبونَ من بعضِهم عدمَ إظهارِ ما عند المسلمينَ من حقٍّ؛ لئلا يكونَ ذلك حُجَّةً عليهِم يومَ القيامةِ أمامَ اللهِ.

ثم ختموا حَثَّهُم عَلى ذَلك بأنْ جَعلُوا طَلبَهُم هَذَا من تمامِ العقلِ والعلمِ، تأمَّلوا قُبْحَ إنكارِ الحقِّ بعدَ مَعْرفتِهِ، وجَهْلِهِم بصفاتِ اللهِ وعظمتِه.

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

اليهودُ يستَخِفُّون بنَظَرِ اللهِ إليهم، ولا يُعَظِّمونَهُ حقَّ التَّعظيمِ؛ فهم يُعاتِبونَ منافقيهم الذينَ كانوا يُظْهِرُون الإسْلام، يُعاتبونَهم على ذِكْرِ ما عندَهم في التَّوراةِ للمسْلمينَ؛ لئلا يتَّخِذَ ذلك ذريعةً لإظْهارِ صِدْقِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولئلا يكونَ الكلامُ حُجَّةً عليهِم يومَ القيامةِ.

وهؤلاءِ: اللهُ يعلمُ ما أسَرَّوا مِنْ كفرِهِم بمحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكذيبِهم به، وهو مكتوبٌ عندَهم في التَّوراةِ، وكذلكَ يَعلمُ حقيقةَ ما أعلنَوا من إسْلامِهِم وإيمانِهم المزعومِ.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

أَيْ: ومِنْ صفاتِ هؤلاءِ الذينَ تطمعونَ أَيُّها المؤمنونَ أن يؤمنوا مِثْلَكم، أنَّ مِنْهم أُمِّيينَ لا يُحسِنونَ القِراءَةَ والكتابَةَ، ولا يعلمونَ ما في التوراةِ من عِلمٍ إلا أمانيَّ، يعني: إلا الأُمنياتِ الموهومةِ الكاذبةِ المبنيَّةِ على ما يسمعونَ دون ما يفهمونَ، يتكلمونَ بالظنِّ بغيرِ ما في كتابِ اللهِ، ويفترونَ على اللهِ الكذبَ، ويقولونَ: هوَ منَ الكتابِ، ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أَيْ: وقولُهُم هَذَا قولُ زورٍ وكذبٍ.

﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩ ﴾

هؤلاءِ صنفٌ من اليهودِ، دعاةٌ إلى الكفرِ والضَّلالِ بالزورِ والكذبِ على الله، وأكلِ أموالِ النَّاسِ بالبَاطِلِ.
والويلُ: الهلاكُ والدمارُ والغضبُ.

هؤلاءِ: يَتعمَّدونَ تحريفَ ما أُنزلَ عليهم من التَّوراةِ، ويزيدونَ ويُنْقِصونَ فيها بحسبِ أهوائِهم ممَّا لم تأتِهم بهِ رسُلُهُمْ، ويزعمونَ أنَّ هذه التَّوراة هيَ التي أُنْزلتْ منَ عندِ الله، يفعلونَ ذلك لِيشْتروا به ثمنًا قليلًا من إرضاءِ العامَّة بتغييرِ أحكامِ الشَّرْعِ لِتُوافِقَ أهواءَهُم، وبتحريفِهُم هَذَا قصدوا التَّدليسَ على عوامِّ النَّاس وبُسطائِهم ليُوهِموهُم أنَّهم أسْيادٌ وكِبَارٌ وسادةٌ في العلمِ والمعرفةِ، ولِيُحافِظُوا على مكاسِبِهم الماديةِ من وراءِ ذلكَ.

﴿ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ تأكيدٌ على الوعيدِ الذي ينتظِرُهم مِنْ عذابِ الله وسَخَطِه لَمِا فعلوهُ من كذبٍ وافتراءٍ وتَحْريفٍ، ووَيْلٌ لهم ممَّا كَسَبوهُ من متاعِ الدُّنيا والمالِ السُّحتِ فيها، بتَصَدُّرِهُم المَزْعُوم وزعامتِهم الموهومةِ.

ومِثْلُ هذه الآياتِ تَجْعلُنا نحنُ حملةَ دينِ محمدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحْرَصَ ما نكونُ على مصادرِ شريعَتِنا من اللاعبينَ، وممَّنْ اتَّخذُوا دينَ الله طَرِيقًا لتحقيقِ أغْرَاضِهم الدُّنيويَّة الحقيرةِ، وممَّنْ تاجروا بدينِهم من أجلِ مَا هُوَ فانٍ وليْسَ بباقٍ.

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠ ﴾

هَذَا من تَلْبيسِهم وزَعْمِهِمْ الباطِلِ، فقدْ ادَّعَوْا أنَّهم لنْ يُعذَّبوا إلا قليلًا، ثم يَنْجونَ، هُمْ أمِنُوا عذابَ الله فتَجرَّؤوا على دينِهم وأنبيائِهم وما أنْزل عليهِمْ مِنْ كُتُبٍ، أَيُّ غرورٍ وكبرياءٍ هَذَا.

﴿ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾
قلْ يا محمدُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهَؤلاءِ، وقولوا أَيُّها المؤمنونَ لهم: هلْ وقعَ لكم عهدٌ من الله بذلك فهو لا

يُخلفَ عهْدَه، أم تكذبونَ على الله وتفترونَ عليه ما لا تعلمونَ. أخرجَ الإمامُ البخاريُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ، أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ» فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟»، قَالُوا: فُلاَنٌ، فَقَالَ: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ»، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا، فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، قَالَ: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟»، قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ ﴾

هَذا هو الحقُّ من عندِ الله؛ نسبُ الإنسانِ وجنسُه لا يُدْخِلُ الجنَّة ولا يُنْجي من النَّارِ، ليسَ الأمرُ كما ظَنُّوا.

الميزانُ عندَ الله: أنَّه مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةَ الشِّرْكِ والكُفرِ، وأحَاطَتْ به وعمَّرتْ قلبَه، حَتَّى حالتْ بينَه وبينَ الطَّاعةِ والتَّوبةِ والموتِ على التَّوحيدِ الحقِّ؛ فأولئك أهلَ النَّارِ الخالدونَ فيها.

والمقصودُ منَ الآيةِ أولئكَ الذين زَعمُوا أنَّهم لن يدخُلوا النارَ إلَّا أيامًا معدوداتٍ، وكُلُّ مَن كَانَ عَلَى شاكِلتِهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢ ﴾

هؤلاءِ أهلُ الجِنانِ الخالدونَ فيها، هم الذينَ آمنوا بالله وجميع كتبه ورسُلِه، وكذلكَ عَمِلوا الصالحاتِ.

قـالَ الله تـعـالَى: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾ [النِّساء ١٢٣- ١٢٤].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

هَذَا هُوَ الميثاقُ الذي أَخذهُ رَبُّنا عَلَى بَني إسرائيلَ، ميثاقٌ يعرِفونَهُ جيِّدًا.

ذَكرتِ الآيةُ أنَّ أكثرَهُم تَوَلُّوا عنهُ وأعرَضُوا، ولَم يُوفُّوا بِما أُخِذَ عليهِم، هكَذا هُم: أهلُ نَقضٍ وإخلافٍ للعَهدِ والوَعدِ، فاعلَمُوا. جاءَ في الميثاقِ:

أَن يَعبُدوا اللهَ وَحدُه ولا يُشرِكوا بِهِ شيئًا؛ دَعوةُ كُلِّ الرُّسلِ والأنبياءِ.

ثُمَّ أَمرهُم بالإحسانِ للوالِدَين، وَهُوَ الذي قُرِنَ بتوحيدِ اللهِ تَعالَى في أكثرَ مِن آيةٍ. قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النِّساء ٣٦]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء ٢٣].

ثُمَّ أمرَهُم بالإحسانِ إلى قَرابتِهِم مِن جهةِ الآباءِ والأمهاتِ، كَما قالَ رَبُّنا لَنا: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء ٢٦].

ثُمَّ أخذَ عليهِم بأَن يرعُوا حَقَّ اليتامى، واليتيمُ مَن ماتَ أبوهُ قَبلَ بُلوغِهِ.

ثُمّ قالَ رَبُّنا: ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ وَهُمُ الذينَ لا يجدونَ ما يُنفِقونَ عَلَى أنفُسِهِم وأَهلِيهِم.

ثُمَّ عهِدَ إِليهِم بِقولِهِ: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أيْ: كَلِّموهُم كلامًا طيِّبًا هينًا ليِّنًا، وذَكِّروهُم بالأَخْلاقِ الطيِّبةِ والمعاني السَّاميةِ.

ولَوْ تَأملتُم الآياتِ: أَمرَهُم بالإحسانِ فِعلًا وقوْلًا، ثُمَّ ردَّهُم إلى ما يَصلُحُ بِهِ حالُهُم ومآلُهم، فقالَ ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أقيمُوها كَما أمرَ رَبُّكُم، وأَعطُوا حَقَّ المالِ لِمَن يَستحِقُّه.

لَكِنَّهُم مَعَ كُلِّ هذِه الأوامِرِ التي قامَت عَلَى التَّوحيدِ والإحسانِ في العَمَلِ، تَركُوا أوامرَ اللهِ وراءَ ظُهورِهِم. قالَ أهلُ العِلمِ عَن أُمَّةِ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فقامَتْ هذِهِ الأُمَّةُ مِن ذلِكَ بِما لَم تَقُم بِهِ أُمَّةٌ مِن الأُمَمِ قَبلَها، ولله الحَمدُ والمِنَّةُ».

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤﴾

ومِن المواثيقِ التي أُخِذت كَذلِكَ عَلى بَني إسرائيلَ فَنقَضوها كَعادَتِهِم، أَلَّا يَقتُلَ بَعضُهُم بعضًا، وأَلَّا يُخرِجوا بَعضَهُم مِن بُيوتِهِم، وقدْ رَضُوا بِهَذا الميثاقِ، وعَاهَدوا رَبَّنا على الالتزامِ بِهِ، وشَهِدوا أَنَّهُ حَقٌّ، لَكِنَّهُم لَم يَلتَزِموا، بَلْ خَالفوا وعَصَوْا.

﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥﴾

الله تَعالَى حَرَّمَ على بني إسْرائيلَ في التَوْراةِ سَفْكَ دِمائِهِم، وافتَرَضَ عَلَيْهِم فِيها فداءَ أَسْراهُم، فإذا وَقعَ أسيرٌ مِنهُم فِي يَدِ عَدُوٍّ؛ وَجبَ عَلَيْهِم أَن يَبذُلوا أَموالَهم لِيَفُكُّوا أَسرَهُ ويُعيدُوهُ.

تَأَمَّلوا الآيَةَ هُنا وما حَصَلَ مَعَ اليهودِ الذينَ خُوطِبوا بِهذِهِ الآياتِ مِن أقوامِ بَني إسرائيلَ مِمَّن كانَ في المَدينَةِ، فقدْ كانَت قبائِلُ اليَهودِ مِن بني النَّضيرِ وبني قينقاع وبَني قُرَيْظة قبلَ هِجرةِ النَّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم مُختَلِفةً فِي تحالُفاتِها؛ فَمِنهُم مَن كانَ حليفًا للخَزرجِ، ومِنهُم مَن كانَ حَليفًا للأوسِ، فكانَت الأوْسُ والخَزرَجُ إذا تَقاتَلُوا، تَقاتَلَت طَوائِفُ اليهودِ كذلِكَ فِيما بينَها تَبعًا لذلِك، وكانَ يَقتُلُ بَعضُهُم بَعضًا، ويُخرِجونَ اليهودَ الآخرينَ مِن بُيُوتِهِم، ويَنهَبُونَ ما فِيها مِنَ الأثاثِ والأَمتِعةِ والأموالِ، ويُظاهِرونَ ويُعينونَ ويَنصُرونَ غيرَهُم عَلَى بَعضِهِم عُدوانًا وإِثمًا، فَخالَفوا مَا أُخِذَ عَلَى أجدادِهِم مِن مَواثيقَ هِيَ لَهُم كذلِك، وهم عَلِموهَا وفَهِموها كَما في كُتُبِهِم.

ثُمَّ ماذا يفعلون! ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ إذا وَضعتِ الحَربُ أوزارَها افتدوا أَسراهُم وأَرجعُوهُم إلى بيوتِهِم، يَعني: افتدَوْا جميعَ الأَسرى مِن جميعِ طوائفِ اليَهودِ، مَع أَنَّهُم كانوا يُقاتِلونَهُم بالأمسِ القَريبِ، وقَدْ حَرَّمَتْ عَليْهِم شريعَتُهُم قِتالَهُم وإِخراجَهُم، ولذلِك كانَت العَربُ تُعيِّرُهم بذَلِكَ وتقولُ: كَيْفَ تُقاتِلونَهُمْ ثُمَّ تَفْدُونَهُمْ بِأَمْوالِكُمْ ؟! فيقولونَ: قَدْ حُرِّمَ عَلَيْنا قِتالُهُمْ، ولَكِنَّا نَسْتَحِي أَنْ نَخْذُلَ حُلَفاءَنا، وَقَدْ أُمِرْنا أَنْ نَفْدِيَ الأَسْرى.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أَيْ: هُم يَتقاتَلونَ ويُخرِجون بَعضَهُم مِن ديارِهِم وبُيوتِهِم وينصُرُونَ غَيْرَهُم عَليْهِم وهَذا مُحَرَّمٌ، ثُمَّ يبذُلونَ الأَموالَ لِفداءِ مَن ظَلَموهُ وقاتَلوهُ مِنهُم مُلتزِمينَ بالواجِبِ الذي عَلَيْهِم، فكانَ هَذا إيمانٌ مِنهُم ببعضِ الكتابِ وكُفْرٌ بالآخَرِ.

ومِثلُ هؤُلاءِ: لا يُؤتَمنونَ عَلَى مَا في التَّوْراةِ ولا على نَقلِها، ولا يَصْدُقونَ فِيما يكتُمونَهُ مِن صِفةِ رسولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونَعتِهِ، ومَبعَثِهِ ومَخرَجِهِ ومَهاجَرِهِ، وغَيْرِ ذلِك مِن شُؤُونِه التي قَدْ أَخبرَتْ بِها الأَنبياءُ قَبلَهُ.

صَحيحٌ أَنَّ هذِه الآياتِ تَصِفُ حالَ بَني إسرائيلَ مَعَ شريعَتِهِم، وتَصِفُ حالَهُم فِي التَعامِلِ فيما بَيْنَهُم، لَكِنَّها بِلِسانِ الحالِ تُعلِّمُنا نَحنُ معاشِرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن نُحسِنَ فِقهَ كَوْنِنا أُمَّةً واحِدَةً؛ فلا يَظْلِمُ بَعضُنا بَعضًا ولا يَقتُلُ بعضُنا بعضًا، وإِن اختلَفنا فِيما اختلَفنا فِيهِ.

ثُمَّ تُعلِّمُنا هذِهِ الآياتُ أَنَّ ثَمَّةَ صِنفًا مِن النَّاسِ يَزعُمونَ أَنَّهم مُؤمِنونَ، هُم يُؤمِنونَ بِما وافَقَ عُقولَهُم وأَهواءَهُم مِن شَرعِ الله فَقَط، ويَكفُرونَ بِخِلافِ ذَلِكَ. وقَدْ وَجَدْنا الكثيرَ مِن هَؤُلاءِ زمانَنا والله المُستعانُ.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: فَما جَزاءُ مَن يَكفُر ببعضِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ إِلَّا الخِزْيُ، وهُوَ الإِهانَةُ والإِذلالُ، وَهُوَ ما حَصَلَ لَهُمْ بإجلائِهِم وقَتلِهِم عَلَى يَدِ أَهلِ الحَقِّ.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ فالجَزاءُ لا يَقتَصِرُ على الدُنيا، وإِنَّما يَنْتَظِرُهُم عذابٌ شديدٌ يومَ القيامَةِ؛ جزاءً عَلَى مُخالَفتِهِم وكِتمانِهِم كتابَ الله الذي بأَيْديهِم، وهَذا كُفْرٌ بواحٌ يلزمُنا أَن نَنْتَبِهَ إِلَيْهِ ونَحذَرَهُ ونجتَنِبَهُ.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وَسَيُحاسِبُكُم ويَجزيكُم عَلَيْهِ.

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

اليهودُ تركُوا الهُدَى، وسَلكوا طَريقَ الضَلالِ، واشترَوا الكُفرَ بالإيمانِ، واستَحبُّوا العمى عَلَى الهُدَى، و آثَرُوا الدُّنْيا ومُتعَها ولَذائذَها ونَعيمَها الفَانيَ عَلَى الحَياةِ السرمَديَّةِ الأَبَديةِ فِي الجَنَّاتِ؛ خَابوا وخَسِروا تجارتَهم وصَفْقتَهُمْ بتلاعُبِهم بدينِهم وتحريفِهم. فمِثْلهم: لا يَنْقطِعُ عَنْهُم العذابُ ساعةً واحِدةً ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أَيْ: ولَيْسَ لهُم ناصرٌ يُنقِذُهم مِمَّا هُم فِيهِ مِنَ العَذابِ.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

سياقٌ قُرآنيٌ مُستمرٌ في بيانِ خِصالِ بني إسرائيلَ التي استَحقُّوا بسبَبِها ما استَحقُّوا، تَذْكُرُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ اللهَ تَعالَى آتى مُوسى عليهِ السَّلامُ التَّوراةَ هدايةً لهُم، كَما قالَ تَعالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة ٤٤]، وكَذلِكَ أَرسَلَ الله إِلَيهِم مِن بَعدِهِ الرُّسلَ والنَّبيينَ يحكُمونَ بشريعةِ مُوسَى عَلَيْهِم جميعًا صلواتُ رَبِّي، حَتَّى خُتِمَ أنبياءُ بني إسرائيلَ بعيسى ابنِ مَريَمَ، فَجاءَ بِمُخالفةِ التَّوراةِ في بَعضِ الأحكامِ، ولهَذا أعطاهُ الله مِنَ البيِّناتِ والمُعجزاتِ ما يَدُلُّهم عَلَى صِدقِهِ فِيما جاءَهُم بِهِ؛ أَحيا الله على يَديْهِ الموتى، وَجعلهُ يخلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهيئَةِ الطَّيْرِ فَينفُخُ فِيها فتكونُ طيرًا بإذنِ اللهِ، ويُبرِئُ الأمراضَ، ويُخبرُ بالغيوبِ.

وذكرتِ الآيةُ أنَّ اللهَ تَعالَى أَيَّدهُ بروحِ القُدُسِ، وهُوَ جِبريلُ المُقدَّسُ المُطهَّرُ عَنِ العيوبِ والنَّقائِصِ عليهِ السَّلامُ، كَما جاءَ في قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ [المائدة ١١٠]، كُلُّ هَذا لِيُؤمنوا ويَستقيمُوا، ولَكِن: قالَ اللهُ عنهُم: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

حملوا صِفاتَ العُتوِّ والعِنادِ والمُخالفةِ، والاستِكبارِ عَلَى الأنبياءِ، وَسُوءِ الصَّنِيعِ مَعَهُم، فَقَدْ كَانَت بنو إسرائيلَ تُعامِلُ الأنبياءَ عليهِمُ السَّلامُ أسوَأَ المُعامَلةِ؛ ففريقًا يُكذِّبونَهُ، وفريقًا يقتلونَهُ، وما ذاك إلَّا لأنَّهُم كانوا يأتونَهُم بالأمورِ المُخالِفةِ لأهوائِهم وآرائِهم، ويُلزمونَهُم ويَدعونَهُم للالتزامِ بأحكامِ التَّوراةِ، وهُوَ مَا يَشُقُّ عليْهُم.

واتِّباعُ أهوائِهم المَذكورِ هُنا، وتَرفُّعِهم عَن اتِّباعِ الرُّسلِ، والعداءِ الذي نَصبوهُ بَيْنَهُم وبَيْنَ الحَقِّ وأهلِهِ، هُوَ ما يُفسِّرُ تكذيبَهُم لِدعوةِ محمدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومُعاداتِهم لها مَع عِلمِهم بِصدقِها، إنَّه الحسدُ والكِبرُ واتِّباعُ الهَوَى.

قالَ أهلُ العلمِ: «في قولِهِ: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ إنَّما لَم يَقُل: وفريقًا قَتلتُم؛ لأنَّهُ أرادَ بذلِكَ وَصفَهُم في المُستَقبَلِ أَيْضًا؛ لأنَّهُم حاولوا قَتلَ النَّبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالسُّمِ والسِّحرِ، وقَدْ قالَ عليهِ الصلاةُ السَّلامُ في مَرضِ مَوْتِهِ: «يَا عَائِشَةُ! مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ». والأَبهرُ: عِرقٌ يَتعلَّقُ بِهِ القَلبُ فإذا انقطَعَ ماتَ صاحِبُهُ.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

كانوا يقولونَ ذَلِك لِتيئيسِ نبيِّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن دَعوَتِه، ولِيقطَعوا طَمَعهُ في إِسلامِهِم، وَحقًّا: قلوبُهُم في أَكِنَّةٍ وعليْهَا غلافٌ وغطاءٌ لا تَفقهُ ما تَقولُ، ومَطبوعٌ عَليها، وعَليها غِشاوةٌ، ولَيست طاهِرةً، بل هيَ بَعيدةٌ عَن الخَيْرِ. وهَذَا كَقولِ الله تَعالَى في حَقِّ المُشركينَ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فُصِّلَت٥]، وَالْأَكِنَّةُ: الأغطية، جَمْعُ كِنَانٍ، أَيْ غِطاءٌ وغِلافٌ، ومَعناها: قُلوبُنا مُغطَّاةٌ عَن دَعوةِ النَّبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعيدةٌ فلا تَصِلُ إِليها الدَّعوةُ.

﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: لَيسَ الأَمرُ كَما ادعوا، بَلْ هُم مَن أَصرَّ على الكُفرِ وأَبى الإِسلامَ، فَعاقَبَهُم الله بِاللَّعنةِ، والخَتْمِ والطَبعِ عَلَى قُلوبِهِم، فكانَ إيمانُهم قليلًا، أَيْ: قليلٌ مِنهُم مَن يُؤمِن، وبَعضُهُم يُؤمِنُ بِبعضِ مَا أُنزِلَ مِمَّا يُوافِقُ أهواءَهُم ولا يُؤمِنُ بِغيْرِه، نسأَلُ الله السلامَةَ والعافِيَةَ.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾

كانَ عُلماءُ اليهودِ وقادتُهم قبلَ بعثةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزولِ القُرآنِ عليْهِ، يَعلمونَ أنَّهُم يعيشونَ في زَمنِ مبعثِ نَبيٍّ؛ ويُخبِرونَ أهلَ المدينةِ مِنَ العربِ مِن قبائِلِ الأَوْسِ والخَزرجِ بذلِك، فيقُولونَ لَهُم: إنَّهُ سَيُبعَثُ نَبيٌّ فِي آخِرِ الزمانِ نَنتصِر معهُ عليكُم ونَقتُلُكُم، وهَذا هُوَ استِفتاحُهُم عَلَى الذين كَفرُوا.

فلَمَّا بعَثَ الله نَبيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن العَربِ مِن قُريْش، ولَم يَكُن مِن اليَهودِ، وجاءَهُم بالقُرآنِ الذي عَرفُوا صِدقَهُ بتَصدِيقِهِ التَوْرَاةَ؛ كَفروا بالقُرآنِ وبنَبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ عُدوانًا وظُلمًا وحَسدًا مِن عِندِ أنفُسِهِم، مَعَ أنَّ القُرآنَ جاءَ مُصدِقًا لِمَا مَعَهُم مِنَ التَّوْرَاةِ.

أخرجَ أحمدُ وغيرُهُ عَن سَلَمةَ بن سلامَة رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وكانَ مِن أهلِ بَدرٍ، قَالَ كَانَ لَنَا جَارٌ يَهُودِيٌّ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَسِيرٍ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ... فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ، وَالْحِسَابَ وَالْمِيزَانَ، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، قَالَ ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَقَالُوا وَيْحَكَ، وَتَكُونُ دَارٌ فِيهَا جَنَّةٌ، وَنَارٌ، يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي أَحْلِفُ بِهِ، وَلَوَدَّ أَنَّ حَظَّهُ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمُ مِنَ التَّنُّورِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، يُحَمُّونَهُ، ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ، فَيُطْبِقُونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَنْجُو مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا، قَالُوا: وَيْحَكَ، وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ، قَالُوا: فَمَتَى نَرَاهُ؟ فَرَمَى بِطَرْفِهِ، فَرَآنِي مُضْطَجِعًا بِفِنَاءِ بَابِ أَهْلِي، وَأَنَا أَحْدَثُ الْقَوْمِ سِنًّا، فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمْرَهُ يُدْرِكْهُ. قَالَ سَلَمَةُ: فَوَاللهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ، وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ، وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا لَهُ: وَيْلَكَ يَا فُلَانُ، أَلَسْتَ الَّذِي قُلْتَ لَنَا مَا قُلْتَ: قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لَيْسَ بِهِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ يُوشَعُ.

ومِثلُ هَذا الحَديثِ يَدُلُّ على أنَّ إعراضَ اليهودِ عن دَعوةِ نَبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانَ إعراضَ مُكابرةٍ ومُخالفةٍ، وأنَّهُم يعلمُونَهُ حقَّ العِلمِ، كَما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البَقرَة ١٤٦]، ولِذلكَ خُتِمَتِ الآيةُ الكريمةُ بقولِ الله: ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، يعني: هُم وأمثالُهُم مَطرودُونَ مِن رَحمةِ الله، بَل تأمَّلوا الآيَةَ التاليَةَ كيفَ ذمَّتْهُم وذَكرَت سُوءَ صَنيعِهِم ومآلَهُ:

﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾

بِئْسَ مَا رَضوهُ لأَنفُسِهم مِن كتمانِ الحَقِّ والكُفرِ وسَخطَ الله عليهم، هُم مَا كَفروا إلَّا بَغيًا وعُدوانًا وظُلمًا وحَسدًا لأنَّ الله أرسلَ نبيَّهُ مِن غيرِهم، مَعَ أنَّ النُبوَّة والاصطِفاءَ فَضلٌ مِنَ الله تَعالَى يُؤتيهِ مَن يَشاء.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖ﴾ استَحقُّوا غضبًا على غضبٍ، غَضبًا لِتضييعِهم التوراةَ وكُفرِهم بالإنجيلِ، وغَضبًا بِتكذيبِهم رسالةَ نبيِّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَا جاءَ بِهِ مِن الهُدى.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ كَما أنَّهم تكبَّروا وحَسدوا وظَلَموا، كانَ جزاؤُهم يومَ القيامةِ عذابًا فيهِ الإهانةُ والصَّغارُ والذِّلةُ، كَما قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر ٦٠]، أيْ: صاغِرينَ حَقيرينَ ذليلين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١﴾

الآيةُ هُنا تتكلَّمُ عَن عُذرٍ مِن أعذارِ اليهودِ الواهيةِ فِي كُفرِهم وصَدِّهم عَن الطريقِ المستقيمِ، كَما قَالوا قَبلَ ذلِك: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ [البَقَرة ٨٨].

هَؤلاءِ اليَهودُ إذَا قِيلَ لَهم ولأَمثالِهم مِن أهلِ الكتابِ: آمِنُوا بِمَا أَنزلَ الله عَلى مُحمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصَدِّقوهُ واتَّبعوهُ، قَالُوا: نُؤمِنُ بِما أُنزِلَ عَلَيْنَا مِنَ التَّوْراةِ، ولا نُقرُّ ونُؤمِنُ ونَعترِفُ إلَّا بذلِك.

وهُم يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ مِنَ الكُتُبِ والرُّسُلِ، طبعًا يقصِدونَ خُصوصَ القُرآنِ ومَن أُنزِلَ عليْهِ، مَعَ أنَّهم يَعلمونَ أنَّ مَا أُنزِلَ على مُحمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الحَقّ مُصدِّقًا لِما أُنزِلَ عليْهِم.

ومَنْ تأمَّلَ إيمانَهُم بِكُتُبِهِم، علِمَ أنَّه إيمانٌ مكذوبٌ وغَيْرُ صحيحٍ؛ فَهؤُلاءِ كَذَّبوا عددًا مِن رُسُلِ الله إِلَيْهم، وقتَلوا آخرينَ، مَع أنَّ كِتابَهم الذي أُنزِلَ عليْهِم حرَّمَ ذلِك. قالَ الله في خِتامِ الآيةِ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقَدْ مَرَّ معَنا قولُ ربِّنا عنهُم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، [البَقَرة ٨٧].

وتنبَّهُوا هُنا إلى أنَّ الذينَ قَتلوا الأنبياءَ هُم أسلافُ وأجدادُ المُخاطَبينَ بِهذِه الآياتِ، ولَكِن صَلُحَ توْجيهُ الخِطابِ إِليْهِم؛ لِأنَّهُمْ يَروْنَهُمْ على حَقٍّ فِيما فعَلُوا مِن قَتلِ الأَنْبِياء، ولأنهم لم يُخالِفوا ويتبرَّؤوا ممَّا فَعلَهُ مَن سَبَقَ مِنهُم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

ومِن عَجائِبِهم التي تَدُلُّ على كَذِبِهم وعَدَمِ صِدقِهم فِيما ادَّعوْهُ مِن إيمانٍ، أنَّ الله تَعالَى أنعمَ عليْهِم بنِعَمٍ لا تُعدُّ ولا تُحصى؛ وجاءَهُم نَبيُّ الله مُوسَى بِالبيِّناتِ والبراهينِ والدلائِلِ على صِدقِ نُبوَّتِه ورِسالَتِه؛ ومِن هذِه البيِّناتِ قولُ الله تَعالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف ١٣٣]، وقَوْلُه سُبحانَهُ: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشُّعراء ٣٢-٣٣]، وقَوْلِه عزَّ مِن قائِلٍ: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشُّعَراء ٦٣].

ثُمَّ بعدَ كُلِّ هَذا اتَّخَذوا العِجلَ إلهًا مِن دُونِ الله، بَعدَ أَن ذَهَبَ مُوسى عليهِ السَّلامُ لِميقاتِ ربِّهِ لِيُناجيَه ولِيُؤتيَهُ الألواحَ التي فيها التَّوراةُ والشريعةُ، ومَكثَ هُناك أربعينَ لَيْلةً، فلَمّا ذَهبَ وغابَ عنهُم، واستَخلَفَ علَيْهِم أخاهُ هارونَ عليْهِما السَّلامُ، اسْتَضْعَفوهُ وظَنُّوا أنَّ مُوسَى هلَكَ، فاتَّخذُوا العِجلَ إلهًا ومَعبودًا مِن دُونِ الله، العِجلَ الَّذي أَغْراهُم بِهِ السامِريُّ كَما في سورةِ طَهَ، وصَنَعهُ لهُم مِنْ ذَهَبٍ وفِضَّةٍ مِنْ حُلِيِّهِمْ، فظَلَموا أنفُسَهُم بِشركِهم ظُلْمًا كثيرًا قالَ الله تعالَى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ [الأعرافُ ١٤٨]، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ [طَهَ ٨٧ - ٨٨].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

تقدَّمَ معنا أنَّ الله تعَالَى أَخذَ على بني إسرائيلَ العُهودَ والمواثيق، بِأَن يُؤمِنوا بِهِ وَحدَهُ ولا يُشرِكوا بِهِ شيئًا، وأَن يَعملوا بِالتَّوراةِ ويُبلِّغوهَا.

ذكَرَ أهلُ التَّفسيرِ هُنا، أنَّ الله تعالَى لـمَّا أخذَ علَيْهِم الميثاقَ أَبَوْا ولَم يُطيعوا، فَأراهُم شيئًا مِن عظَمتِه وقُدرتِه، ورفعَ الطُّورَ (الجَبَلَ) على رُؤوسِهم لِيمتَثِلوا بما عاهَدوا اللهَ علَيْهِ، ويأخُذوا ما أعْطَاهُم اللهُ تَعالَى مِن شرعٍ في التَّوراةِ بِقوَّةٍ، يَعني: بِأَمانَةٍ وعزيمةٍ وحزمٍ وهِمَّةٍ وامتثالٍ وإتقانٍ في تَبليغِها ونَشرِها، كَما قالَ تعَالَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف ١٧١]. أَيْ: لَعلَّكُم تُحقِّقونَ تَقوى الله ومَخافَتَهُ كَما أَمرَ، ولَكِن هَلِ اسْتَجابوا؟

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ قالُوا: سَمِعنا بِآذانِنا ولَنْ نمْتَثِل، ولَن نُطيعَ.

﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ هُنا يَأتيكُم الجوابُ عَن سُؤالٍ يدورُ كثيرًا في الأَفْهامِ؛ كَيْفَ يُعبَدُ عِجلٌ مِن دونِ اللهِ؟!

الجوابُ أنَّ هَؤُلاءِ وأَمثالَهم مِن عبدَةِ غَيرِ اللهِ، يَصِلونَ إِلَى مَرحلَةٍ يَخلُصُ ويَصِلُ فِيها المَعبُودُ إلى قُلوبِهِم، فَيُحِبُّونَهُ محبةً عظيمةً، ويَتعلقونَ بِهِ ويَعبُدونهُ، حَتَّى يَصِلَ حُبُّهُم لَهُ إِلى حَدٍّ يَصعُبُ انفكاكُهُم عَنهُ.

وهَذَا الأَمرُ يَنطبِقُ عَلَى بَعْضِ أَصحابِ المَعَاصي التي غَدَت لا تَنْفَكُّ عَنهُم صباحَهُم ومَساءَهُم، يُجاهِرونَ بِها، ولا يَعقِدونَ في قُلوبِهِم التَّوبَةَ مِنهَا؛ فَإنَّ قلوبَهُم أُشْرِبَتْ حُبَّها.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قُلْ يا مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُم: زَعمتُم أنَّكم مُؤمِنونَ، ولَسْتُم كَذلِكَ؛ بَلْ كَذَبتُم وكَفَرْتُم.

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

قل يا محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهؤلاءِ اليهودِ الذين يزعمونَ أنّهم مؤمنون وأنّهم أبناءُ الله وأحبّاؤه، وأنّه لنْ يدخلَ الجنّةَ إلّا من كان هوداً أو نصارى، قل لهم: إنْ كانَ الأمرُ كذلكَ، وكانت الجنّةُ خالصةً لكم؛ فتمَنَّوْا وسَلُوا الموتَ إنْ كنتُم صادقين. أخرجَ الإمامُ أحمد قولَ رسولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولو أنّ اليهودَ تمنَّوْا الموتَ لماتوا» الحديث.

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

الآيةُ السابقةُ فيها تحدٍّ لهم، وهنا تكشفُ الآيةُ عن حقيقتِهم التي لم ولن يخالفوها. هؤلاءِ لا يحبّون الموتَ؛ لأنّهم لم يقدّموا لآخرتِهم ما يليقُ بها، بل اقترَفَتْ أيديهم وجوارحُهم الآثامَ العظيمةَ، والله عليمٌ بهم وسيعاقبُهم.

وهاتانِ الآيتانِ كقولِ الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة ٦-٧].

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

هذه حقيقةُ اليهودِ؛ يَحرِصُون ويودّون لو أقامُوا كثيراً في الحياةِ الدّنيا، وتأَخَّرُوا عن مقامِ حسابِهم في الآخرةِ، فإنّهم يعلمونَ أنّ عاقبَةَ أمرِهم الخُسْرانُ، ولذلكَ كانت الدّنيا جنَّتَهُم، يَعضّونَ عليها ويتعلّقونَ بها ويخشَوْن مُغادرَتَها.

والحرصُ على الحياةِ من الأمورِ الغريزيّةِ التي جُبلَ عليها البَشَرُ، لكن النّاسَ يتفاوتونَ فيه، وفي التّفاعل مَعَ مظاهِرِهِ. الآيةُ هنا وَصَفَتْهُم بأنّهم أحرَصُ من كلِّ النّاسِ على هذه الحياةِ الدّنيا، يعني: حتّى من المشركينَ

الذين ينكرونَ البَعْثَ والحِسابَ والجزاءَ، ولذلك قال الله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾. والعجيبُ أنّهم يزعُمونَ أنّهم أولياءُ الله وأهلُ جَنَّتِهِ! أليسَ اللّائقُ بمن يعتقدُ ذلك أنْ يشتاقَ لِلُقْياهُ!

ثمّ تأمَّلُوا كيفَ ذُكِرَتْ كلمةُ ﴿حَيَوٰةٖ﴾ هكذا بصِيغةِ التّنكيرِ وبدون ألْ التعريف، وهذا يدلُّ على أنّ اليهودَ يرْضَوْنَ بأيِّ حياةٍ حتى لو كانت ذَمِيمَةً دَنِيئَةً عَفِنَةً، هم يخافونَ من الموتِ أكثرَ من غيرِهم.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ بَلَغَ بِهِم الحالُ من تعلُّقِهِمْ بالدّنيا وبالخَطَايا التي أَلِفُوهَا فيها، أنْ يكرَهُوا لِقَاءَ الله، وأنْ يتمنَّوْا البَقاءَ فيها ألفَ سَنَةٍ يتقلَّبُونَ فيما يتقلَّبُونَ فيهِ، وإنْ كانَ ما كانَ.

ولكنْ هيهاتَ؛ فإنّ ذلكَ ليس بمُبْعِدِهِمْ ولا مُنْجِيهِم من الخِزْيِ ومن العذابِ، فإنَّ طُولَ تمَتُّعِ أهلِ الكفرِ والمعاصي في النِّعَمِ لا ينفعُهُم، كما قال الله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء ٢٠٥-٢٠٧].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ وربُّنا جَلَّ وعَلَا عالمٌ بحالِهم، وما قدَّمُوهُ من اعتقادٍ وعملٍ، وسيُجازِيهم به.

كلُّ هذه الصِّفَاتِ لليهودِ، يُفهَم منها أنّ أهلَ الإيمانِ والتَّقْوى لا يَحْرِصُونَ على أيِّ حياةٍ كانت، بل لا يرْضَوْنَ لأنفسِهِم إلّا حياةً قائمةً على شَرْعِ الله والمنهجِ الذي ارتضاه للبشريّةِ، ولذلك هم يَبْذُلُونَ الغَالِيَ والنَّفِيسَ من أجلِ دِينِهِم لا من أجلِ دُنياهم، وبعدَ ذلك: هم يُحِبّونَ لِقاءَ الله تعالى ويَرْجُونَه.

﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧﴾

هذه الآيةُ تُشيرُ إلى حُجَّةٍ من حُجَجِ اليهودِ الوَاهِيَةِ الكاذبةِ التي سَتَرُوْا بها ما في قلوبِهم من مرضِ الحَسَدِ للدّعوةِ وأهلِها، وسَتَرُوْا أمراضًا عِدَّةً دلَّ عليها السِّيَاقُ.

الآيةُ تُبيِّنُ اضطرابًا وتناقُضًا عجيبًا في عقيدتِهم وفي عُقولِهم؛ هم يؤمنونَ بجبريلَ وبأنّه مَلَكٌ من مَلَائِكَةِ الله، ولكنّهم يُعادُوْنَهُ ويَأْبَوْنَ الإسلامَ بسَبَبِه، كما يزعمونَ!

وعَداوَةُ اليَهُودِ لِجبْرِيلَ نَشَأَتْ من وقت نزولِه بالقرآنِ على محمّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد دلّ على عداوتهم كذلك حديثٌ أخرجه الإمامُ البخاريُّ، جاء فيه عن أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: سَمِعَ عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ بِقُدُومِ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي أَرْضٍ يَخْتَرِفُ (يجتني من الثمر)، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عن ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ؛ فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ وَمَا يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا. قَالَ: جِبْرِيلُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله» الحديث.

وأما سببُ عداوتِهم له، فعندَ أحمد أنَّ اليهودَ سألوا نبيَّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلين: فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟ قَالَ: «جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ»، قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْعَذَابِ عَدُوُّنَا، لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ لَكَانَ، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةَ.

ونقلَ غيرُ واحدٍ من أهلِ التّفسيرِ بأسانيدَ فيها كلامٌ، أنّ عمر بن الخطّاب انطلقَ ذاتَ يوم إلى اليهودِ، فلمّا أَبْصَرُوهُ رَحَّبُوا به، فقال لهم عمر: أَمَا والله ما جئتُ لِحُبِّكُمْ ولا للرَّغْبَةِ فيكُم، ولكن جئتُ لأسمعَ منكُم. فسأَلَهُم وسَأَلُوه. فقالوا: مَنْ صاحبُ صاحبِكُم؟ فقال لهم: جبريل. فقالوا: ذاكَ عدُوُّنا من أهلِ السماءِ، يُطْلِعُ محمداً على سِرِّنا، وإذا جاءَ جاءَ الحَرْبُ والسَّنَةُ، ولكنْ صاحبُ صاحِبنا ميكائيل، وكانَ إذا جاءَ؛ جاءَ الخُصْبُ والسِّلْم. فقال لهم عمر: هل تعرفونَ جبريلَ وتُنْكِرُونَ محمدًا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ففارَقَهم عمر عندَ ذلك، وتوجّه نحوَ النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليحدّثَه حديثَهم، فوجدَه قد أُنزلت عليه هذه الآيَة: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

الآيةُ هنا جاءت آمرةً نبيَّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يخبِرَهُم ويقولَ لهم: من عادَى جبريلَ وكانَ له مُبْغِضًا؛ فلْيَعْلَم أنّه الرُّوحُ الأمينُ الذي نَزَلَ بالوحيِ وبالقرآنِ من عندِ الله، وقرَأَه عليكَ وسَمِعَه منكَ بأمرِ الله تعالى وإذْنِه، وهذا الوحيُ جاءَ مصدِّقًا للتّوراةِ والإنجيلِ والكُتُبِ المتقدّمةِ جميعِها، وفيهِ هُدًى يُنِيرُ طريقَ السّائرينَ إلى الله تعالى في مَعَاشِهِم، ويبشّرُهم بالجنَّةِ، ومثلُ هذا لا يُوجِبُ عَداوتَه، بل يُوجِبُ حُبَّهُ والإيمانَ بما جاءَ به من عندِ الله.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ٩٨﴾

يقولُ تعالى: من عَادَانِي ومَلائِكَتِي ورُسُلِي من المَلائِكَةِ ومن البَشَرِ؛ كنتُ عدُوًّا له.

وتأمَّلُوا كيفَ خَصَّ جبريلَ بالذِّكْرِ لِمَا أسْلَفْنَا في الآيةِ قبلَهَا، وكذلكَ خَصَّ مِيكَالَ بالذِّكْرِ؛ فإنّ اليهودَ تحبُّه مُعَلِّلَةً ذلكَ بأنّه مُوكَّلٌ بالقَطْرِ والنَّباتِ والسَّلامِ والخَيْرِ وما يُسْعِدُ ويُفْرِحُ.

والآيةُ فيها فوائدُ، تأمَّلُوها:

١-أهلُ الإيمانِ لا يفرِّقُونَ في إيمانهم بين رسولٍ ورسولٍ، أو بينَ مَلَكٍ ومَلَكٍ، وإنّما يؤمنونَ بكلِّ ما جاءَ من عندِ ربِّنا، كما وَصَفَ الله أولياءَه بقولِه سبحانَه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة ٢٨٥]، وهذا يعني أنّ من عَادَى واحداً منهم فقد عادَى الآخرَ، بل عادَى جميعَ الرُّسُلِ والملائكةِ؛ فإنّ مِشْكَاةَ الإيمانِ بهم واحدةٌ، ويعني كذلكَ أنّ من كفرَ بواحدٍ منهم كانَ كافراً بالله العظيمِ ودِينِه الحقِّ، كما دلّ على ذلكَ قولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء ١٥٠ - ١٥١].

٢- لا يَصْلُحُ أنْ تزعُمَ أنّكَ مؤمنٌ بالله العظيمِ، ثمّ تكفر بما جاءَ من عندِه؛ فإنّ هذا كفرٌ يسبّبُ عداوةَ الله تعالى لِفَاعِلِه، كما هو نَصُّ الآيةِ الكريمةِ؛ وما ظَنُّكم بمن عَادَاهُ الله، كيفَ يكونُ حالُه؟

٣- الملائكةُ رُسُلُ الله للبَشَرِ، ولا يَتَنَزَّلُونَ إلا بأمرِ الله ووحيِه؛ فكان نَصْبُ العداءِ لهم في حقيقتِه عداءٌ للرَّبِّ جلّ وعلا. قالَ الله تعالى عن الملائكةِ: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾ [مريم ٦٤].

ولَمَّا نقول: إنّ الكُفَّارَ أعداءُ الله بنَصِّ الآيةِ الكريمةِ، فهذا يُوجِبُ على أهلِ الإيمانِ عَدَاوتَهم وبُغْضَهُمْ وبُغْضَ ما هم عليهِ من الكُفْرِ.

﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

آيةٌ فيها تَسْلِيَةٌ وتطمينٌ لقلبِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولِمَنْ حَمَلُوا الأمانةَ مِن بعدِه، أنّ الله أنزلَ إليكُم علاماتٍ واضحاتٍ تَدُلُّ على صِدْقِ ما أنتُم عليهِ، فهذا كتابُ الله تعالى مُعجزٌ في لفظِه ومعناه، نزلَ على نبيٍّ أُمِّيٍّ لا يقرأ ولا يَكتبُ، ويُخبِرُ اليهودَ عمّا في دينِهم وتَوْرَاتِهم وما يجري بينهم، فاطْمَئِنُّوا لطريقِكم الذي اصْطَفَاكمُ الله له، واعْلَموا أنَّهُ لا يُعانِدُ ويجحدُ ما جِئتُم به إلا من تجاوَزَ الحَدَّ في كُفْرِه، وخرجَ عن طاعةِ الله وطريقِ الهُدَى.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾

صِفَةٌ أُخْرَى من صِفاتِهِم في سياقٍ قُرآنِيٍّ ذَكَر وبيّنَ كثيراً منها؛ لِنَعْلَمَ حقيقةَ القَوْمِ وما هُم عليهِ من الضَّلالِ المُبين.

توبيخٌ لليهودِ على نَقْضِهِم عُهُودًا أُخِذَتْ عليهِم في التّوراةِ، بأنْ يُخْلِصُوا في توحيدِهِم، ويُؤْمِنُوا بأنبياءِ الله جميعًا، لكنّهم كفروا بأنبياءَ، وقتَلُوا آخرينَ، ولا يزالونَ يَصُدُّونَ عن دينِ الله ما استطاعوا إلى ذلكَ سبيلاً، وهذا حال أكثرهم مع أنبيائهم، بل معَ نبيِّنَا عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، كما بيَّنَ ختامُ الآية.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾

جاءَ وَصْفُ رسولِ الله وأصحابِه في التّوراةِ، وقد أَمَرَتْهُم باتّباعِ النّبيِّ الأُمِّيِّ ونُصْرَتِهِ ومُؤازرَتِهِ، وأهلُ التّوْراةِ يعلمونَ عِلْمَ اليقينِ صِدْقَهُ وصِدْقَ ما أُنْزِلَ عليهِ.

ولكن لمّا جاءَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برسالتِه، لمْ يُؤمنوا بها ولا بالقرآنِ، ولم يلتزمُوا بما في التوراةِ، بلْ اتّخَذُوا طريقَ الكُفْر وطريقَ السّحرِ كما بيَّنَتْ الآيةُ التالية، ولهذا أرادوا كَيْداً برسولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسَحَرُوه كما ثَبَتَ عندَ البخاريّ.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾

هذه الآيةُ تَصِفُ حالَ اليهودِ؛ فإنّهم لمّا جاءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برسالتِه، لم يُؤمنوا بها ولا بالقرآنِ، ولم يلتزموا بما في التّوراةِ من مَوَاعِظَ وأحكامٍ، كما أشارتْ إلى ذلك الآيةُ السّابقةُ.

جاءتْ الآيةُ هنا تبيّنُ ما الذي اتّبعُوهُ وآمَنُوا به؛ اتّبعُوا ما كانتْ تَتْلوهُ الشّياطينُ وتَتَقوَّلُ به، وتَكْذِبُ به على مُلْكِ سليمانَ، وذلكَ بزَعْمِهَا أنّ سليمانَ إنّما سُخِّرَ له الجِنُّ والطَّيْرُ والرِّيحُ وغيرُهَا، وكانَ يحكُمُهُم بسِحرٍ كانَ يفعَلُه، لا أنّ ذلكَ ممّا أعطاهُ اللهُ إيّاه.

الآيةُ تبيّنُ أنّ اليهودَ اتّبعُوا السِّحرَ، وقد كان معلوماً للعربِ كلِّهم أنّ اليهودَ أهلُ سحرٍ، وأنّهم كانوا يعتنونَ به كثيراً، وقد صحّ عند البخاريِّ أنّ اليهوديَّ لبيدَ بنَ الأعصمِ سَحَرَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنّ هذا السِّحرَ أثّر على بَدَنِهِ لا على عقْلِه، بل لمّا وُلِدَ الصّحابيُّ الجليلُ عبداللهِ بنُ الزّبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الإِسْلَامِ في المدينةِ، فَرِحُوا بِهِ فَرَحًا شَدِيدًا؛ لأَنَّهُمْ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ الْيَهُودَ قَدْ سَحَرَتْكُمْ فَلاَ يُولَدُ لَكُمْ.

واعلموا أنّ نِسْبَتَهُم السِّحرَ لنبيِّ اللهِ سليمانَ، يعني أنّ سليمانَ عليه السّلامُ لم يكن رسولاً ولا نبيًّا، وإنّما كانَ ساحراً كافراً، وهو كذلكَ في دينِ اليهودِ، ولذلكَ جاءَ قولُ اللهِ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾، وهذهِ الآيةُ نصٌّ في تبرئةِ نبيِّ اللهِ سليمانَ ممّا نُسِبَ إليهِ من اليهودِ، وهذا ليس غريباً عنهُم، فما عرَفَهم التّاريخُ إلا قَتَلَةً للأنبياءِ ومكذّبين لهم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ إذن؛ فحقيقةُ الأمرِ أنّ سليمانَ عليه السلام ما كفرَ، فالسِّحرُ إنّما جَمَعَتْهُ وفعَلَتْهُ وعلَّمَتْهُ الشّياطين، التي تعاوَنَتْ مع أوليائِها من الإِنْسِ فأعانَتْهُم على السِّحْرِ.

والسّحرُ في اصطلاحِ الشّرعِ عرّفه ابنُ قُدامَةَ بأنّه: «عزائمُ ورُقَى وعُقَدٌ يؤثّر في القلوبِ والأبدانِ، فيُمْرِضُ ويقتلُ، ويفرّق بين المرءِ وزوجِه».

وأهلُ السُّنّةِ والجماعةِ على أنّ السّحرَ له حقيقةٌ، قال الإمام النّوويُّ: «والصّحيحُ أنّ السّحرَ له حقيقةٌ، وبه قطعَ الجمهورُ، وعليهِ عامّةُ العلماءِ» وقال الإمامُ القرطبيُّ: «ذهبَ أهلُ السُّنّةِ إلى أنّ السّحرَ ثابتٌ وله حقيقةٌ».

وتأثيرُ السِّحرِ إنّما يكونُ بإذْنِ الله الكَوْنِيِّ القَدَرِيِّ، وهو من عملِ الشّياطينِ، وكثيرٌ منه لا يُتوَصَّلُ إليهِ إلّا بالشّركِ والتَّقرُّبِ إلى الجنّ والشّياطين بما تحبّ، ولذلكَ جاءَ النّهيُ عنه في الأَدْيانِ السّماويّةِ، وتعدَّدَتْ النّصوصُ الشرعيّةُ في التّحذيرِ منه ومن أهلِه، فإنَّ فِعْله والإعانةَ عليهِ علامةٌ على خَبَاثَةِ نفسٍ، وفسادِ دِيْنٍ.

ومن ابتُلِيَ بضُرٍّ من السّحرِ في بَدَنِهِ أو أهلِهِ ، فعليهِ بالرُّقْيَةِ الشّرعيةِ من المعوذّتَيْن وآيةِ الكرسيِّ وغيرِهما، والحِرصِ على استخراجِ السّحرِ إنْ أمكنَ. ويوصِي بعضُ أهلِ العلمِ بالحِجَامَةِ وبعضِ الأدويةِ النّافعةِ كالتَّمْرِ ووَرَقِ السِّدْرِ وغيرِهما ممّا يعلمُه الثّقاتُ من أهلِ التّخصُّصِ.

والآية تذكر كذلك، أنَّ الشياطينَ علَّمتْ أولياءَها من النّاس السّحرَ الّذي أُنزلَ على الملَكَيْن هاروتَ وماروتَ بمنطقةِ بابلَ.

وهاروتُ وماروتُ مَلَكَان أنزَلَهُما الله تعالى، وأنزلَ معَهُما من السّحر ما فيه بلاءٌ واختبارٌ للنّاس، مَلَكَانِ تَشَكَّلَا للناسِ يعلّمانِهم السّحرَ؛ لكَشْفِ أسرارِ السَّحرةِ ليكونوا على دِرايةٍ من أمرِهم وحالِهم، وليتحقّقَ البلاءُ للنّاسِ؛ هل يُصْبحونَ من السّحرَةِ وممّن اتّبعَهم، أم يجتنبونَ الكفرَ وما يبثّه السِّحرُ والسَّحرَةُ بينهم، ولذلكَ كانَ الملَكَانِ إذا علّما السّحرَ قالا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وأُنبّه هنا إلى أنّ كُتُبَ التّفسيرِ ذَكرتْ عدداً من القصصِ الّتي لا تصحُّ في تفسيرِ الآيةِ، وتكلَّمَتْ عن قصّةِ خاتَم سليمان، وهي قصّةٌ مرويّةٌ عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، وفيها غرائبُ، وفي سَنَدِهَا كلامٌ عندَ عددٍ من أهلِ الصّنعةِ الحديثيّةِ، وبعضُهُم صَحَّحَ إسنادَها إلى ابنِ عبّاسٍ، ولكنّ غيرَ واحدٍ من المحقّقِيَن ذهبَ إلى أنّ ما رواهُ ابنُ عبّاسٍ منقولٌ عن بني إسرائيلَ، ولا يُؤْخَذُ بهذه القِصّةِ في تفسيرِها؛ فإنَّ فيهَا عددًا من الأمورِ التي لا يصحُّ نسبتُها لمقامِ النُّبُوَّةِ، فليُنْتَبهْ إلى ذلكَ.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ المَلَكَانِ هاروتُ وماروتُ يعلّمانِ النّاسِ السّحرَ وأبوابَه وطرائِقَه، ثمّ يقولانِ لمن جاءَهُما يريدُ تَعَلُّمَ السّحرِ: إنّما نحنُ اختبارٌ وابتلاءٌ فتمسّكْ بدِيْنِك، ولا يَغُرَّنَكَ عَمَلُ السَّحرَةِ، ولا تكفُرْ بتعَلُّمِكَ السّحرَ. وهذا القول منهما، يُفهَم منهُ بوضوحٍ أنّ أقوالَ السّاحرِ وأعمالَه التي يؤثّرُ بها على النّاسِ، منها ما هو كُفْرٌ في حكمِ الله وشرعِه قطعاً.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: فيتعلّمُ النّاسُ من هاروتَ

وماروتَ من عِلْمِ السّحرِ ما يجعلُهُم قادرينَ على ممارسةِ نوعٍ من أنواعِ السّحرِ، وهو سِحْرُ التّفريقِ بين الزّوجَيْنِ.

والتّفريقُ بينَ الزّوجَيْنِ ممّا يحبّه الشيطانُ ويحرِصُ عليهِ؛ فإنّ فيهِ نقضًا لرابطةِ المحبّةِ والمودّةِ الّتي أرادَهَا الله بينَ الزّوجَيْنِ، والتّفريقُ بينهما يُسهِّلُ على الشياطينِ صرفَ الزّوجَيْنِ عن طريقِ الاستقامةِ، ويفتحُ عليهما وعلى أولادِهما أبواباً من الشّرورِ. قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّ الشّيطانَ ليَضعُ عَرْشَهُ على الماءِ، ثمّ يبعثُ سَرَاياهُ في النّاسِ، فأقرَبُهُم عندَه منزلةً أعظمُهُم عندَه فتنةً ، يَجِيءُ أحدُهُم فيقولُ: ما زلتُ بفلانٍ حتى تركتُه وهو يقولُ كذا وكذا. فيقولُ إبليسُ : لا واللهِ ما صنعتَ شيئًا. ويَجِيءُ أحدُهُم فيقولُ: ما تركتُه حتّى فرَّقْتُ بينَه وبينَ أهلِهِ. قال: فيُقَرِّبُهُ ويُدْنيهِ ويلْتزِمُه، ويقولُ: نِعْمَ أنتَ».

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هذا يدلُّ على أنّ السّحرَ يضرّ حقيقةً، وعلى أنّ ضَرَّهُ إنّما هو بقضَاءِ اللهِ وأمْرِه، وعلى أنّ السّحرةَ لا يملِكُونَ ضَرَّ إنسانٍ إلّا أنْ يشاءَ اللهُ تسليطَهُم عليهِ ابتلاءً له، وعلى أنّ العبدَ لا يملكُ إلّا أنْ يتوكّلَ على اللهِ ويُحسِنَ الاستعانةَ به، وأنْ يكونَ يقينُه باللهِ العظيمِ على خيرِ حالٍ على الدّوامِ.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ تَعَلُّمُ السّحرِ لا يجلبُ إلا الضُّرَّ؛ فإنّ فيهِ تعلُّقًا للقلبِ بغيرِ اللهِ، وفيهِ تعظيمٌ للشّياطينِ واستعانةٌ بها، وفيهِ إضْرارٌ بالغيرِ، وعَبَثٌ ولَعِبٌ بحياةِ النّاسِ، وهَدْمٌ للبيوتِ، وإيجادٌ للعداوةِ والبغضاءِ، بل يقودُهُم إلى الشّركِ والكُفْرِ باللهِ العظيمِ.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ اليهودُ تركوا الوَحْيَ، وتَعاملوا بالسِّحرِ الذي تتلوهُ الشّياطينُ على أوليائِهَا، وهم يعلمونَ أنّه محرَّمٌ في دينِهِم، وأنَّ من تعامَلَ به، ليس له في الآخرةِ من نصيبٍ ولا حظٍّ، وإنّما له الخسرانُ المبينُ.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ذمٌّ لَهُم على استبدالِهِم الكُفْرَ والسّحرَ بالإيمانِ، باعُوا أنفُسَهم وتسبَّبُوا لها بالخَسارِ والبَوارِ من أجلِ الدّنيا ومُتَعِهَا ولذائِذِهَا الفانيةِ، لكنّهم لا يعلمونَ قَدْرَ ذَمِّهِ وضَرَرِهِ؛ فإنّ المنْغَمِسَ في الكُفْرِ أو في المعصيةِ التي أُشْرِبَهَا قلبُه، يكونُ في غفلةٍ لا نظيرَ لها.

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٣ ﴾

بعدَ كلِّ هذا يفتحُ الله تعالى لهم بابَ التّوبةِ، ويُناديهِم ويُخبِرُهم بأنَّ استقَامَتهُم على طريقِ الإيمانِ، واتّقاءِ المحارِمِ من السِّحرِ ونحوِه، خيرٌ لهم عندَ الله؛ فإنّه سبحانَه أَعدَّ لِمَنْ أطاعَه والتزَمَ طريقَ رِضاهُ مَثُوبَةً وأجراً أعظمَ من كلِّ نفعٍ أرادُوه.

وهذه الآيةُ استدَلَّ بها من ذهبَ إلى تكفيرِ السّاحرِ، وهو قولُ كثيرٍ من فُقَهاءِ السَّلَفِ والخَلَفِ، ومنهم مَنْ فَصَّلَ وفَرَّقَ بينَ أنواعِ السَّحرَةِ؛ فمنهم الكافرُ ومنهُم من لا يَكْفُرُ. وقدْ أخرجَ البخاريُّ عن بَجالَةَ بن عَبْدَة أنّه قال: «كتَبَ عُمرُ رَضِيَ الله عنهُ أنِ اقْتُلوا كُلَّ ساحِرٍ وَساحِرَةٍ. قَالَ: فقَتَلْنا ثَلَاثَ سَواحِرَ». وإلى قتْلِهِ مطْلَقًا ذهبَ بعضُ أهلِ العلمِ، وذهبَ آخَرُونَ إلى التّفصيلِ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤ ﴾

كانَ أصحابُ النّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلبونَ منه إذا ما نَزَلَ عليهِ شيءٌ من الوَحيِ، أنْ يُعَلِّمَهُم إيّاهُ بتؤُدَةٍ وتَأَنٍّ مراعاةً لهم، قائلينَ له: راعِنَا، أو يستعملونَها إذا قَصَدُوا بها أنْ يستَمِعَ إليهِم، فقَوْلُهُم: رَاعِنَا، أيْ: أَرْعِنا وأَعْطِنَا سَمْعَكَ.

وكانَ اليهودُ عليهِم من الله ما يستحقّونَ، ينتظِرُونَ كلَّ وسيلةٍ يحاربونَ فيها محمداً صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصَحْبَه، وكانتْ هذه الكَلِمَةُ في لُغتِهِمْ لها معنىً خَاصٌّ، فيهِ قُبْحٌ وازْدِراءٌ بمن خُوطِبَ بها.

اليهودُ استَخْدَمُوا ذاتَ الكَلِمَةِ قاصدِينَ بِهَا الاستهزاءَ والسُّخرِيَةَ والتَّنْقِيصَ من أهلِ الإيمانِ؛ فإذا أرادُوا أنْ يقُولُوا لِنَبِيِّ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسمَعْ لنَا ، كانوا يستخدِمونَ عبارةَ: رَاعِنَا، يقصدونَ بها الرُّعُونَةَ، يعني: إذا أرادُوا أنْ يُحَمِّقُوا إنسانًا قالوا له: رَاعِنَا، يعني: يا أحمق، فيفرحونَ فيما بينَهُم بقَصْدِهِم سَبَّ نَبِيِّنَا عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ باستخدامِ لفظِ: راعِنَا.

ولَعِبُ اليهودِ بالألفاظِ مِمّا أخبرَ عنهُ الشّرعُ، وحذَّرَ منه؛ فقدْ قالَ ربُّنا في مُحْكَمِ تنزيلِه: **﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي**

ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء ٤٦]، وكذلكَ جاءتْ الأحاديثُ بالإخبارِ عنهُم، بأنّهم كانُوا إذا سَلَّموا إنّما يقولونَ: السّامُ عليكُم. والسّامُ هو: الموتُ. ولهذا أُمِرْنَا أنْ نَرُدَّ عليهِم بـ «وعليكُم». وإنّما يُسْتَجابُ لَنا فيهِم، ولا يُسْتَجابُ لهم فينا.

وهذا فيهِ توجيهٌ للمسلمينَ عَبْرَ كلِّ الأزمانِ، بأنْ يُدْرِكُوا قِيمةَ الألفاظِ والمباني، وأنّها قوالبُ المعاني، فلا يتَسَاهَلُوا بنَقْلِ مصطلحاتِ أهلِ الكُفْرِ وتقليدِهِم فيها دونَ تمحيصِهَا وبيانِ ما فيها، وقدْ كَفَاهُم الشَّرعُ مُؤْنَةَ الألفاظِ، حتّى أَغْنَاهُم بها.

وفي الآيةِ مَلْمَحٌ لضرورةِ مُخالفةِ غيرِ المسلمينَ في هَيْئَاتِهم وزِيِّهم وما اختصّوا به، ويؤيّدُ هذا ما رواهُ أحمد وأبو داود، من قول رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ».

جاءت الآيةُ الكريمةُ هنا بإرشادِ المخاطَبينَ في الآيةِ، إلى أنْ يقولُوا: انْظُرْنَا، أيْ: انتظِرْنَا وتَأَنَّى بِنَا واستَمِع إلينا؛ لئلّا يُعْطُوا لليهودِ ذريعةً لِسَبِّ نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنّهم كانوا يتَعَذَّرُونَ بأنّ المسلمينَ يقولُونَها، فجاءَ النَّهيُ عنها سدًّا للذَّريعةِ، وفَضْحًا لليهودِ الّذين ظَنُّوا أنّ ذلك خَفِيٌّ على غيرِهم، وأنّ سِرَّهُم لن يُفْضَحَ.

ثمّ قال ربُّنا: ﴿ وَٱسْمَعُواْ ﴾ أيْ: ما تُؤْمَرُونَ به وأَطِيعُوا.

﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هذا يدلُّ على أنّ فِعالَهُم هذه إنّما هي مزيدٌ في كُفْرِهم وغَيِّهم وضَلَالِهم، ولهم بذلكَ عذابٌ فيهِ إِيلامٌ وأَوْجَاعٌ وشِدَّةٌ.

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ١٠٥ ﴾

هذه الآيةُ تُثْبِتُ شِدَّةَ عَداوةِ الكافرينَ من أهلِ الكتابِ والمشركينَ لأهلِ الإيمانِ والتوحيدِ؛ وتُوجِبُ علينا قَطْعَ المَوَدَّةِ والمَحبَّةِ لهم.

أهلُ الكتابِ لا يريدونَ لنا خيراً ولا يحبونَه لنا؛ لا يريدونَ أنْ يكونَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عربيًّا قُرشيًّا من بني إسماعيلَ، ولا أنْ يَخْتَصَّهُ ربُّنا بالوَحْيِ والقرآنِ، فأثارَهُم ذلك ونَصَبُوا العَداوةَ العجيبةَ وآذَوْا وحَسَدُوا.

وأهلُ الشّركِ لا يريدونَ رسولاً يَعيبُ آلهتَهُم، ويبيّنُ للنّاسِ ضلالَهم بعبادتِها؛ فصَدُّوا عن سبيلِ الله ما استطاعُوا إلى ذلكَ سبيلًا.

﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ الله له الحِكْمةُ البالغةُ فيمنْ يَخُصُّهُ برسالتِه وإنزالِ كُتُبِهِ عليه، وله الحكمةُ في اصطفاءِ الزّمانِ والمكانِ وحَمَلَةِ الدّعوةِ المؤتَمَنِينَ عليها؛ فإنّه أعلمُ بِمَنْ يستحقُّهَا. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام ١٢٤].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ وربُّنا له المِنّةُ والفَضْلُ الكبيرُ على عبادِه كلِّهم، فمَنْ أرادَ إكرامًا منه وفضلًا، حَرَصَ على إحسانِ العبوديّةِ له، وتواضَعَ لله تعالى واستجابَ لأَمْرِه.

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾

هذه الآيةُ فيها فوائدُ ومسائلُ متعدِّدةٌ، أُبيِّنُها بالآتي:

أولًا: علماءُ الإسلامِ على أنّ النَّسْخَ واقعٌ في نُصوصِ الشّرعِ. والنَّسْخُ هو رَفْعُ الحُكْمِ الشّرعيِّ بِدَلِيلٍ شَرْعِيٍّ مُتَأَخِّرٍ، أو هو تبديلُ آيةٍ مكانَ آيةٍ من آياتِ القرآنِ. يعني: تُمْحَى وتُرْفَع الآيةُ الأولى أو حُكْمُهَا، وتُنَزَّلُ آيةٌ أخرى مكانَها، أو يَنْزِلُ حكمٌ آخر.

فالقِبْلَةُ كانت لبيتِ المَقْدِسِ ثم حُوِّلَتْ لمكّةَ، وعِدَّةُ المتوفّى زوجُها عنها كانت سنةً ثمّ نُسِخَتْ إلى أربعةِ أشْهُرٍ وعشراً، والخَمرُ كانَ مباحاً ثمّ حُرِّمَ، وحَدُّ الزّنا كان الإيذاءَ والحَبْسَ إلى الموتِ ثمّ نُسِخَ إلى الجَلْدِ والرَّجْمِ وغيرِ ذلك من الأمثلة.

والنَّسْخُ إنّما يكونُ في الأحكامِ الشّرعيّةِ؛ كأنْ يأتِيَ الأَمْرُ من الشّرعِ بالتّحريمِ، ثمّ يأتي نَصٌّ شرعيٌّ يُبِيحُهُ، أو العكسُ. ولا يكونُ النَّسْخُ في الأخبارِ من غَيْبِيّاتٍ وعَقَائِدَ وقَصَصٍ للأنبياءِ، ولا يكونُ في الأخلاقِ.

واعلمُوا أنّ النَّسْخَ الثّابتَ في الكتابِ والسُّنّةِ، له حِكَمٌ وفوائدُ عِدّةٌ؛ منها: تربيةُ المسلمينَ على تسليمِ أمْرِهِم لله، وإظهارُ مقدارِ طاعَتِهم للرَّبِّ جلَّ وعَلَا، وتحقيقُ استسلامِهم لعَظَمَتِهِ وحِكْمَتِهِ على الوجهِ الذي أرادَ، والتَّدَرُّجُ في الأحكامِ كما في آياتِ الخَمْرِ. ومنها: بيانُ رحمةِ الله بالمكلَّفِينَ بتخفيفِ عَدَدٍ من الأحكامِ عنهُم.

ولأهلِ العلمِ تفصيلٌ نَفيسٌ في النَّسْخِ وأنواعِه وأمثِلَتِهِ وأحكامِه، يجدهُ الباحثُ في كُتُبِ الأصولِ وتفسيرِ القرآنِ وعلومِه.

ثانيًا: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ لَفْظَةُ «نُنْسِهَا» فيها قراءتان: «أَوْ نُنْسِها» من النّسيانِ، والقراءةُ الأُخْرَى: «أو نَنْسَأْهَا» من النَّسأِ، وهو التأخيرُ؛ يعني: نؤَخِّرُ إنزالَهَا.

ولِسائلٍ أنْ يقولَ: وهل ينسَى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيةً من القرآنِ، كما في القراءةِ الأُولَى؟ والجوابُ هو نعم، بمعنى أنّ اللهَ تعالى يُنْسِي نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصَحْبَه آيةً أُنْزِلَتْ عليهم، ويُذْهِبُهَا عن قلوبِهم، أو يأمُرُ نبيَّه عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ بتَرْكِ قراءتِها حتى ينسَاها المسلمونَ. وهذا النّسيانُ لا يَقْدَحُ بحِفْظِ الشّريعةِ؛ لأنّه ممّا قَدَّرَهُ اللهُ وأرادَه عن عِلْمٍ وقُدْرَةٍ وحِكْمَةٍ، وقد قال ربُّنا: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى ٦-٧].

ثالثًا: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ المقصودُ أنّ اللهَ تباركَ وتعالى يأتي بخَيْرٍ مِنَ الآيةِ التي نُسِخَتْ أو أُنسِئَتْ أو نُسِّيَتْ، أو يأتي بمثلِها. والخيريّةُ إنّما تكونُ للْمُكَلَّفِينَ، تكونُ رِفْقًا بهم وتخفيفًا عنهُم، أو يكونُ في ذلك مصلحةٌ أعظمُ لهم.

وهذا يدلُّ على أنّ الإتيانَ بمثلِ ما نُسِخَ ونُسِيَ أو خيرٍ منه، علامةٌ على عِلْمِ اللهِ وحِكْمَتِه، فإنّ اللهَ تعالى قد نَسَخَ شرائعَ بأكملِهَا، حتّى نَسَخَتْ شريعةُ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلَّ شريعةٍ قبلَها. وربُّنا سبحانَه يربّي عبيدَه ويقدّرُ لهم ما يُصلِحُهم وينفَعُهم، ولم يَنْسَخْ شريعةً أو حُكمًا إلا عوَّضَ النّاسَ بمثلِه أو بخيرٍ منه.

رابعاً: لو تأمَّلْنا سياقَ الآيةِ الكريمةِ؛ لوجَدْنَاهَا جاءَتْ في مَعْرِضِ الحديثِ عن اليهودِ وأهلِ الكتابِ؛ فإنّ اليهودَ كانوا يعتذرونَ عن عدمِ إيمانِهم بحُجَجٍ واهيةٍ، وممّا اعتذَرُوا به أنّ شريعتَهم لا تُنْسَخُ، وكانوا يعتذرونَ بأنّ القرآنَ وَصَفَ توراتَهم بأنّها حقٌّ، فكيفَ ينْسَخُها.

ولعلّكم لاحظْتُم أنّ الآيةَ جاءتْ في نَسْخِ الأحكامِ الشّرعيّةِ في شريعتِنا، ولم تَنُصّ على نسخِ شريعةٍ بشريعةٍ، وكأنّ القرآنَ يُعْرِضُ عن اليهودِ والرّدِّ على شُبْهَتِهم، لأنّ الأَهَمَّ هو أنْ يَعِيَ ويفهمَ المسلمون هذه المسألةَ ويسلّمُوا لها. ثمّ إنّه إذا ظَهَرَتْ حِكْمَةُ تَغْيِيرِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ لِمَصْلَحَةٍ؛ تَظْهَرُ حِكْمَةُ تَغْيِيرِ بَعْضِ الشَّرَائِعِ.

ومقولةُ اليهودِ هذه وشُبْهَتُهُم أَلْقَتْهَا وقالَتْهَا قريشٌ من قبلِهم؛ كما دلّ على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النّحل ١٠١].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وله في ذلكَ الحكمةُ البالغةُ سبحانَه.

﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧ ﴾

ربُّنَا جلَّ وعلَا له الخلقُ والأَمرُ، وهو مالكُ السّماواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينهما، وهو المتَصرِّفُ فيهما وفي جميعِ خَلْقِهِ بما يشاءُ.

ومن كانَ له مقاليدُ السّماواتِ والأرضِ، كانَ له أنْ يحْكُمَ فِي عِبادِهِ بِمَا يَشاءُ، فَيُحِلَّ مَا يَشاءُ، وَيُحَرِّمُ مَا يَشاءُ، وَيُبِيحُ مَا يَشاءُ، وَيَحْظُرُ مَا يَشاءُ، وَهُوَ الذِي يَنْسَخُ ويُبَدِّلُ ويَحْكُمُ مَا يُرِيدُ لَا مُعقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ. وليس للنّاسِ ناصرٌ يدفعُ عنهم المكروهَ، ولا مُعينٌ يحفظُهُم، إلا الله الذي بيده الخلقُ والأمرُ.

صحيحٌ أنّ الخطابَ في هذه الآيةِ مُوجَّهٌ لنبيِّنَا عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ، لكنّها حمَلَتْ تكذيبَ اليهودِ الذين أنْكَرُوا نَسْخَ شريعتِهِم، وكفروا بما بعدَها من شرائعَ ختامًا برسالةِ محمدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشريعَتِهِ. وفيها كذلك إغلاقٌ لبابِ شُبهٍ قد يُلقِيها المُغرِضُونَ عَبْرَ الأزمانِ لتشكيكِ المسلمِ في شريعتِه ومصادرِها، ولعلّ ما يجري زمانَنَا لا يخفى عليكُم.

﴿ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨ ﴾

ما الذي سألَه بنو إسرائيلَ لموسى مِنْ قبلُ؟ جاءَ جوابُ ذلكَ في قولِ الله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ [النساء ١٥٣].

هذه الآيةُ فيها نَهْيٌ عن التَّشَبُّهِ بأولئكَ في تكذيبِهم وعُتُوِّهم واستِهانَتِهم بالرَّبِّ العظيمِ وبرُسُلِه، فلا تسألُوا رسولَكم سؤالاً يدلُّ على تعنُّتٍ وعِنادٍ.

﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: مَنْ يَشْترِ الكُفْرَ بالإيمانِ؛ فَقَدْ خَرَجَ عَنِ الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ إِلَى الجَهْلِ والضَّلالِ، وكلُّ من اختارَ طريقَ الضّلالةِ والغِوايَةِ ضلَّ عن طريقِ سعادةِ الدّنيا والآخرةِ.

وختامُ هذه الآيةِ يدلُّ على أنّ التّحذيرَ من مُشابَهَةِ بني إسرائيلَ في أسئِلَتِهم، المقصودُ منه تلكَ الأسئلةُ التي تدلُّ على كُفْرِ سائِلِهَا، وأنّه إنّما يُحادُّ اللهَ ورسولَه ودينَه بما يَسأل.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾

هذه الآيةُ ظاهرةٌ في إثباتِ عداوةِ أكثرِ أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنّصارى لأهلِ التّوحيدِ ظاهراً وباطنًا، وأنّهم يَبْذُلُون ما يستطيعونَ بَذْلَه لردِّ المسلمينَ عن دِينِهم ورجوعِهم للكفرِ وأهْلِهِ، ويودُّونَ ذلكَ ويحرِصُونَ عليه، كلُّ ذلكَ حَسَدًا لاصطفاءِ اللهِ تعالى نبيَّه مِنّا لا منهُم، وإنزالِه خيرَ الكُتُبِ عليهِ، وجَعْلِهِ للنّاسِ كافّةً. والحَسَدُ هذا من عندِ أنفُسِهِم، أي: مُتأَصِّلٌ فيهم يصعُب انفِكاكُهُمْ عنه.

وممّا يدلُّ على عِظَمِ ما يفعلونَ، أنّهم يريدونَ كُفْرَ المسلمينَ باللهِ وعَوْدَتَهم إلى الشِّرْكِ، ولا يَهُمُّهُم دخولُنا في دينِهم.

ثمّ تأمَّلُوا كيفَ بيَّنَتْ الآيةُ أنّهم يحبّون ذلكَ، مع أنّهم يُقِرُّونَ ويعلَمُون حقَّ العلمِ أنَّ محمّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيٌّ مُرْسَلٌ من عندِ اللهِ؛ فإنّه مكتوبٌ عندَهُم في التّوراةِ والإِنْجِيلِ، ومنْ بعدِ ما تَبَيَّنَ لهم أنّ المسلمينَ هم أهلُ التّوحيدِ والعبوديّةِ الحَقَّةِ.

والآيةُ فيها تحذيرٌ منهُم وممّا يَحْمِلُونَه في قلوبِهِم نحوَ أتْباعِ محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ هذا أمرٌ منَ اللهِ لعِبادِه المُؤْمِنِينَ بِالصَّفْحِ وَالعَفْوِ وَالاِحْتِمَالِ وتَرْكِ العقوبةِ، حتّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ بالنَّصْرِ عليهِم وشفاءِ غليلِهِم، وإِعْمَالِ حُكْمِ اللهِ فيهِم.

أَمَرَ ربُّنَا بالعفْوِ والصَّفْحِ؛ لأنّ الوَقْتَ لم يَحِنْ بعدُ لقِتالِهِم، ولأنّ هذا أَنْسَبُ لحالِ المؤمنينَ وقْتَها. وهذه الآيةُ وما فيها من توجيهٍ، هي كقولِ اللهِ تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عِمْرَان ١٨٦].

لكن تأمّلوا لمّا قويتْ شوكةُ المسلمين كيفَ خاطبَهم ربُّنا وقال لهم: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التَّوْبَة ٥]، وقال سُبحانه: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التَّوْبَة ٢٩].

وتذكَّرُوا أنّ عداوةَ أهلِ الكِتابِ وبُغْضَهُم للمؤمنينَ لم ولن تتغيّرَ؛ فإنّهم في كلِّ زمانٍ يَصُدُّونَ عن سبيلِ الله ويُنفِقُونَ أموالَهم وما يملكونَ ليَفْتِنُوا النّاسَ عن دينِهم الحقِّ، واعلمُوا أنّ إعمالَ السّيفِ فيهم، أو العفْوَ والصَّفحَ عنهُم، ممّا يُقدِّرُه أُولُو الأَمرِ من الأُمراءِ والعُلماءِ بِحَسَبِ المرحلةِ ومعطيَاتِها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلَوْ شاءَ لأَهْلَكَهُمُ الآنَ، ولَكِنَّهُ أَمرَكُم بِالْعفْوِ عَنْهُمْ، لِحِكْمةٍ أرادها.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

هذا مفتاحُ الصَّبرِ في الفِتنِ والكُرُوبِ؛ نَثْبُتُ على دِينِنا ونَفْزَعُ لِصلاتِنا وزَكاتِنا وأَعمالِنا الصّالحةِ؛ ونُقيمُها ونُؤْتِيها على الوَجهِ الذي أَحبّه الله وشَرَعه؛ فإنّ ذلكَ سِرُّ رِضا الله عنْ العَبْدِ وتوفيقِه، وسبيلُ نصرِه لأهلِ التّقوى على عَدُوِّهم.

نواظبُ على الدّعوةِ إلى الله والأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنكرِ حتّى يأْذَنَ الله بِفَرَجٍ من عندِه، فإنّه يُدَبِّرُ الأَمْرَ سبحانَه؛ هذا مفتاحُ الإعدادِ للجِهادِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الله سبحانه وتعالى لَا يَغْفَلُ عَنْ عَمَلِ عامِلٍ، وسيُجازِي من أَحْسَنَ بالأَجرِ الكَبيرِ؛ الحَسَنَةُ بعَشْرِ أمثالِها ويُضاعِفُ لِمَنْ يشاءُ سبحانَه.

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

تأمّلوا معي عقيدةَ أهلِ الكِتابِ من اليهودِ والنّصارى وطريقةَ تفكيرِهم، تأمّلوا اغْتِرارَهُم بما هم عليهِ من الباطِلِ، هؤلاءِ مِمّنْ ضَلَّ سَعْيُهُم في الحياةِ الدّنيا وهم يَحْسَبُونَ أنّهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

ادَّعَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى مِلَّتِهَا؛ فَالْيَهُودُ قَالَتْ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا، وَالنَّصَارَى قَالَتْ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ نَصَارَى. هم يعتقدونَ أنّ المسلمينَ على ضلالٍ، وأنّهم لن يدْخُلوا الجنَّةَ. وليست هذه الآيةُ فقط تُبيِّنُ اغترارَ القومِ بباطِلِهم، بل أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المَائِدَة ١٨].

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ دَعْواهُم هذه دَعْوى كَذِبٍ وزُوْرٍ وبُهْتانٍ، لا تَعْدُو أنْ تكونَ أُمْنِياتٍ تَمَنَّوْها على اللهِ بغيرِ حقٍّ.

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قلْ يا مُحَمَّدُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم: هاتُوا حُجَّتَكُم ودليلَكُم وبَيِّنَتَكُم على ما تقولونَ، وأنّى لهُم ذلك؛ فإنّ كُتُبَهُم فيها إثباتٌ لِدِيْنِ محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتصديقٌ له، وهم يعلمونَ ذلك، ولكنّه العِنادُ والحَسَدُ.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢﴾

بلى: لَيْسَ الأمرُ كما تظنّونَ وتعتقدونَ، فإنَّ طريقَ الجنّةِ لا ثانيَ له، فلا يستحقُّ الجَنَّةَ ولا يدخُلُها إلّا من أَخْلَصَ الْعَمَلَ لله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وآمَنَ باللهِ وما أنْزَلَه على رُسُلِهِ جميعًا، واستَسْلَمَ لأَمْرِ اللهِ، لا كما يفعلُ المنافقون.

وكذلكَ لا يفوزُ بها إلا من أحْسَنَ في العملِ باتّباعِ هَدْيِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا كما يفعلُ الرُّهْبانُ والأَحْبارُ.

أقولُ: مَنْ جَمَعَ بين الأمرَيْنِ من إخلاصٍ واتّباعٍ؛ كان له الأجرُ العظيمُ والمَثُوبَةُ الكبيرةُ، بل له الأمنُ من الخوفِ والحُزْنِ، فلا خوفٌ ممّا هو آتٍ من أحوالِ وأهوالِ الآخرةِ، ولا حُزْنَ على ما مضى من الدّنيا وزينتِها.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾

هذه الآيةُ تدلُّ على تباغُضِ وتَدابُرِ اليهودِ والنّصارى فيما بينَهم، تدلُّ على نَصْبِهِم العَداءَ لبعضِهِم، لا كما يظنُّ كثيرٌ من النّاس؛ فإنّهم كذلك إلا في حَرْبِهِم للتّوحيدِ وأهلِه.

وقد ذكرَ أهلُ التّفسيرِ عندَ هذه الآيةِ، ما رواه ابنُ عبّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا من قصّةِ تَنَازُعِ أحبارِ اليهودِ مع وَفْدِ نَجْرانَ من النّصارى الذين جاؤوا نبيَّنا عليه الصّلاةُ والسّلامُ في المدينةِ، حيث كَفَرَ كلٌّ منهم بدِيْنِ الآخَرِ وما فيه، وزَعَمَتْ كلُّ طائفةٍ أنّ الأخْرَى ليست على الحقِّ، ولا على شيءٍ يُعْتَدُّ به، مع أنّ كُتُبَ الله التي أُنْزِلَتْ عليهِم، قد أخذَتْ العُهُودَ والمواثيقَ عليهم أنْ يؤمِنُوا ويُصَدِّقُوا برُسُلِ الله إليهم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أَيْ: وَهُمْ يَعْلَمُونَ شَرِيعَةَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وما فيهما، ولكنّهم جَحَدُوا ما فيهما عِنادًا وكُفْرًا، وهذا من أعجبِ العَجَبِ.

ومثلُ هذا السّياقِ القُرآنِيِّ الذي استَطْرَدَ في بيانِ صِفاتِ اليهودِ والنّصارى، مِنْ شَأنِه أنْ يُطْلِعَنا على حقيقتِهِم لِئَلَّا نَغْتَرَّ بهم، ولِئَلَّا يُصِيبَ أهلَ التَّقْوى الحُزْنُ واليَأْسُ بِما يَلْقَوْنَهُ من شُبَهٍ وتُهَمٍ وعَداءٍ لهم، فهذا دَأْبُهُم حتّى فيما بينَهم.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ كذلك فعلَ المشركونَ الذين كانوا يعبدونَ الأصنامَ في مكّةَ وغيرِها، الذين وَصَفَتْهُم الآيةُ هنا بأنّهم لا يعلمونَ، أي: أُمِّيُّونَ ولا كتابَ لهم كما لليهودِ والنّصارى.

هؤلاءِ لما جاءَهُم دينُ الحقِّ، قَابَلُوا دَعْوَةَ محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزَعْمِهِم بأنّها ليست على شيءٍ يُعْتَدُّ به، وأنّ محمّدًا ليس على الحقِّ، فقالوا مثلَ قَوْلِ اليهودِ والنّصارى، كما دلَّ على ذلك أيضاً قولُ الله تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام ٩١].

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ الله تَعالَى يَجْمَعُ بَيْنَهُم يَوْمَ المَعادِ، وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِقَضائِهِ العَدلِ الذي لا جَوْرَ فيه ولا ظُلْمَ. قال الله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحجّ ١٧].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٤﴾

لا أحدَ أَظْلَمُ ممّا فعلَهُ المشركون، الذين مَنَعُوا نبيَّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين مَعَه في مكّة، من إفرادِ الله بالعبوديّةِ عندَ المسجدِ الحرام، وكذلك صَدُّوْا رسولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن مَعَه عن مكّة يومَ الحُدَيْبِيَةِ. أرادُوا الكعبةَ خالصةً لشِرْكِهم، ومَنَعُوا توحيدَ الله تعالى بإفرادِه بالذِّكْرِ والعُبُودِيَّةِ فيها، وَسَدُّوا طَرِيقَ الْهُدَى وَحَالُوا بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ زِيَارَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَام. وأيُّ خرابٍ أعظَمُ من ذلك، وأيُّ ظُلْمٍ لأنفسِهم وللمسلمين أكبرُ من ذلك. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة ١٨].

وليست الآيةُ خاصَّةً بالمشركينَ الذين فعلُوا ما فعلُوا، بل كلُّ منْ أَعانَ بِخرابِ بُيُوتِ الله، وحالَ دونَ قِيامِها بدَوْرِها المعروفِ في الإسلامِ؛ كانت عقوبةُ الدّنيا والآخرةِ له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ هم صَدُّوْا عن البيتِ الحرامِ، ومنعُوا منهُ أحقَّ الناسِ بِه، وأَخافُوا أولياءَ الله، وأَبَوْا إلّا الشِّرْكَ، فما كانَ لَهُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْفِعْلَةِ أَنْ يَدْخلُوا مساجدَ الله إِلَّا وَهُمْ خائِفُونَ؛ خائفونَ من الأَسْرِ ومن العقوبةِ ومن البَطْشِ بهم؛ هذه عقوبتُهم الأُولى في الدّنيا.

والآيةُ كأنّها تُطالِبُ أهلَ التّوحيدِ بعِمارةِ المساجدِ وحِفْظِها، وذلك لا يكونُ إلّا بِمُدافعةِ أمثالِ هؤلاءِ بجِهادِهم بالقولِ والفِعْلِ حتى تنكسِرَ شوكتُهُمْ، وتكونُ بإعدادِ العُدَّةِ لهم حتّى تتحقّقَ عقوبتُهم. ولذلك عمِلَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فتحِ مكّة، ولَمَّا فتحَها أمَرَ في العامِ التّالي في حَجَّتِهِ أَنْ يُنادى برِحابِ مِنًى: «أَلَا لَا يَحُجَّنَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ» الحديث. وَهَذَا كَانَ تَصْدِيقًا وَعَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة ٢٨]، وأخرج أحمدُ عَنْ عَائِشَةَ رضيَ الله عنْها قَالَتْ: كَانَ آخِرُ مَا عَهِدَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ قَالَ: «لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ».

﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌ﴾ عقوبتُهم الثّانيةُ في الدّنيا، أنّ لهم الذّلّ والهَوانَ على فِعْلَتِهم بالكعبةِ من نَصْبِ الأصنامِ حولَها ومنعِ المؤمنينَ منها، وَذلِكَ مَا نَالَ صَنادِيدَ المُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْقَتْلِ الشَّنِيعِ وَالْأَسْرِ، وَمَا نَالَهُمْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ مِنْ خِزْيِ الِانْهِزامِ.

﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ عقوبتُهم لا تكونُ في الدّنيا فقط، وإنّما يُعذَّبونَ في الآخرةِ عذابًا يكونُ على قدْرِ جُرمِهم؛ جزاءً وِفاقًا على ما اقْتَرَفُوْا.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾

لما هاجرَ نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينةِ، استقْبَلَ بيتَ المَقْدِسِ في صلاتِه سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثم حُبِّبَ إليهِ استقبالُ قِبْلَةِ إبراهيمَ عليهِ السّلامُ، فأَمَرَهُ ربُّنا بتغييرِ قِبْلَتِهِ لتكونَ إلى البيتِ الحرامِ في مكّةَ، وأَذِنَ له في ذلكَ، فَصارتِ الكعبةُ قِبْلَةَ المسلمينَ في صَلاتِهم.

اليهودُ كعادَتِهم يَغمِزُونَ ويَلْمِزُونَ في شَرْعِنا، وينتقِصُون منه ومن أحكامِه ما استطَاعُوا إلى ذلك سبيلًا، ولذلك لمّا نُسِخَتْ القِبْلَةُ الأُوْلى؛ جَعلُوا يَبُثُّونَ الرِّيْبَةَ والشَّكَّ قائلين: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾ [البقرة ١٤٢].

جاءتْ الآيةُ تَسْلِيَةً وطَمْأَنَةً للنّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين، بأنّ المَشْرِقَ والمَغْرِبَ لله العظيمِ، وأَيْنَما أَمَرَ عِبادَه بالتّوجُّهِ أَطَاعُوهُ في ذلك، وأَيْنَما كانُوا فهناكَ قِبْلَةٌ يستَقْبِلُونَها هي الكعبةُ. فالعِبْرَةُ بتعظيمِ اللهِ تعالى وإحسانِ العُبودِيَّةِ له وَفْقًا لما شَرَعَ، والأرضُ كلُّها لله، وما تَفاضَلَتْ جِهاتُها إلا بِكَوْنِها أَحَبَّ إلى اللهِ من غيرِها، فلا يَحْزُنْكُم كَيْدُ الكافرينَ.

وهذه الآيةُ مِمّا استدَلَّ به أهلُ العلمِ على جَوازِ صلاةِ النّافِلَةِ إلى غيرِ القِبْلَةِ، إذا كان المُصَلِّي سائرًا في سَفَرِهِ أو تسيرُ به راحِلَتُه. جاءَ في الحديثِ المتّفَقِ عليه عن عبدِ الله بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَبِّحُ على الرّاحِلَةِ قِبَلَ أيِّ وَجْهٍ تَوَجَّهَ، ويُوْتِرُ عليها، غيرَ أنّه لا يُصَلِّي عليها المكتوبةَ».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ الله تعالى يَسَعُ خَلْقَهُ كُلَّهُمْ بفضلِهِ وجُوْدِهِ وكَرَمِهِ، ويَقْبَلُ منهُم أعمالَهم أَيْنَما كانُوا وتَوَجَّهُوا، وهو عَلِيمٌ بِأَعْمالِ العِبادِ، وَمَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْها شَيْءٌ سبحانه.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾

تأمَّلُوا كيفَ يُبيِّنُ القُرآنُ في سياقٍ مُتَّصِلٍ حالَ اليهودِ والنّصارى والمشركينَ من عُبّادِ الأصنامِ مع الدّعوةِ الإسلاميّةِ، وكيفَ ينظُرونَ إليها وإلى أبنائِها من حَمَلَةِ الكِتابِ والسُّنّةِ.

هنا تذكُرُ الآيةُ شيئًا من عَقائِدِهِم التي تدلُّ على كُفْرِهِم البيِّنِ؛ فاليهودُ زَعَموا أنّ عُزَيرًا ابنُ الله، والنّصارى زَعَمَتْ أنّ عيسى ابنُ الله، وعُبّادُ الأصنامِ من مشركي العَرَبِ زَعَمُوا أنّ الملائكةَ بناتُ الله. تأمّلُوا الآياتِ الكريماتِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [التوبة ٣٠]، وقال تعالى في حقِّ المشركين: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [النحل ٥٧].

جاءتْ الآيةُ هنا تَرُدُّ عليهم مَقولتَهُم جميعًا، وتُكَذِّبُهم وتُبيِّنُ مُغالَطتَهُم فيما يعتقدون، لعلّهم يُفيقُون، ولِيَعْلَمَ أبناءُ التّوحيدِ من أمّتِنا أنّهم على الصّراطِ المستقيمِ، وأنّ أُولئكَ ضَلُّوا ضلالًا مُبينًا ظاهرًا بيِّنًا.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ أَيْ: تَعالَى وَتَقدَّسَ وَتَنزَّهَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبيرًا.

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لَيسَ الْأَمْرُ كَما زعموا وافْتَرَوْا، وَإِنَّما لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِمْ، وَهُوَ خالِقُهُمْ وَرازِقُهُمْ، وَمُقَدِّرهم وَمُسَخِّرُهُمْ، وَمُسَيِّرُهُمْ وَمُصَرِّفُهُمْ كَما يَشاءُ، وَالْجَميعُ عَبيدٌ لَهُ وَمِلْكٌ لَهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِنْهُمْ، وَالْوَلَدُ إِنَّما يَكُونُ مُتَوَلِّدًا مِنْ شَيْئَيْنِ مُتَناسِبَيْنِ، وَهُوَ تَبارَكَ وَتَعالَى لَيسَ لَهُ نَظِيرٌ، وَلا مُشارِكٌ فِي عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيائِهِ وَلا صاحِبَةَ لَهُ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ! قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام ١٠١]، وأخرجَ البخاريُّ عَنِ ابنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعالَى: كَذَّبني ابنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَني وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ؛ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَيَزْعُمُ أَنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَما كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ. فَسُبْحاني أنْ أتخذَ صاحبةً أو وَلَدًا». وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ؛ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعافِيهِمْ».

﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مُطيعُونَ مُنْقادُونَ عابدُونَ مُسبِّحُونَ مُخْلِصُونَ، تَجْرِي عليهم أقْدارُ الله، وتَنْفُذُ فيهِم أحكامُه. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩﴾ [الرَّعْد ١٥].

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ ﴾

أَيْ: خالِقُهما على غيرِ مِثالٍ سَبَق، فالسّماواتُ والأرضُ وما فيهما من خَلْقٍ عَجيبٍ يدلُّ على عَظَمَتِهِ سبحانه، وأنّ له صِفاتِ الكَمالِ، وأنّه واحدٌ بذاتِه لا يحتاجُ إلى زوجةٍ ولا إلى ولدٍ، تعالى الله عمّا يقولونَ عُلُوًّا كبيرًا.

﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يأمرُ بالشيءِ أمرًا واحدًا، فيكونُ على وَفْقِ ما أراد، ولا يحتاجُ إلى تكرارٍ، وهذا من كَمال قُدْرَتِه وَعَظِيم سُلْطَانِه. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النَّحل ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾ [القمر ٥٠].

وكأنّ الآيةَ تُذَكِّرُهم بِخَلْقِ نبيِّهِ عيسى عليه السّلامُ؛ حيث قال له «كُنْ»؛ فكانَ، فإنْ كانُوا يزْعُمونَ أنّ الله اتّخَذَهُ وَلَدًا لأنّه خَلَقَه بدونِ أَبٍ، فليتأملُوا قولَ الله سبحانَه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آلِ عِمْرانَ ٥٩]، فلا يَلْزَمُ من خَلْقِ عيسى من دونِ أَبٍ أنْ يكونَ وَلَدًا لله، فقدْ خَلَقَ الله آدمَ من دُوْنِ أَبٍ ولا أُمٍّ، خلَقَه بكَلِمَةِ «كُنْ»؛ فكان.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ ﴾

هذا هو حالُ غالِبِ أهلِ الكُفْرِ؛ لم يُؤْمِنُوا ولا يريدونَ أنْ يُؤْمِنُوا، يأتي مشركُو العربِ ويطلبونَ من نبيِّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يكَلِّمَهُم الله ويسْمَعُوا كلامَه، أوْ أنْ يأتِيَهُم بآيةٍ ودليلٍ ومعجزةٍ، كآياتِ موسى وعيسى في العَصَا وإحياءِ المَوْتَى، مع أنّ معجزاتِ محمّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعَدَّدَتْ، ورَأَوْا بعضَها بأَعْيُنِهم، طبعًا هم يقصدونَ بذلكَ التَّعْجِيزَ وَالاِعْتِذَارَ عَنْ عدَمِ إيمانِهِم.

وعِنادُهُم واستِكْبارُهُم وعِظَمُ جُحُودِهِم لم يتوَقَّفْ عندَ ذلكَ، بل جاءتِ الآياتُ في القرآنِ بذِكْرِ عَدَدٍ من أقوالِهِم وسُؤَالاتِهِم التي لا حاجةَ لهم إليها، والتي تدلُّ على إِقْفَالِ قلوبِهِم عن الهُدَى، كما في قولِ الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا

نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء ٩٠-٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان ٢١].

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ كذلك طلب اليهودُ والنَّصارى وغيرُهم من أنبيائِهم؛ فقد قالَ اليهودُ لِموسى عليه السّلامُ: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة ٥٥].

﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ أيْ: في الظُّلمةِ والانْتِكاسِ، أَشْبَهتْ عقولُ مُشْرِكي العَرَبِ وقلوبُهم، عقولَ مَنْ تقدَّمَهُمْ من اليهود والنصارى وقُلوبَهم في الْكُفرِ والْعِنادِ والْعُتوِّ وسوءِ التّدبيرِ والنَّظَرِ، كما قالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات ٥٢-٥٣].

﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ جاءَتْكُم آياتُ كتابِ الله، وجاءَتْكُم الدَّلالاتُ الواضِحاتُ من المعجزاتِ على صِدْقِ الرُّسُلِ؛ لا ينتفِعُ بهذه الآياتِ إلّا مَنْ أيْقَنَ وصَدَّقَ وتجرَّدَ للحَقِّ، بخِلافِ من أَبى إلا الشَّكَّ والرِّيْبَةَ والمُكابرةَ والكُفْرَ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس ٩٦-٩٧].

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ۝١١٩﴾

زيادةُ تَسْليةٍ وتأْنيسٍ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما يَلْقاهُ من قَوْمِهِ ومن غيرِهِم، بعدَ أنْ ذَكَرَتْ الآياتُ السّابقةُ حالَ الأقوامِ مع رُسُلِهِم، كيفَ كذَّبوا وصَدُّوا وعانَدُوا.

يا محمدُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا نسْأَلُكَ عَنْ كُفْرِ مَنْ كفرَ بكَ بعدَ أنْ دَعَوْتَهُم وذَكَّرْتَهُم، لا نسألُك عن قومٍ رَضُوْا لأَنْفُسِهِم بالنّارِ؛ إنّما أنت مُبَشِّرٌ لمن أَطاعَ، ومُنْذِرٌ لِمَنْ عَصَى، ومعك دينُ الحقِّ، بَلِّغْهُ واصْبِرْ على ذلكَ حتّى تلْقَى رَبَّكَ، وكأنّ الآيةَ فِيها تَيْئِيسٌ من إِيمانِ اليهودِ والنّصارى وغيرِهم.

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾

هذه قاعدةٌ عظيمةُ النَّفْعِ، تعينُنا في زمانِنا على فهمِ لغةِ القَوْمِ، يَجْدُرُ بكلِّ مُحِبٍّ للدِّينِ أنْ يَعِيَها ويَفْهَمَها.

الآيةُ فيها تَيْئِيسٌ من إسلامِ اليهودِ والنّصارى كأُمَّةٍ لا كأفرادٍ، وفيها بيانٌ لِما يَحْمِلُونه في قلوبِهم من عَداءٍ للإسلامِ وأَهْلِهِ وكلامُ الله أَصْدَقُ.

يا محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا تَطْلُبْ رِضَا اليهودِ والنّصارى، ولا تَحْرِصْ على موافقَتِهِم ، فإنّهم لن يَرْضَوْا عنكَ حتى تَتَّبعَ دِيْنَهُم وتَتْرُكَ دينكَ. والمطلوب: أَقْبِلْ عَلَى طَلَبِ رِضَا الله، وادْعُهُم إلى الحقّ والهُدَى الذي أرسلكَ الله به ...

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ قُلْ يا مُحَمَّدُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهؤلاءِ، وأَعْلِمْهُم وأَعْلِمْ من بَلَغَهُ قولُك، قلْ لهم: إِنَّ هُدَى الله الذِي بَعَثَنِي بِهِ، والقرآنَ الذي أنْزَلَه عَلَيَّ، هُوَالدِّينُ المُسْتَقِيمُ الصَّحِيحُ الهادي إلى ما يُرْضِي ربَّنَا عَنَّا، ولا يقبلُ الله مِمَّن اتّخذَ دِينًا غيرَه صَرْفًا ولا عَدْلًا.

صحيحٌ أنّ التّوراةَ والإنجيلَ فيهِما نُورٌ وهُدًى، لازَمَهُما حالَ نُزولِهِما، وحالَ عَمَلِ اليهودِ والنّصارى بِهِما، كما قال ربُّنا عنهُما: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المَائِدَة ٤٤]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المَائِدَة ٤٦]، ولكن هُداهُم بعد اتّباعِهِم أهواءَهم ولَعِبِهم وتحريفِهِم في كُتُبِهِم، وبعدَ أنْ بدَّلُوا وغَيَّرُوا فيها، وبعدَ أنْ انقطَعَتْ أَسَانيدُها، ونَسَخَهَا كتابُ الله القرآنُ، أقولُ بعدَ ذلك كُلِّه: لم يَعُدْ فيها الهُدَى والنُّورُ الذي يضيءُ للسّائرِ إلى الله طريقَه، ولا يَسَعُ من صَدَقَ الله في عُبودِيَّتِهِ له إلّا أنْ يَتَّبعَ كتابَ الله الذي تَكَفَّلَ سبحانَه بحفْظِه.

وقد نَجِدُ شيئًا من الهُدَى في عددٍ من تَعاليمِ ونصائحِ الأُمَمِ غيرِ المسلمةِ من حَوْلِنا، ولكن يبقى هُداهُم محدودٌ قاصرٌ ناقصٌ، بخلافِ هُدَى الحكيمِ الخبيرِ، الذي له غَيْبُ السماواتِ والأرضِ.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ خطابٌ للنّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيه أمرٌ يَهُمُّ الأُمّةَ كلَّها: من يَتْرُكْ هُدَى الله ونورَه، ويَتْرُكِ العلمَ الذي جاءَ به القرآنُ والسُّنَّةُ، ويَتَّبِعْ طَرائِقَ الكُفَّارِ من اليهودِ والنّصارى وغيرِهم؛ فإنّ الله تعالى لا ينصُرُه ولا يُعِينُه، ولا وَلِيَّ له ولا ناصرَ يحفظُه من عُقُوبَةِ الله وبَأْسِهِ.

ومعلومٌ لديكُم أنّ الأنبياءَ معصُومُونَ عن الكُفْرِ والكَبائِرِ واتّباعِ أَهْوَاءِ الذينَ ظَلَمُوا أنفُسَهُم بالشِّرْكِ، ولكنَّ الخِطَابَ هنا وُجِّهَ إلى نبيِّنَا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تهييجًا للمؤمنينَ ليَثْبُتُوا، وتحذيراً وإنذارًا لهذه الأمّةِ من اتّباعِ اليهودِ والنّصارى والرُّكُونِ إليهم؛ لئلّا يَفْقِدوا نَصْرَ الله وعَوْنَهُ ووَلَايَتَه، فهذا الأمرُ لا يُقْبَلُ فيه المُدَاهَنَةُ ولا الإِعْرَاضُ عن أمرِ الله.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

لا يكونُ إيمانُ اليهودِ والنّصارى بكُتُبِهِم حقًّا، إلّا إذا تَلَوْهُ حقَّ تِلاوَتِه؛ فآمَنُوا بجميعِ ما فيه من عَقائِدَ وأخبارٍ وأحكامٍ، لا أنْ يُؤْمِنُوا ببعضِ الكتابِ ويكْفُروا ببعض.

التوراة والإنجيل فيهما إخبارٌ عن مَبْعَثِ محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولاً للنّاسِ كافّةً ومَعَهَ خيرُ الكُتُبِ، وفيهما ذِكْرُ صِفَتِهِ، والْأَمْرُ بِاتّباعِهِ وَنَصْرِهِ وَمُؤَازرَتِهِ، ولا يَسَعُ مَنْ يسمعُ به من اليهودِ والنّصارى وغيرِهِم إلّا أنْ يُؤْمِنُوا به وبما مَعَه.

قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ ﴾ [المَائِدَة ٦٦]، وَقالَ سُبحانه: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ ﴾ [المَائِدَة ٦٨].

﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ ومَنْ يَكْفُرْ بما في الكُتُبِ السّماويّةِ من حقٍّ، كان من أهلِ النّارِ خالدًا فيها، وذلك هو الخسرانُ المُبينُ العظيمُ. أخرجَ مسلمٌ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا دَخَلَ النَّارَ».

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

تَقَدَّمَ مَعَنا في هذه السورةِ نِداءُ بني إسرائيلَ وتذكيرُهُم بِنِعَمِ الله عليهِم، وكيفَ أنّ الله فَضَّلَهُم على أهلِ زَمانِهِم.

جاء تِكرارُ النّداءَ هنا زيادةً في تنبيهِهِم وتذكيرِهِم وتهييجِهِم، لعلّهُم يَتّبِعُونَ النّبيَّ الأُمّيَّ الذي يجدونَه مكتوبًا عندَهُم في التّوراةِ والإنجيلِ، تهييجٌ بذِكرِ أبيهم الذي يُنْسَبُونَ إليه العبدِ الصّالحِ المُطيعِ، نبيِّ الله إسرائيلَ يعقوب عليه السلام ، وتهييجٌ بتذكيرِهم بنِعَمِهِ سبحانَه على أجدادِهِم، فإنَّ النِّعْمَةَ عَلَى الآباءِ والأجدادِ نِعْمَةٌ عَلَى الْأَبْناءِ، كيف فَجّرَ لهم الحَجَرَ فخَرَجَتْ منه اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْنًا، وكيفَ أنزلَ عليهم المَنَّ والسَّلْوَى، وأَنْجاهُم من عُبودِيَّةِ آلِ فرعونَ وجعَلَهُم مُلوكًا، وجَعَلَ منهم الأنبياءَ والرُّسُلَ، وأنزلَ عليهم الكُتُبَ.

والمطلوبُ من تذكيرِهم بالنِّعَمِ، أنْ يتفكَّرُوا بنِعَمِ الله عليهِم، ولا يَحْسُدُوا غيرَهم من العربِ على النُّبوَّةِ والكِتَابِ، وأنْ يشكُرُوا المُنْعِمَ بتوحيدِه واتّباعِ ما أنزلَ.

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ﴾

تقدَّمَ معنا نظيرُها؛ آية فيها تخويفٌ لهم وتحذيرٌ وتذكيرٌ بيومٍ سيقفونَ فيه للحسابِ بين يَدَيْ الله، وهو يومُ القيامةِ الذي لا يُغْنِي فيهِ أَحَدٌ عن أحدٍ، لا آلِهَتُهُم ولا غيرُها.

في هذا اليومِ لا يُقْبَلُ من أهلِ الكُفْرِ عَدْلٌ، أيْ : فِدْيَةٌ وبَدَلٌ وعِوَضٌ، ولا يُقْبَلُ منهم ولا لهم شفاعةٌ ولا وَسَاطَةٌ، إنْ ماتُوا على كُفْرِهِم ولم يُؤْمِنُوا، وكذلك لا يَجِدُونَ لهم مُعِيناً ولا ناصراً ولا مُجِيرًا من سَخَطِ الله وعُقُوبَتِهِ.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ ﴾

سياقٌ قرآنيٌّ يخبرُ عن مكانةِ أبي الأنبياءِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السّلامُ، كيفَ شرَّفهُ الله وجَعلَهُ إمامًا للنّاسِ كلِّهم في الخَيْرِ والهُدَى والتّوحيدِ.

سياقٌ فيهِ إقامةُ حُجَّةٍ على مُشركي العربِ الذين يزعمونَ أنّهم على طريقةِ إبراهيم عليه السَّلامُ وهَدْيِه، وأنّهم حُماةُ الكعبةِ التي بَنَاهَا ووَلدُه إسماعيلُ عليه السَّلامُ، خاصَّةً أنهم من نسْلِهما.

والسّياقُ فيه بيانٌ لليهودِ والنّصارى بحقيقةِ دينِ إبراهيمَ ودَعْوَتِهِ.

والآيةُ فيها تَسْلِيَةٌ وتَقْوِيَةٌ لنبيِّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دَعْوَتِهِ، وفيها بيانٌ لِمَا ينبَغِي أنْ يَفْهَمَهُ الدُّعَاةُ ويكُونُوا عليهِ من إتْمَامِ عَهْدِ الله واصْطِفَائِهِ، بلا تحريفٍ ولا ضَعْفٍ ولا ظُلْمٍ.

الآيةُ تقولُ: أَخبِرْ يا محمّدُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشركينَ واليهودَ والنّصارى، الذين يزعمونَ أنّهم على مِلَّةِ إبراهيمَ ودينِه، وليسُوا كذلك، أَخبِرْهُم بخَبَرِ إبراهيمَ عليهِ السّلامُ الذي جاءَ بالهُدَى مِنْ عندِ الله، والذي جِئْتَ أنتَ به، والذي اتَّبَعَكَ عليهِ صَحْبُكَ الكِرَامُ، ومن سيأتِي بعدَهُم من أهلِ التّقوى والإِخْلَاصِ، أَخبِرْهُمْ لعلّهم يتّبِعُونَ طريقَ الحَقِّ والاستقامةِ.

إبراهيمُ عليهِ السّلامُ ابْتلاهُ ربُّنا بكلماتٍ فأتمَّهنّ، أي: امتحَنَهُ واختبَرَهُ بشَرائعَ وأَوامِرَ ونَواهِيَ من عندِه، فقامَ بهنّ، ووفّى بعهْدِ الله وأَمْرِه، وقد أَثْنى عليهِ ربُّنا في ذلك بقوله: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النَّجم ٣٧]، وقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النَّحل ١٢٠-١٢١].

ومن تأمَّلَ ما صَحَّ في سيرةِ إبراهيمَ عليهِ السّلامُ، وَجدَ أَبْعادَ وَصْفِهِ بالأُمّةِ؛ فإنّه فارَقَ قَوْمَه حينَ أُمِرَ بذلك، وحاجَّ النّمرودَ، وصبَرَ على إلْقائِه في النّارِ، علَّمَ النّاسَ مناسكَ الحَجِّ، وتركَ زوجَه وولدَه في الصحراءِ استجابةً لأَمْرِ الله، وأَضْجعَ ولدَه الوحيدَ إسماعيلَ ليَذْبحَهُ لمّا أُوْحِيَ إليه في رُؤْياهُ، وغيرَ ذلك.

﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ لمّا وفّى إبراهيمُ بما عُهِدَ إليه به، جازاه الله على ذلك بأنْ جعَلَه للنّاسِ إمامًا وهاديًا وقُدْوةً يُقْتَدى به في الخيراتِ، وهذه علامةٌ على أنّ من اصْطَفاه الله تعالى من النّاسِ ليكونَ إمامًا في الخيرِ، مُرشدًا للصالحاتِ، فهذه علامةُ رِضا الله عنه وحُبِّه له، فَلْيَلْزَمْ ولْيَسْتَقِمْ.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إبراهيمُ عليه السّلامُ سأَلَ الله تعالى أنْ تَبْقى الإمامةُ والنُّبُوّةُ في ذُرّيّتِهِ من الأبناءِ وأَبْنائِهم، فاستجابَ الله دُعاءَهُ، حتّى إنَّ كلَّ نَبيٍّ أَرْسلَهُ الله، وكُلَّ كِتابٍ أَنْزَلَهُ الله بَعْدَ إبْراهيمَ فَفِي ذُرِّيَّتِه صَلَواتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهِ، كما قال ربُّنا: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العَنْكَبُوتِ ٢٧].

ثم أخبرَه ربُّنا هُنا أنّ دَعْوتَه التي دَعاها لنْ تَتحقَّقَ في جميعِ ذُرِّيَّتِه، فليسَتْ كلُّ ذُرِّيَّتِهِ على الحقِّ، بل سيكونُ من ذُرِّيَّتِهِ من يَظْلِمُ نفسَه بالشّركِ والمعاصي، وأنَّ عَهْدَ الله ووَعْدَهُ لك من جَعْلِ النُّبُوّةِ والإمامةِ فيهم لن ينالَهُم جميعاً، بل سيكونُ في الصّالحين منهم.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

بيانٌ لنعمةٍ كبيرةٍ من نِعَمِ الله تعالى التي نرى ونعيشُ أَثَرَها كلَّ يوم؛ نِعْمَةِ أنْ جَعَلَ الله الكعبةَ البيتَ الحرامَ في مكّةَ مَثابَةً، يثُوبُ النّاسُ إليهِ، أيْ: يَأْتونَه من كلِّ البلادِ ويجتمعونَ فيه، يشتاقونَ إليه ويرجعونَ إليهِ دَوْمًا ولا يشبعونَ منه، لا ينصرفُ منه قومٌ إلّا ويأتيهِ آخرونَ؛ استجابةً لدُعاءِ نبيِّ الله إبراهيمَ عليه السّلامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبْراهيمَ ٣٧].

ومن نِعَمِ الله العظيمةِ أنْ جَعَلَهُ كذلك أَمْنًا، أي: سببًا للأَمْنِ، يدخُله النّاسُ من أقْطَارٍ شتّى وهم آمِنُونَ على أنفُسِهِم وأمْوالِهم، كما قال ربُّنا: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عِمْرَانَ ٩٦-٩٧].

والأَمْنُ في البيتِ الحرامِ لم يكن في عهدِ الإسلامِ فقط، وإنّما امْتَنَّ الله به حتّى على أهلِ الجاهليّةِ لِعِظَمِ هذا المكانِ وقُدْسيَّتِهِ عندَ الرَّبِّ؛ فكان ممّا ذَكَّرَهُمْ به من نِعَمٍ أنْ أَمَّنَهُم من خَوْفٍ، حالَ تَقَاتُلِ من حَوْلَهُم من البلادِ. قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت ٦٧].

إلّا أنّ الأَمْنَ في البيتِ الحرامِ في الإسلامِ، تَمَيَّزَ بِجُمْلَةٍ من الأحكامِ الشّرعيةِ الخاصّةِ به، كانت مَحَلَّ اهتمامٍ وذِكْرٍ وبيانٍ من عُلماءِ الإسلامِ عبرَ التّاريخِ، لِيَصْدُقَ وَعْدُ الله فيه.

وانتبِهُوا هُنا إلى أنّ تحقيقَ الأَمْنِ في البيتِ الحرامِ هو خِطَابٌ من الله تعالى، يَلْزَمُ أَهْلَ المِلَّةِ لُزُومُه، إلا أنّا قد نَجِدُ من يُخَالِفُ شَرْعَ الله فيه بِقَتْلٍ أو سَرِقَةٍ أو غيرِ ذلك، وإلى ذلك أشارَتْ الآيةُ الكريمةُ: ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحَجّ ٢٥].

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ مقامُ إبراهيمَ هو الحَجَر الذي كان يصعدُ عليهِ إبراهيمُ عليه السّلامُ في بنائِه للكعبةِ عندَما شَقَّ عليهِ رَفْعُ الحِجارَةِ، فكانَ يقومُ عليهِ ويَبْنِيهَا، وكان إسماعيلُ عليه السّلامُ يُنَاوِلُهُ الحجارةَ، وهو معلومٌ في أيّامِنا تظهرُ فيه آثارُ قَدَمَيْه.

وقد ذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنّه كان مُلاصِقًا للكعبةِ، ونَقَلَهُ عُمَرُ رَضِيَ الله عَنهُ، ومنهم من ذهبَ إلى أنّه في مكانِه من أيامِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السّلامُ، ولكلٍّ أدِلَّتُه.

وقد جاءَ ما يدلُّ على أنّ هذا المقامَ ياقُوتَةٌ أُنْزِلَتْ من الجَنَّةِ، كما هو حالُ الحَجَرِ الأسودِ، فقد أخرجَ التِّرْمذيُّ وغيرُهُ عن عبدِالله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ الله عَنْهُما، عن رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قال وَهُوَ مُسْنِدٌ ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ: «الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ يَاقُوتَتَانِ مَنْ يَوَاقِيتِ الْجَنَّةِ، وَلَوْلَا أَنَّ الله طَمَسَ عَلَى نُورِهِمَا لَأَضَاءَتَا مَا بَيْنَ المشرق والمغرب».

واتّخاذُه مُصَلًّى من مُوافَقَاتِ الخليفةِ المُلْهَمِ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ رَضِيَ الله عَنهُ، حيثُ جاءَ عنه قولُه: «وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله لَوِ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى؟ فَنَزَلَتْ:

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾.

وقد ثبت عن نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه لما انتهى من طَوافِهِ في الحَجِّ، صلّى ركعتَيْن خَلْفَ المقامِ، جعَلَ فيهما مَقامَ إبراهيمَ عليه السّلامُ بينه وبينَ الكعبةِ.

فالآيةُ تأمرُ بالصّلاةِ عندَه رَفعًا لقَدْرِه، وتذكيراً بالحَنيفيَّةِ التي أُرْسِلَ بها نبيُّ الله إبراهيمُ والأنبياءُ كُلُّهُم عليهم أفضلُ الصّلاةِ والتّسليم.

﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أمَرَهُما ربُّنا بتطهيرِ البيتِ من الأذى والنَّجَسِ والقاذُوراتِ والأوساخِ، ليكونَ المكانُ المُعظَّمُ عندَ الله لائقًا بِمَنْ يطوفُ فيه، وبِمَنْ يعتكِفُ فيه، أي: يُقِيمُ ويجلسُ فيه، ويَتقرَّبُ إلى الله تعالى في مَقامِهِ هذا بالأعمالِ الصّالحةِ من صلاةٍ ورُكوعٍ وسُجودٍ ونحوِها.

ومن أهلِ العلم من جعَلَ الطّهارةَ هُنا طهارةً معْنوِيَّةً، بمعنى أنْ يُطهِّرَها من الشّركِ؛ للتّذكيرِ بالغايةِ الحقيقيّةِ التي كان من أجلِها البيتُ الحرامُ، وللرّدِّ على أولئكَ الذين نَصَبُوا الأصنامَ حوْلَ الكعبةِ حتّى أشرَكُوا باللهِ العظيمِ فيها.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾

هذا دعاءُ نبيِّ الله إبراهيمَ الذي استجابَه ربُّنا له وأكرَمَه به، وهو الدُّعاءُ الذي نراهُ حاضراً كلَّ لحظةٍ وكلَّ حينٍ.

إبراهيمُ يَدْعُو ربَّهُ بأنْ يُكرِّمَ البَلَدَ الحرامَ بالأَمْنِ من الخَوْفِ والقِتالِ والعَدُوِّ، ويَدْعُو بالرّزقِ الواسعِ المباركِ، ولكم أنْ تُدْرِكُوا قِيمَةَ الدُّعاءِ بالأَمْنِ، فإنّه مفتاحُ كلِّ خيْرٍ، ولا تُدْرَكُ سَعادَةٌ ولا رِزْقٌ ولا عِمارَةٌ للبَلَدِ الحرامِ بدونِ أمانٍ. جاءَ في الحديثِ الذي أخرجَهُ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ»، وجاءَ عندَ مسلمٍ أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ لَهَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا بِمِثْلِ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ».

وإبراهيمُ عليهِ السّلامُ إنّما بَلّغَ عن حُكْمِ الله فيهَا بتحريمِها، وليسَ هو أوّلَ من حرّمَها؛ لأنّ مكّةَ على الصّحيحِ حرَّمَهَا ربُّنا قَبْلَ خَلْقِ السّماواتِ والأرضِ، كما جاءَ في الصّحيحَيْنِ واللّفظُ لمسلم، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمه الله يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ الله إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يحِل الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يحِلَّ لي إِلَّا ساعة من نهار، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ الله إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. لَا يُعْضَد شَوْكُهُ وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلَا تُلْتَقط لُقَطَتَه إِلَّا مَنْ عرَّفها، وَلَا يُخْتَلَى خلاهَا» فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لِقَيْنِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ. فَقَالَ: «إِلَّا الْإِذْخِرَ». والإذخر: نَبَاتٌ عُشْبِيٌّ طَيِّبُ الرّائحةِ. والقَيْنُ هو الحدّادُ.

ولعلّكم تَأَمَّلْتُم كيفَ أنّ الدّعاءَ بالأَمْنِ والرّزقِ، كانَ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحًا فقط، وهذا فيه دَلالةٌ على أنّ مكّةَ لا يَليقُ بهَا إلّا أهلُ الإيمانِ والتّوحيدِ، وفيهِ إرشادٌ وتوجيهٌ للمشركين بأنْ يُؤْمِنُوا، وأن يَقْدُرُوا لِدَعْوَةِ إبراهيمَ لأهلِ هذا البلدِ قَدْرَهَا، بَدَلَ إصْرَارِهِم على نَصْبِ العَداءِ للدّينِ وأَهْلِهِ، ولكن هل استجابَ الله الدُّعَاءَ بأنْ يكونَ الرّزقُ والأَمْنُ لأهلِ الإيمانِ منهم فقط؟ قال الله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ قال الله تعالى: ومن كفَر فأرْزُقُه كذلك، وأُمَتِّعُهُ قليلًا في الدّنيا، فإنّي أُعطِي الدّنيا لِلْبَرِّ والفَاجِرِ، لِمَنْ أُحِبُّ ولِمَنْ لا أُحِبُّ، لكن ذلك لا يَلْزَمُ منه الرّضا عن الكُفرِ وأهلِه، بل إنّ أهلَ الكُفْرِ يُلْجَؤونَ في الآخرةِ إلى عذابِ النّارِ، مَصِيرًا بائسًا فيه من الذِّلّةِ والشّقاءِ ما فيه، كما قالَ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يُونُس ٦٩-٧٠].

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧﴾

واذْكُرْ يا محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْمِكَ بناءَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيل عَلَيْهِمَا السَّلامُ الكعبةَ، وكيف رَفَعَا قَوَاعِدَهَا، وَهُمَا يسألانِ الله تعالى قَبُولَ هذا العَمَلِ الصّالح منهُما قائلَيْنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

والقَوَاعِدُ جَمْعُ قاعدةٍ، وهي أساسُ البيتِ ورُكْنُهُ. ودُعاؤُهُما هذا حالَ بناءِ أعظم بيتٍ في الأرضِ علامةُ خشوعِ القلبِ لله العظيمِ، وهي الحالُ التي ينبغي أنْ يكونَ عليها كلُّ من أَقْبَلَ على الصّالحاتِ، كما وَصَفَ الله تعالى أهلَ التّقوى والإيمانِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المُؤْمِنُونَ ٦٠].

وقد ذكرَ أهلُ التّفسيرِ عندَ هذه الآيةِ ما أخرجَه البخاريُّ وغيرُه، من قِصَّةِ وُصولِ إبراهيمَ وهاجرَ وإسماعيلَ إلى مكّةَ، وكيف استوْطَنُوها، وكيف نَبعَتْ زَمْزَمُ، وكيف أنّ إسماعيلَ عليه السّلامُ بعدَ أنْ أصبحَ شابًّا، جاءَه أبوه إبراهيمُ وأخبرَه بأنّ اللهَ تعالى أَمَرَهُ أنْ يَبْنِيَ الكعبةَ. جاء في روايةِ البخاريِّ: «ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ. قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ. (وفي رواية: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ) قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا -وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا- قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قَالَ: «فَجعلا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورا حَوْلَ الْبَيْتِ، وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقد بيّنَ القرآنُ أنَّ المكانَ الذي رَفَعَ فيه إبراهيمُ قواعدَ الكعبةِ، إنّما كانَ بوَحْيٍ من الله تعالى؛ دَلَّهُ عليه وأَرَاهُ إيّاهُ. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا﴾ [الحج ٢٦]، وبَوَّأْنَا أي: عيَّنَّا لَهُ مَحِلَّهُ وعَرَّفْنَاهُ بِهِ.

والكعبةُ أيّامَنا ليست على قواعدِ إبراهيمَ التي رَفَعَها، بل هي تشملُ حِجْرَ إسماعيلَ أو ما يُسمَّى بالحَطِيمِ، لكنّ قريشًا لما جدَّدَتْ بناءَ الكعبةِ لم تَجِدْ مالاً طَيِّبًا كافيًا لبِنائِها على قَواعِدِ إبراهيمَ، فكانت على حالِها الذي نراهُ اليومَ.

وقد أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ واللّفظُ للبخاريِّ، عَنْ عائشة زوج النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوُا الْبَيْتَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَرُدُّها عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: «لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ». وفي روايةِ مسلم: «لولا أن قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ؛ لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ، وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا الْحِجْرَ».

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تسمعُ كلامَنا، وتعلمُ حالَنا وَمَا في قلوبِنا، فاسْتَجِبْ لنا.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾

هذا من تمامِ دُعائِهما وانْكِسارِهما بين يَدَيْ الله العظيم، يُقَدِّمانِ عَمَلًا صالحًا من أعظمِ الأعمالِ عندَ الله، وهو بناءُ الكعبةِ، ثمّ يَدْعُوانِ اللهَ بِدُعاءٍ جَمَعا فيه بين الخَوْفِ من عَدَمِ القبولِ، وبينَ رَجاءِ أنْ يُكرِمَهُما اللهُ بالرِّضا عنهُما وعن ذُرِّيَّاتِهِما.

يقولان: اجْعلْنا مُسْتَسلِمِيْنَ لِأَمْرِكَ، خَاضِعِيْنَ لِطَاعَتِكَ، مخلصِيْنِ لك لَا نُشْرِكُ مَعَكَ فِي الْعِبادَةِ غَيْرَك، ثَبّتنا على ذلك، نحنُ وذرّيّتَنَا من الأبناءِ والبناتِ ومن تحْتَهُم.

وتأمّلُوا قِيمةَ مثلِ هذا الدعاءِ في حياةِ أَسْيادِ المؤمنين وقُدْواتِهم، وثمرتَه على بنيهم. وقد جاءَ عن أبي الأنبياءِ إبراهيمَ عليه السّلامُ ما يدلُّ على شِدَّةِ عِنايَتِهِ بالدُّعاءِ لذُرّيّتِهِ؛ فإنّه لَمّا قَالَ الله تَعالَى لِإبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قَالَ: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ١٢٤]، وجاء كذلك قَوْلُهُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبْراهِيم ٣٥].

وهذا فيه توجيهٌ للسّائرينَ على طريقِهِم أنْ يَحْرِصُوا على ما كانوا يحْرِصُونَ عليهِ، فالصّالحون يَدْعُونَ لذُرّيّاتِهِم بالاستقامةِ على طريقِ التّوحيدِ، وأنْ يكُونُوا قُرّةَ عَيْنٍ لدينِهِم وأمّتِهِم وأَهْلِيهِم، وسببًا في صلاحِ البالِ. ويؤكّد هذا المعنى ما جاءَ في وَصْفِ عِبادِ الرّحمنِ أنّهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفُرْقَان ٧٤]، ولعلّ استِجابَةَ الله تعالى للعبدِ مثلَ هذا الدعاءِ، علامةُ رِضا الله عن هذا العبدِ وإكرامِه أَيّمَا إِكْرامٍ.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ ومن دُعائِهِم: اهْدِنَا وعَلِّمْنا وأَرْشِدْنَا إلى ما نَتَعَبَّدُكَ به ممّا يَخُصُّ هذا البيتَ، من طَوَافٍ وسَعْيٍ وذَبْحٍ.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وَفِّقْنا للتّوبةِ إذا زَلَلْنا، واقْبلْها مِنّا.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾

هذا من تمامِ دُعاءِ سيّدِنا إبراهيمَ وإسماعيلَ لذُرّيّتِهِما؛ يَرْجُوانِ الله تعالى ويَدْعُوانِهِ بأنْ يَبْعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، أَيْ: مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وإسماعيلَ.

وربُّنَا جَلّتْ حِكْمَتُهُ وعَظَمَتُهُ، استجابَ دُعاءَ سيِّدِنا إبراهيمَ وسيِّدِنا إسماعيلَ عليهما السّلامُ، بأنْ بَعَثَ محمّداً صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الرّسولُ الوحيدُ من ذرّيّةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السّلامُ، أُرْسِلَ من العرَبِ إليهم، بل للنّاسِ كافّةً. وَأَمّا غَيْرُهُ مِنَ الرُسُلِ فَلَيْسُوا مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ، وإنما من ذرّيّةِ إسحقَ عليهم جميعًا سلامُ ربّي.

وقد رأَيْنا ثَمَرَةَ هذا الدّعاءِ بإسلامِ جميعِ قَبائِلِ العربِ تقريباً، ثمّ غيرِهم ممّن وَصلَهُم الدّينُ وشَرحَ الله صُدُورَهُم له.

ومما دلَّ على أنَّ الله استجابَ دعوتَهما بإرسالِ محمّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة ٢]. والرّسولُ المذكورُ هُنا هو نبيُّنا مُحمّدٌ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإجماعِ أهلِ العِلْمِ.

بلْ جاءَ في الحديثِ الذي أخرجه أحمدُ وابنُ حبّانَ وغيرُهما، عن العِرْباضِ بن سارِيةَ رَضِيَ الله عَنهُ، عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنِّي عِنْدَ الله مَكْتُوبٌ: خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ. وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ أَمْرِي؛ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعَتْنِي وَقَدْ خَرَجَ لَهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ».

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ هذهِ صِفاتُ الرّسولِ الذي أرادَه أنبياءُ الله تعالى لذُرِّيّاتِهم، طلبوا من الله تعالى أنْ يكُونَ هذا الرسولُ ممَّن يقرأُ عليهِمْ ما تُنزِّلُه من آياتٍ، قِراءَةَ تعبُّدٍ وتقرُّبٍ إليك.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يَعْني: يُعَلِّمُهُم ما تُوحِيهِ إليهِ من كَلامِكَ ليَتعَرَّفُوا على طريقِ عُبُودِيَّتِك، وكانَ ذلك في القُرْآنِ.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يَعْني: الفهْمَ في أسرارِ هذا الدّينِ، وإدراكَ مقاصِدِ هذه الشّريعةِ. ولفظُ الحِكْمَةِ في القرآنِ فَسَّرَهُ جمْعٌ من أهلِ العلمِ بأنّه يُطْلَقُ على سُنَّةِ رسولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهم من قالَ: هيَ العِلْمُ بحقائقِ الأمورِ والأشياءِ، وحُسْنُ النَّظَرِ في العاقِبَةِ والمآلِ.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرُهُم من الشّركِ، ويُعلِّمُهُم أعمالَ القُلُوبِ من إخلاصٍ وتَوكُّلٍ ويَقِينٍ ونحوِ ذلك.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أَي: إنّك أنتَ يا ربَّنا الْعَزِيزُ الذي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وأنتَ القَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وأنتَ الحَكِيمُ فِي أَفْعَالِكَ وَأَقْوالِكَ، فَتَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَالِّهَا وَفْقًا لِحِكْمَتِكَ وَعَدْلِكَ.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾

هذا وَصْفٌ لحالِ من أشْرَكُوا بالله، وأعْرَضُوا عن الإسلامِ الذي هو دينُ إبراهيمَ والأنبياءِ جميعًا عليهم السّلامُ.

مِلَّةُ إبراهيمَ أي: الدّينُ والمَنْهجُ والطّريقُ الذي جاءَ به من عندِ الله، والذي دَعا فيه إلى تجريدِ التّوحيدِ للرّبِّ العظيمِ؛ دلَّ على بيانِ مِلّتِهِ قولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام ٧٨-٧٩]، وقولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام ١٦١].

الآيةُ تدلُّ على أنه لا يرغبُ عن هذا الدّين ويُعرِضُ عنه ويخالفُه، ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ أي: ظَلَمَ نَفْسَهُ واستخفَّها بِسَفَهِهِ وسُوءِ تَدْبيرِه، وقِلَّةِ فَهْمِهِ وخِفَّةِ عَقْلِه، إذ استبدلَ الضّلالةَ بالهُدَى، والشّركَ بالتّوحيدِ. قالَ الله تعالى مُرشدًا إلى دين إبراهيم، وآمرًا باتّباعِ مِلّتِه: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آلِ عمران ٦٧ -٦٨]، وقال ربُّنا: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النّحل ١٢٣].

﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ رفعَ الله له درجتَه وذِكْرَه في الدّنيا والآخرة؛ واصْطَفَاهُ واختارَه ليكونَ إمامًا وقُدْوةً للنّاسِ، وأكْرَمَهُ وذُرّيّتَه بالنُّبُوّةِ، وأمرَه ببناءِ أعظمِ مسجدٍ في الأرضِ، واستجابَ له دَعْوَتَه.

وهو في الآخرةِ في مقامٍ عَلِيٍّ عندَ الرّبِّ العظيمِ، في مقامِ الصّالحينَ.

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١﴾

خاطبَه ربُّنا وأَمَرَهُ بتوحيدِه والاستسلامِ لأَمْرِهِ، فأَجَابَ وبادَرَ وانْقادَ إلى أمرِ الله وأَخْلَصَ الطّاعةَ له.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾

الاستسلامُ لأمرِ الله وتوحيدِه، والدّعوةُ لدينِ الإسلامِ، كان وَصِيَّةَ أنبياءِ الله إبراهيمَ ويعقوبَ لأبنائِهما؛ كما في قولِ الله تعالى عن نبيِّهِ إبراهيمَ ودعوةِ التّوحيدِ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الزُّخْرُفِ ٢٨]، وهذا من حِرْصِهِم على صَلاحِ أنفُسِهِم وصَلاحِ غيرِهِم؛ لتكونَ وصيَّتُهم هذه سُنَّةً لكُلِّ الصّالحينَ المُصلِحِينَ عَبْرَ الأزمانِ؛ نُحِبُّ أنْ يَبْقَى الحقُّ في النّاسِ، ونُحِبُّ أنْ يُخْلِصُوا دينَهُم لله على الدّوامِ.

﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أَيْ: إنّ الله تعالى اختارَ لكم الدّين الكاملَ، واختارَكُم وهَداكُم وشَرَحَ صُدُورَكُم لما يُحِبُّ ويرضى، فأَحْسِنُوا واثبُتُوا، والزَمُوا طريقَ الإسلامِ الذي هو طريقُ الهُدَى والاستقامةِ حتّى تموتُوا عليه؛ فَإِنَّ الإنسانَ يَموتُ غالِبًا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَيُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران ٨٥].

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾

سيِّدُنا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلامُ، لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفاةُ وَصَّى بَنِيهِ بِعِبادَةِ الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وبأنْ يكونوا على مِلَّةِ إبراهيمَ مِنْ بعدِه، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾. وسيِّدُنا يعقوبُ هو ابْنُ إِسْحاقَ بْنِ إِبْراهِيمَ عليهم السّلامُ، أمّا سيدُنا إسماعيلُ فهو عمُّهُ وليسَ أباه، ولكن سُمِّيَ أبًا هُنا من بابِ التّغليبِ، فغالبُ من ذُكِرُوا هُنا هم أبُوه وجَدُّه، أو أنّ لفظةَ الأَبِ تُطْلَقُ على العَمِّ تأدُّبًا واحترامًا وتقديرًا، فإنّ العمَّ بِمَنْزِلَةِ الأَبِ.

وجوابُهم بأنّهم سيعبدونَ إلهًا واحدًا، يدلُّ على حِرْصِهم وحُسْنِ تربيتِهم، وأنّهم سيُوَحِّدُونَ الله تعالى ولا يُشْرِكُونَ به شيئًا، بل قالُوا: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، أَيْ: مُطِيعُونَ خاضِعُونَ مستسلمونَ لأمرِه. وهذا يدلُّ على أنّ الإِسْلامَ هُوَ مِلَّةُ الأَنْبياءِ جميعًا، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرائِعُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ مَناهِجُهُمْ، ولم يكونُوا لا على اليهوديّةِ ولا على النّصرانيَّةِ؛ فبَطَلَتْ كلُّ دَعاوَى اليهودِ والنّصارى بالانتسابِ لإبراهيمَ أو لِيعقوبَ، أو أنّ يعقوبَ أَوْصَى بَنِيهِ باليهُوديّةِ، على أنبياءِ الله جميعًا صلواتُ ربّي وسلامُه.

﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾

السّلَفُ السّابقُونَ من الأَنْبِياءِ والصالحِينَ أُمّةٌ مَضَتْ وانْقَضَتْ وذَهَبَتْ، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ أَيْ: لَهُمْ أَعْمالُهُمْ التي انتفَعُوا بها ونالُوا بسببِها الدّرجاتِ العُلى، ولا ينفعُكُم من صلاحِهم وأعمالِهم وكرامتِهم عندَ الله شيءٌ، إلّا أنْ تكونُوا على مِثْلِ طريقِهم فتعْمَلُوا وتجِدُّوا.

﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لَا تُحاسَبُونَ بِأَعْمالِ سَلَفِكُمْ، وإِنَّما تُحاسَبُونَ بأعمالِكُم. أخرجَ مسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾

هذا ما ردَّدَهُ اليهودُ والنّصارى عَبْرَ الأزمانِ مُذْ بُعِثَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدِيْنِ الحقِّ؛ اليهودُ زَعمُوا أنّ ما هم عليهِ هو الحقُّ، والنّصارى كذلك، وكلٌّ منهُم يريدُ أنْ نَتبَعَهُم ونَنْصُرَهُم، وكلٌّ منهم اغْترَّ بباطِلِه وحَصَرَ الهُدَى فيه.

﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآيةُ هُنا تُبيِّنُ بُطْلانَ اعتقادِهم وقولِهم هذا، قلْ يا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم، وقُولُوا أيُّها الدُّعاةُ إلى الله: إنّ الدِّينَ الحقَّ الذي نتَّبعُه وندعُو إليهِ ونَعلَمُ أنّه هو الهُدَى، هو دِيْنُ التّوحيدِ الذي جاءَ به أبو الأنبياءِ إبراهيمُ عليه السّلامُ، فالمِلَّةُ هي الدِّيْنُ، وإبراهيمُ عليه السّلامُ كان حنيفًا، أي: مائلاً عمّا كان يعبُدُ قومُه إلى التّوحيدِ الصِّرْفِ، ولم يَكُنْ ممّن اتَّخذَ مع الله نِدًّا أو شريكًا، أو نَسَبَ لله العظيمِ ولَدًا أو صاحبةً، وإنّما كان مستقيمًا، مُخْلِصًا، متَّبِعًا.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾

هذا هو الدِّينُ الذي لا يقبلُ اللهُ تعالى غيرَه، هو دينُ الأنبياءِ كلِّهم دونَ تفريقٍ بينَهُم؛ إيمانٌ باللهِ، وتصديقٌ برُسُلِهِ وبما أُنْزِلَ عليهِم.

قولوا أيُّها المؤمنون: آمنّا باللهِ ربًّا وإلهًا، وآمنّا بما أُنْزِلَ إلينا من القرآنِ واتّبَعْنا، وآمنّا وصدَّقْنا بما أُنْزِلَ إلى أنبياءِ اللهِ تعالى ممّن ذُكِرُوا هنا في الآيةِ، وبما أُنْزِلَ عليهم من التَّوْراةِ والزَّبُورِ والإِنْجِيلِ.

آمنَّا بِأَنَّ اللهَ أَنْزلَ تِلْكَ الشَّرائِعَ، وإيمانُنا بأنّ اللهَ نَزَّلَهَا لَا يُنافِي أَن بَعْضَها نَسَخَ بعْضًا، وأَنَّ شريعةَ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَختْ جَمِيعَها، ولا يقبلُ اللهُ من عبدٍ غيرَها.

ونؤمنُ بما أُنْزِلَ إلى الأسباطِ، والأسباطُ جمع سِبْطٍ، وَالسِّبْطُ: الْجَمَاعَةُ وَالْقَبِيلَةُ، الرَّاجِعُونَ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ. قال أهلُ العلمِ: الْأَسْبَاطُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَالْقَبَائِلِ فِي بَنِي إِسْمَاعِيل. وبعضُ أهلِ العلمِ قال: إنّهم من أولادِ وذُرِّيَّةِ يعقوبَ عليه السّلامُ. قال الله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف ١٦٠]، فكلُّ ما نَزَلَ من كُتُبٍ، وأُوْحِيَ به على من اختارَه الله تعالى من هؤلاءِ الأسباطِ نُؤْمِنُ به.

هؤلاءِ الأنبياءُ لا نفرّقُ بينَ أحدٍ منهُم، يعني: لا نؤمنُ ببعضٍ ونكْفُرُ ببعضٍ، فإنّه من كَذَّبَ نبيًّا واحداً وكَفر به، كانَ كافرًا باللهِ العظيمِ، ولا يَقْبَلُ الله منه صَرْفًا ولا عَدْلًا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النِّساءِ ١٥٠-١٥١].

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

يا أيُّها الذين آمَنُوا وصَدَّقُوا: اجهَرُوا بدَعْوَتِكُم وادْعُوا غيرَكم من أهلِ الكُفْرِ للإيمانِ؛ فإنْ آمَنُوا باللهِ واحدًا، وآمَنُوا بجميعِ كُتُبِهِ ورُسُلِهِ، فقد أصابُوا الحقَّ وسَلَكُوا الصّراطَ المستقيمَ، وكانوا حقًّا أهلَ الهِدَايَةِ. وإنْ أعْرَضُوا وانْحَرَفُوا عن ذلك، فقدْ ثَبَتَ أنهم أهلُ شِقَاقٍ وخِلَافٍ ونِزَاعٍ وعِنَادٍ وعَدَاءٍ، وأنّهم لَيْسُوا بِطَالِبِي هُدًى ولا حقٍّ ولا إنْصافٍ.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تثبيتٌ للنّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّ الله حافظُه من شرورِهِم، وناصرُه ومُعِينُه عليهم، وكذا أنتُم يا أهلَ الإيمانِ.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وهو السّميعُ لما يَمْكُرُونَ ويقولُونَ، العليمُ بضَمَائِرِهم وحالِهم ومآلِهم.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

دينُ الإسلامِ الذي آمَنّا به واتَّبَعْنَاهُ، هو صِبْغَةُ الله وفِطْرَةُ الله التي فطَرَ النّاسَ عليها وشَرَحَ صُدُورَهُم لها؛ الْزَمُوهُ واستقيمُوا عليه، فإنّه لا أحسنَ ولا أفضلَ ولا أخيرَ ممّا أرشَدَكُم ربُّكُم إليه ورَضِيَه لكم.

وكأنّ الآيَةَ تُشِيرُ إلى أنَّ زَعْمَ اليهودِ والنّصارى، بأنّ صِبْغَةَ أحبارِهم وقَساوِسَتِهم لأطفالِهم ولِمَنْ دَخَلَ في دِيْنِهِم في الماءِ وتَعْمِيدَهُم لَهُم، إنّما هو من تَدْلِيسِهم وبُهْتَانِهِم؛ فإنَّ الحنيفيَّةَ دِيْنَ إبراهيمَ عليه السّلامُ هي الصِّبْغَةُ التي أكرمَ الله بها من أَحَبَّهُ ورَضِيَ عنهُ.

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

قُلْ يا محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهؤلاءِ الذين كفروا بالله من اليهودِ والنّصارى وغيرِهم، مُتعَجِّبًا من حالهم: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ أي: أتُجادِلونَنا وتُناظِرونَنا في تَوْحيدِ الله وَالإِخْلاصِ لَهُ وَالاِنْقِيادِ، وفي بيانِ الدّينِ الحقِّ الذي نَتَّبِعُهُ، وليس لكم حُجَّةٌ إلّا أنّ الله اصْطَفاكُم واخْتارَكُم وفَضَّلَكُم.

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فلماذا يَخُصُّكُم ولا يَخُصُّنا، وهو المُتصرِّفُ فِينا وَفِيكُم، الذي له المُلْكُ والحُكْمُ والخَلْقُ.

﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ ولنَا من الأعمالِ والفَضائِلِ التي أَثْبَتَتْ أنّا خيرُ الأُمَمِ وأَزْكاها عند الله وأَرْفَعُها قدْرًا، كما أنّ لكم ما يَخُصُّكُم من الفَضائِلِ والأعمالِ.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ في دِينِنا نحنُ لَسْنا مِثْلَكُم، ولكنّا في دِينِنا وعُبودِيَّتِنا مُخْلِصُونَ له، لا نُشرِكُ به شيئًا سبحانَه، ولا نَخْلِطُ عبادَتَه بعبادةِ غيرِه كما فعَلْتُم، ولا نرجُو إلّا أنْ يرضَى عنّا ربُّنا.

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

هذا من بيانِ حُجَجِهم الواهِيَةِ، ودَعْواهم السّاقِطَةِ؛ زَعَمُوا وادَّعَوْا أَنَّ إِبْراهِيمَ وَمَنْ ذُكِرَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِياءِ وَالْأَسْباطِ كانُوا عَلَى مِلَّتِهِمْ، إِمَّا الْيَهُودِيَّةُ وَإِمَّا النَّصْرانِيَّةُ.

قال الله تعالى في بيانِ فَسادِ دَعْواهُم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران ٦٧]. بل مِنْ أَظْهَرِ وأَوْضَحِ ما يدلُّ على تدْليسِهم وتَلْبيسِهم وغُرورِهم وجَهْلِهم وتناقُضِهم، قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران ٦٥]، فالتَّوراةُ والإِنْجيلُ إنّما أُنْزِلَتا بعد نَبيِّ الله إبراهيمَ عليه السّلامُ، فكيفَ يكونُ يهوديًّا أو نصرانيًّا.

﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ بَلِ الله أَعْلَمُ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا هُودًا وَلَا نَصارَى، كَما مرَّ مَعَنا.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ قولُ الله هُنا يُشِيرُ إِلَى ما كانَ يفْعَلُهُ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ، من التّضليلِ والخِداعِ لعامَّةِ أُمَّتِهم، ممّن لا يعلمونَ حقيقةَ ما في كُتُبِهم، فقدْ تَركُوا عوامَّهُم في باطِلِهم ولم يُعْلِمُوهُم ويُخْبِروهُم بما في التوراةِ والإِنْجيلِ من الحقِّ، بل كَتَمُوا عَهْدَ الله إليهم وما شَهِدُوا أنّه الحقُّ؛ إِرْضَاءً لَهُمْ وَاسْتِجْلابًا لِمَحبَّتِهِمْ، فخابُوا وخَسِرُوا.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِعَمَلِكُمْ، وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ، فاحْذَرُوا وتُوبُوا، وأَظْهِرُوا الحَقَّ؛ ذلكُم خيرٌ لكم عندَ ربِّكُم.

﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١﴾

تأكيدٌ على الوُثُوقِ بالطّريقِ والثّباتِ عليه مرةً أُخرى، وأنّ العبدَ لا ينفعُه إلّا إيمانُه وعمَلُه.

وقولُه: «خَلَتْ»، أي: مَضَتْ وانقَضَتْ وذَهَبَتْ.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾ أَيْ: لَهُمْ أَعْمالُهُمْ التي انتفَعُوا بها ونالُوا بسببِها الدّرجاتِ العُلى، ولا ينفعُكُم من صلاحِهِم وأعمالِهِم وكرامتِهِم عندَ الله شيءٌ، إلّا أن تكُونُوا على مِثْلِ طريقِهِم فتعمَلُوا وتجدّوا، ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾

الذين يترَصَّدُونَ الإسلامَ ويتربَّصُونَ بأهلِه، لا ينفكُّونَ عن بَذْلِ كلِّ وسيلةٍ لإِسْقَاطِهِ، فلا يُعْجِبُهُم شيءٌ ممّا جاءَ به إلّا ما وافَقَ أهواءَهُم.

المشركونَ واليهودُ والمنافقونَ، طعَنُوا في الشّرعِ وحِكْمَتِهِ من تحويلِ القِبْلَةِ من بيتِ المَقْدِسِ إلى الكعبةِ؛ كأنّهم وَجَدُوا ضالّتَهُم في هذا الأمرِ، فجعَلُوا يتّخِذُونَه ذَريعةً للغَمْزِ واللَّمْزِ في الدّينِ، وإثارةِ الشُّكُوكِ والرِّيبَةِ في مجالِسِهِم، حتّى قالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، يعني: ما صَرَفَهُم وجَعَلَهُم يُبَدِّلُونَ قِبْلَتَهُم

إلى بيتِ المَقْدسِ. كلُّ ذلك لَعَلَّهُم يُسْقِطُونَ هَيْبَةَ الإسلامِ من نُفُوسِ حَمَلَتِهِ، ولعلّهم يُثَبِّتُونَ أقوامهم على مِلَّتِهِم وكُفْرِهِم، حتى بَلَغَ الأمرُ باليهودِ أنْ حَسَدُوا المسلمينَ على ذلك، وقد غاظَهُم تَحْوِيلُ القِبْلَةِ إلى مكّةَ، كما دلَّ على ذلك ما أخرجَه أحمدُ وغيره، بإسنادٍ مُتكلَّم فيه، عن عائشةَ رضي الله عنها، أنّ رسولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُكِرَتْ عندَه اليهودُ، فقال: «إِنَّهُمْ لَمْ يَحْسُدُونا على شَيْءٍ كما حَسَدُونا عَلى الجُمُعَةِ التي هَدانا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعلى القِبْلَةِ التي هَدَانَا اللهُ لَهَا وَضَلُّوا عنها، وعلى قَوْلِنا خَلْفَ الإِمَامِ: آمين».

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ قل يا محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ يطعنُ في أمرِ الله وحُكْمِهِ: ربُّنا وخالِقُنا ومُدبِّرُ أمرِنا له مَلَكُوتُ السّماواتِ والأرضِ، الكُلُّ تحت حُكْمِهِ وتَصرُّفِهِ، أيْنَما وجَّهَنا أَطَعْنَا في ذلك، فإنّ المشْرِقَ والمَغْرِبَ له، وهو الهادي لما يُصْلِحُنا ويُسْعِدُنا.

وتأمّلُوا كيفَ كانت الإجابةُ تُعَلِّمُ المؤمنينَ المستجيبينَ لأمرِ الله الثّقةَ بشَرْعِ الله، والثّباتَ وعَدَمَ الزَّعْزَعَةِ أمامَ تهويلِ الكُفّارِ وافْتِعَالِهِم الفِتَنَ، وكأنّ أهلَ الحقّ لا يُقبلُ منهُم إلا أنْ يكُونُوا كذلك حتى يُعْلُوا الحقَّ الذي يحملون.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾

وَسَطُ الشيءِ هو أفضَلُهُ وأَخيَرُه وأَعلاهُ وأَجوَدُهُ وأَعدَلُهُ وأَحْسَنُهُ.

والآيةِ هُنا تدلُّ على أنَّ الله تَعالى جَعَلَ هَذه الأُمَّةَ أفضلَ الأُمَمِ وأَخْيَرَها، وأعْدَلَها وأحْسنَها، كما أنَّه خَصَّها بالكعبةِ المُشَرَّفَةِ خيرِ بِقاعِ الأرضِ قِبْلَةً لها، وكما خَصَّها بخَيْرِ كُتُبِهِ القرآنِ، وكذلك بأَعْلَى الأنبياءِ قَدْرًا ومَقامًا عندَه محمّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك بشريعةٍ عالمِيَّةٍ تَضمَنُ لِمَنْ اتّبَعَهَا سَعادةَ الدَّارَيْنِ. قال الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران ١١٠].

هذه الأُمّةُ الفَاضِلَةُ ستكونُ شاهدةً على جميعِ الأُمَمِ سابِقِهَا وحاضِرِهَا غداً في أرضِ المَحْشَرِ، يومَ تَجْحَدُ كثيرٌ من الأُمَمِ دَعْوَةَ الرُّسُلِ لَهَا، فتَزعُمُ أنّه لم يأْتِها نَبيٌّ، فيَسْتَشْهِدُ الأنبياءُ بأُمَّةِ محمّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إرسالِهِم، فإنّنا آمَنّا بالكتابِ وبالسُّنَّةِ وبما فيهما، ونشهدُ على كلِّ ما جاءَ فيهما، شهادةَ حقٍّ وعَدْلٍ. أخرج

البخاريُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رَضِيَ الله عنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيُدْعَى بِمُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ: عَدْلًا ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾».

وإكرامُ الله تعالى لهذه الأُمَّةِ بأنْ جعلَها شاهدةً على النّاسِ، يَلْزَمُ منه أنْ تقومَ الأُمّةُ بواجبِها في دعْوةِ النّاسِ لهذا الدّينِ، ونَقْلِهم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ؛ لتَقُومَ شهادتُها على غيرِها خيرَ قِيامٍ.

ثمّ تأمّلُوا عِظَمَ أمرِ الشّهادةِ، كيف أنّ ربَّنا جَلّ وعَلَا يقضي بها دونَ حاجتِه لها، وكيفَ أنّ نبيَّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشهدُ علَيْنا بما كان مِنّا كما نصّتْ الآيةُ هنا، وكما قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء ٤١-٤٢].

ولقد أَشْهَدَ رسولُنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّنا في حَجّةِ الوَداعِ على تبليغِه ما أُوحِيَ إليه لأمّتِه، مِنْ تحريمِ الدّماءِ والأموالِ والأعراضِ. قال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألَا هلْ بَلَّغْتُ؟ قلنا: نعم. قال: اللهمّ اشْهَدْ» الحديث.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ كأنّ سائلًا يسألُ هنا: ولِمَ كانت القِبْلَةُ أوّلاً إلى بيتِ المَقْدِسِ؟ والجوابُ: ربُّنا باركَ في بيتِ المَقْدسِ، وجعَلَ له مكانةً وقداسَةً في قلوبِ المسلمينَ يعلَمُها كلُّ من تتَبَّعَ نصوصَ الوَحْيِ فيه. هنا تُبيِّنُ الآيةُ أنّ مِنْ حِكَمِ جعْلِ القِبْلَةِ أوّلاً إلى بيتِ المَقْدسِ تحقيقَ الابتلاءِ والاختبارِ للمُخاطَبِين، فيظهَرَ إيمانُ الصّادقينَ مع الله تعالى بسُرْعة الاستجابةِ لأمر الله تعالى الذي أوحي به إلى نبيِّه، ويَظهرَ تولِّي أصحابِ القُلوبِ المريضةِ والمنافقين عن أمر الله ووَحْيِه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب ٣٦].

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ الاستجابةُ لأمرِ الله أيًا ما كان، تَضِيقُ بها قلوبُ الضّالينَ، وتتّسِعُ لها قُلوبُ المهتدين، ولذلكَ كانَ الأمرُ بالتَّوجُّهِ من بيت المَقْدسِ إلى الكعبةِ كبيراً وعظيمًا وشاقًّا وعَسِيرًا على أهلِ الشّكِّ والرِّيبَةِ والضّلالِ، بخلافِ استجابَةِ من هَداهُم الله وشَرَحَ صُدُورَهُم لهذا الدِّينِ.

أَمْرُ اللهِ تعالى استجابَ له مَنْ صَدَّقَ الرّسولَ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلِّ ما جاءَ به من عندِ ربِّه، وأَيْقَنَ أنّ كلَّ أَمْرِه سبحانَه حِكْمَةٌ وعَدْلٌ ونَفْعٌ للنّاسِ. قالَ اللهُ تَعالَى في وَصْفِ الفريقَيْن: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التَّوْبَة ١٢٤-١٢٥].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ إيمانكم أَيْ: صَلاتَكُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَبْلَ ذَلِكَ، يعني: الله قَبِلَها منكُم وممّن ماتَ قبلَ الأمرِ بتحويلِ القِبْلَةِ، وأَعَدَّ لكم ولهم ثوابًا عليها، فلا تَلْزَمُكم إعادتُها. أخرجَ البخاريُّ عَنِ الْبَراءِ بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ البَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا، لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا من رحمةِ اللهِ ولُطْفِهِ ورَأْفَتِهِ بكم، فاعْلَمُوا واشكُرُوا.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

النّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ قِبْلَةَ إِبْراهيمَ عليه السّلامُ، ويدعُو اللهَ وَيَنْظُرُ إِلَى السَّماءِ، لعلّ الوَحْيَ ينزلُ بما أَحَبَّ، لعلّه يحقّقُ ما يرجو من مُفارَقَةِ اليهودِ من أهلِ الكتابِ في قِبْلَتِهِم التي كانت للمسجدِ الأقصى؛ فنزَلَتْ الآيةُ ووجَّهه اللهُ إلى القِبْلَةِ التي أَحَبَّ، وأَصْبَحَتْ القِبْلَةُ شَطْرَ ونحوَ واتّجاهَ الكعبةِ المشرّفةِ.

في الآيةِ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: المسجدِ الذي له حُرْمَتُهُ الخاصّةُ، وله أحكامُه الخاصّةُ. وقد اشْتَهَرَ عِنْدَ الْعَرَبِ وَصْفُ مَكَّةَ بِالْبَلَدِ الْحَرَامِ، أَيِ: الْمَمْنُوعِ عَنِ الْجَبابِرَةِ وَالظَّلَمَةِ وَالْمُعْتَدِينَ. وَوُصِفَ المسجدُ بِالْمُحَرَّمِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى حِكايَةً عَنْ إِبْراهِيمَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم ٣٧]، أَيِ: الْمُعَظَّمِ الْمُحْتَرَمِ. وَسُمِّيَ كذلكَ الْحَرَمَ، كما في قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [الْقَصص ٥٧].

أخرجَ البخاريُّ في صحيحه عنِ الْبَراءِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلاةٍ صَلاهَا، صَلاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ» الحديث.

وَأَمَّا أَهْلُ قُبَاء، فَلَمْ يَبْلُغْهُمُ الْخَبَرُ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنَ الْيَوْمِ الثَّانِي، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَمَا النَّاسُ بِقُبَاءَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أُنْزِلَ عليهِ الليلةَ قرآنٌ وقد أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ، فَاسْتَقْبِلُوهَا. وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ».

وتحويلُ القِبْلَةِ إنّما كان في المدينةِ، أمّا في مكّةَ فمن العُلَماءِ من ذهبَ إلى أنّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلّي إلى بيتِ المَقدسِ، ولكنّه كان يجعلُ الكعبةَ بينه وبينَ القِبْلَةِ، ولكن لمّا هاجرَ للمدينةِ لم يُمْكِنْهُ ذلك؛ لأنَّ الكعبةَ أصبحَتْ خلْفَه والقِبْلَةَ أمامَه، فرَجا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحويلَ القِبْلَةِ إلى قِبْلَةِ إبراهيمَ خليلِ الرّحمنِ عليه السّلامُ، فأكْرَمَهُ ربُّنا بذلك، وأُمِرَ بالتّوجُّهِ إلى الكعبةِ في صلاتِه؛ أَحَبِّ البِقاعِ وأشرَفِها عندَ الله.

ومنهم من ذهبَ إلى أنّه كانَ في مكّةَ يستقبلُ الكعبةَ، وإنّما استقبلَ بيتَ المَقْدسِ في المدينةِ، حتّى أُوْحِيَ إليهِ بتحويلِ القِبْلَةِ.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ في أيِّ جِهاتِ الأرضِ كنتُم، شَرْقاً وَغَرْباً وَشَمالاً وَجَنُوباً؛ اجْعَلُوا قِبْلَتَكُم نحوَ المسجدِ الحرام. ولا يَسْقُطُ وجوبُ ذلك إلّا في صلاةِ النّافلةِ والتّطوّعِ في السَّفَرِ إذا كانَ راكبًا أو سائرًا، وحالَ الْتِحامِ الجَيْشَيْنِ في القِتَالِ، وحالَ العَجْزِ عن ذلك بسببِ مَرَضٍ ونحوِه على تفصيلٍ وخلافٍ عندَ أهلِ العلمِ.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ علماءُ اليهودِ الَّذِين أَنْكَرُوا تحويلَ القِبْلَةِ إلى الْكَعْبَةِ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُوَجِّهُكَ إِلَيْهَا، بِمَا فِي كُتُبِهِمْ عَنْ أَنْبِيائِهِمْ من ذِكْرٍ وبَيانٍ لحالِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمَّتِهِ، وَمَا خَصَّهُ اللهُ تعالَى به من شَرَفٍ وعِزٍّ، وكذا أُمَّتَه، وَلَكِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَتَكَاتَمُونَ ذَلِكَ بَيْنَهُم ويُخْفُونَه؛ حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنادًا.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ تهديدٌ ووَعِيدٌ لهم، بأنّه سيجْزيهم على جحودِهم وعِدائِهم.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾

سياقٌ قرآنيٌّ مستمرٌّ في بيانِ المُفَاصَلَةِ والتّمايُزِ بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطِلِ، سياقٌ يبيِّنُ صِفاتِهم وحقيقتَهم وما هم عليهِ من العِنادِ والكُفرِ، وفيه تيئيسٌ ظاهرٌ من إيمانِهم بالجُملَةِ.

والسّياقُ يبيّنُ شِدَّةَ ثباتِ المؤمنينَ على الحقّ والهُدَى وطاعةِ ربِّهم جلَّ وعَلَا.

يا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو أتيتَ اليهودَ والنّصارى بكلِّ حُجَّةٍ ودليلٍ على صِحَّةِ ما مَعَكَ من الدّينِ، ما اتّبعُوكَ وما آمَنُوا بكَ وما اتّبعُوا قِبْلَتَكَ إلى المسجدِ الحرام، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يُونُس ٩٦-٩٧].

وما أنتَ ومَنْ مَعَكَ من أهلِ التّقوى والإيمانِ بتابعٍ قِبْلَتَهُم إلى بيتِ المَقْدِسِ. أمّا صلاتُكَ إليهِ أوّلًا، فما كانَ إلا طاعةً لله، ولم تكُنْ متابعةً لهم ولباطِلِهم.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

تَقَدَّمَ مَعَنَا في السّورةِ خطابٌ نحوُ هذا، جاءَ فيهِ أنّ مَنْ اتّبعَ طَرَائِقَ الكُفّارِ من اليهودِ والنّصارى وغيرِهم، واتّبعَ أهواءَهُم وشَهَواتِهِم، وتَرَكَ هُدَى اللهِ ونُورَه من قرآنٍ وسُنَّةٍ، فلا ناصرَ له ولا وَلِيَّ. وهنا تبيّنُ الآيةُ أنّه إنْ فَعَلَ ذلكَ، كان ممّن ظَلَمَ نفسَه بالشّركِ والكُفرِ، وهو أعظمُ الظُّلْمِ وأَشَدُّهُ.

ثم تأمّلُوا ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ ، وكأنّ الآيةَ تُرْشِدُ إلى أنّ مُخَالَفَةَ العالِمِ ما يعلَمُه، واتّباعَه الهوى؛ فيه من البَلَايا والمَصَائِبِ ما فيه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٤٦﴾

هذه الآيةُ تَزيدُ بيانَ حالِ أهلِ الكِتَابِ من اليهودِ والنّصارى بيانًا وظُهورًا، وتُؤَكِّدُ أنّ كُفْرَهُم كان كُفرَ استِكْبارٍ وعِنادٍ وحَسَدٍ، وأنّ اعتِرَاضَهُم على تحويلِ القِبْلَةِ وغيرِها من الأحكامِ ما هو إلا لطَعْنِهم في الإسلامِ والقرآنِ والنُّبُوَّةِ.

علماؤُهم الذين يقرؤُون كُتُبَهُم المُنَزَّلَةَ على أنبيائِهم، يَعْرِفُونَ صِدْقَ نبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصِحّةَ ما جاءَهُمْ بِهِ كَمَا يَعْرِفُ أحدُهم وَلَدَهُ، ولكنّهم يُخْفُونَ صِفَاتِ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويكتُمُونَ بُشْرَى الكُتُبِ السّماويةِ به، ويَكْفُرُونَ بالقرآنِ الذي جاءَ مُصَدِّقًا لما مَعَهُم، وهم عَالِمُونَ بِجُرْمِهِم وظُلْمِهم.

ولكن الآيَةَ بَيَّنَتْ أنّ هذا حالُ فريقٍ منهم وهو الغالبُ، ومعنى ذلك أنّ ثَمَّةَ فريقًا آخرَ من عُلمائِهم بَحثُوا عن الحقِّ وعَلِمُوه وآمَنُوا وصَدَّقُوا، وكانوا من المسلمينَ، كعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ من اليهود، وتَميمٍ الدَّارِيِّ وَصُهَيْبٍ الرُّومِيِّ من النّصارى، رضي اللهُ عنهم وأَرْضَاهُم.

﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ ﴾

يا محمّدُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويا أيّها المُقتدُونَ به من العُلماءِ والدُّعاةِ والقابِضِينَ على دِينِهم، ويا أيُّها المؤمنونَ: ثِقُوا بهذا الطّريقِ واثبتُوا عليه، ولا تكونوا من المُمْتَرِينَ الذين قدْ يُراوِدُ الشَّكُّ قُلوبَهم بِنُصْرَةِ أهلِ الحقِّ والتّمكينِ لهم.

إذا أَمَرَكُم ربُّكُم بأمرٍ، فاعْلَمُوا أنّه الحقّ، وأنّ فيه هُدًى ونوراً لكم، ولا يُضْعِفْ من عزيمتكم، ولا تُخِفْكُم سُخرِيَةُ المُتَرَبِّصِينَ بكم، الذين يطْعَنُونَ في شَرْعِ ربِّكُم كُلَّما استطَاعُوا ووَجَدُوا إلى ذلك سبيلًا.

وتأمّلُوا كيف وُجِّهَ الخطاب لنبيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنّه القُدْوَةُ وهو أَقْرَبُ الخَلْقِ إلى ربِّنَا وأَوْلَى بكَرامَتِهِ، فكيف بِحَالِنَا.

﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨ ﴾

النّاسُ عمومًا، وأهلُ الكتابِ خُصوصًا، لكلٍّ منهم قِبْلَةٌ ارْتَضَوْهَا لأنفُسِهم، وطريقٌ سَلَكُوهَا في عِبادَتِهم وحَياتِهم، وإيمانُهُم بالجُملةِ ميئوسٌ منه بِنصِّ آياتٍ عِدَّةٍ في كتابِ الله، كما مَرَّ مَعَنَا: ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ ﴾.

الخطابُ هنا ينفعُ حَمَلَةَ الرّسالةِ، الذين هَدَاهُم الله لما يحبُّ من خيرِ العَمَلِ، وأنزلَ عليهم خيرَ الكُتُبِ، وأَرْسلَ إليهم خيرَ الرُّسُلِ. والمطلوب: لا تُكثِرُوا من جِدالِهم، ولا يَضيرُكُم كَيْدُهُم وتعنُّتُهُم وعَداؤُهُم، واستبِقُوا الخيراتِ، يعني: احرِصُوا وسابِقُوا وسارِعُوا فيما يحبُّه الله ويرضاهُ، وأطِيعوهُ فيما شَرَعَ لكم من أحكامٍ، وعَمِّرُوا مجتمعاتِكُم بالإيمانِ والعملِ الصّالح والخيراتِ كلِّها، هذا خيرٌ لكم عندَ بارِئِكم وخالِقِكُم، كما قال ربُّنا: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ [المَائِدَة ٤٨]. وهنا في سورة البقرةِ قال: ﴿ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ ربُّنا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ في مَلَكُوتِ السّماواتِ والأرضِ، وهو قَادِرٌ عَلَى جَمْعِ كلِّ النّاسِ مِنَ الأَرْضِ، وإِنْ تفرّقَتْ أَجْسادُهم وَأَبْدانُهم، وكلُّهُم سائرٌ إليهِ، فاحْرِصُوا على ما أَوْصَاكُم به لتكُونُوا مع الفائزينَ المفلحينَ يومَ يجمعُ النّاسَ ليومٍ لا ريبَ فيه.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٩﴾

تأكيدٌ على أَمْرِ تحويلِ القِبْلَةِ، وتثبيتٌ لقلوبِ المؤمنينَ على ذلك، وبيانٌ بأنّ تحويلَ القِبْلَةِ لم يَكُنْ فقط بلاءً للنّاسِ، ولأنّ النّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحبَّ ذلك، وإنّما لأنّه الحقُّ والأمرُ من ربِّك، فقد ارْتَضاهُ لِخَلْقِهِ سبحانَه وأرادَه، فلا تساهُلَ فيما أَمَرَ.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٠﴾

تكرارُ الأمرِ للنّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسألةِ تحويلِ القِبْلَةِ، وتكرارُه للمخاطبينَ من المسلمينَ، إنّما هو لبناءِ منهجٍ ربّانيٍّ في النّفوسِ يقومُ على سُلوكِ الصّراطِ المستقيم، والثّباتِ عليه، وعَدَمِ الالتفاتِ إلى حِيَلِ المُعانِدِينَ المُنْكِرِينَ في صَدِّ أولياءِ الله عن الحَقِّ.

والآيةُ هنا تبيِّنُ حِكْمَةً رابعةً من حِكَمِ الله في تحويلِ القِبْلَةِ من بيتِ المَقْدِسِ إلى مكّةَ، ألا وهي مُخالَفَةُ اليهودِ والنّصارى في توجُّهِهم لبيتِ المَقْدِسِ، لئلّا يحتجُّوا بموافقةِ المسلمين لهم في قِبْلَتِهم، فيَسْتَدِلُّوا بذلكَ على أنّهم على الحقِّ وعلى أنّ الرّسُولَ اتَّبَعَهُم.

أمّا الذين ظَلَمُوا من هؤلاءِ النّاسِ، من اليهودِ والنّصارى، فإنّهم يُشاغِبُونَ عليكم، ويحاولونَ الاحتجاجَ عليكم بزَعْمِهِم تَخَبُّطَكُم في القِبْلَةِ وعَدَمَ استقرارِكم عليها، ولذلك جاءَ التّوجيهُ الرّبّانيُّ في ذلك:

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ تأمّلُوا ما تبعثُه مثلُ هذه الآياتِ في نُفُوسِ المصلحينَ في طريقِ دَعْوَتِهِم وطاعَتِهِم لربِّهِم، وتُعِينُهُم على الثّباتِ والثِّقَةِ بالطّريقِ. لا تَخْشَوْا شُبَهَ الظَّلَمَةِ المعتدين في شَرْعِ الله وحِيَلَهُم وطَعْنَهُم، بل اجْعَلُوا الخَشْيَةَ لله وَحْدَه، فهو حَسِيبُكُم وهو كافِيكُم بأسَهُم وشُرورَهُم.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ بتحويلِ القِبْلَةِ؛ تَمَّتْ نِعمَةُ الله وتَتابَعَت، وظَهَرَتْ حِكْمَتُهُ فيما أَمَرَ وقَدَّرَ.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: ولتكونُوا ممّن أطاعَ ربَّه فاهتَدَى إلى طريقِ الخَيْرِ والسّعادةِ.

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ ﴾

أي: كما أنّ الله تعالى أَنْعَمَ عليكُم بِنِعْمَةِ تحويلِ القِبْلَةِ، وهَدَاكُم لذلك وثَبّتَكُم على طَاعَتِه، وأَتَمَّ نِعْمَتَه عليكُم بما شَرَعَ؛ كذلك فإنّ الله تعالى أَنْعَمَ عليكُم وأكرَمَكُم بإرسالِ محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نبيِّ الرّحمةِ والهُدَى، إكراماً منه لهذه الأمّةِ وتَفَضُّلًا وإِنْعامًا عليها، ثمّ استجابةً لدُعَاءِ أنبياءِ الله إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السّلامُ لمّا قالَا: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة ١٢٩].

صفاتُه كما بَيَّنَتْ الآيةُ هنا: هو منكم، أي: من بين ظَهْرَانِيْكُم ومن قومِكُم ويتكَلَّمُ بلِسَانِكُم أيُّها المهاجرونَ والأنصارُ.

يَتْلُو على من أُرسِلَ إليهم آياتِ القرآن.

وَيُزَكِّيهم، أَيْ: يُطَهِّرُ نُفُوسَهم مِنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ وسيِّئِهَا، ومن رَذَائِلِ الشّركِ والحَسَدِ والكِبْرِ، وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

وكذلك يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ، وَهُوَ الْقُرْآنُ. وكذا يعلّمُهم الْحِكْمَةَ، وَهِيَ السُّنَّةُ أو هي العِلْمُ بحقائقِ الأمورِ والأشياءِ، وحُسْنُ النَّظَرِ في العَاقِبَةِ والمآلِ.

ويعلِّمُهم ما لمْ يَكونُوا يَعْلَمُونَ حالَ جاهليَّتِهِم من أحوالِ الأُمَمِ وغيرِ ذلك، حتى أَصْبَحُوا سادةَ الدّنيا في العِلْمِ والفَهْمِ. قال الله تعالَى: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ ١٦٤].

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ ﴾

بعد تعدادِ النِّعَمِ على هذه الأمّةِ ، أَرْشَدَهَا ربُّها إلى كيفيّةِ شُكْرِ هذه النِّعَمِ، فإنّ النِّعَمَ على الغالبِ، لا يقدرُ قَدْرَهَا ولا يُحسِنُ شُكْرَهَا إلا من وُفِّقَ. ربُّنا جَلَّ وعَلَا في هذه الآيةِ يدْعُونا لنُحْسِنَ شُكْرَهُ على هذه النِّعَمِ، ونُقابِلَهَا بِذِكْرِ الله والثّناءِ عليه بأنواعِ التّسبيحِ والحَمْدِ، وأنْ نذكُرَه عندَ أَمْرِهِ ونَهْيِهِ فنتّبعُ ونُطِيعُ.

فمَنْ أدّى ذلك ذَكرَهُ اللهُ في الملأ الأعلى وأثنى عليهِ في أهلِ السّماءِ. قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال اللهُ تَعَالَى: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ». قال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ذِكْرُ اللهِ إِيَّاكُمْ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أَحسِنُوا شُكرَ الله، ولا تَشْكُرُوا أَحدًا سِواهُ؛ لتَنالُوا دَوامَ النِّعمِ وزيادةَ الخيْرِ، وإلّا كنتُم ممّن جَحدَ نِعمَ اللهِ وأنْكرَهَا فظلَمَ نفسَه بالكُفْرِ، وعرَّضَهَا لعذابِ اللهِ الشّديد. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبْراهِيم ٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

هذه الآيةُ نحتاجُهَا كثيراً في طريقِنا؛ فإنّ فيها إعدادًا للمسلمِ القائدِ، الآيةُ تُثبّتُهُ وتُعطِيهِ مفاتيحَ النّصرِ، كما أَعطَتْنَا الآية: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾.

الآيةُ جاءتْ بعدَ الأمرِ بتحويلِ القِبْلَةِ وبيانِ مطاعنِ أهلِ الكفرِ في ذلك، وجاءتْ بعد ذِكْرِ عددٍ من أَساليبِهم في الصّدِّ عن دينِ الله، وجاءَتْ بعدَ التّوجيهِ الرّبّانيِّ لكيفيّةِ شُكرِ النِّعَمِ والصّبْرِ عليها، لكن البَلاءَ لا يكونُ فقط في النِّعَمِ، بلْ يكونُ في النِّقَمِ، ولذلكَ جاءَتْ الآيةُ الكريمةُ.

الآيةُ فيها نداءٌ لا يَفْقَهُهُ ولا يستجيبُ له حقًّا إلّا أهلُ الإيمانِ: إذا جاءكَ أيها المؤمن ما يَحْزُنُكَ من بلاءٍ ونحوِه، وإذا رأيتَ من يبذلُ الغاليَ والنّفِيسَ ليَصُدَّكَ عن طريقِ الاستقامةِ، وإذا جاءكَ من يَخْذُلُكَ عن سبيلِ الدّعوةِ إلى اللهِ والجهادِ في سبيله، فاعْلَمْ أنّ الصّلاةَ والصّبْرَ هما أجْودُ وأعْظَمُ ما يستعينُ به العبدُ في ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البَقَرة ٤٥]. وأخرجَ أحمدُ وأبو داودَ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى».

والمقصودُ أنّ سبيلَ التّمكينِ لهذا الدّينِ إنّما يكونُ بالإيمانِ باللهِ، ودَوامِ طاعتِه ودُعائِه، ويكونُ بنَصْرِ دِينِه في الأرضِ وحُسْنِ الإعدادِ لذلك، ثمّ الصّبْرُ على مَشَقّةِ الطّريقِ، فإنّه من صَبَرَ؛ نالَ معيّةَ اللهِ له وحِفْظَهُ ونَصْرَهُ.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

جاءتْ هذه الآيةُ في سياقِ إعدادِ الدُّعاةِ إلى اللهِ تعالى والمجاهدينَ، في سياقِ تثبيتِهم وتنويرِ بصائرِهم في طريقِ جهادِهم أعداءَ اللهِ وفي طريقِ دعوةِ النّاسِ للهدَى. وهذا الخطابُ بدأَ التّمهيدُ له في الآيةِ السّابقةِ،

بعدَ أنْ خاطَبَهُم ربُّنا، وبيَّنَ لهُم ما يحْتاجونَه من عُدَّةٍ وعَتادٍ في طريقِهِم إلى الجنَّةِ بقولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

ولعلَّ أشدَّ أنواعِ الصّبرِ أنْ يصبرَ الإنسانُ على فَقْدِ نفسِه، ولذلك جاءتْ الآيةُ هنا لتصحيحِ مفهومٍ يغْلَطُ فيهِ كثيرٌ من النّاسِ فيما يتعلّقُ بحياتِهم؛ يظُنُّونَ أنّ من قُتِلَ في سبيلِ الله ماتَ، ويحزنونَ لذلك حُزْنًا شديدًا، وربّما يجْبُنُونَ عن لقاءِ العَدُوِّ خَشْيَةَ التَّهْلُكَةِ كما يُخَيَّلُ إليهِم.

الآيةُ هنا بَيَّنَتْ أنّهم أحياءٌ عندَ ربِّهِم حياةً لا نشعرُ بها، ولا نعلمُ حقيقتَها، إلّا ما دَلَّتْنا عليهِ النّصوصُ الشّرعيَّةُ في ذلك.

تأمّلوا الخطابَ القرآنيَّ: الشُّهَدَاءُ الذين قُتِلوا لتكونَ كلمةُ الله هي العُلْيا، لم يموتُوا كما هو ظاهرُ حالِهِم، بل يُخبرُنا ربُّنا خبرَ يقينٍ، بأنّهم أحْياءٌ يُرْزَقونَ في حياةِ البَرْزَخِ التي تكونُ بعدَ الموتِ وقَبْلَ قيامِ السّاعةِ. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران ١٦٩].

الشّهيدُ فارقَتْ روحُه جَسدَه، فلم يَسْعَدْ في حياةِ البَرْزَخِ باللّذَّاتِ كما كانَ في الدّنيا، فأكْرَمَهُ الله وعوَّضَهُ جَسَدًا من طَيْرٍ، لينتقِلَ في الجَنَّةِ حيث شاءَ، ويَسْعَدُ بنعيمِها أكثرَ وأكثرَ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قولُ رسولِنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الشّهداءِ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً»، فَقَالَ: «هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحُنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا».

ولا يتعارضُ تخصيصُ الشّهداءِ بهذه الحياةِ، مع ما جاءَ في عمومِ من ماتَ على الإيمانِ، فإنّ له كرامةً عندَ ربِّه بأنْ يأكلَ من شجرِ الجَنَّةِ، كما دلَّ على ذلك ما أخرجَه مالكٌ وأحمدُ والنَّسائيُّ وغيرُهُم، أنّ رسولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ نسمةَ المُؤمن طَيْرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ الله فِي جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ».

والفرقُ بينَ الحياتَيْنِ، بينَ أرواحِ المؤمنينَ وأرواحِ الشّهداءِ، أنّ أرواحَ الشّهداءِ في حواصلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تنتقلُ في رياضِ الجَنَّةِ حيثُ شاءتْ، بخلافِ المؤمنينَ الذين لم يكونُوا من الشّهداءِ، فإنّ أرواحَهُم في أجوافِ طَيْرٍ يَعْلَقُ ويأكُلُ من ثَمَرِ الجَنَّةِ ولا ينتقلُ في أرجائِها، فكانت حياةُ الشّهداءِ أكملَ وأتَمَّ؛ تشريفاً لهم وتكريمًا.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾

ومما قدَّره ربُّنا وكتبَه على عبادِه أنْ يبتلِيَهُم ويختبرَهُم ويمتحِنَهُم؛ ليظهرَ الصّادقونَ منهم من القَانِطِين البائسينَ اليائسينَ، وليَعْلَمَ صبْرَ العِبادِ وثباتَهم ورِضاهُم عمّا كَتَبه الله لهم، وعِلْمُهُ هذا عِلْمُ إظْهارٍ وبيانٍ وإقامةِ حُجَّةٍ. قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد ٣١]. وقد أصابَ نبيَّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصَحْبَهُ شيءٌ من ذلك في غزَوَاتِهِم، وفي حصارِ أهلِ مكّةَ لهم كما هو مبثوثٌ في السّيرةِ، ونصوصِ الوحيِ.

وهذا البلاءُ لا يكادُ ينجُو منه أحدٌ؛ فقد جاءَ في الحديثِ الذي أخرجَه الترمذيُّ وابنُ مَاجَهْ وأحمدُ، من حديثِ رسولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَشَدُّ النّاسِ بلاءً الأنبياءُ، ثمّ الأمثلُ فالأمثلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ على حَسْبِ دِينِهِ، فإنْ كانَ دينُه صُلبًا اشتدَّ بَلاؤُه، وإنْ كانَ في دِينِه رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على حَسْبِ دِينِه، فما يَبْرَحُ البَلاءُ بالعَبْدِ حتّى يترُكَه يمشي على الأرضِ ما عليه خَطِيئةٌ». وكذا عند الترمذيِّ وابنِ مَاجَهْ من حديثِ أنس رَضِيَ الله عَنهُ قال: قال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ».

ولا يقُولَنَّ قائلٌ: لِمَ يشتدُّ البَلاءُ على أهلِ الإيمانِ، ولا يكونُ كذلك على مَنْ يتفَنَّنُ في الكُفْرِ وفي المعاصِي؛ لأنَّ البَلاءَ هذا إنْ صَادفَ ذُنوبًا كفَّرَها وكانَ سَببًا للعفْوِ عنها، وإنْ لم يُصادِفْ ذُنُوبًا عندَ العبدِ سَبَّبَ له رِفْعَةً في الدّرجاتِ عندَ الله. والمصائبُ تكشفُ حالَ من يَثْبُتُ على الإيمانِ، ويُحِبُّ الله حُبًّا حقيقيًّا يُسَلِّمُ له فيهِ بقَضَائِه وقَدَرِه. بل هي اختبارٌ حقيقيٌّ، يُدْرِكُ الصّابرُونَ من خِلالِهِ أنّهم اتّبَعُوا هذا الدِّينَ لا يَرْجُونَ إلّا أنْ يرضَى الله عنهُم، وليس لِحُظُوظِهم العَاجِلَةِ الفانيةِ.

أقول: أكثرُ النّاسِ تَعبًا وشَقاءً في حياتِهم، الذينَ لم يفهَمُوا حقيقةَ الدُّنيا، وارتِبَاطَهَا بالبَلَاءِ الذي لا يكادُ ينفَكُّ عن أحدٍ من أهلِ الدّنيا؛ إمّا بالتَّضْييقِ والنَّقْصِ، أو بالنِّعَمِ والسَّعَةِ.

وقدْ كانَ أعداءُ الأنبياءِ والصّالحينَ من أقْوَامِهِم إذا نَزَلَ بهم بلاءٌ نَسَبُوهُ للمُصْلِحِينَ وربَطُوه بدِينِهِم وتوحيدِهِم؛ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الدِّينَ الذي ارْتَضَاهُ الله لَمَا لَحِقَنَا عَذَابٌ ومُصِيبةٌ، وهؤلاءِ حَذَّرَنَا الله أَمْرَهُم بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف ١٣١]، وفي فِعَالِ المُنَافِقِينَ قال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَ﴾ [النّساء ٧٨].

إذن: الآيةُ هنا تُخْبِرُ أنّ البَلاءَ يكونُ بالخَوْفِ، ويكونُ بإِمْسَاكِ الرِّزْقِ، ونَقصِ الطّعامِ والأموالِ وذَهابِها، ويكونُ بنَقْصِ الأنْفُسِ بموتِ الأقاربِ والأصحابِ، ونقصٍ في ثمراتِ بساتينِهم ومزارِعِهم.

والبلاءُ إنّما هو بشيءٍ من الخَوْفِ والجُوعِ كما نَصَّتْ الآيَةُ، أي: بقليلٍ من ذلك، ولو كانَ البَلاءُ أشَدَّ وأعَمَّ من ذلك لَهَلَكَ النّاسُ وهَلَكَتْ الأُمّةُ، كما فعلَ الله سابقًا بأُمَمٍ كَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً كَانَتۡ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النّحل ١١٢].

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾

هذا حالُ الشّاكرينَ لِأَنْعُمِ الله عليهِم، الصّابرينَ في البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ، الذين عَلِمُوا أنّ الدّنيا كلَّها ليست دارَ بَقاءٍ، وإنّما هي دارُ فَناءٍ، وأنّ جَزاءَ الأعمالِ إنّما يظهرُ في الآخرةِ، فاستَحْضَرُوا عندَ المصائبِ وُقُوفَهُم بينَ يَدَيْ الرَّبِّ العَظِيمِ ورُجُوعَهُم إليهِ وأنّه لا يَضِيعُ عندَه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ، فهانَتْ عليهم كلُّ مصيبةٍ، وتوَكّلُوا على حُسْنِ اختيارِ الله لهم.

عبارةُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، فيهَا أنّ قَائِلِيهَا موقِنونَ بأنّهم مُلْكٌ لله يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ، فَلَا يحزنونَ ولا يخافونَ مِمّا يَأْتِيهِمْ. وكأنّ العبارةَ لا ينتفِعُ بها إلا من يعتقدُها ويُدْرِكُ معنَاهَا، فإنْ لم يَكُنْ كذلكَ؛ خُشِيَ عليهِ.

أخرجَ مسلمٌ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ الله بِهِ: «إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللهمَّ أَجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»، إِلَّا أَخْلَفَ الله لَهُ خَيْرًا مِنْهَا».

وفي حديثٍ أخرجَه الترمذيُّ وأحمدُ عن أَبِي مُوسَى الأشعريِّ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ الله تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. فَيَقُولُ الله: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بيت الْحَمد».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾

هذا مِمَّا أكرمَ اللهُ به الصّابرينَ، فقد أعطاهُم على ذلك صلاةً منه، أي: ذِكرًا وثناءً عليهم في المَلأ الأعلى، ثمّ رحمةً منه ومَغفِرَةً لذُنُوبِهِم وتَقْصيرِهِم، وأولئكَ الذين هَداهُم اللهُ للحقِّ ورَبَطَ على قُلُوبِهم، فلم يعْتَرِضُوا على قَضاءِ اللهِ لا بِلِسانِ المَقالِ ولا بِلِسانِ الحالِ.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾

هذه الآيةُ نَزَلَتْ في حقِّ فريقَيْنِ من النّاسِ كما جاءَ في سَبَبِ نُزُولِها:

الفريقُ الأوّلُ: كَانُوا لا يَطُوفُونَ في الجاهليّةِ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ إخلاصًا لصَنَمِهِم، وهم الأَوْسُ والخَزْرَجُ وبعضُ قبائِلِ غسّانَ، حيثُ كانُوا يَنْوُوْنَ ويُهِلُّونَ لِحَجِّهِم قَبْلَ الإسلامِ من عندِ صَنَمِ مَناةَ ويَطُوفُونَ به، وهو موجودٌ عند المُشَلّلِ (موضع قريب من الجُحْفَة)، وكان عندَهم من أَهَلَّ وأَحْرَمَ لهذا الصَّنَمِ لا يطوفُ بين الصَّفَا والمروةِ، لوُجُودِ صَنَمَيْنِ عندَهما هما إِسافُ ونائِلَة. فلَمَّا أَسْلَمُوا وجاءَتْ حَجَّةُ الوَداعِ، سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ.

الفريقُ الثّاني: كانوا يَطُوفُونَ أيّامَ جاهِلِيَّتِهِم، ثُمَّ تَحَرَّجُوا أَنْ يَطُوفُوا بِهِمَا في الإِسْلَامِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالطَّوَافِ بِالْبَيْت (بالكعبة) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج ٢٩]، وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا، فظَنُّوهُ من عَمَلِ أهلِ الجَاهِلِيَّةِ، فنَزَلَتْ الآيةُ رَافِعَةً للحَرَجِ عنهُم في ذلكَ. دَلَّ على ذلكَ ما جاءَ في الصّحيحَيْنِ عن عاصِمٍ قَالَ: قُلْتُ لأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: أَكُنْتُم تَكْرَهُونَ السَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَة؟ قَالَ: نَعَمْ؛ لأَنَّهَا كَانَتْ مِنْ شَعَائِرِ الجَاهِلِيَّةِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ: ﴿۞ **إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾.

والصَّفَا والمروةُ جبَلانِ صغيرانِ، ارْتَبَطَتْ قِيمَةُ الأُمُومَةِ بِهِمَا، ارْتَبَطَ بِهِمَا اسمُ أُمِّنَا هاجَرَ ووَلَدِهَا إسماعيل عليه السّلامُ، حِينَ تَرَكَهُمَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُنَالِكَ لَيْسَ عِنْدَهُمَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وقد سَعَتْ بينَهُمَا سَبْعَ

مرَّاتٍ لمّا رأت ولَدَها إسماعيلَ عليه السّلامُ يَتلَوّى يُريدُ ماءً، حتّى أكْرَمَها الله بما أكْرَمَها به من نَبْعِ ماءِ زَمْزَمَ وما جرى بعدَه. وهذا فيه فائدةٌ نَفيسَةٌ لكلِّ من سَعى بينَهُما، بأنْ يَسْتَحْضِرَ ما جرى هناك من تفريجٍ للكُرُباتِ، ويَصْدُقَ الله برَغْبتِهِ بكَشْفِ كَرْبِهِ وغُفْرانِ ذَنْبِه.

الآيةُ هنا تبيِّنُ أنّ الصّفَا والمروةَ من شعائرِ الله، أيْ: ممّا شَرَعَهُ الله وأَذِنَ وأَمَرَ بِه، وأنّ السَّعْيَ بينَهُما من شعائرِ وأعلامِ مَناسِكِهِ وطَاعَتِهِ، فلا تَتحَرَّجُوا من السَّعْيِ بينَهُمَا في حَجِّكُمْ وعُمْرَتِكُم، ولا تَرْتَابُوا في ذلك؛ فإنَّ الشَّيْءَ المُقَدَّسَ لَا يُزِيلُ تَقْدِيسَهُ مَا يَحُفُّ بِهِ من سَيِّءِ الْعَوارِضِ. قال صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْعَوْا فَإِنَّ الله كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ» أخرجه أحمدُ وابنُ ماجهْ.

ولا يُفهَمُ من الآيةِ أنَّ من حَجَّ أو اعْتَمَرَ، فليسَ عليهِ شيءٌ إنْ لَمْ يُؤَدِّ السَّعْيَ بينَ الصّفَا والمروةِ، فإنّه لو كانَ المقصودُ ذلكَ لجاءَتْ الآيةُ: فلا جُنَاحَ عليهِ ألّا يطَّوَّفَ بهما. بلْ إنّ السَّعْيَ بينَهُمَا رُكْنٌ في الحَجِّ والعُمْرَةِ عند أكثرِ العُلَماءِ، مع خلافٍ في المسألةِ عندَ أئمّةِ الحنفيّةِ وغيرِهِم.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: ومن زادَ في عَمَلِهِ من حَجِّ التّطَوُّعِ والعُمْرَةِ تَطَوُّعًا وغيرِ ذلك من الأعمالِ الصّالحةِ؛ فإنّ الله يشكرُ له عَمَلَهُ ويُثِيبُهُ عليهِ الجزاءَ العَظِيمَ؛ فإنّه عليمٌ بمَنْ صَدَقَ الله في ذلك، وعليمٌ بما يستحقُّه من أَجْرٍ وثوابٍ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النِّساء ٤٠].

وهنا تذكيرٌ بأنّ السَّعْيَ ليس من أعمالِ التَّطَوُّعِ، وإنّما يكونُ فقط في مناسكِ الحَجِّ، أو في أعمالِ العُمْرَةِ، بخلافِ الطّوافِ حولَ الكعبةِ الذي يُسْتَحَبُّ التَّقَرُّبُ به إلى الله في جميعِ الأوقاتِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾

كتَمَ أهلُ الكتابِ من اليهودِ والنّصارى دَلائِلَ صِدْقِ دِينِ محمّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَخْفَوْا صِفَاتِهِ وبِشَارَاتِ كُتُبِهِم به وبدِينِه وقرآنِه وما جاءَ مَعَه من الهُدَى لطريقِ الاستقامةِ، مع أنّ الله تعالى أَخَذَ عليهِم المواثيقَ أنْ يَصْدُقُوا ولا يكْتُمُوا. قالَ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عمران ١٨٧].

هؤلاءِ: استحَقُّوا لعنةَ الله بطَرْدِهِمْ من رحمتِهِ مع الإذْلالِ والغَضَبِ عليهِم، وكذا استحَقُّوا لعنةَ اللّاعِنِينَ من الملائكةِ والإنْسِ والجِنِّ بالدّعاءِ عليهِم بالشّقَاءِ والحِرْمَانِ من رحمةِ الله وجَنّتِهِ.

والآيةُ تعنِينَا كثيرًا نحنُ، معاشِرَ طَلَبَةِ العلمِ والمُبَلِّغِينَ عن الله من أهلِ التّوحيدِ والاستقامةِ، فقَدْ ماتَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتَرَكَنَا على المَحَجَّةِ البيضاءَ، تَرَكَ لنا إرْثَه من الكتابِ والسُّنَّةِ، وكلُّ من كَتَمَ من العلماءِ وطَلَبَةِ العلمِ والدُّعاةِ إلى الله على بصيرةٍ علمًا عن النّاسِ، ولَوَى أعناقَ نُصُوصِ الوَحْيِ، ولبَّسَ على النّاسِ دِينَهُم ابتغاءَ عَرَضٍ من عُرُوضِ الدّنيا؛ كان ممّن استحَقَّ عقوبةَ اللَّعْنِ من الله ومن النّاسِ. قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ الله يومَ القِيامَةِ بِلِجامٍ من نارٍ». رواهُ ابنُ حبّان والحاكمُ. وقالَ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ: لَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ الله مَا حَدَّثْتُ أَحَدًا شَيْئًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾.

كِتْمانُنَا للعلمِ يعني إيقاعَ النّاسِ في الضّلالةِ والغِوايَةِ، وهذا الصِّنْفُ من أهلِ الإجْرَامِ لا يَلْعَنُهُم إلّا من عَلِمَ حَقِيقَةَ حالِهِم، وغَضِبَ لله ولِدِينِه، وليس لشهوةٍ في نفسِه.

وقبلَ أنْ أختِمَ تفسيرَ هذهِ الآيةِ أُذَكِّرُ بأنّ تبليغَ العلمِ للنّاسِ وإرْشَادِهِم، له فِقْهُهُ المتَعَلِّقُ بالأزمانِ والأَماكِنِ والأشخاصِ، وله أحكامُه التي ينبَغِي أنْ نفهَمَهَا لِئَلّا يُظَنَّ ببعضِ أهلِ العلمِ سُوءٌ، خاصّةً من جهلَةِ النّاسِ والمُغْرِضِينَ منهُم وأصحابِ القُلوبِ المريضةِ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

هذه الآيةُ فيها دليلٌ على أنّ من كَتَمَ شيئًا من دِينِ الله، ولم يَقُمْ بواجبِهِ في وَقْتٍ ما تُجاهَ دِينِهِ ودَعْوَتِه، ثمّ تابَ إلى الله، وأصْلَحَ حالَه مع سَيِّدِهِ ومَوْلاه، ثمّ بَيَّنَ للنّاسِ الحقَّ، وأرْشَدَهُم إلى الهُدى؛ أقولُ: من فعل ذلك تابَ الله عليهِ بنصِّ الآيةِ الكريمةِ، ونَجا من دوامِ اللَّعْنَةِ؛ فإنّ الله يُحِبُّ تَوْبَةَ العبدِ ويفتحُ بابَهَا ما لم تَبْلُغْ الرّوحُ التَّرْقُوَةَ. وقطْعًا: لا يُقبَلُ منه إلا أنْ يُصْلِحَ ما أَفْسَدَه، ويُظْهِرَ ويُبَيِّنَ ما كَتَمَهُ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾

هذا حالُ من أَبى أنْ يكونَ من أهلِ الإيمانِ، واسْتَمَرَّ على شِرْكِهِ وكُفْرِهِ حتى ماتَ. جَزاؤُه: ينالُ اللَّعْنَةَ المتتابِعَةَ في الدّنيا والآخرةِ من الله والملائكةِ والنّاسِ أجمعينَ. واللَّعْنُ هوَ الطَّرْدُ من رحمةِ الله والإبعادُ عنها.

وهنا مسألةٌ نافعةٌ: هل يجوزُ لَعنُ الكُفّارِ استِدْلالًا بالآيةِ الكريمةِ؟

قال أهلُ العلمِ: لَا خِلَافَ فِي جَوَازِ لَعنِ الْكُفَّارِ، وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنهُ، ومن بعده مِنَ الْأَئِمَّةِ، يَلْعَنُونَ الْكَفَرَةَ فِي الْقُنُوتِ وَغَيْرِه. وهذا اللَّعْنُ على سبيلِ الإجمالِ، أمّا لَعْنُ كافرٍ بِعَيْنِهِ واسْمِهِ، فالأصلُ عندَ كثيرٍ من العلماءِ اجْتِنَابُ لَعْنِهِ؛ لِأَنَّا لَا نَدْرِي بِمَ يُخْتَمُ لَهُ، ولأنّ الأصلَ في المسلمِ أنْ يُجَنِّبَ لسانَه عن إطلاقِهِ في اللَّعْنِ لقولِهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس المؤمنُ بالطَّعَّانِ ولا اللَّعَّانِ، ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيْءِ». أخرجَهُ التّرمذيُّ وغيرُه.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾

ومِن جزائِهِ كذلكَ أنَّهُ يَخْلُدُ في نارِ جهنّم، ولا يُخَفَّفُ عنه العَذابُ ولا يتأخّرُ، بل يأتيهِ العَذابُ من فَوْقِهِ ومن تحتِ أَرْجُلِهِ على الدّوامِ، أَجارَنا الله وإيّاكُم.

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾

يُخبرُ الله تَعالَى عَنْ عَظمَتِهِ وتَفرُّدِهِ بالأُلوهِيَّة التي أنكرَها الكُفّارُ وماتُوا على ذلك، يُخبِرُ ربُّنا أَنَّهُ لا شَريكَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ، بَلْ هُوَ الله الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُو وَأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الْمُنْعِمُ بما لا يُعدُّ ولا يُحصَى، الرَّحِيمُ بعبادِهِ المؤمنينَ.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

سياقٌ قرآنيٌّ يستطردُ في بيانِ عَظَمَةِ الله وحِكمَتِهِ وقُوَّتِهِ ووَحْدانيَّتِهِ في التّصرُّفِ، بعدَ أنْ نَصَّتْ الآيةُ السّابقةُ على ذلك بقولِ الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، يعني: كأنّ ثَمَّةَ صِنفًا من النّاسِ لا يعتقدُ أُلُوهِيَّةَ ربِّنا حتّى يأتِيَه البيانُ، وقد جاءَه هنا.

جاءتْ هذه الآيةُ هنا لتَفْتَحَ آفاقَ التّفكيرِ لأصحابِ العُقولِ السّليمةِ؛ فإنّها إنْ تَجَرَّدَتْ عَلِمَتْ أنّ الله حقٌّ، فاهْتَدَتْ وأَسْلَمَتْ دِينَهَا لله، فانْتَفَعَتْ بعقْلِهَا أيّما انتفاعٍ كما أشارَ خِتامُ الآيةِ الكريمةِ: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أمّا أهلُ الهوَى والزَّيْغِ، وأصحابُ النُّفُوسِ الخبيثةِ والمريضةِ، فإنّهم عطّلُوا عُقُولَهُم وسَلَّمُوهَا لآبائِهم وكُبَّارِهم الصَّادِّينَ عن دينِ الحقِّ، سَلَّمُوا عُقُولَهم لمعبوداتٍ لا تملكُ لهم شيئًا، فعبَدُوا الأصنامَ والكواكبَ والنّارَ والبَشَرَ، بل منهم الذي أنكرَ وجودَ الرَّبِّ أصالةً، وأمثالُهم حقًّا لا يعقِلُونَ.

لجميعِ هؤلاءِ جاءَتْ الآيةُ هنا بدلائلَ واضحةٍ وضوحَ الشّمسِ في رَابِعَةِ النّهارِ، دَلَائِلَ رَاعَتْ اختلافَ المُخَاطَبِينَ في إِدْرَاكِهِم أسرارَ الخَلْقِ وعَظَمَتَه، واختلافَهُم فيما يُؤَثِّرُ فيهم، ولذلك تَعَدَّدَ ذِكْرُهَا وتنَوَّعَ. تأمّلُوا:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الله ربُّنا وربُّ النّاسِ خَلَقَ السّمواتِ والأَرْضَ وَمَا فِيهِما وما بينهما، خَلْقًا يَدُلُّ على حِكمَتِهِ وقُدْرَتِهِ ووَحْدانيَّتِهِ، كلُّ شيءٍ فِيهِمَا يَدُلُّ على جَلَالِ الله وعَظَمَتِهِ، فضاءٌ عظيمٌ فوْقَنَا تُسَبِّحُ فيهِ الكواكبُ والنُّجومُ والشُّمُوسُ والأقمارُ بنظامٍ مُحكَمٍ دَقيقٍ لا تجدُ فيه خَلَلًا. قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق ٦]. وأرضٌ مبسوطةٌ تحتَنَا، تكادُ تتكلّمُ فيها الجبالُ والأنهارُ والبِحارُ والأشجارُ والحيواناتُ بعجيبِ تكوينِهَا وصُنْعِهَا. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق ٧-٨].

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يَطُولُ اللّيْلُ ويَقْصُرُ النّهارُ، ويَقصُرُ اللّيْلُ ويَطُولُ النّهارُ، أو يعتدِلانِ. يَجِيءُ اللّيلُ ثمّ يَذْهَبُ وَيَخْلُفُهُ النّهارُ ويَعْقُبُهُ، لا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ لَحْظَةً، لِلَّيْلِ والظّلامِ منافعُه،

وللنّهارِ والضّياءِ كذلك. قَالَ تعالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الحجّ ٦١]، وقال سبحانَه: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس ٤٠].

وحتّى نُدرِكَ قِيمةَ هذه الآيةِ وهذه النِّعمةِ، وكيفَ أنّها تقودُ ذَوي النُّهى إلى التّوحيدِ الحقِّ، تخيَّلوا لو كانت حياتُنا كلُّها ليلًا، أو كلُّها نهارًا. قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [القَصص ٧١-٧٢].

﴿ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ أيضاً آيةٌ من آياتِ الله كيف سخَّرَ البحرَ، ثمّ كيف هيَّأهُ ليحملَ السُّفُنَ التي تجري فيه بأرزاقِ النّاسِ وزياراتِهم وجِهادِهم، يحملُهم وينقلُهم ومكاسِبَهُم وتجاراتِهم.

البحرُ الذي لا يَقْدِرُ أحدُنا على المَشْيِ فيه، سَخَّرَهُ ربُّنا ليَحمِلَ ما تعلمونَ، وسَخَّرَ له الرِّيحَ لتجْرِيَ السُّفُنُ فيه بأَمْرِهِ آيةً ونِعْمَةً.

﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾ آيةٌ عجيبةٌ تكْفِي وحْدَها لتقْذِفَ النُّورَ في قلبِ من ضَلَّ عن الطّريقِ. قال الله تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يس ٣٣ - ٣٦].

يعني: ودَلَالَةٌ وعلامةٌ لهم على وجودِ ربِّنا وقُدْرَتِهِ التّامَّةِ وإحْيائِهِ الموْتى، الأرْضُ المَيْتَةُ الهامدةُ الجافَّةُ التي لا شَيْءَ فيها من النّباتِ، فإذا أنْزَلَ الله عليها الماءَ، أخرجَ مِنها الحبَّ والعُشْبَ والكَلأَ والزَّرْعَ وبساتينَ النَّخيلِ والأعنابِ، وجعلَه رِزْقًا لهم ولأنعامِهم.

﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ ﴾ أيْ: علَى اختِلافِ أَشْكالِها وأَلْوانِها ومَنافِعِها وصِغرِها وكِبَرِها، وهُوَ يَعلَمُ ذلِكَ كُلَّهُ ويَرْزُقُهُ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، كَما قالَ تعالَى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [هُود ٦].

﴿ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾ ومن آياتِه سبحانَه تسخيرُ الرّياحِ وتصريفُها على ما يشاءُ ممّا يعلمُه أهلُ الاختِصاصِ من ذلك، وما يراهُ النّاسُ في أيّامِهم.

الرِّياحُ تارةً تأْتِي بِالرَّحْمَةِ وتارةً تأتِي بِالْعَذابِ، تسوقُ السّحابَ إلى قَدَرِهِ وتُجمِّعُهُ وتُفرِّقُهُ، تأْتِي مِنَ الجُنوبِ ومن الشّمالِ ومن الشّرقِ ومن الغربِ، باردةٌ وحارّةٌ ورَطْبةٌ وجافّةٌ.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ سحابٌ كوّنَه ربُّنا بعدَ إذْ لم يكُنْ، وأمْسَكه وسَيَّرَهُ بينَ السّماءِ والأرضِ، وجعلَه مُسخَّرًا لِمَا ينفعُ النّاسَ، كما أشارَ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف ٥٧] ، وكذا قولُ الله سبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور ٤٣].

﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كلُّ ما ذكَرْنا في هذه الآيةِ وغيرِه، فيه دلائلُ بيِّنةٌ واضحةٌ لأهلِ النُّهى والفِطَرِ السّليمةِ والعُقولِ الصّحيحةِ الرّاسخةِ على وُجودِ الخالقِ العظيمِ ووَحْدانيتِه، وأنَّهُ ربُّ السّماواتِ والأرضِ وما بينَهُما وما فيهِما، وخالِقُ كُلِّ شيْءٍ. قالَ الله تعالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عِمْران ١٩٠-١٩١].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

الآيةُ تَصِفُ عجيبَ حالِ أصنافٍ من النّاسِ، لم يَهتَدُوا ولم يَعْقِلُوا ولم ينْتَفِعُوا بآياتِ الله المذكورةِ، اعترَفُوا بوجودِ الله، ولكنّهم اتّخذوا شُركاءَ مع الله من بَشَرٍ وأصنامٍ وجِنٍّ وكواكبَ، فعَبَدُوهم وسَوَّوْا بينَهُم وبينَ الرَّبِّ جَلَّ وعَلَا أو أكثرُ، أو جعلُوهم شُفعَاءَ وواسِطَةً بينَ الله وبينَهُم، عَبَدُوهُم واتّخذُوهُم أنْدادًا ونُظَراءَ وأمثالًا لله، يتوجّهونَ إليهم في الرّغبةِ والرّهْبةِ، ويسألونَهُم قضاءَ حاجاتِهِم فيما لا يَقْدِرُ عليه إلّا الله، وأَحَبُّوهُم كَحُبِّ الله حتى عَمَرَ ذِكْرُ مَعْبُوداتِهِم حياتَهم وقلوبَهم.

وهذا أمرٌ لا يليقُ بمن يريدُ أنْ ينتفِعَ بتوحيدِه، فإنّ التّوحيدَ لا يُقبلُ منه إلّا ما كانَ خالصًا، ومجرَّدُ محبّةِ الأندادِ والتّعلُّقُ بهم مُنافٍ للتّوحيدِ وإنْ قلَّ، فما بالُكُم إنْ كانَ مُساويًا لِمَحبّةِ الله، وما بالُكُم إنْ كانَ حُبُّهُم

لآلهتِهم كما نُحِبُّ نحنُ ربَّنا. أخرجَ البخاريُّ ومسلمُ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خلَقَكَ».

والآيةُ وإنْ كانت على سبيلِ الإخبارِ عن حالِ هؤلاءِ المُشْرِكِينَ والتَعجُّبِ من حالهِم، لكنّها تحملُ نداءً لكلِّ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ ذَرَّةُ إيمانٍ وخيْرٍ؛ فَرِّغْ قلبَكَ ونَقِّهِ من التَّعَلُّقِ بغيرِ الخَالِقِ، واعْلَم أنَّ النَّفْعَ والضَّرَّ، والحياةَ والموتَ، والبَعْثَ والنُّشُورَ، إنّما هو بيدِ الله وحدَه لا شريكَ له، فأَخْلِصْ دينكَ وعبادَتَكَ له.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ هذا حالُ أهلِ الإيمانِ؛ عَرَفُوا ربَّهُم وعَظَّمُوهُ ووَقرُوهُ ووَحَّدُوهُ، أَحَبُّوهُ فأَطَاعُوهُ ونَبذُوا كلَّ شريكٍ له، توكَّلُوا عليهِ وسَأَلُوهُ حاجَاتِهم وارْتَضَوْهُ إلهًا لَهُم واستَجَابُوا لأَمْرِهِ.

أهلُ الإيمانِ أَشَدُّ حُبًّا لله مِنْ محَبَّةِ أَصْحابِ الأَنْدادِ أَنْدادَهُمْ، وهم يُحِبُّونَ ربَّهُم لذاتِه ولِصِفَاتِ كَمالِه وجمالِهِ، لا لِحُظوظٍ مُجَرَّدَةٍ عن ذلك كما هو حالُ أهلِ الشِّرْكِ.

﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ هذا جزاءُ من اتّخذَ مع الله نِدًّا ومَثِيلًا ونَظِيرًا.

الآيةُ فيهَا تهديدٌ ووَعِيدٌ لهم لعلّهم يرجِعُونَ، يعني: لو يرى هؤلاءِ الذينَ ظَلَمُوا أنْفُسَهُم بالشّرْكِ جَزاءَهُم عندَ ربِّهِم، ولو عَلِمُوا وتأَمَّلُوا ما ينتظرُهم من عذابٍ، ولو عَايَنُوا أرضَ المَحْشَرِ وما ينتظرُهم هناك من أهوالٍ وفظَائعَ لأَيْقَنُوا أنّ القُوَّةَ لله وَحْدَهُ لا شريكَ له، وَأَنَّ جميعَ الأَشْياءِ تحتَ قَهْرِهِ وَغَلَبَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، ولَعلِمُوا كذلكَ أَنَّ الله شَدِيدُ العَذَابِ، كَما قَالَ سبحانَه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ [الفجر ٢٥ - ٢٦]، فأينَ الشُّركاءُ والأَنْدادُ!

وتأمَّلُوا كيفَ وُصِفُوا في الآية بأنّهم ظالمون؛ ظالمونَ لأنّهم اعتدَوْا على حقِّ الله في إخلاصِ العُبُوديَّةِ له، واعتدَوْا على من عَبدُوهُم من دونِ الله، ونَسبُوا إليهم صِفَاتِ الأُلوهيَّة كما فَعلُوا مع الملائكةِ وعيسى ابنِ مريمَ ومع الرِّجالِ الصّالحين من قومِ نوحٍ عليه السّلامُ الذين اتّخذَ أقوامُهُم لهم أصنامًا بعد مَوْتِهم، أقصدُ: وَدًّا وسُوَاعًا ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا، كما وردَ في صحيحِ البُخاريِّ عن ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُما.

بل اعتدَوْا على أنْفُسِهم وعَرَّضُوهَا لِسَخَطِ الله وعَذَابِهِ، واعتدَوْا على ذُرِّيَّاتِهم التي اتَّبَعَتْهُم على ضَلالِهم.

﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾

هذا ممّا يكونُ في يومِ القِيامةِ، هذا ممّا يراهُ الذينَ ظلمُوا في أرضِ المَحْشَرِ وفي النّارِ، لمّا يَرَوْنَ ما أعدَّهُ الله لهم من عذابٍ، يَتَبَرَّأُ رؤوسُ الكُفْرِ وقَادَتُه والدّاعُونَ إليهِ ممّن اتَّبعَهُم وأطاعَهُم في اتِّخاذِهِم أنْدادًا من دونِ الله، يُخْلِفُونَ وُعُودَهُم لهم بالنّجاةِ وبالنَّفْعِ وبالشّفاعةِ.

وهناك وفي تلك اللّحظاتِ: انقطعَتْ عنهُم كلُّ الأسبابِ المُنْجِيَةِ، ولم يكُنْ لهم بُدٌّ من دخولِ النّارِ والتَّقَلُّبِ في دَرَكَاتِها؛ فلا أعمالُهُم تَنْفَعُهُم، ولا شفاعةَ لهم، وآلِهَتُهُم وشياطينُهُم تَبَرَّؤُوا منهُم، حتّى المَحَبَّةُ المزعومةُ بينَهم ظَهَرَ عَوارُهَا، خَابَتْ آمالُهُم وضَلَّ سَعْيُهُم.

يومُ القيامةِ هو يومُ إظهارِ حقيقةِ حُبِّ الظّالمينَ بعضَهُم بعضًا، كانوا في الدّنيا يتَنَاصَرُونَ وتَتَّفِقُ كَلِمَتُهُم على الصَّدِّ عن دينِ الله وإِيْذاءِ أَوْلِيَائِه. تأمَّلُوا حقيقةَ وَلَائِهِم الّذي يُحْزِنُنا ويُتْعِبُنا، والذي جاءَ في قولِ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سَبأ ٣١-٣٣].

في الدّنيا عبَدُوا غيرَ الله وعَظَّمُوهُ كتعظيمِ الله جلَّ وعَلَا، أرادَ المجرمونَ بذلكَ العِزَّةَ والغَلَبَةَ والمَكانَةَ العاليةَ، ولكنَّ الله تعالى أخبرَ عن خيبتِهم، وقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مَرْيَم ٨١-٨٢]، وقالَ إبراهيمُ عليهِ السّلامُ لقومِه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العَنكَبوتِ ٢٥].

حتّى إنّ الشّيطانَ الذي أطاعوه، يتبرّأُ منهم. قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم ٢٢].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

في هذا اليومِ يقولُ التّابِعُونَ المُقلِّدُونَ لأَسيادِهِم في الكُفرِ وقادتِهِم: لَوْ أَنَّ لنا عَوْدةً إلى الدَّارِ الدُّنْيا، حَتَّى نَتبرَّأَ مِنْ هَؤُلاءِ وَمِنْ عِبادَتِهِمْ وننتقِمَ منهُم كما فعَلُوا بنا، فنكونَ من أهلِ الاستقامةِ والتّوحيدِ. وربُّنا أخبرَ أنّهم كاذبونَ في دَعْواهُم، كما في قولِهِ: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام ٢٨] .

﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ذهبت أعمالُهُم التي ظَنُّوها نافعةً، وصارَتْ حسراتٍ عليهِم ونَدَمًا وشَقاءً وحُزْنًا وسَبَبًا لخلودِهِم في جهنّمَ، فلا رَجْعَةَ إلى الدّنيا. أيُّ عذابٍ نَفْسانِيٍّ هذا يُضافُ إلى ما هم فيه. قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفُرْقانِ ٢٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾

لم يَقْتَصِرْ صَناديدُ وقادةُ أهلِ الشّركِ على صَرْفِ أَتْباعِهِم عن تعظيمِ اللهِ وعِبادَتِه كما شَرَعَ، بل شَرَعُوا لهم أحكامًا، كان منها تحريمُ لطَيِّباتٍ أحلَّها اللهُ لهم فيما يَتعلَّقُ بأَكْلِهِم.

هنا نداءٌ لهم ولكلِّ النّاسِ بعدَ أنْ بَيَّنَ لهم أنّه لا إله إلا هو، نداءٌ فيه امْتِنانٌ بما أَنْعمَ عليهِم في هذه الأرضِ، نِعَمٌ ومِنَنٌ تُذكِّرُ الخَلْقَ بِخالِقِهِم، كُلُوا من رِزْقِ اللهِ تعالى الذي أَكْرَمَكُم به ممّا في الأرضِ، ممّا أَباحَه اللهُ لكُم ممّا لا يَضُرُّ أَبْدانَكُم أوْ عُقُولَكُم.

واحْذَرُوا اتباعَ خُطُواتِ الشّيطانِ وطَرَائِقَهُ وحِيلَهُ في إيْقَاعِكُم في المعاصِي، واحْذَرُوا مَسَالِكَهُ في إِيْقَاعِكُم في الكُفْرِ والشّركِ، إنّه عدوٌّ لكم ظاهرٌ بيِّنٌ، تَعَهَّدَ بإِضْلالِكُم ما استطاعَ إلى ذلك سبيلًا.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩﴾

أَيْ: إِنَّما يَأْمُرُكُمْ عَدُوُّكُمُ الشَّيْطَانُ بِالْأَفْعَالِ السَّيِّئَةِ من شربِ الخمرِ والقتلِ ونحوِهِما، ويأمُرُكُم بالفُحْشِ والرّذيلةِ من الزِّنا وَنَحْوِه، ويأمُرُكُم ويُرْشِدُكُم إلى أنْ تَتَقَوَّلُوا على الله وتكذِبُوا عليهِ وعلى دِينِهِ وشَرْعِهِ، فتَنْسِبُوا له ولِدِينِهِ ما لا يليقُ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾

بيانٌ لحُجَّةٍ من حُجَجِ أهلِ الشّركِ الواهِيَةِ في إصْرارِهِمْ على ما هُمْ عليهِ من الضّلالِ، وهذا البيانُ فيهِ ذَمٌّ لِحالِهم ومَقالِهم، وفيه إنْكارٌ عليهم جَهْلَهُم وعِنادَهُم. هؤلاءِ: إذا دُعُوْا إلى تركِ ما هم فيهِ من الجَهْلِ والهَوَى واتّخاذِ الأَنْدادِ مع الله، وإذا دُعُوْا إلى اتّباعِ هُدَى الله فيما أنْزَلَه من الكتابِ على رسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُعمِلُوا عُقُولَهُم ولم يتأَمّلُوا أو يتدبَّرُوا، وقالوا في جوابِ ذلك: إنّا وَجَدْنا آباءَنا على حالٍ، لا نُبَدِّلُه ولا نُغَيِّرُه، فإنّا قد أَلِفْنا عقيدَتَهم وعِبادَتَهم، كما في قولِ الله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف ٢٢].

والآيَةُ وإنْ كانَتْ في سياقِ الإخبارِ عن الذين كفرُوا، لكن مثلَ هذهِ الطّريقةِ في التّفكيرِ لا يَسْلَمُ منها كثيرٌ من عُصَاةِ المسلمين، ممّن يُصِرُّونَ على الذُّنُوبِ والمعاصِي ويُجاهِرُونَ بها محتّجينَ بما عَهِدُوا وأَلِفُوا عليه آباءَهُم وأُمّهاتِهم.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ كيف يَقْتَدُونَ بآبائِهم الذين صَنَعُوا آلِهَتَهُم ثمّ عَبَدُوهَا، الذين اتّخذوا البَشَرَ والحَجَرَ معبوداتٍ من دونِ ربِّ العِزَّةِ، وهي لا تملكُ لنفسِها ضَرًّا ولا نَفْعًا، فَضْلًا عن أنْ تَمْلِكَهُ لِغَيْرِهَا. أمثالُهُم لا يُقْتَدَى بهم؛ فإنّهم لا يُدْرِكُونَ الأمورَ على حَقَائِقِها، وليسَ لهُم فهْمٌ يستَنِيرون به، ولا يهتدونَ إلى طريقِ الاستقامةِ والنّجاةِ.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾

هذا مثلٌ يَضْرِبُه ربُّنا لهم ولحالهم في تقليدِ آبائِهم في شِرْكِهم وضَلالِهم وجَهْلِهم، يقول: مَثَلُهُم في ذلك كَمَثَلِ الأنعامِ والدَّوابِّ السّارحةِ التي يَنْعِقُ ويَصِيحُ ويُنادِي بها صَاحِبُها، وهي لا تَفْقَهُ ولا تَفْهَمُ ما يُقالُ لها، بَلْ إِنَّمَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ وصِياحَه عليها فقط. وهكذا هم سمعوا نِداءاتِ آبائِهم، وكَبُرُوا على عَقائِدِهِم وشِرْكِهِم، فاتّبَعُوا دُونَ أنْ يفهَمُوا، قَلَّدُوا ولم يختارُوا طريقَ التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ، مع أنّ دِينَ الآباءِ يُخَالِفُ العَقْلَ الصّحيحَ والفِطْرَةَ السّليمَةَ.

﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ طريقُ المشركينَ الذي اختاروه وارْتَضَوْهُ لأنْفُسِهِم، يدلُّ على أنّهم صُمٌّ لا يسمعونَ الحَقَّ، بُكْمٌ أي: خُرْسٌ لا ينطِقُونَ بالحَقِّ، عُمْيٌ عَنْ طريقِ الهُدَى والفَلاحِ، وكذلكَ عَطَّلُوا عُقولَهم وأقْفَلُوهَا على باطِلِهِم. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام ٣٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾

قبل عددٍ من الآياتِ كانَ ثَمَّةَ توبيخٌ لأهْلِ الشِّرْكِ عَلى ما حَرَّمُوهُ على أَنْفُسِهِم من الطّيباتِ بعدَ أنْ اتّبَعُوا خُطُواتِ الشّيطانِ في ذلك. جاءَتْ الآيةُ هنا لتُحَذِّرَ أهلَ التّوحيدِ من تقليدِهِم في ذلك، ولتُذَكِّرَهُم بمِنَّةِ الله عليهِم وبِمَا رَزَقَهُم من الطّيباتِ، وبِمَا أُحِلَّ لهم منها، وبما يلزَمُهُم من إحسانِ شُكْرِ الله عليها، واتّباعِ أمرِ الله ونَهْيِهِ فيها، لتكونَ عُبودِيّتُهُم على الوَجْهِ الحَقِّ الذي يُحِبُّهُ ربُّنا ويَرْضاهُ. جاءَ النّداءُ للمُؤْمنينَ؛ فإنّهم أهلُ لِفَهْمِ كلامِ الله وسُرْعَةِ الاستِجابةِ له بخلافِ أهلِ الغَفْلَةِ.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾

لَـمَّا امْتَنَّ تَعالَى على عِبادِهِ المؤمنينَ بِرِزْقِهِ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى الْأَكْلِ مِنْ طَيِّبِهِ، بَيَّنَ لهم ما حَرَّمَ عليهم من الأَطْعِمَةِ، وهو قليلٌ، فيَبْقَى غيرُ المذكورِ هُنا على أصلِ الإباحةِ.

حرَّمَ الله عليهِم: ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ وهيَ كلُّ حيوانٍ ماتَ من غيرِ ذَكَاةٍ (ذَبْحٍ شَرْعِيٍّ) ولا اصْطِيادٍ، وإنّما ماتَ حَتْفَ أَنْفِهِ. حَرَّمَ الإسلامُ أكلَ المَيْتَةِ لِمَا فيها من مَضَرَّةٍ ناشئةٍ من الدَّمِ المُحْتَقِنِ البَاقِي فيها، وَلِأَنَّ الحَيْوَانَ المَيِّتَ لَا يُدْرَى غالِبًا مِقْدارُ ما مَضَى عَلَيْهِ فِي حَالَةِ المَوْتِ، فَرُبَّما مَضَتْ مُدَّةٌ أَفْسَدَتْ لَحْمَهُ.

ولم يُسْتَثْنَى من تحريمِ المَيْتَةِ إلّا مَيْتَةُ البَحْرِ من السّمَكِ ونَحْوِهِ وكذلك أُبيحَ أكلُ مَيْتَةِ الجَرادِ. أخرجَ أحمدُ وأصحابُ السُّنَنِ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ قالَ: سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»، وأخرجَ أحمدُ وابنُ ماجه عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُما، قال: «أُحِلَّ لَنا مَيْتَتانِ ودَمانِ، فأمّا المَيْتَتانِ فالحُوتُ والجَرادُ، وأمّا الدَّمانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ». وله حكم المرفوع.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ جاءَ تقييدُه بالمَسْفُوحِ في قَوْلِ الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمٗا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام ١٤٥]. ورجسٌ، أي نَجَسٌ، فيَحْرُمُ أَكْلُهُ وشُرْبُهُ ويَجِبُ التَّطَهُّرُ منه.

والدَّمُ المسفوحُ هو المُهْرَاقُ الذي يسيلُ من عُروقِ الحيوانِ عندَ قَطْعِ العِرْقِ أو ذَبْحِهِ. وضَرَرُ هذا الدَّمِ نَصَّ عليه غيرُ واحدٍ من أهلِ التَّخَصُّصِ ولِذَا حَرَّمَهُ الإسلامُ. وذَكَرْنا قبلَ قليلٍ في أَثَرِ ابنِ عُمَرَ استثناءَ الكَبِدِ والطِّحَالِ من حُرْمَةِ الدَّمِ.

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ التّنفير من الخنزير معهودٌ ومعلومٌ في الشّرعِ، وفيه ما أخرجه مسلمٌ عنْ سُلَيْمانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ، فَكَأَنَّما صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ». والنَّرْدَشِيرُ يعني النَّرْدَ، وهيَ لُعْبَةٌ تَعتمدُ على الحَظِّ، ذاتُ صندوقٍ وحجارةٍ وزَهْرَين، وتَنْتَقِلُ فيها الحِجارةُ حَسْبَما يأتِي به الزَّهْرانِ، وتُعْرَفُ اليومَ بـ«الطَّاوِلَة»، وتَحريمُها لِمَا فِيها من مَلْهاةٍ عن الخيرِ، وارْتباطِها بالقِمارِ غالبًا، وإِحْداثِها الشَّحْناءَ بين قلوبِ لاعِبِيها.

تأمّلوا كيفَ صُوِّرَ قُبْحُ ذلك، بمن وَضَعَ يَدَيْهِ بلحمِ الخنزيرِ ودَمِهِ وتَلَوَّثَ بالنّجاسةِ، تنْفيرًا منها وتحْذيرًا.

وجمهورُ الفُقَهَاءِ على نجاسةِ لحمِ الخنزيرِ وشَحْمِهِ وشَعْرِهِ وكلِّ أجزائِه، خلافًا للمالكيّةِ الذين أَجازُوا الانتفاعَ بِشَعْرِ الخنزيرِ؛ لأنّ النَّصَّ إنما جاءَ في لَحْمِهِ.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ الْإِهْلَالُ: الجَهْرُ بالصَّوْتِ. كَانُ أهلُ الجَاهليَّةِ إِذَا ذَبَحُوا قُربانًا من الأنعام لِلْأَصْنَامِ نَادَوْا عَلَيْهَا بِاسْمِ الصَّنَمِ، فَقَالُوا: بِاسْمِ اللَّاتِ، بِاسْمِ الْعُزَّى.

اللهُ أَوْجَبَ أَنْ تُذْبَحَ مَخْلُوقَاتُهُ عَلَى اسْمِهِ الْعَظِيمِ، فَمَتَى عُدِلَ بِهَا عَنْ ذَلِكَ، وَذُكِرَ عَلَيْهَا اسْمُ غَيْرِهِ مِنْ صَنَمٍ أَوْ طَاغُوتٍ أَوْ وَثَنٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَإِنَّهَا تَحْرُمُ بِالْإِجْمَاعِ، فقدْ أصبحَت من شعاراتِ أهلِ الشّركِ والكفرِ.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ جاءتْ الآيةُ بتحريمِ الأكلِ من المذكوراتِ في حالِ الاختيارِ، ولكن قد يقعُ الإنسانُ في الضُّرِّ، فلا يجدُ ما يأكلُ إلّا ما ذكرت الآيةُ هنا، حتّى يخْشَى الهَلاكَ على نفسِه، وقد يُكْرَهُ على الأكلِ من لَحْمِ الخِنزيرِ بغيرِ اختيارِه، ففي مثلِ هذا الحالِ: رُفِعَ الحَرَجُ عنه وجازَ له الأكلُ غيرَ باغٍ ولا عادٍ، أي: لا يتجاوزُ عددَ اللُّقْماتِ التي يحتاجُها ليُقِيمَ صُلْبَه ويَنْشَط؛ لأنّ الضّرورةَ تُقدَّرُ بِقدْرِهَا.

بل إنَّ من استطاعَ أنْ يُنقِذَ حياتَه بشيءٍ من هذه المحرّماتِ فامتنعَ؛ فهو بحُكْمِ قاتلِ نفسِهِ عندَ كثيرٍ من الفُقَهاءِ؛ لأنّ الأكلَ في هذه الحالِ عزيمةٌ لا رُخْصَةٌ، وهذا من رحمةِ الله تعالى بالإنسانِ كما جاءَ في خِتامِ الآيةِ، فَضْلًا عن كَرَمِهِ بغُفرانِ ذَنْبٍ من أَكَلَ ما حَرَّمَ الله حالَ الحاجةِ أو الضّرورةِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾

بعدَ بيانِ حالِ أهلِ الشّركِ الذين عَبَدُوا الأصنامَ وتمسّكوا بِدِينِ آبائِهم، استَطْرَدَتْ آياتُ كتابِ الله في بيانِ حالِ اليهودِ والنّصارى، الذين كَتَمُوا وجَحَدُوا وحَرَّفُوا دلائِلَ صِدْقِ نبيِّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كُتُبِهم، واشْتَرَوْا ببيانِ الحقِّ ثمنًا قليلًا، أي: خافُوا أنْ يَتَّبِعَ النّاسُ محمّدًا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتذهبَ وتزولَ رِياسَتُهُم وقِيادَتُهم لمن حولَهم، فإنّ أكثرَ ما جعلَ بني إسرائيلَ يُعْرِضُونَ عن آياتِ القرآنِ حُبُّ الدّنيا واستبقاءُ سيادَتِهم فيها.

والسّياقُ الذي نحنُ فيه، وإنْ كان يُخبرُ عمّا فَعلَهُ بنو إسرائيلَ، لعلّ مَنْ نزَلَتْ عليهم الآياتُ وسَمِعُوهَا منهُم أنْ يَرْشُدُوا ويَهْتَدُوا، لكنّها تعني الكثيرَ لنا نحنُ معاشرَ المسلمينَ عمومًا، والعلماءَ وطلبةَ العلمِ خصوصًا؛ الآياتُ ترشدُنا ألّا نَكْتُمَ شيئًا من دينِ الله، ولا نشتريَ به ثمنًا قليلاً من مَنْصَبٍ أو مالٍ أو جاهٍ، لئلّا يصيبَنا ما أصابَهم.

هؤلاءِ خابُوا وخَسِرُوا في الدّنيا أوّلًا؛ فقد أظهرَ الله دينَه الحقَّ في الأرضِ، ودَانَتْ مشارقُ الأرضِ ومغاربُها لهذا الدّينِ، ودخلَ النّاسُ فيهِ أفواجًا أفواجًا.

وأمّا حالُهم في الآخرةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: يومَ القيامةِ لهم نارٌ تَأَجَّجُ وتشتعلُ في بطونِهم، كما أنّهم كتمُوا الحقَّ وكتبُوا الكتابَ بأيديهم، ولبّسُوا على النّاسِ دينَهُم، وأخذُوا على ذلك الرِّشْوةَ والمالَ الحرامَ، وأكلُوا أموالَ النّاسِ بالباطلِ.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ومن عقوبةِ الله لهم، ومن سَخَطِهِ عليهم، أنّه لا يكلّمُهم كلامَ تكريمٍ ورِفْعَةٍ. ولا يزكّيهم، أي: ولا يطهّرُهُم من ذُنوبِهم، ولا يمدحُهم ويُثْنِي عليهم، بَلْ يُعذِّبُهُمْ عذَابًا فيه الألمُ الشّديدُ والمَهانةُ والذّلّةُ والذّمُّ والتّوبِيخُ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾

هذا سَببُ انْغِماسِهِم في عَذابِ النّارِ؛ ترَكُوا الهُدَى والحقَّ، وسلكُوا طريقَ الضّلالِ والكذبِ، واشترَوْا الكُفْرَ بالإِيمانِ، واسْتَحبُّوا العَمى عَلَى الهُدَى.

هؤلاءِ: كَتمُوا شيئًا من دينِ الله وحرَّفُوه، ولَزِمَ من كِتْمانِهم هذا ضياعُ الحقِّ وتحكيمُ الباطلِ، وضلالُ النّاسِ، فكانَ عذابُ الله لهم بالمِرْصادِ بكُفْرِهِم.

﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ كلُّ ما فَعلُوهُ كان عن عَمْدٍ وعِلْمٍ بِسُوءِ العاقبةِ، فما أصْبَرَهُم على النّارِ، أي: ما أصْبَرَهُم على فِعْلِ ما يُوجِبُ دُخولَهُم النّارَ، يعني: عندَهم جَلَدٌ وثباتٌ عجيبٌ على باطِلِهم الذي يُخلّدُهُم في العذابِ.

ومن أهلِ العلمِ من قال: يتعجّبُ مَنْ رآهُم في النّارِ، كيفَ يَصْبِرُونَ ويحتمّلونَ كلَّ هذا النّكالِ والعذابِ.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦ ﴾

اسْتَحقُّوا هَذَا الْعَذَابَ الشَّدِيدَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالَى أَنْزَلَ كُتُبَه عليهم بالحَقِّ، وببيانٍ واضحٍ جَلِيٍّ لما يُحِبُّه ويرضى عنه، ولكنّهم حرَّفُوا وخَالَفُوا وجَحَدُوا بعضَهَا، وحَصَلَ بينَهم خلافٌ فيهَا، فعاقَبَهُم ربُّنا بأنْ جعلَ الخِلافَ والشّقاقَ والتّنَازُعَ بينهم إلى أنْ يرِثَ اللهُ الأرضَ وما عليها.

فَلْيَحْذَرِ الصّادقونَ من هذه الأمّةِ أنْ يفعَلُوا فِعالَهُم، فيُصيبَهُم ما أصابَهُم.

﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾

جاءَ أمرُ اللهِ بتحويلِ القِبْلَةِ من المسجدِ الأقصَى إلى المسجدِ الحرام، فشَقَّ ذلكَ على بعضِ المسلمينَ ممّا وَجَدُوهُ من أهلِ الكتابِ والمشركينَ، الذين وَجَدُوا في ذلك طريقًا للغَمْزِ واللّمْزِ والطَّعْنِ في دينِ اللهِ.

أهلُ الكتابِ زَعمُوا أنّ المسلمينَ لمّا تحوَّلُوا من قِبْلَةِ أهلِ الكتابِ إلى مكّةَ أضاعُوا طريقَ الاستقامةِ والبِرِّ والطّاعةِ.

جاءَتْ الآيَةُ هنا لتَنْقُلَ من يسمعُها من الأخذِ بظاهِرِ الأَمْرِ إلى حقيقتِه، جاءَتْ تبيِّنُ حقيقةَ العُبُوديَّةِ التي لا ينفعُ غيرُها، عبوديةٌ تقومُ على عقيدةٍ صلبةٍ، وأحكامٍ شرعيّةٍ مَتِينَةٍ، وأخلاقٍ تُسعِدُ أهلَها.

الآيَةُ تعلّمُ عمومَ النّاسِ البرَّ الذي يريدُه ربُّنا من تحويلِ القِبْلَةِ، حتّى لا يَقِفُوا مع التزامِ الجِهَةِ في صَلاتِهم فحَسْب، جاءَتْ الآيَةُ تُثبِّتُ المسلمينَ على استجابَتِهم لأمرِ اللهِ، وسُرْعَتِهم ومُسابَقَتِهم في ذلك مع الحُبِّ والتّعظيمِ.

هنا في هذه الآيةِ مَعانٍ يَجْدُرُ بِنا أنْ نتوقّفَ ونعيشَ معَهَا؛ فإنّ من اتّصفَ بها فيها من إيمانٍ وعَملٍ، كان ممّن أَخذَ بمجامعِ الخيرِ كلِّه، ونالَ سعادةَ الدّارَيْنِ، فتأمّلُوا:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ هذا هوَ المرادُ من تحويلِ القِبْلَةِ؛ تحقيقُ التّقوى والبرِّ والطّاعةِ والامتثالِ والاستسلام لأمرِ الله تعالى، كما قال الله تعالى عن هَدْيِ الحجِّ والأضحيةِ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحَجِّ ٣٧].

والبرُّ هذا لا يكونُ ولا يَصِلُ إليه العبدُ إلا بالإيمانِ بالله ربًّا وإلهًا، والإيمانِ بما أَمَرَنا أنْ نُؤمِنَ به؛ نُؤمِنُ باليومِ الآخرِ وما فيه من بَعْثٍ وحِسابٍ وجزاءٍ، ونؤمِنُ بالملائكةِ وما عَلِمْنَا من صِفاتِهِم ووظائِفِهم، ونؤمنُ بالكُتُبِ كلِّها وبآخِرِها والمهَيمِنِ عليها القرآنِ الكريمِ، وكذا النبيِّينَ المبَلِّغينَ عن الله تعالى بما أُوْحِيَ إليهِم. كأنّ الآيَةَ تقول: لا تنْظُرُوا إلى الأمرِ بتحويلِ القِبْلَةِ مجرّدًا عن حقيقةِ هذا الدِّينِ، وما يريدُه ربُّنَا من خَلْقِ وإيجادِ العالَمِين، من التَّعرُّفِ إليهِ وتثبيتِ طاعتِه في قلوبِهم.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ ومن حقيقةِ البرِّ وتَمامِه أنْ يتَصدَّقَ مَنْ آتاهُ الله مالًا من مالِه، يتَصدَّقُ بجزءٍ من مالِه على شِدَّةِ حُبِّهِ وتَعلُّقِهِ به، كما قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإِنْسانِ ٨-٩]، فالإنسانُ بطَبْعِهِ يحبُّ المالَ ويحبُّ أنْ يزيدَ عندَه ولا ينقُصَ، ويَظُنُّ أنّ صدَقتَه تُنقِصُ مالَه، لكن الشّرعَ علّمَنا أنّ التّجارةَ مع الله خيرُ تجارةٍ، وأعظمُ سببٍ لزيادةِ المالِ حقيقةً وبالبرَكَةِ. أخرجَ التّرمذيُّ وأحمدُ وغيرُهُما، أنّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ».

وحتّى تكتملَ صورةُ الإنفاقِ مع حُبِّ المالِ، تأمّلُوا قولَ الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آلِ عِمْرانَ ٩٢]، وقَوْلَهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحَشْرِ ٩] (خصاصةٌ: يعني حاجة)، وتأمّلُوا ما أخرجَه البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يا رَسُولَ الله، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ (شدَّة البُخل والإمساك) تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلَا تُمْهِلَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ».

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وَهُمْ: قَرَابَاتُ المُنْفِقِ من جِهَةِ أبيهِ وأُمِّهِ. هؤلاءِ هُمْ أَوْلَى مَنْ يُعطَوْنَ من

الصّدقاتِ، وهم أَوْلَى النّاسِ ببرِّكَ وإكرامِكَ حتّى لو كانوا أغنياءَ. والوصيّةُ بهم كَثُرَتْ في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ فإنّهم أقربُ النّاسِ إليكَ وعداوتُهم صعبةٌ مُضْنِيَةٌ مُتْعِبَةٌ. أخرجَ التّرمذيُّ وأحمدُ وغيرُهُما عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ الضَّبِّيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صدقةٌ وصِلَةٌ»، وأخرجَ التّرمذيُّ وأحمدُ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّدَقَاتِ، أَيُّهَا أَفْضَلُ؟ قَالَ: «عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ (أي المُبْغِضِ المُعَادِي)».

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ هؤلاءِ ماتَ آباؤُهُم وهم صِغارٌ لم يبلغُوا الحُلُمَ، وغالِبُ حالِهِم أنّهم لا كَسْبَ لهم ولا مالَ. أخرجَ البخاريُّ عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا»، وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ فِي طعامِهِم ولِباسِهِم وَسُكْنَاهُمْ، وغالبُ حالِهِم السَّتْرُ وعَدَمُ سؤالِ النّاسِ، فَيُعْطَوْنَ مَا تُسَدُّ بِهِ حَاجَتُهُمْ وَخَلَّتُهُمْ. جاءَ في الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بهذا الطَّوَّافِ الذي تردُّه التّمرةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ».

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافرُ المنقطعُ عن أهلِهِ ولا نَفَقَةَ معَه، تُكرِم ضيافتَه وتُعينُه حتّى يرجعَ إلى بلدِه وأهلِه.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الفقراءُ الذين يتعرّضونَ لصاحبِ المالِ ويطلبون مساعدتَه بمالِه، فيُعْطَوْنَ من الزّكَواتِ والصّدقاتِ إن علِمْتَ أو غلبَ على ظنِّكَ حاجتُهُم.

والأصلُ أنّ الإسلامَ أرشَدَنا إلى العملِ والإنفاقِ على النّفسِ والأهلِ، ومَنَعَ سُؤالَ النّاسِ دونَ حاجةٍ، وأجازَها عندَ الحاجةِ، كما دلَّ على ذلك ما أخرجه الإمامُ مسلمٌ عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً (أي: تداينْتُ أو كفلْتُ مَدِينًا للإصلاحِ بين النّاسِ)، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ (أي: آفةٌ أصابت ثمارَهُ ومالَه فأهلكَتْه)، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ (أي: حاجة شديدة عرفها قومه عنه) حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ؛ فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا».

وجاءَ كذلك في حقِّ من يسألُ النّاسَ ليُكَثِّرَ مالَه دونَ حاجةٍ، حديثٌ أخرجَه مسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا؛ فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ».

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ هم العبيدُ، فقدْ رغَّبَ الإسلامُ في عِتْقِهم، ودَفْعِ المالِ لأسيادِهم في ذلك، كما جاءَ عندَ مسلمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ».

ومن العلماءِ من حَمَلَ الإعانةَ هنا على العبدِ المُكَاتَبِ فقط، وقَصَرَ عليهِ مَصْرِفَ الزّكَاةِ. والمُكَاتَبُ هو العبدُ الذي اتّفقَ مع سيّدِه على أنْ يعملَ ويدْفَعَ له مبلغًا معيَّنًا من المالِ مُقَسَّطًا، فإذا دفعَه صارَ حُرًّا، وإليهم أشارَ قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ [النور ٣٣].

ومن أهلِ العلمِ من ألحقَ بَذْلَ المالِ لتحريرِ الأسْرَى، بِفَكِّ الرِّقابِ وعِتْقِها.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وبرُّ العَبْدِ وطاعتُه لله لا تكونُ إلا بأداءِ ما افترضَ الله عليه، من أداءِ الصّلاةِ في أوقاتِها بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَطُمَأْنِينَتِهَا وَخُشُوعِهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ المَرْضِيِّ، وآتى الزّكاةَ بشَرائِطِهَا لِمَصارِفِهَا المستحِقَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ المَرْضِيِّ.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ﴾ إذا عاهَدُوا وواعَدُوا غيرَهُم، بادَرُوا وسَارَعُوا للوفاءِ بعَهْدِهِم، ولم يكْذِبُوا أو يخُونُوا.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ ومن علاماتِ البرِّ ومَظاهِرِه حَبْسُ النّفسِ عن التَّسَخُّطِ على القَدَرِ، وبَذْلُ الخيرِ والمعروفِ في جميعِ الأحوالِ.

المؤمنُ الحقُّ يَصْبِرُ إذا أصابَه بُؤْسٌ من فَقْرٍ ونحوِه، أو أصابَه ضُرٌّ من مرضٍ وبلاءٍ وشِدَّةٍ ونحوِ ذلك، أو لَقِيَ أعداءَ الله في الجهادِ في سبيلِه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الَّذِينَ

صَدَقوا في إيمانِهِمْ وبِرِّهِم وطاعَتِهِم؛ فإنّهم تمثَّلُوا الإيمانَ اعتقادًا وقولًا وعملًا، بخلافِ أهلِ الكتابِ فإنّهم كَفَرُوا بعَدَدٍ من الكُتُبِ والرُّسُلِ، وبخلافِ المشركين الذين كذَّبُوا بالكُتُبِ وبالرُّسُلِ واليومِ الآخِرِ، وبخلافِ من يزعُمُ الإيمانَ، ولا يقومُ بشيءٍ من حُقُوقِه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ الذين جَعَلُوا بينَهُم وبينَ الشّهواتِ والذُّنوبِ سَدًّا وحاجزًا، وأَقْبَلُوا على الطّاعةِ مستسلمينَ لأمرِ الله رَاضِيْنَ به مُحِبِّينَ له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾

سياقٌ قرآنيٌّ ممتدٌّ في توجيهاتٍ تحفظُ على النّاسِ ضروريّاتِ حياتِهم وحاجاتِهم، تحفظُ أنفُسَهم وأموالَهم، عِلْمًا أنّ هذه التوجيهاتِ نزلَتْ والعربُ حُدَثَاءُ عهدٍ بالجاهليّةِ، ونَزَلَتْ زمنَ قَتْلِ بعضِهِم بعضًا، وانتشارِ عادةِ الثّأرِ من القاتلِ بقَتْلِ أفضلِ أهلِ قَبيلَتِه، وقَتْلِ الاثنيْنِ والثّلاثةِ بالمقتولِ، وزَمَنَ ذَهابِ القِصاصِ وعدمِ الأخذِ به إنْ كان المقتولُ ضعيفًا.

هنا نداءٌ ربّانيٌّ صُدِّرَ وابتُدِئَ بخِطَابِ أهلِ الإيمانِ، فإنّ الأمرَ القَادمَ في الآيةِ يحتاجُ إلى إيمانٍ حقٍّ في كلّ مرحلةٍ من مراحِلِه.

الآيةُ تُعطِي وَلِيَّ الدَّمِ حقَّ طَلَبِ القِصاصِ في القتلِ العَمْدِ، سواءً كان بين الرّجالِ أم بين النّساءِ، أقوياءَ كانوا أو ضُعَفَاءَ، وكذا يجري القصاص بين العَبِيدِ، وإنْ كانَ القاتل عبداً عند سيِّدٍ أو ملكٍ أو أميرٍ.

والقاتلُ في القِصاصِ هو الذي يُقتَل وليس غيرُه، فلا يجوزُ المُجاوَزَةُ في ذلك أو الاعتداء؛ فإن قَتَلَ حُرٌّ حُرًّا متعمِّدًا قُتل به، وكذا لو قَتَلَ العبدُ عبدًا أو الأنثى أنثى.

ولا يُفهَمُ من الآيةِ أنّ الرَّجُلَ لا يُقتَلُ بالمرأةِ أو العكسُ، بل يُقْتَلُ الرّجلُ بالمرأةِ عندَ جماهيرِ الفُقَهاءِ، وكذا المرأةُ بالرّجلِ بالإجماع.

وقد حصلَ خلافٌ بين أهلِ العلمِ في قَتْلِ الحُرِّ بالعَبْدِ، يعني لو قَتَلَ حُرٌّ عبْدًا، هل يُقْتَصُّ منه؟ عند الحنفيّةِ: نعم؛ لعمومِ قولِ الله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة ٤٥]، أما الجمهورُ فلا يُقتَلُ عندَهُم الحُرُّ بالعَبْدِ مع التّأكيدِ على تحريمِ ذلك، لحديثٍ أخرجه أبو داودَ والدّارميُّ، وفي إسنادِه كلامٌ،

جاءَ فيه: «لا يُقتَلُ حُرٌّ بعَبْدٍ»، ولوجودِ آثارٍ عن الصّحابةِ في ذلك، ولأنّ المُكافَأةَ لا تتحقّقُ بين الحُرِّ والعَبْدِ.

وكذا حصلَ خلافٌ في قَتْلِ المسلمِ بالكافرِ؛ فعندَ أبي حنيفةَ: يُقتلُ المسلمُ إذا قَتل مُعاهَدًا أو ذِمّيًّا أو مُستأْمَنًا، أمّا إذا قتلَ كافرًا حربيًّا فلا يُقتل به. أما الجمهورُ، فلا يُقتَلُ عندَهم المسلمُ بالكافرِ؛ لَما ثبَتَ فِي الْبُخَارِيِّ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ».

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ لأنّ الشريعةَ الإسلاميّةَ تتشوّفُ وتَتشوَّقُ لإحياءِ النّفوسِ، فقد أَذِنَتْ لأولياءِ المقتولِ في العَفْوِ عن القاتلِ إلى الدِّيَةِ أوْ إلى لا شيءٍ، ورَغَّبَتْهُم في ذلكَ إلّا إذا حصلَ ضَرَرٌ بهذا العَفْوِ؛ كأنْ يعودَ القاتلُ لقَتْلِ آخرين.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة ٤٥]، وأخرجَ أبو داود والنَّسائيُّ وغيرُهُما عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: «مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُفِعَ إِلَيْهِ شَيْءٌ فِيهِ قِصَاصٌ، إِلَّا أَمَرَ فِيهِ بِالْعَفْوِ». ولعلّكُم لو تأَمَّلْتُم عَظَمَةَ كلمةِ أخيهِ هنا في الآيةِ، لأدْرَكْتُم قِيمةَ العَفْوِ وفَضْلَه، وكيفَ أنّ الإسلامَ دِينُ أُلْفَةٍ ومحَبّةٍ وتجاوُزٍ وتَسامُحٍ، فالأُخُوَّةُ المقصودةُ هنا في الآية هي بين القاتلِ ووَلِيِّ الدَّمِ، مع أنّ وَلِيَّ الدَّمِ غالبًا لا يَشْفِي غَيْظَهُ وحَنَقَهُ إلّا القِصَاصُ، ولكن تبْقَى مساحةُ الأُخُوَّةِ في الإسلامِ شافعةٌ في حالاتٍ كثيرةٍ، وهذا يدلُّ على أنّ القاتلَ مسلمٌ وإنْ فعَلَ كبيرةً من كبائرِ الدِّينِ ما لم يَسْتَحِلَّهَا.

والدِّيَةُ الشّرعيّةُ حالَ القَتْلِ شِبْهِ العَمْدِ أوالخطأِ، مقدارُها مائةٌ من الإِبِلِ بنَصِّ حديثِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفِعْلِه. أمّا في القَتْلِ العَمْدِ فَلِأَوْلياءِ المقتولِ أنْ يقبَلُوا بالدِّيَةِ الشّرعيّةِ، ولهم أنْ يُصالِحُوا على أقلَّ من ذلك أو أكثرَ، وإنْ كانت لَفْظَتَا «شيء» و«عُفِي» تُوحِيَانِ بأنّ المبذولَ قليلٌ، وفيه تيسيرٌ.

الآيةُ هنا فيها توجيهٌ نفيسٌ لأولياءِ الدّمِ وللقاتلِ العَمْدِ الذي تكون الدِّيَةُ في ماله، لا في مالِ أقَاربه وعاقِلَتِه، وفيها إرشادٌ إلى أنّه حالَ العَفْوِ عن القِصاصِ إلى الدِّيَةِ، فعلى أولياءِ الدَّمِ أنْ يطلُبُوا حقَّهُم من الدِّيَةِ بما عُرِفَ بينَ النّاسِ من لِيْنٍ ورِفْقٍ وأُلْفَةٍ وحُسْنٍ ومُراعاةٍ لحالِ القاتِلِ فيما يملكُ، وعلى القاتِلِ أنْ يُبادِرَ إلى دَفْعِها بإحسانٍ من غيرِ مُماطَلَةٍ ولا تأجيلٍ ولا ضَرَرٍ ولا إيذاءٍ بالقولِ أو الفعلِ.

وهذا المعنى مطلوبٌ حتمًا كذلك في طَلَبِ أولياءِ الدَّمِ الدِّيَةَ من عَاقِلَةِ القاتلِ، في حالِ القتلِ شِبْهِ العَمْدِ والخَطَأ.

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أخرجَ البخاريُّ عن ابن عَبّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ القِصَاصُ، وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمُ الدِّيَةُ» الحديث، ثم ذكرَ تخفيفَ الله تعالى على هذه الأمّةِ بهذه الآيةِ، فكانت وسطيّةُ هذه الأمّةِ بالتّخفيفِ عنها وتخييرِ أولياءِ الدَّمِ بين القِصَاصِ والدِّيَةِ والعَفْوِ، وهذه رحمةٌ من الله تعالى بعبادِهِ المسلمينَ لاسْتِبْقَاءِ نُفُوسِهِم، ولِبَذْلِ الخيرِ والمعروفِ بينَهُم.

وتأمّلُوا: شَرَعَ الإسلامُ القِصَاصَ عدْلًا بين النّاسِ، ونَدَبَ إلى العَفْوِ رحمةً بينَهُم وتخفيفًا. قال أهلُ العلمِ: «فَالْعَدْلُ مُقدَّمٌ، وَالرَّحْمَةُ تَأْتِي بَعْدَهُ».

﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ إذا حصلَ العفْوُ من أحدِ أولياءِ الدَّمِ، فقد أصبحَ القاتلُ معصومًا، فلا يَحِلُّ الاعتداءُ عليهِ.

وكذلك يَجْدُرُ بالقاتلِ أنْ يتوبَ ولا يرجعَ لقتلِ النّاسِ مرَّةً أخرى.

الآيةُ تبيِّنُ هنا أنّه إذا أقْدمَ أولياءُ الدَّمِ على قتْلِ القاتلِ بعدَ صُدورِ العَفْوِ عنهُم، فلهم عذابٌ أليمٌ مُوجِعٌ من الله تعالى في الآخرةِ، فضلًا عن إقامةِ عُقُوبةِ القِصاصِ عليهم في الدّنيا عندَ جمهورِ الفُقَهاءِ. وكذلك إذا رجعَ القاتلُ للاعتداءِ وإزهاقِ النّفوسِ فقد توَعَّدَهُ الله بعذابٍ مؤلمٍ شديدٍ يناسبُ كثرة تَجَرُّئِهِ على حدودِ الله، فالاعتداءُ هنا في الآيةِ ممنوعٌ ممّن عفَا وممّن عُفِيَ عنه.

﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾

إذا عَلِمَ القاتلُ أنّ عقوبَته هيَ القتلُ إذا اعتدَى على نَفْسٍ معصومةٍ، فإنّه يَنْكَفُّ ويَرْتَدِعُ عن ذلكَ ويَجْتَنِبُهُ، وهذا إحياءٌ لنُفُوسِ الآخرِين.

وكذلك إذا أُقِيمَ شَرْعُ الله واقْتُصَّ من القاتلِ، أغلَقْنا بابَ شَرٍّ كبيرٍ؛ فأولياءُ الدَّمِ لا يَشْفِي غليلَهُم ويُذْهِبُ ما في قلوبِهِم إلّا القِصاصُ من القاتلِ، فإذا لم نَقْتَصّ منه فالغالبُ أنّ أولياءَ الدَّمِ سيقومونَ بذلك بأنفُسِهِم، وهذا يعني أنْ يقتُلَ النّاسُ بعضُهُم بعضًا ويعتدونَ في ذلك، فكانَ شَرْعُ القِصاصِ إحياءً لنُفُوسِ الآخرين، لا يفقَهُ ذلك ويَعِيهِ إلّا أُولو الألبابِ والعقولِ الرّاجحةِ والنُّهَى.

وتأمّلُوا خِتامَ الآيةِ كيف يدلُّ على أنّ تطبيقَ شَرْعِ الله في ذلك، فيه تحقيقٌ لمفهومِ التّقوى القائمِ على تَرْكِ محارمِ الله، والإقبالِ على شَرْعِهِ حُبًّا وفهمًا وتطبيقًا.

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ ﴾

كانت الوصيّةُ للوالدَيْنِ والأقاربِ واجبةً على من حَضَرَتْهُ أسبابُ الموتِ ومقدّماتُه بنصِّ هذه الآيةِ، لقولِ الله تعالى فيها ﴿ كُتِبَ ﴾ أي: فُرِضَ، ولِختامِ الآيةِ بقولِه سبحانَه ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي: حقًّا واجبًا. وقَوْلُ الله تعالى في الآيةِ هنا: ﴿ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ﴾ أَيْ: مالًا. وقَوْلُهُ سبحانَه: ﴿ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ أَيْ: بما عُرِفَ من رِفْقٍ

وإحسانٍ وعدْلٍ بحيثُ لا يَظْلِمُ باقي الورَثَةِ، ولا يسبِّبُ فعلُه حصولَ شَحْناءَ وبَغْضاءَ وتَحاسُدٍ بينَ القَرابَةِ.

ولكن لمّا نزلَتْ آياتُ المواريثِ، نَسخَتْ وُجُوبَ ذلك في حقِّ الوَرَثَةِ من الأَبَوَيْنِ والقَرابَةِ، فقد أَعطَتْهم حقوقَهم دونَ وَصِيَّةٍ. أخرجَ الإمامُ البخاريُّ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: «عَادَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلِمَةَ مَاشِيَيْنِ، فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاَ أَعْقِلُ شَيْئًا، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَتَوَضَّأَ مِنْهُ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ فَأَفَقْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء ١١]. وأخرجَ أصحابُ السُّنَنِ عَنْ عَمرِو بْنِ خَارِجَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ»، فالوارثُ لا وصيّةَ له إلا إذا أَجازَهَا ووافقَ عليها بقيّةُ الوَرَثَةِ، ولهم الحقُّ في أنْ يَمْتَنِعُوا.

وذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنّ الحُكْمَ باقٍ في حقِّ الأقرباءِ الذين لا يرِثُونَ، كالأَبَوَيْنِ الكافِرَيْنِ، والأعمامِ حالَ وُجودِ الأَبِ أو الابنِ، وهكذا.

والحكم في حقِّهم على سبيلِ الإيجابِ أو الاستحبابِ في حدودِ الثُّلُثِ، والاستحبابُ أقربُ إلى الصّوابِ.

والوصيّةُ على العمومِ قد تكونُ واجبةً على المسلمِ، وذلك إنْ تركَ دُيُوناً لازمةً وحقوقاً واجبةً في ذمّتِهِ، فيجبُ أنْ يُوصِي بقضائِهَا وأدائِهَا بعدَ موتِه، لِمَا أخرجَه البخاريُّ من حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما حقُّ امرِئٍ مسلمٍ له شيءٌ يُوصِي فيه يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ، إلا وَوَصِيَّتُهُ مكتوبةٌ عندَه».

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

كلُّ من بَدَّلَ في الوَصِيَّةِ وحرَّفَهَا مِنْ شاهدٍ أو ممَّن وُكِّلَ بتنفيذِها، فغيَّرَ حُكْمَهَا، وزادَ فيها أو نقَّصَ، ومن بابِ أَوْلَى إذا كَتَمَ وأَخْفَى؛ كلُّ أولئكَ آثمون عندَ اللهِ بخيانتِهم للأمانةِ.

أمّا الميّتُ فقد قامَ بما عليه وأَوْصَى، ووقعَ أجرُه على اللهِ فلا إثْمَ عليهِ.

وهذا فيه تهديدٌ ووعيدٌ لمن يتجرّأُ على تغييرِ شيءٍ من الوصيّةِ لِهَوًى في نفسِه ولغَرَضٍ فاسدٍ عندَه، وكأنّ الآيةَ تُرشِدُ إلى الإيصاءِ وعَدَمِ تَرْكِهِ بحُجَّةِ الخوفِ من عدمِ تنفيذِها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ اللهُ سبحانَه وتعالى سميعٌ عليمٌ مُطَّلِعٌ على مَا أَوْصَى بِهِ المَيِّتُ، وعلى ما بَدَّلَهُ المُوصَى إِلَيهِمْ أو الشّهودُ؛ فاحْذَرُوا.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨٢﴾

الموصِي قد يخطئُ في وصيّتِه، فيزيدُ من حقِّ أحدِهم أو يُنْقِصُ بحَسَبِ اجتهادِه، وقد يحْرِمُ بعضَهم بحَسَبِ طبيعتِه البشريّةِ التي قد تميلُ لأحدِهم على حسابِ الآخَرِ.

الآيةُ هنا تُجيزُ لمنْ ظَنَّ أو توقَّعَ حصولَ ظُلْمٍ لأحدِهم بهذه الوصيّةِ، كأنْ وَجَدَ فِي وَصِيَّةِ الْمُوصِي إِضْرَارًا بِبَعْضِ أَقْرِبَائِهِ، بِأَنْ حَرَمَهُ مَنْ وَصِيَّتِهِ، أَوْ قَدَّمَ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ أَبْعَدُ نَسَبًا، أَوْ أَوْصَى إِلَى غَنِيٍّ مِنْ أَقْرِبَائِهِ وَتَرَكَ فَقِيرَهُمْ، أقولُ: الآيةُ تَأْذَنُ لمن وجدَ ذلك أن يسعَى في إصلاحِ ما أَحْدَثَه الموصِي من جَنَفٍ، أي: مَيْلٍ وخَطأٍ، أو ما أَحْدَثَه من إثمٍ، بأنْ يطلبَ من الموصِي تغييرَ وصيَّتِه ليتحقّقَ العدلُ، وقد يسعى في الإصلاحِ بين الموصَى لهم، إذا حصلَ بينهم خلافٌ بعدَ وفاةِ الموصِي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾

الصيامُ هو الإمساكُ عن المفَطّراتِ من طلوعِ الفجرِ الصّادقِ إلى غروبِ الشّمسِ، وهو ركن من أركانِ الإسلامِ التي يكفرُ منكرُها وجاحدُها، أمّا من لم يجحدْ وأفطرَ في نهارِ رمضانَ عامدًا بلا عذرٍ، فهو مرتكبٌ لكبيرةٍ من كبائرِ هذا الدّينِ. دلَّ على ذلك ما أخرجَه ابنُ خزيمةَ وابنُ حبّانَ والحاكمُ، في حديثِ الرّؤيا التي رأى فيها نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألوانًا من عذابِ أهلِ البَرْزَخِ، وهي الحياةُ التي يعيشُها أهلُ القُبورِ قبلَ مبعَثِهم، حيثُ جاءَ في هذه الرُّؤْيا، ورُؤيا الأنبياءِ حقٌّ: «ثُمَّ انْطُلِقَ بِي، فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ، مُشَقَّقَةٍ أَشْدَاقُهُمْ، تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دمًا قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ» الحديث.

هذا النّداءُ الرّبّانيُّ هنا في الآيةِ يدلُّ على أنّ الصّيامَ قد بلغَ من فضْلِه وقيمَتِه الجليلةِ والعظيمةِ عندَ الله، أنّه كانَ مفروضًا على الأممِ من قبلِنا من اليهودِ والنّصارى وغيرِهم، كما في الآيةِ هنا: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وإعلامُنا بأنّه كانَ مفروضًا على مَنْ قَبْلَنا فيه حَثٌّ لهذه الأُمّةِ المصطفاةِ على أنْ لا تتثاقَلَ من الصّيامِ، وأنْ تؤدّيَ هذا الرُّكْنَ على خيرِ حالٍ، وتحرصَ على أنْ تسبقَ من قَبْلَها في بابِ الخيراتِ هذا.

قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة ٤٨].

هذه الآيةُ نَزَلَ فيها وجوبُ الصّيامِ على هذه الأُمّةِ كما وجبَ على مَنْ قَبْلَنَا. وقد نَصَّتْ الأحاديثُ على فضائلَ عِدَّةٍ لِمَنْ صامَ رمضانَ؛ فالصَّوْمُ سببٌ لمغفرةِ الذّنوبِ، والعِتْقِ من النّارِ، ودخولِ بابِ الرّيّانِ، وغيرِ ذلك.

والصّيامُ فيهِ زكاةٌ للنّفسِ وتطهيرٌ لها من أمراضِهَا، وتحقيقٌ لخشيةِ الله في السّرِّ، وفيهِ تضييقٌ لمسالكِ وطرائقِ الشّيطانِ، وفيهِ حفظٌ للشّبابِ من الزّنا. أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ توجيهَ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للشبابِ بقوله: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ». وفيه كذلك تربيةٌ على الشّعورِ بالآخرينَ من الفقراءِ والجيرانِ ونحوِ ذلك، وفيه تربيةٌ للأمّةِ على النّظامِ والوحدةِ والتّآلُفِ، ومن تأمّلَ هذه الحِكَمَ، فَهِمَ ختامَ الآيةِ هنا «لعلّكم تتّقونَ»، أي: تتّقونَ الوُقوعَ في المآثِمِ التي حرَّمَ الله.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)﴾

لا يجبُ الصَّوْمُ في كلِّ يومٍ من أيّامِ العَامِ، وإنّما يكونُ واجبًا في شهرِ رمضانَ فقط في أيامٍ معلومةٍ محدودةٍ؛ ثلاثينَ أو تسعةٍ وعشرين يومًا من كلِّ عامٍ.

ذكرَ غيرُ واحدٍ من الصّحابةِ والتّابعينَ أنّ الصيامَ المفروضَ على الأممِ من قَبْلِنَا، كانَ ثلاثةَ أيامٍ من كلِّ شهرٍ، أمّا في الإسلامِ، ففي أوّلِ عهدِه كان المسلمونَ يصومونَ ثلاثةَ أيّامٍ كذلك، ويصومونَ يومَ عاشوراءَ، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصومُ هذا اليومَ ويَحُثُّ المسلمينَ عليه، لكن لم يكن ثَمَّةَ صيامٌ مفروضٌ على المسلمين حتى فُرِضَ صيامُ رمضانَ في السّنةِ الثّانيةِ من الهجرةِ، على خلافٍ في صومِ عاشوراءَ قَبْلَ ذلك هل كان فرضًا أم مستحبًّا، والجمهورُ على أنّه كان مستحبًّا.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ من رحمةِ الإسلامِ أنْ جعلَ مَظِنَّةَ حصولِ المشَقَّةِ بالصّيامِ، سببًا للتّخفيفِ وإباحةِ الإفطارِ في نهارِ رمضان. هنا تَذْكُرُ الآيةُ سببَيْنِ من أسبابِ إباحةِ الفِطْرِ، وهما السَّفَرُ والمَرَضُ.

فمن كان مسافرًا أو مريضًا مَرَضًا يَشُقُّ فيهِ الصّيامُ مشقَّةً غيرَ معتادةٍ ، أو يسبّبُ زيادةَ المَرَضِ أو تأَخُّرَ الشّفاءِ فأفطرَ؛ فيجبُ عليه الصّيامُ بعدَ رمضانَ بعَدَدِ الأيامِ التي أفطرَها، ولذلك قال ربُّنا: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ .

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ الصّيامُ في بدايةِ تشريعِه وفَرْضِه كانَ على التّخييرِ بين الصّيامِ أو الإطعامِ، فلِلْمُكلَّفِ أنْ يصومَ يوماً من رمضانَ، وله أنْ يُطعِمَ مسكيناً بَدَلَ صيامِه وإنْ كان قادرًا على الصّيامِ.

ثمّ نُسِخَ هذا التّخييرُ بالآيةِ بعدَها، كما دلّ على ذلك ما أخرجه مسلمٌ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْتَدِيَ، حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا فَنَسَخَتْهَا».

إذن، الآية تبيِّن الحكمَ الشّرعيَّ لمن دخلَ عليه رمضانُ وهو يُطيقُ الصّيام بأنْ كان صحيحًا مُقيمًا، فإنّه إِنْ شَاءَ صَامَ، وَإِنْ شَاءَ أَفْطَرَ وَأَطْعَمَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينا. والمسكينُ هو من لا يجدُ ما يكفيهِ من قُوْتِهِ وحاجتِه.

فَإِنْ أَطْعَمَ أَكْثَرَ مِنْ مِسْكِينٍ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ، أو زادَ في كمِّيَّةِ الإطعامِ، فَهُوَ خَيْرٌ، كما قال الله تعالى هنا في الآيةِ: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ﴾ .

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: وَإِنْ صَامَ فَهُوَ أَفْضَلُ وأكثرُ ثوابًا وأجرًا مِنَ الْإِطْعَامِ.

أخرجَ أحمد وأبو داود، عن معاذِ بنِ جبلٍ رَضِيَ الله عَنهُ، أنّه ذكرَ أحوالَ تشريعِ الصّيامِ، فكان ممّا قالَ: «وَأَمَّا أَحْوالُ الصِّيامِ: فَإِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَقَالَ يَزِيدُ: فَصَامَ تِسْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ إِلَى رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَصَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ ثُمَّ إِنَّ الله فَرَضَ عَلَيْهِ الصِّيَامَ، فَأَنْزَلَ الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ قَالَ: فَكَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَطْعَمَ مِسْكِينًا، فَأَجْزَأَ ذَلِكَ عَنْهُ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ الْآيَةَ الْأُخْرَى ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ . قَالَ: فَأَثْبَتَ الله صِيَامَهُ عَلَى الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ، وَرَخَّصَ فِيهِ لِلْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ، وَثَبَّتَ الْإِطْعَامَ لِلْكَبِيرِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ» الحديث.

وآخرُ كلامِ معاذٍ رَضِيَ الله عَنهُ ،هنا يُدَلِّلُ على ما ذهبَ إليهِ غيرُ واحدٍ من العُلماءِ بأنّ الآيةَ ليست منسوخةً بكامِلِها، ولكن حكمَها باقٍ فيمَنْ لا يستطيعُ الصّومَ ولا القضاءَ، لِمَرَضِهِ مَرَضًا لا يُرجى الشّفاءُ منه، ولِكِبَرِ سِنّهِ، فيُطعِمُ عن كلِّ يومٍ مسكينًا، كما حصلَ مع الصّحابِيِّ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عَنهُ في آخرِ عُمُرِه. فكانَ معنى لفظةِ: «يُطِيقُونَه» وَفْقًا لهذا الفَهمِ أي: يكلَّفُونَه فلا يَقْدِرُونَ على الصّيامِ ولا القضاءِ، كما أخرجَ البخاريُّ عن ابنِ عَبّاسٍ رَضِيَ الله عَنهُما أنه لما قرأ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيستْ مَنْسُوخَةً، هُوَ لِلشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَالْمَرْأَةِ الْكَبِيرَةِ لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا، فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِيناً.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

خلقَ الله تعالى الشّهورَ، وجعلَها اثْنَي عَشَرَ شهراً، واختارَ من بينِها شهرَ رمضانَ ليكونَ أفضلَها، فكانَ فيهِ إنزالُ الكُتُبِ السّماويّةِ السّابقةِ على أصحابِها من الرُّسُلِ صلواتُ ربّي وسلامُه عليهم، وكان فيهِ إنزالُ القرآنِ العظيمِ من اللّوْحِ المحفوظِ إلى السّماءِ الدّنيا، كَما قَالَ الله تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القَدْرِ ١]، وَقَال سبحانَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدُّخَانِ ٣]، ثم نَزَلَ مفرَّقًا في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً على قلبِ النّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ومن أهلِ العلمِ من قالَ: كانَ ابتداءُ نزولِ القرآنِ على قلبِ النبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السّماءِ الدّنيا في شهرِ رمضانَ.

أخرج أَحْمَدُ وغيرُه بسندٍ حسنٍ، عَنْ وَاثِلَةَ ابْنِ الْأَسْقَعِ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أُنْزِلَتْ صُحُف إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِستٍّ مَضَين مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأَنْزَلَ الله الْقُرْآنَ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ».

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ هذا مَدْحٌ لِلْقُرْآنِ، فقد أَنْزَلَهُ الله هُدًى لِقُلُوبِ الْعِبَادِ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ، هداهُم إلى سعادتِهم في الدّنيا والآخرةِ. ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾، أَيْ: وَدَلَائِلُ وَحُجَجٌ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ لِمَنْ فَهِمَهَا وتدبّرها، تدلُّ على طريقِ النّجاةِ والفلاحِ، وعَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْهُدَى الْمُنَافِي لِلضَّلَالِ، وَالرُّشْدِ الْمُخَالِفِ لِلْغَيِّ، وَمُفَرِّقًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ هذه الآيةُ هي التي نَسَخَتْ التّخييرَ الذي تكلّمنا عنهُ في الآيةِ السّابقةِ، فكانت نَصًّا قاطعًا في وُجوبِ الصّيامِ على الصّحيحِ المقيمِ الذي حَضَرَهُ شهرُ رمضانَ.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ لمّا استقرّ الأمرُ على وجوبِ الصّيامِ على القادرِ المقيمِ، ونُسِخَ التّخييرُ المذكورُ في الآيةِ قبلَها؛ ذَكَرَتْ الآياتُ مرّةً أُخرى الرُّخْصَةَ التي شُرِعَتْ لِمَنْ كان مريضًا أو مسافرًا، حتّى لا يُظَنَّ أنّ الرُّخْصَةَ كذلك نُسِخَتْ.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ هذه قاعدةٌ شرعيّةٌ عظيمةُ النّفعِ، تُظهِرُ عظَمَةَ هذا الدّينِ ورِفْقَه بالنّاسِ ورحْمَتَهُ. ومن هذه الرّحمةِ أنّ الرُّخَصَ الشّرعيّةَ في الفِقْهِ عُمُومًا، وفي بابِ الصّيامِ خصوصًا، إنّما جاءَتْ تيسيرًا على النّاسِ ورحمةً بهم. أخرج الإِمَامُ أَحْمَدُ قولَ النّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ».

فالله شَرَعَ لنا الإفطارَ في نهارِ رمضانَ إذا قامت أسبابُ ذلك، ثمّ أَوْجَبَ علينا القضاءَ حالَ قُدرتِنا عليه، وشَرَعَ القضاءَ حتّى رمضانَ الذي يليه، بلْ إنّ قضاءَ الصّيامِ يصحُّ أنْ يكونَ مُفرّقًا، ولا يجبُ التّتابُعُ عند جماهيرِ الفُقهاءِ، وهذا فيهِ تيسيرٌ على المكلّفِينَ لا يخفى.

وهل الأفضلُ في السَّفَرِ الصّيامُ أم الإفطارُ؟ القولانِ موجودانِ عندَ أهلِ العلمِ، ومنهم من فصّلَ فقال: إنْ كان الصّيامُ يَشُقُّ، كان الفِطْرُ أفضلَ، وإلا فالصّيامُ أفضلُ.

أخرجَ مسلمٌ في صحيحِه عنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: «كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَمَضَانَ، فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا الْمُفْطِرُ، فَلَا يَجِدُ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ، يَرَوْنَ أَنَّ مَنْ وَجَدَ قُوَّةً فَصَامَ، فَإِنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ، وَيَرَوْنَ أَنَّ مَنْ وَجَدَ ضَعْفًا فَأَفْطَرَ، فَإِنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ».

وفي الصّحيحَيْنِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، وَمَا فِينَا صَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ».

﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ وإِنَّما أَمَرَكُمْ بِالْقَضاءِ لِتُكمِلُوا عَدَدَ الأَيّامِ التي وجبَ عليكُم صيامُها في شهرِ رمضانَ.

﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ أي: وَلِتَذْكُرُوا الله بالتّكبيرِ والتّعظيمِ والإِجْلالِ عِنْدَ انْقِضاءِ عِبادَةِ الصّيامِ.

وبهذه الآيةِ استدلَّ عددٌ من الفقهاءِ على مشروعيّةِ التّكبيرِ ليلةَ عيدِ الفِطْرِ، فإنّ ذِكْرَ الله بعدَ الانتهاءِ من العبادةِ أمرٌ معهودٌ في الشّرعِ، كما في الأذكارِ المشهورةِ بعدَ انقضاءِ صلواتِ الفرضِ، وكما في قولِ الله تعالى في آياتِ الحجِّ: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ [الْبَقَرَةِ ٢٠٠]، وكما في الجهادِ: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ [النِّسَاءِ ١٠٣]، وكما في صلاةِ الجُمُعَةِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الْجُمُعَةِ ١٠].

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ من غاياتِ تشريعِ صيامِ شهرِ رمضانَ، تحقيقُ شُكْرِ الله على ما أكرمَ به أهلَ الطّاعةِ من الصّيامِ والقيامِ، والبُعْدِ عن المنهيّاتِ وتضييقِ مجارِيها وطَرائِقِها، فللهِ الحمدُ أوّلاً وآخراً.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾

مجيءُ آيةِ الدُّعاءِ هذه في سياقِ الحديثِ عن الصّيامِ وأحكامِه، يدلُّ دلالةً ظاهرةً على شِدَّةِ ارتباطِ الدُّعاءِ بالصّيامِ. وكأنّ الآيةَ تُرْشِدُ وتدلُّ على مَوْطِنٍ من المواطنِ التي يحبُّ الله فيها تَذَلُّلَ العبدِ بين يديه ودُعاءَه، وتُرْشِدُ إلى وقتٍ تكونُ إجابةُ الدُّعاءِ فيه أَوْفَرَ وأقربَ. أخرج أَحْمَدُ والتِّرْمِذِيُّ وغيرُهُما، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عنهُ، قالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمامُ الْعادِلُ، وَالصّائِمُ حتى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُها الله دُونَ الْغَمامِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَتُفْتَحُ لَها أَبْوابُ السَّماءِ، وَيَقُولُ: بعِزّتي لأَنْصُرَنَّكَ ولو بعدَ حينٍ».

يا محمّد، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذا سَأَلُوكَ عَنِ الإِلهِ المَعْبُودِ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُ قَرِيبٌ يُثِيبُ عَلَى الطَّاعَةِ وَيُجِيبُ الدّاعِيَ.

هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ الله تعالى قريبٌ منّا بسَمْعِهِ وبَصَرِهِ وعِلْمِه ، يسمعُ دُعاءَنا ويعلمُ حاجاتِنا، ولَيْسَ بَيْننا وَبيْنَه حِجابٌ وَلا وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ يُبَلِّغُهُ دُعاءَنا وَعِبادَتَنا، أَوْ يُشارِكُهُ فِي الإِجابة أَوْ الإِثابَة، نتوجّه إليهِ وحدَه حُنفاءَ مخلصينَ له الدِّينَ، ولذلك قال الله تعالى هنا في الآيةِ: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ ، أي: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا خَصَّنِي بِالدُّعاءِ، وَالْتَجأَ إِلَيَّ الْتِجاءً حَقِيقِيًّا، وَشَعَرَ قَلْبُهُ بِأَنَّهُ لا مَلْجَأَ لَهُ إِلَّا إِلَيَّ.

أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ واللّفظُ للبخاريِّ، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ، هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا، ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ (أَيْ: ارفقوا بها)، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ».

آيةٌ عظيمةٌ وكلُّ القرآنِ عظيمٌ، تُبيِّنُ كَرَمَ الله الذي لا ينقطعُ: كلُّ من دَعَا الله سبحانَه وتعالى، واستجمعَ في دُعائِه أسبابَ الاستجابةِ وشرائطَ الدُّعاءِ، مع انتفاءِ الموانعِ من أكْلِ الحرامِ ونحوِه؛ استجابَ الله له دُعاءَه وأعطَاه سُؤْلَه؛ فإنّه سبحانه وتعالى قريبٌ.

وهَذَا مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ تَبارَكَ وَتَعالَى، أَنَّهُ نَدَبَ عِبادَهُ إِلَى دُعائِهِ، وَتَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجابَةِ، كما قال ربُّنا جلّ وعَلا: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر ٦٠]، ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، أَي: اسْأَلُونِي أُعْطِكُمْ، وأَطِيعُونِي أُثِبْكُم، فأنتم عِبادِي وأنا ربُّكم. أخرجَ أحمدُ وأبو داودَ وابنُ حبّانَ وغيرُهم، عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِليهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا». أي: فارِغتَيْنِ.

﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ أي: فلْيَتوَجَّهُوا إِلَيَّ بدُعائِهم، ولْيَطْلُبُوا منّي حاجاتِهم، إيمانًا وتصديقًا وحبًّا وتعظيمًا، فإنّه هو وَحْدَهُ مُجِيبُ الدَّعواتِ وباسطُ الرَّحَماتِ، لَعَلَّهُم يُصِيبون طريقَ الرُّشْدِ والحقِّ والفَلاحِ.

واستجابةُ الله تعالى دُعاءَنا، إنّما تكونُ كما جاءَ عندَ البخاريِّ في الأدبِ المفردِ وابنِ أبي شيبة في المصنّفِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو، لَيْسَ بِإِثْمٍ وَلَا بِقَطِيعَةِ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا». قَالَ: إِذًا نُكْثِرُ! قَالَ: «الله أَكْثَرُ». وهذا فيهِ ترغيبٌ بالدُّعاءِ، ودعوةٌ للإكثارِ منه. وعندَ أحمدَ والبخاريِّ في الأدب المفرد، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَقُولُ الله تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي».

أسوقُ إليكُم عددًا من الأحاديثِ المُختارةِ الدَّالَّةِ على أهمِّيَّةِ اجتنابِ موانعِ الدُّعاءِ، ليكونَ الداعي على بصيرةٍ من أمرِهِ:

١- أخرجَ مسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: «قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ».

٢- أخرجَ مسلمٌ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنهُ، ذَكَرَ فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟».

٣- أخرجَ أحمدُ والحاكمُ بسندٍ حسَّنَه بعضُ أهلِ العِلْمِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ».

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

الرَّفَثُ هو الجِماعُ بين الزّوجَيْنِ ومقدّماتُه.

لَمّا فَرَضَ اللهُ الصّيامَ كان المسلمون إذا أفطَرُوا عندَ غروبِ الشّمسِ، يَحِلُّ لهم الأكلُ والشُّرْبُ والجِماعُ إلى أنْ يناموا؛ فمَنْ نامَ قبلَ العِشاءِ أو بعدَه، فإنّه لا يَحِلُّ له ذلك حتى يأتي مغربُ اليومِ الثّاني، فكانَ في ذلك مَشَقّةٌ كبيرةٌ. في هذه الآيةِ جاءَتْ الرُّخْصةُ من عندِ اللهِ تعالى بإباحةِ الجِماعِ والأكلِ والشُّرْبِ إلى الفجرِ، حصلَ النّومُ قبلَ الفجرِ أو لم يحصُلْ. ذكَرَ هنا في بدايةِ الآيةِ الجِماعَ ، وسيأتي ذكرُ الأكلِ والشُّرْبِ وبيانُهما.

ومن أهلِ العلمِ من قال: إنّ حُرْمَةَ ذلك بعد النّومِ لم تكُنْ بوَحْيٍ، وإنّما كانت بما أخَذَه بعضُ الصّحابةِ على أنْفُسِهم ممّا ظنُّوهُ تقرُّبًا إلى الله بذلك، كما هو الحالُ في صيامِ أهلِ الكتابِ ممّن قبلَنا.

أخرجَ البخاريُّ في صحيحِه عَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الإِفْطَارُ، فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ، لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلاَ يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ، فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لاَ، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خَيْبَةً لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾.

وعندَ أبي داودَ وغيرِه، قال ابنُ أبي ليلى، يحدِّثُ عن أصحابِ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وحدَّثنا أصحابُنا قال: وكانَ الرَّجُلُ إذا أفطرَ فنامَ قبل أن يأكُلَ لم يأكُلْ حتَّى يُصبِحَ. قال: فجاءَ عُمر فأرادَ امرأتَه، فقالت: إنّي قد نمتُ، فظنّ أنّها تَعْتَلُّ فأتَاها، فجاءَ رجلٌ من الأنصارِ فأرادَ الطّعامَ فقالوا: حتَّى نُسخِّنَ لك شيئاً، فنامَ، فلمّا أصبحُوا نزلَتْ عليه هذه الآيةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ تشبيهٌ قرآنيٌّ بليغٌ لطبيعةِ العلاقةِ بين الزّوجَيْنِ، فإنّ لباسَ الإنسانِ أقربُ شيءٍ إليهِ. الرّجلُ والمرأةُ في ظلِّ الزّوجيّةِ سِترٌ وسَكَنٌ لبعضِهِما، وكلٌّ منهُما شديدُ الحاجةِ للآخَرِ، يخالطُ كلٌّ منهُما الآخرَ ويكمّلُه ويُماسُّه كلِباسِه، ويَصعُبُ ويَعسُرُ الاحترازُ منه، خاصّةً في اللّيلِ الذي هو محلُّ اجتماعِهِما غالبًا، فكانت الرُّخصةُ هنا لهما من تمامِ نِعمَةِ الله عليهِما، ويُسْرِ ورِفْقِ ورحمةِ الشّريعةِ بِهِما.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ علِمَ الله تعالى حالَ بعضِهِم ممّن صامَ أنّه كان يختانُ، أي: يخُونُ نفسَه ويُجامِعُ زَوْجَه بعدَ النّومِ. وبعضُهم كانَ يأخذُ على نفسِه ألّا يُجامِعَ زوجَتَه رمضانَ كلَّه، ثمّ يخونُ نفسَه وما أخذَ عليها فيُجَامِعُها.

نَزَلَتْ هذه الآيةُ هنا تُذكِّرُ كَرَمَ الله ورحمتَه بمن فعلَ ذلك، وتُخبِرهم بأنّ الله تعالى تابَ عليهِم وغفرَ لهم.

ثمّ أباحَ لهم مباشرةَ أزواجِهم في ليالي رمضانَ ومجامعتِهنّ، وأَذِنَ بذلك إلى طلوعِ الفجرِ، ولِيَبْتغُوا ما كتبَ الله لهم من المتعةِ الحلالِ، وإنجابِ الولدِ.

أخرجَ البخاريُّ عن البَراءِ رَضِيَ الله عنهُ قال: «لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ؛ كَانُوا لاَ يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ». فَأَنْزَلَ الله: ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾».

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ هذا الجزءُ من الآيةِ أباحَ الأكلَ والشُّربَ في جميعِ أجزاءِ اللّيلِ حتى الفَجرِ؛ حتى يتبيَّنَ الخيطُ الأبيضُ وهو ضياءُ الصّباحِ الذي لا تَعقُبُهُ ظُلْمَةٌ، من الخيطِ الأسودِ وهو سَوادُ اللّيلِ.

وقد أخذَ غيرُ واحدٍ من الصّحابةِ ممّن نَزلَتْ عليهم الآياتُ بظاهِرِهَا، وجعلَ يُراقِبُ وقتَ قُدْرَتِهِ على تمييزِ الخيطِ الأبيضِ من الأسودِ وهو يتَسَحَّرُ، أو تمييزِ عقالِهِ الأبيضِ من الأسودِ، فإذا عرَفَ أحدَهُما من الآخرِ لطلوعِ الفجرِ، أَمْسَكَ عن الأكلِ، كما دلّ على ذلك ما أخرجه البخاريُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: أُنْزِلَتْ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ وَلَمْ يُنزِلْ ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، وَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ، رَبَطَ أحدُهم فِي رِجْلَيْهِ الْخَيْطَ الأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الأَسْوَدَ، فَلا يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّى يَتبيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُما، فَأَنْزَلَ الله بَعْدُ: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فَعَلِموا أَنَّما يَعْني: اللَّيْلَ وَالنَّهارَ.

وعندَ أحمدَ وغيرِه عن عَديّ بْن حَاتِمٍ رَضِيَ الله عنهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ عَمَدْتُ إِلَى عِقَالَيْنِ، أحدُهما أَسْوَدُ وَالْآخَرُ أَبْيَضُ، قَالَ: فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، قَالَ: فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمَا فَلَا يَتبيَّنُ لِي الْأَسْوَدُ مِنَ الْأَبْيَضِ، وَلَا الْأَبْيَضُ مِنَ الْأَسْوَدِ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي صَنَعْتُ. فَقَالَ: «إِنَّ وِسَادَكَ إِذن لَعَرِيضٌ، إِنَّمَا ذَلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ وَسَوَادُ اللَّيْلِ».

وظاهرٌ من النّصوصِ أنّ الصّحابةَ رضوانُ الله عليهم كانُوا يَحْرِصُونَ على سُحورِهم، ويَحْرِصُونَ على تأخيرِه، كأنّهم يمتثلونَ توجيهاتٍ عِدَّةً لنبيِّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، أختارُ منها ما أخرجَه مسلمٌ عن عبدالله بن عمرو بن العاصِ رَضِيَ الله عَنْهُما، أنّ نبيَّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ فَصْلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ». وفي الصّحيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحور بَرَكَةً». وفي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، رَضِيَ الله عَنْهُما، قَالَ: تَسَحَّرْنَا مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قُمْنَا إِلَى الصَّلَاةِ. قَالَ أَنَسٌ: قُلْتُ لِزَيْدٍ: كَمْ

كَانَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالسُّحُورِ؟ قَالَ: قَدْرُ خَمْسِينَ آيَةً . وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا عَجَّلوا الْإِفْطَارَ وأَخَّروا السُّحُورَ».

﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: إذا دخلَ وقتُ الفجرِ الصّادِقِ، فأَمْسِكُوا عن المفطّراتِ حتّى يدخلَ اللّيلُ بغروبِ الشّمسِ. جاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ».

ومن أهلِ العِلْمِ من استنبطَ من هذه الآيةِ حُرْمَةَ الوِصَالِ في الصَّوْمِ أو كَرَاهتَه، لأنّه قال: ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي: صُوموا إلى أنْ يدخلَ اللّيلُ ولا تُواصِلُوا. وقد جاءَتْ أحاديثُ عِدَّةٌ في النّهيِ عن الوِصالِ في الصَّوْمِ، والوِصَالُ هُوَ أَنْ يَصِلَ صَوْمَ يَوْمٍ بِيَوْمٍ آخَرَ، وَلَا يَأْكُلَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، وَفِقْهُ المسألةِ بأَدِلَّتِها يَجِدُهُ الباحثُ في كتبِ أهلِ الفقهِ.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ الاعتكافُ في المسجدِ أنْ يَنْوِيَ صاحبُه المُكْثَ في المسجدِ تَقَرُّبًا لله تعالى، فينقطعُ إلى الصّلاةِ والتّلاوةِ وطَلَبِ العلمِ ونحوِ ذلك. هنا في الآيةِ حكمٌ خاصٌّ بالاعتكافِ الذي يكونُ أكثرَ ما يكونُ في رمضانَ، ولذلك نَاسَبَ ذِكْرُهُ هنا في سياقِ الحديثِ عن أحكامِ الصّيامِ.

المعتكفُ في المسجدِ مَنْهِيٌّ عن مباشرةِ زَوْجَتِهِ بجِمَاعٍ أو مقدّمَاتِه من تقبيلٍ ومُعَانَقَةٍ، سواءٌ كان ذلك في رمضانَ أو في غيرِه، ليلًا أو نهارًا، في المسجدِ أو إذا ذهب لمنزلِه لحاجةٍ من إحضارِ طعامٍ أو دخولِ لبيتِ الخَلاءِ أو أرادَ إيصالَ زوجتِه لبيتِها، ونحوِ ذلك. وقد نَصَّ الفُقَهاءُ على بُطْلَانِ اعتكافِه بالجِمَاعِ.

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾ أحكامُ الصّيامِ التي بَيَّنَتْهَا وفَصَّلَتْهَا الآياتُ هنا، من حدودِ الله، ومن الحواجزِ التي لا يُقْبَلُ تجاوُزُهَا والاعتداءُ عليها. والآيةُ هنا عَبَّرَتْ عن ذلك بقولِ الله: ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾ أي: احتاطُوا، واجتنبُوا كلَّ ما يُوقِعُكُم فيها، ولا تَحُومُوا حَوْلَها واحْذَرُوا. وعمومُ هذا الجزءِ من الآيةِ يُسْتَدَلُّ به، على أنّ العبدَ المُوفّقَ هو من أغلقَ طرائقَ الوقوعِ في المعصيةِ من مبتدأِها، ولم يستحلّ لنفسِه بعضَ الهنّاتِ ظانًّا أنّه يملكُ نفسَه عندَ المعصيةِ.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ تحقيقُ تَقْوَى العبدِ لربِّه هي غايةُ فَرْضِ الصّيامِ علينا كما تقدّمَ، وهي غايةُ إنزالِ سائرِ الأحكامِ التي شُرِعَتْ في الكتابِ والسُّنَّةِ وتِبْيانِها.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨ ﴾

آيةٌ عجيبةٌ تُحاكِي واقعَ كثيرٍ من النّاسِ في زمانِنا كما هو حالُ كثيرٍ من أهلِ الجاهليّةِ قديمًا؛ يأكلونَ أموالَ الآخرينَ بالكَذِبِ والخِداعِ والرّشوةِ والغَصْبِ والسّرقةِ وإنكارِ الحُقوقِ وجُحُودِها، ثم يرفعُ ويُدْلِي بخصومتِه إلى القُضاةِ والحُكّامِ، ويدفعُ رِشْوَةً في ذلك، وهو يعرفُ أنّ الحقَّ عليه، وأنّه ظالمٌ لأخيهِ، يعلمُ أنّه يريدُ أكْلَ المالِ الحرامِ بفِعْلِه كما في ختامِ الآيةِ.

إذن؛ هو يريدُ أنْ يُخاصِمَ وهو ظالمٌ، وقد يربحُ قضيّتَه لنُقْصانِ وضَعْفِ أَدِلَّةِ خَصْمِهِ صاحبِ الحقِّ، أو لِما يقومُ به من رِشْوَةٍ من يقبلُ الرِّشْوَةَ من القُضاةِ، أو بيمينِه الفاجرةِ الكاذبةِ.

الآيةُ هنا تقولُ له: تأمَّلِ النَّهْيَ هنا واحْذَرْ، فإنَّ قضاءَ القاضي لا يُحِلُّ حرامًا يريدُ الإنسانُ أَكْلَه، وآكِلُ الحرام هذا يبقى الحقُّ دَيْنًا في رقبتِه حتى يلقى الله. جاءَ في الصَّحيحَيْنِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، أَنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَر، وَإِنَّمَا يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ، فَلْيَحْمِلْهَا، أَوْ ليذَرْها».

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩ ﴾

سَأَلَ الناسُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن القمرِ ومنازِلِه وهي الأهِلّة، ما الحِكْمَةُ في كَوْنِهِ بدْرًا ثمّ يتناقصُ حتى يختفي، فأنزلَ الله تعالى هَٰذِهِ الْآيَةَ يخبرُهم أنّها جُعِلَتْ علامةً وميقاتًا لأمورِهم الدّينيّةِ والدّنيويّةِ؛ فالنّاسُ تربطُ دُيُونَهَا بأوّلِ الشّهرِ وآخرِه، وكذا يَعرفُ النّاسُ بها دخولَ أشهرِ الحَجِّ، وشهرِ رمضانَ، وتعرفُ النّساءُ ابتداءَ وانقضاءَ عِدَّةِ الوفاةِ والطّلاقِ، وغيرَ ذلك.

﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ كان من اعتقاداتِ وعاداتِ بعضِ العَرَبِ في الجاهليّةِ قبلَ مجيءِ الإسلام، أنّ الواحدَ منهُم إذا أنشأَ سفَرًا وخَرَجَ فيهِ ثمّ لم يُكمِلْهُ ورجعَ لسببٍ ما، أو إذا أَحْرَمَ لحَجِّهِ وأرادَ دخولَ بيتِه بعدَ الإحرامِ، أنّه يدخلُ بيتَه من خَلْفِهِ لا من بابِه، وكذلك يفعلونَ إذا رَجَعُوا من اعتكافِهم عندَ الكعبةِ،

أو رَجَعُوا من عيدِهِم. وهذا كان معروفًا عن أهلِ يثرب بخلافِ أهلِ مكّةَ، كانوا يفعلونَ ذلك ويظنّونه من البرِّ والطّاعةِ، كما جاء في الحديثِ المتّفقِ عليه عن البَرَاء رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا، كَانَتِ الأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا، لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ، فَكَأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾».

يُرْشِدُهُم القرآنُ إلى أنّ فِعالَهُم هذه لا تدلُّ على تقْوى لله أو برٍّ وطاعةٍ، لأنّ العبرةَ بصِدْقِ الله وتَقْواه، بعد الانقيادِ لِمَا أمرَ، ثمّ أَمَرَهُم بأنْ يأتُوا البيوتَ من أبوابِها.

وهذا فيه فائدةٌ لنا بأنّ البِرَّ لا يكونُ إلّا في التزام ما أمرَ الله به، واجتنابِ ما نهى عنه، ولا يكونُ فيما ابتدَعه النّاسُ من عباداتٍ وأحوالٍ لم تأتِ عن نبيّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عن صَحْبِه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ احْرِصُوا على تَقْوى الله تعالى فيما أَمَرَكُم به ونهاكُم عنه، لعلّكم تنالونَ بِرّه ورِضَاه، فتفوزون بجنّتِهِ غدًا بين يَدَيْهِ، وهذا غايةُ الفلاحِ وكمالُه وتمامُه.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾

هذه الآيةُ تبيّنُ مرحلةً من المراحلِ التي تَدَرّجَ التّشريعُ فيها بفرْضِ الجهادِ في سبيلِ الله، فإنّه معلومٌ لديْكم أنّ الجهادَ لم يُفْرَضْ في مكّةَ لقِلّةِ المسلمين وضَعْفِهِم، ولكنْ لَمّا هاجرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينةِ، كان أوّلُ ما نزلَ عليه فيما يتعلّقُ بالجهادِ هو الإذْنُ بالقتالِ فقط دونَ الإلزام به، كما دلّ عليه قولُ الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحجّ ٣٩]، ثمّ نَزَلَ وُجوبُ قِتالِ من يهاجمُ المسلمينَ ويبتدِؤُهم بالقتالِ في هذه الآيةِ التي معنا هنا: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، ففي هذه الآيةِ نقاتلُ من قاتلَنا ولا نعتدي على من لم يُقاتِلْنا.

وهذه الآيةُ عندَ غيرِ واحدٍ من أهلِ التّفسير، نَزَلَتْ بعدَ صلح الحُدَيْبِيَةِ لبيانِ ما يلتزمُ به المسلمونَ مع قريشٍ ومن معها، ثم كان آخرَ ما أُنزِلَ آيةُ السّيفِ في سورةِ التّوبةِ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التَّوْبَة ٥]، فأَمَرتْ بجهادِ الأعداءِ أينما كانوا، بدؤونا أمْ لم يفعَلُوا.

وقد ذهبَ جماهيرُ المفسّرينَ والفُقهاءِ إلى أنّ آيةَ السّيفِ نَسَخَتْ ما قبلَها، فلا عَفْوَ عن أهلِ الكفرِ ولا إمساكَ عن قِتَالِهم حتّى يُسْلِمُوا أو الجزيةَ. ومن أهلِ العلمِ من ذهب إلى أنّ العملَ بالآياتِ يختلفُ بحسبِ قوّةِ وضَعْفِ المسلمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أَيْ: لا تبتدئوا أنتم بالقتالِ ما لم يقاتلوكم هم، فإنّ هذا من العدوانِ الذي لا يحبّه الله.

ومن أهلِ التّفسيرِ من جعَلَهَا في الجهادِ نفسِه، بأنْ لا يعتدُوا حالَ جِهَادِهِم، فيكونُ المقصودُ: لا تَغُلُّوا وتسرقوا من الغنائمِ، ولا تقتلُوا شيخًا ولا امرأةً ولا طفلًا ولا راهبًا ولا حيواناً لغيرِ مصلحةٍ، ولا تحرقُوا شجرةً، ولا تمثّلوا وتشوّهوا في جثثِ الأعداءِ. أخرجَ مسلمٌ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى الله، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً» الحديث.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩١﴾

أكثرُ أهلِ التّفسيرِ على أنّ هذه الآياتِ نَزَلَتْ لمناسبةِ صلحِ الحديبيةِ بين المسلمينَ وقريشٍ، والذي قَضَى بأنْ يرجعَ المسلمونَ عامَهم هذا ولا يعتمروا، ثمّ يعتمرون من عامِهم القادمِ، معَ أنّهم أحْرَمُوا وساقُوا الهَدْيَ.

هنا تزيد الآيةُ أمرَ الله تعالى في الآيةِ السّابقةِ وضوحاً وتبيانًا، فهي تأمرُ بقتلِ من قاتَلُوا المسلمينَ وأخرجوهُم من ديارِهم من مكّةَ ومن غيرِها.

الآيةُ تأمرُ بقتلِهم أينما ثَقِفَهُم المسلمون، أي: في أيِّ مكانٍ من أماكنِ المعركةِ وجدُوْهُم وتمكّنُوا منهُم، ما داموا هم من بدأَ واعتدَى، وتأمرُ بإخراجِهم من دارِهم كما أَخْرَجُوا المسلمينَ وضيَّقُوا عليهم حتّى هاجَرُوا من ديارِهم. وكأنّ الآية تغذّ خُطَى المسلمين لقتالِ من اعتدَى على أرضِهم ودينِهم وتَعِدُهُم بالنّصر عليهم، وكأنّها ترفعُ عن المسلمين حَرَجَ قتلِهم في أرضِ الحَرَمِ إنْ هم بدأوا القتالَ.

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ قتلُ الكفّارِ الّذينَ أَخْرَجُوا المؤمنينَ من ديارِهِم وفَعَلُوا ما فعلوا، قد يمتنعُ ويُحجِمُ عنه البعضُ، وقد يُحزِنُ البعضَ، لأنّ جِهادَ الكفّارِ فيه قتلٌ وإزهاقٌ للأرواحِ. جاءَت الآيةُ هنا تبيّن أنّ كفرَهم وشِرْكَهُم وفِتْنَتَهُم النّاسَ عن دينِهِم، أشدُّ وأعظمُ من قتلهم، فإن دينَ الإنسانِ أهمُّ وأعظمُ ما يملك، ولذلك جُعِلَتْ الرُّوحُ فداءً له، بل إنّ القتلَ قد ينالُ عددًا محدودًا ولا يتكرر دومًا، بخلافِ فِتْنَةِ النّاسِ عن دِينِهِم، فإنّها تمتدُّ حتّى تأكلَ الأخضرَ واليابسَ. وهذا فيه إشارةٌ إلى ما فَعَلَه أهلُ مكّةَ بنبيّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه من المؤمنين؛ آذَوْهُم وشَتَمَوهُم وضَربُوهُم وسَخِرُوا منهُم، وأخرجُوهم من ديارِهم، ولولا صلحُ الحُدَيْبِيَةِ لكانَ ما كانَ، لكنَّ المُسْلمين ملتزمونَ بما عاهدُوا، ما لم ينْقُضُوا تلكَ العهودِ والمواثيق، وقد فعلوا ونقضوا، فكانَ فتحُ مكّةَ ...

وهذه الآيةُ تُعينُنَا نحنُ الدُّعاةَ وطَلَبَةَ العلمِ في دعوتنا، فإنّ أهلَ الفِسْقِ والفُجورِ يزعمونَ دومًا أنّنا بدعوتِنَا لهم ومدافعتِنا باطِلَهم، نفتحُ أبوابَ الشُّرورِ على النّاسِ، ولكن الحقيقةَ أنّهم بصَدِّهِم عن سبيلِ الله، وإشاعتِهِم للمُنْكَراتِ والفواحشِ، أحرقُوا البلادَ والعبادَ، وهو ما يجعلُنا نزدادُ ثِقَةً بطريقِنا الذي اخترناهُ إلى أنْ يجمعَ اللهُ بينَنَا وبينَهُم.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذهِ الآيةُ تؤكّدُ حُكْمًا خاصًّا بالمسجدِ الحرامِ في مكّةَ، وهو حُرْمَةُ ابتداءِ القتالِ وحُرْمَةُ جميعِ الدّماءِ فيه، حفظًا لحُرْمَةِ المسجدِ الحرامِ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عمران ٩٦-٩٧].

المسلمونَ خَافُوا أَلَّا تَفِيَ لَهُمْ قُرَيْشٌ بالعهدِ الذي بينَهُم، وَأَنْ يَصُدُّوهُمْ عَنِ المُسْجِدِ الحَرَامِ بِالْقُوَّةِ وَيُقَاتِلُوهُمْ، وأنْ يكونَ قتالُهم فِي المسجدِ الحرامِ وفي الأشهرِ الحُرُمِ. جاءَتْ الآيةُ هنا كذلك تؤكّدُ إِذْنَ اللهِ تعالى لهم بقتالِ المشركينَ المعتدينَ وقَتْلِهِم، ولو كانَ ذلك عندَ المسجدِ الحرامِ.

وقد حصلَ ذلك مع نبيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِه، عندما أخذَ عليهم بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ في الحديبيةِ، فبايَعُوهُ على القتالِ والموتِ في سبيلِ الله، لَمّا أُشِيعَ أنّ كفّارَ قريشٍ قَتَلُوا عثمانَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، إلّا أنّ اللهَ تعالى كَفَّهُم عن ذلكِ لَمّا عَلِمُوا أنّ عثمانَ لم يُقْتَلْ. قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا، فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ».

﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كما قاتَلُونا وحَرَصُوا على قَتْلِنَا، فكذلك نُقَابِلُهُم بقتالِهِم.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢﴾

أَيْ: فَإِنْ تَركُوا قِتالَكم فِي الحَرَمِ، ودخلُوا في الإسلامِ وتابُوا من جُرمِهم، فلا تقْتُلوهُم، ولا تقتصّوا منهُم؛ فَإِنَّ الله غفُورٌ رَحِيمٌ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ، وَلَوْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا المُسْلِمِينَ فِي حَرَمِ الله.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾

هنا بيانٌ تفصيليٌّ لغايةِ قتالِ أهلِ الكفرِ الذين قاتَلُونا وأخرجُونا، غايةُ قتالِهم أنْ نتحقّقَ من انتهاءِ فِتْنَتِهم؛ فتنةِ الشّركِ والصّدِّ عن دينِ الله، فلا تتوقّفُوا عن قِتالِهم في المسجدِ الحرامِ والحَرَمِ، حتّى يُقْضَى على فِتْنَتِهم بالتّمامِ، ويكونَ الدّينُ في مكّةَ لله، فلا يخافُ المسلمونَ على دينِهم ولا على أنفُسِهم، فالمشركون إمّا أنْ يُسْلِمُوا أو يخرجوا أو يُقْتَلوا.

مكّةُ خيرُ بِقاعِ الأرضِ، اختارَها الله تعالى لتكونَ قَلْبَ الإسلامِ ومُنْطَلَقَه، ولا يكونُ ذلك مع وجودِ الكفرِ والشّركِ فيها، ولذلك كان آخرَ أمرِ الإسلامِ إخراجُ المشركين من جزيرةِ العَرَبِ كلِّها.

بل لمّا نَزَلَتْ آيةُ السّيفِ في سورةِ التّوبةِ، فَهِمَ أكثرُ أهلِ العلمِ أنّ الله تعالى أَمَرَ بِقِتالِ الكُفّارِ كُلِّهم، حتّى لا يكونَ في الأرضِ كُفْرٌ ولا شِرْكٌ ظاهرٌ، بل يكونُ دِينُ الله تعالى الحقُّ هو الظّاهرَ على سائرِ الأَدْيانِ والمعتقداتِ، ويعُمُّ الأرضَ كلَّهَا. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة ٣٣]، وأخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ عن غيرِ واحدٍ من الصّحابةِ رضوانُ الله عليهم، أنّ رسولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى الله». فغيرُ المسلمينَ لا تُعْصَمُ دِماؤُهُم، إلّا بالإسلامِ أو الجِزْيَةِ أو الأمانِ، أو العَهْدِ بشُرُوطِهِ وفِقْهِهِ عندَ أهلِ العلمِ.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنْ انتهَوْا وتَوَقَّفُوا عن نَقْضِهم العُهُودَ، أو تَوَقَّفُوا عن شِرْكِهم وصَدِّهِم عن سبيلِ الله ومُقَاتَلَتِكُم، وأصبحُوا مسلمين مثلَكُم، فلا تعتدُوا عليهم ولا تبدؤوهُم بقتالٍ؛ فإنّه لا عُدوانَ إلا على من ظَلَمَكُم وخَانَكُم، أو على من ظَلَمَ نفسَه بالكفرِ والامتناعِ عن كلمةِ التّوحيدِ.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

الأصلُ أنّ الأشهُر الحُرُمَ لها مكانتُها عندَ العَربِ وكذا في الإسلامِ، كما هو الحالُ في حُرْمَةُ البيتِ الحرامِ كما تقدمَ آنِفًا. أخرجَ البُخارِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في حَجَّةِ الوَداعِ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ الله السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَة، وَذُو الحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَر الَّذِي بَيْنَ جُمادى وَشَعْبَانَ». ومقصودُ الحديثِ: لا تُحِلُّوا القِتالَ في الأشهُرِ الحُرُمِ، واجتنِبُوا المحارمَ والآثامَ في هذه الأشهُر، يعني: عَظِّمُوها. قَالَ الله تَعالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التَّوبَة ٣٦].

الآيةُ هنا تُوجب قِتالَهُم في الأشهُر الحُرُمِ مع حُرْمَتِهَا، كما فَعَلُوا هم بانتهاكِ حُرْمَتِهَا، وتأذنُ لهم في قِتالِ من قاتلهم في الشّهرِ الحرامِ، أو في الحَرَمِ، أو وهم مُحْرِمُونَ، وهكذا الحُرُمَاتُ قِصاصٌ. فالآيةُ تُزِيلُ عن المسلمين خوفَهُم من الوقوعِ في الإثمِ إنْ قاتَلُوا المشركين الذين اعتدَوْا عليهم في الأشهُرِ الحُرُم، حتّى لا يستغلّ أعداءُ الأمّةِ حُرْمَةَ هذه الأشهُر فيُقاتِلونا ويقْتُلُونا. أخرجَ أحمدُ عن جابرٍ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَغْزُو فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يُغْزَى، فَإِذَا حَضَرَ ذَاكَ، أَقَامَ حَتَّى يَنْسَلِخَ». (يعني: إذا غُزِي؛ قاتَلَ ودافعَ عن الإسلامِ والمسلمينَ حتّى ينْدَحِرَ الغُزاةُ).

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ لأنّ الحُرُمَاتِ قِصاصٌ؛ فمن اعْتدَى على أرضِ المسلمين وأنفُسِهم وخيْراتِهم، وَجبَ على المسلمين دَفْعُهُ وقَتْلُه، ولهم أنْ يعْتدُوا عليه بِمِثْلِ ما اعْتدَى عليهم في الأحوالِ والأزمانِ. وهذا من العَدْلِ في التّعامُلِ مع الآخر، كما قال ربُّنا: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النَّحلِ ١٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشّورى ٤٠].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ احرصوا على تقوى الله فيما أمركُم به، فلا تعْتدُوا ولا تتجاوزُوا ما أَذِنَ الله لكم به، لتنالوا مَعِيَّةَ الله لكُم؛ يحفظُكُم ويُؤيِّدُكم ويُسدِّدُكم ويُكرِمُكم، ويرضى عنكم ويُرضِيكُم.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾

هذه الآيةُ جاءتْ في سياقِ الدّعوةِ إلى الجهادِ في سبيلِ الله، ولذلك حَمَلَها جماهيرُ المفسّرين قديماً وحديثًا على الإنفاقِ في نُصْرَةِ الجهادِ ودَعْمِ المجاهدين، خاصّةً أنّ مصطلحَ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ غَلَبَ على الجهادِ في القرآنِ، وهو يشملُ شِراءَ السّلاحِ والغذاءِ وكلِّ ما يحتاجُه المقاتلُ، ويشملُ أنْ نَخْلُفَ الغازي في أهلِه بخيرٍ، ويشملُ أنْ نُحسنَ العُدَّةَ للجهادِ بالتّدريبِ وإعدادِ ما استطَعْنا من قوّةٍ.

ولا تُلْقُوا أيُّها المسلمونَ بأيديكُم إلى التّهلُكةِ إنْ تَركْتُم الجهادَ والإعدادَ له، فإنّه مَنْ تَركَه سَلّطَ الله عليهِ ذُلًّا وهَلَكَ، سَلّطَ الله عليهِ عدوَّه فأذاقَه ما أذاقَه في نفسِه وأرضِه وأهلِه ودينِه، فإنّ أعداءَ الأمّةِ جُبِلُوا وطُبِعُوا على التّربُّصِ بها وإيلامِها.

وحتى تعلمُوا أنّ هذا الفَهْمَ للآيةِ كان فَهْمَ الصّحابةِ الذين عاصرُوا تنزيلَ الآياتِ، تأمّلُوا ما أخرجه ابنُ حبّانَ وأبو داودَ واللّفظ له، عن أَسْلَمَ أَبُو عِمْرَانَ قَالَ: «غَزَوْنَا من المدينةِ نريدُ القسطنطينيّةَ، وعلى الجماعةِ عبدُ الرحمن بنُ خالد بنِ الوليد، والرُّومُ ملْصِقُو ظهورِهم بحائطِ المدينةِ، فحَمَلَ رجلٌ على العدوِّ، فقال النّاس: مَهْ!! مَهْ!! لا إله إلا الله! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إلى التهْلُكَةِ! فقال أبو أيّوب: إنّما نَزلَتْ هذه الآيةُ فِينا مَعْشَرَ الأنصارِ: لَمّا نصرَ الله نبيَّه، وأظهرَ الإسلامَ؛ قلنا: هَلُمَّ نُقِمْ في أموالِنا ونُصْلِحْها، فأنزلَ الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾، فالإلقاءُ بالأَيْدِي إلى التّهْلُكَةِ: أنْ نُقِيمَ في أموالِنا ونصْلِحَها، ونَدَعَ الجهادَ. قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيّوب يُجاهِدُ في سبيلِ الله؛ حتى دُفِنَ بالقسطنطينيّةِ».

﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لا تَقْتَصِرُوا على ما وَجَبَ عليكم، بل تصدّقُوا بالفضلِ، وأَكْثِرُوا من الإنفاقِ في الجهادِ وغيرِه، بل أَحْسِنُوا بِلُزُومِ آدابِ الجهادِ وأحكامِه في كلِّ أحوالِكُم؛ فإنّ ذلك سببٌ لاستجلابِ محبّةِ الله لكم، إنّه يحبُّ المحسنينَ.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾

عطفٌ على ما بيَّنَتْهُ الآياتُ من أحكامِ الصّيامِ، ثمّ أحكامِ الجهادِ.

بدأت الآياتُ هنا في سياقٍ قرآنيٍّ يمتدُّ لبيانِ جملةٍ من الأحكامِ الشّرعيّةِ الخاصّةِ بالحَجِّ وقَصْدِ البيتِ الحرامِ.

وقد تقدّمَ معنا أنّ الآياتِ نَزَلَتْ في صلحِ الحديبيةِ، الذي أرادَ المسلمون فيه العُمْرَةَ، ولم يكن الحَجُّ يومئذٍ مفروضًا، ولكن جاءَ ذِكْرُ الحَجِّ هنا وبيانُ عددٍ من أحكامِه، بشارةً للمسلمين بأنّ مكّةَ ستُطَهّرُ من الشّركِ، وستكونُ في أيديكُم وستَحُجّونَ حَجَّةَ الإسلامِ التي أرادَ الله.

وأتِمّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لله، أي: إذا أَحرَمْتُم وشَرَعْتُم في أعمالِ الحَجِّ أو العُمْرَةِ، فأَكْمِلوا أعمالَهما من أركانٍ وواجباتٍ، ولا تخرجُوا منهما، فإنّ إحْرَامَكُم عَهْدٌ مع الله فأَتِمّوه، وأَخلِصُوا له فيه، ولا تلتفِتُوا ولا تتحَرَّجُوا بسببِ ما فَعَلَه ويفعلُه أهلُ الشّركِ عندَ الكعبةِ.

والحَجُّ ركنٌ من أركانِ الإسلامِ، والعمْرَةُ واجبةٌ على قولِ الشّافعيّةِ والحنابلةِ خلافًا لغيرِهم. وعندَ أهلِ العلمِ: يجبُ على من أَحْرَمَ بهما أنْ يتمّمَ أركانَ وواجباتِ طاعتِه.

﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ المُحرِمُ قد يصدُّه ويمنعُه عدوٌّ عن إتمامِ عُمْرَتِه، وقد يحولُ حائلٌ دونَ وصولِه إلى البيتِ الحرامِ، فيضطرُّ إلى الرجوعِ بعدَ أنْ أَحْرَمَ ودخلَ في النُّسُكِ. هنا قال الله تعالى: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ أي: إنْ لم تستطيعُوا إتْمامَ النُّسُكِ، فيلزمُكُم هَدْيٌ تذبحونَه وتفرّقونَ لحمَه في المكانِ الذي أُحْصِرْتُم فيهِ عندَ جمهورِ الفُقَهاءِ. فضلًا عن حَلْقِ رؤوسِكُم كما سيأتي. تذبحونَ ما تيسّر معكُم من شاةٍ أو تشتركونَ مع سَبعةٍ في ذَبْحِ بقرةٍ أو إبِلٍ. وهذا كما حصلَ مع المسلمين في عُمْرَةِ الحديبيةِ، حيث أحرَمُوا بالعُمْرَةِ من ذي الحُلَيْفَةِ، ثم توجّهُوا وقَصَدُوا البيتَ الحرامَ، فمَنَعَهُم أهلُ مكّةَ من دُخولِها، وكان صلحُ الحديبيةِ على أنْ يرجِعُوا ولا يعتمِرُوا، فلم يستطيعُوا إكمالَ عُمْرَتِهم، فأَمَرَهم صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يحلِقُوا ويذْبَحُوا ما ساقُوه من الهَدْيِ ويتَحَلَّلُوا.

وهل إذا مَرِضَ أو اضطرّ إلى الرّجوعِ إلى بلدِه لسببٍ مُعْتَبَرٍ، يكونُ مُحْصَرًا وينطبقُ عليه الحكمُ نفسُه؟ بعضُ أهلِ العلمِ ذهبوا إلى أنّ الحكمَ واحدٌ فيمَنْ حَصَرَه عدوٌّ أو مَرَضٌ أو غيرُهما. وجمهورُ الفُقَهاءِ على أنّ الآيةَ ينطبقُ حكمُها على من أُحْصِرَ بسببِ العدوِّ فقط. أما غيرُ ذلك من مرضٍ ونحوِه، فبعضُهم يقيسُ حالةَ المَرَضِ على العدوِّ، وبعضُ العلماءِ يُفتي بأنّ المُحْرِمَ بالحجِّ إذا مرض فإنّه ينتظرُ حتّى يَشْفى، ثمّ يتَحَلَّلُ بعُمْرَةٍ يطوفُ فيها ويسعى ويَحْلِقُ ويذبحُ هَدْيًا، ثمّ يرجعُ ويقضي الحجَّ في السّنةِ التي بعدَها، ولكلٍّ أدلّتُه في ذلك على تفصيلٍ عندَهُم.

ويُستثنَى من ذلك ما لو اشترَطَ في إحْرامِه؛ كما دلّ على ذلك ما أخرجَه البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ عَائِشَةَ رضيَ الله عنها، قَالَتْ: دَخَلَ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ فَقَالَ لَهَا: «لَعَلَّكِ أَرَدْتِ الحَجَّ؟» قَالَتْ: وَالله مَا أَجِدُنِي إِلَّا وَجِعَةً. فَقَالَ لَهَا: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي وَقُولِي: اللهمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حبَسْتَنِي». فمن اشترطَ ولم يستطِعْ الإكمالَ لِعُذْرٍ مُعْتَبَرٍ، فيرجعُ وليس عليه هَدْيٌ.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: تحَلَّلُوا من عُمْرَتِكُم التي لم تستطيعُوا إكمالَها بذبحِ الهَدْيِ الذي أحضرتمُوه وسُقْتُموه معكُم، ثمّ احْلِقُوا رؤوسَكُم.

وحَلْقُ الرّأسِ في الحجِّ أو العُمْرَةِ، فيه مسألتانِ:

الأولى: أنّه رُكْنٌ من أركانِ الحَجِّ والعُمْرَةِ عندَ أكثرِ أهلِ العلمِ. والحَلْقُ له وقتُه الذي لا يجوزُ ولا يُجْزِئُ الحَلْقُ قبلَه، فمنْ حَجَّ أو اعتمرَ، فلا يَحْلِقْ رأسَه حتّى يدخلَ وقتُه بحَسَبِ ما ذكرَ أهلُ الفِقْهِ.

الثانية: أنّ حَلْقَ الرّأسِ من محظوراتِ الإِحْرَامِ؛ فمنْ فَعَلَه حالَ إِحْرامِه بدونِ عذرٍ، فإنّه آثمٌ ولَزِمَتْهُ الكَفَّارَةُ، أمّا من فَعَلَه لِعُذْرٍ، فعليه الكَفَّارةُ ولا يُؤَثَّمُ، وإليكم بيانُ ما يَلْزَمُه من كَفَّارةٍ:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ هذه كفّارةُ من احتاجَ لِحَلْقِ رأسِه حالَ إحرامِه لسببٍ ما، كوجودِ قَمْلٍ ووَسَخٍ شديدٍ ونحوِ ذلك.

الكَفَّارَةُ على التّخيير؛ إمّا أنْ يصومَ أو يتصدَّقَ أو يذبحَ شاةً. ومقدارُ ذلك جاءَ في حديثٍ أخرجَه البخاريُّ ومسلمٌ واللّفظُ له، عن كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَفَ عَلَيْهِ وَرَأْسُهُ يَتهافَتُ قَمْلًا، فقَالَ: «أَيُؤْذِيكَ هَوامُّكَ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاحْلِقْ رَأْسَكَ». قَالَ: فَفِيَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ تَصَدَّقْ بِفَرَقٍ بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، أَوْ انْسُكْ مَا تَيَسَّرَ».

وهذه الكَفَّارَةُ يُفتي بها كثيرٌ من أهلِ العلمِ، في عددٍ من محظوراتِ الإحرامِ إذا ارتكَبَها المُحْرِمُ بالحَجِّ أو العُمْرَةِ، كتقليمِ الأظافرِ، وتغطيةِ الرّأسِ بمُلاصِقٍ، والتَّطيُّبِ، وغيرِ ذلك، كما هو مبثوثٌ بتفاصيلِه في أمّهاتِ كُتُبِ الفقهِ.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ الحجُّ على أنواعٍ ثلاثةٍ؛ إفْرادٌ بالحَجِّ فقط بدونِ عُمْرَةٍ فلا يلزَمُ صاحبَه هَدْيٌ، وتَمَتُّعٌ يجمعُ فيه صاحبُه بينَ العُمْرَةِ والحَجِّ ويتحَلَّلُ بينَهُما، فهذا يلزمُه

هَدْيٌ. ونوعٌ ثالثٌ يُعرف عندَ الفقهاءِ بالقِرانِ، أي: يَقْرِنُ صاحبُه فيه بين العُمْرَةِ والحجِّ دونَ أنْ يتحَلَّلَ بينَهُما، وهذا كذلك يلزَمُه هَدْيٌ، وفي المتمتّعِ والقَارِنِ جاءَ البيانُ هنا.

القَارِنُ والمتمتّعُ إذا أَمِنُوا وتمكَّنُوا من أداءِ مناسكِ الحجِّ والعُمْرَةِ، فلْيَذْبَحُوا ما يَقْدِرونَ عليه وما تيسّرَ لهم من الهَدْيِ؛ إمّا شاةٌ أو يشتركُ مع ستةٍ في ذبحِ بقرةٍ أو بَدَنةٍ (جمَل).

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ فمَنْ لمْ يجِدْ هَدْيًا، أو لمْ يكُنْ مَعَه ثمَنُه، فلْيَصُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ، وسبعةَ أيّامٍ إذا رجعَ إلى بلدِه وأهلِه. وزمَنُ ابتداءِ الصّيامِ في حقّهِ في الحَجِّ وحينَ رُجُوعِه لبلدِه، فيه تفصيلٌ وبيانٌ عند العلماءِ محلُّه كُتُبُ الفقهِ.

﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ أهلُ مكّةَ، ومَنْ يسكنونَ دونَ المواقيتِ المكانيّةِ، أي: بين مكّةَ والميقاتِ، لا يَلْزَمُهُم هَدْيٌ إذا حَجُّوا متَمتّعينَ أو قَارِنِينَ عندَ من يُجِيزُ لهم ذلك، وهو قولُ جمهورِ الفقهاءِ، وهو حكمٌ خاصٌّ بهم دونَ غيرِهم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: فِيما أَمَرَكُمْ وَمَا نَهَاكُمْ، وفيما علَّمَكُم وأَرْشَدَكُم.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أَيْ: لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَه، وارتكبَ ما عنه زَجَرَه.

﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾

سياقٌ قرآنيٌّ مستمرٌّ في بيانِ أحكامِ فريضةِ الحَجِّ. وفي السّياقِ تأتينا الإشارةُ إلى بعضِ ما كان عليه أهلُ الجاهليّةِ من أعمالِ الحجِّ، وتُبيِّنُ للمسلمينَ حَجَّةَ الإسلامِ التي تُرْضِي ربَّهم عنهُم.

هنا في الآيةِ يُبيِّنُ الله تعالى أنَّ الحَجَّ له أشهُرٌ معلومةٌ ومعهودةٌ في الشّرعِ، وهي شوّالُ وذو القعدةِ والعَشْرُ الأوائلُ من ذِي الحِجّةِ، وهي الأشهُرُ التي يكونُ فيها الإحرامُ، ويُجْزِئُ فيها إنشاءُ النّيّةِ للحَجِّ عندَ الشّافعيّةِ، كما دلّ على ذلك ما أخرجه ابنُ خُزَيْمَةَ والدّارَقُطْنِيُّ والحاكمُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُما قَالَ: «لَا يُحْرِمُ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، فَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ الْحَجِّ أَنْ تُحْرِمَ بِالْحَجِّ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ». أمّا عندَ الجمهورِ، فيجوزُ عندَهم الإهلالُ بالحجِّ وإنشاءُ النّيّةِ في جميعِ أَشْهُرِ السّنَةِ.

﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ ﴾ أي: فَمَنْ أَوْجَبَ على نفسِه حَجًّا في هذه الأشهُرِ بإحرامِه فيها، ومن عَزَمَ ونَوى ودخلَ في النُّسُكِ: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾، أَيْ: فَلْيَجْتَنِبْ حالَ إِحْرامِهِ الرَّفَثَ، وَهُوَ الجِماعُ بينَ الزّوجَيْنِ ومُقدّماتِه. وعندَ كثيرٍ من أهلِ العلمِ: يَفْسُدُ حَجُّ من جامعَ أهلَه قبلَ تحلله الأوّلِ، وتَلْزَمُه كفّارةٌ لو فعلَه قبلَ التّحلّلِ الأكْبَرِ على تفصيلٍ وخلافٍ عندَ الفقهاءِ. وكذا من محظوراتِ الإحرامِ مقدّماتُ الجِماعِ من كلامٍ وتقبيلٍ وضَمٍّ بشهوةٍ وغيرِ ذلك. وكذا عقدُ النّكاحِ، لا يتزوّجُ ولا يكونُ وَليًّا ولا شاهدًا.

وكذلك ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي: ولا إتيانَ لمعاصِي الله لِمَنْ أحرمَ بالحَجِّ من نَظَرٍ وسَماعٍ وكلامٍ مُحَرَّمٍ، وخاصّةً سِبابُ المسلمينَ وإطلاقُ اللّسانِ فيهم وفي أَعْرَاضِهِم، كما أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْر». مع أنّ المعاصِي وسبابُ المسلمينِ مُحَرَّمَةٌ ولا يَحِلُّ لأحدٍ فِعْلُهَا طوالَ العامِ، لكن تحريمَها آكَدُ وأَشَدُّ لِمَنْ دخلَ في نُسُكِ الحَجِّ، كما تكون آكَدُ في أشهُرِ الحَجِّ وفي الحَرَمِ وفي المسجدِ الحَرام. قال ربُّنا عن الأشْهُرِ الحُرُم: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التَّوْبَة ٣٦]، وقَالَ في الحَرَم: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحَجّ ٢٥]، مع أنّ الظُّلْمَ مُحَرَّمٌ مطلَقًا في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

وفي ثوابِ من حَجَّ بيتَ الله ولم يفعلْ من ذلك شيئًا، جاءَ حديثٌ أخرجَه البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

إذا فلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ، وكذلك: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾، أي: ولا يتخاصمُ ويتَنازَعُ الحُجّاجُ فيما بينَهم، ويُكْثِرُونَ من المِراءِ حتى يُغضِبَ الواحدُ منهُم أخاه، وتكونَ الضّغينةُ والكُرْهُ في صَدْرِه. أمّا إذا لم يُغاضِبْ أخاه، وإنّما حدّثَه على سبيلِ النُّصحِ والإِرْشادِ والمُعاتبَةِ، أو طلبَ منه حقًّا له ظَلَمَه أخوه فيه، أو تدارَسَ وتَناظَرَ في مسائلِ العلمِ، أو أمرَ بالمعروفِ ونهى عن المُنْكَرِ، فهذا ليسَ من الجِدالِ المذمومِ.

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ بعدَ أنْ ذكّرَتْهُم الآيةُ بعددٍ من محظوراتِ وآدابِ إِحْرامِهِم وما لا ينبغي لهم فعلُه، فَتَحَتْ لهم هنا أبوابَ الخيرِ التي لا حَصْرَ لها، وشوّقتْهُم لِفِعْلِهَا، وحبّبَتْهَا إليهم بإعلامِهِم أنّه سبحانَه وتعالى عالمٌ بما يفعلونَ من الخيراتِ، التي يفوزُ صاحبُها بأَوْفَرِ الحظِّ والجَزاءِ عندَ الله.

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الزّادُ الذي يحتاجُه الحاجُّ في سَفَرِه حتّى يرجِعَ إلى بيتِه ضَرْبانِ ونوعانِ، كِلاهُما مقصودٌ في خِتامِ الآيةِ الكريمةِ، وهما:

الأوّل: زادٌ للأبدانِ، وهو زادٌ حِسِّيٌّ يشملُ تجهيزَ الحاجّ ما يلزمُه من طعامٍ وشرابٍ ولِبَاسٍ وما شَابَهَ.
أخرج البخاريُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَ أَهْلُ اليَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ المُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ ». فالآيةُ هنا أَعْلَمَتْهُم أنّ سؤالَهم النّاسَ الطّعامَ سؤالٌ مذمومٌ، وهو ليس من التوكُّلِ الشّرعيِّ، بل من التّواكُلِ المَذمومِ.

الثّاني: زادٌ للأرواحِ، وهو زادٌ معنويٌّ يَخُصُّ الدّارَ الآخرةَ، ولذلك كانَ خيرَ زادٍ.

الحرصُ على تقوى الله وتحصيلِها وزيادتِها في جميعِ مناسِكِ الحَجِّ هو مقصودُ الحَجِّ الأعظمِ، وأهلُ التّقوى هم أهلُ الإيمانِ الذين يَتَّقُونَ ويَحْذَرُونَ الشّركَ والمعاصي، ويُقْبِلونَ على ما يُحِبّه ربُّهم ويرضاه، وهُمُ الَّذِينَ تَجَرَّدُوا عَنِ المُكَابَرَةِ، وَنَزَّهُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ التَّقْلِيدِ والاتّباعِ الأعمى لِلْمُضلّينَ والمستكْبِرين. قال بعضُ العُلَماءِ في ضَبْطِ التّقوى: «وَالتَّقْوَى الشَّرْعِيَّةُ: هِيَ امْتِثَالُ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابُ الْمَنْهِيَّاتِ مِنَ الْكَبَائِرِ، وَعَدَمُ الِاسْتِرْسَالِ عَلَى الصَّغَائِرِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا».

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وَاتَّقُوا واجتَنِبُوا غضبَ الله وعقوبَتَه إنْ خالَفْتُم أوامرَه، وهذا تحذيرٌ ربّانيٌّ لا يفهمُه ويَعِيهِ ويَنْقَادُ له، إلا ذَوُو العُقولِ والبَصائِرِ والأَفْهَامِ.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨)﴾

هذه الآيةُ تَأْذَنُ وتُبيحُ لِمَنْ خرجَ إلى الحَجِّ أنْ ينتفعَ بتجارةٍ ونحوِها لتحصيلِ الربحِ في الحَجِّ، فلا جُناحَ ولا إثمَ عليه، ولا كَراهَةَ إنْ باعَ واشترى وابتغى الرّزقَ والمالَ والفَضْلَ من الله.

أخرج الْبُخَارِيُّ عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانَتْ عُكَاظُ وَمَجَنَّةُ وَذُو المَجَازِ أَسْوَاقَ الجَاهِلِيَّةِ، فتأَثَّموا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي المَوَاسِمِ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ». وعند أبي دَاوُدَ وَغَيْرِه: «كَانُوا يَتَّقُون الْبُيُوعَ وَالتِّجَارَةَ فِي الْمَوْسِمِ وَالْحَجِّ، يَقُولُونَ: أَيَّامُ ذِكْرٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ .

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ يوم عَرفَةَ هو خيرُ يومٍ طَلَعَتْ عليهِ الشّمسُ، والوُقوفُ بعَرفَةَ من أركانِ الحَجِّ، ومن أدركَ عَرفَةَ جزءًا من ليلٍ أو نهارٍ؛ أدركَ الحَجَّ.

ووقتُ الوقوفِ يبدأُ من زوالِ شمسِ التّاسعِ من ذي الحِجَّةِ، وكان نبيُّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبقى في عَرَفَةَ حتّى غروبِ الشّمسِ، ويصلّي فيها الظّهرَ والعصرَ جَمْعَ تقديمٍ، فإذا غَرَبَتْ توَجَّهَ إلى مُزْدَلِفَةَ وصلّى فيها المغربَ والعِشَاءَ جَمْعَ تأخيرٍ، ويبْقَى إلى الفَجْرِ، ثم يتوجَّه إلى مِنَى قبلَ شروقِ الشّمسِ.

ومُزْدَلِفَةُ هي المَشْعَرُ الحَرَامُ الذي جاءَ التّوجيهُ الرّبَّانِيُّ بذِكْرِ الله فيها في هذه الآيةِ، ذِكْرُ الله الذي يكونُ بأداءِ صَلاتَيْ المغربِ والعِشَاءِ والدُّعاءِ والتّسبيحِ والحمدِ والاستغفارِ والتهليلِ وهكذا.

وكلمةُ المَشْعَرِ من الشّعائرِ وهو الشيءُ الظّاهرُ، يعني هو من أعمالِ الحَجِّ الظّاهرةِ، ويسمّى بالمَشْعَرِ الحرامِ لأنّه داخلَ حدودِ الحَرَمِ، بخلافِ عَرَفَةَ التي تسمّى بالمَشْعَرِ الحَلالِ لأنّها خارجَ حدودِ الحَرَمِ. ولأهلِ الفقه تفصيلٌ في حكمِ المبيتِ بِمُزْدَلِفَةَ ووَقْتِه يُراجَعُ في محَلِّهِ.

أخرجَ ابنُ خُزَيْمَةَ والطّبرانيُّ، عن ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُما، أنّ دفْعَ النّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخروجَه بعد الغروبِ من عَرفَةَ، إنّما كان لمخالفةِ المشركين في حَجِّهِم حيثُ كانوا يتوَجَّهُونَ إلى مُزْدَلِفَةَ قبلَ غُروبِ الشّمسِ. وكذا في مُزْدَلِفَةَ، كانوا يتحرَّكُونَ منها بعدَ شُروقِ شمسِ العَاشِرِ من ذي الحِجَّةِ، فخَالَفَهُم صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحرّكَ بعدَ الفَجْرِ وقبلَ شُروقِ الشّمسِ.

﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ هذا تهييجٌ لهم بالحرصِ على ذِكْرِ الله تعالى والإِكْثَارِ منه، عن طريقِ تذكيرِهم بنعمةِ الله عليهم أنْ هَدَاهُم وأرْشَدَهُم، وعلَّمَهُم مناسكَ الحَجِّ على سَنَنِ الأنبياءِ وهَدْيِ أبيهِم إبراهيمَ عليه الصّلاةُ والسّلامُ، بعدَ أنْ كانُوا ضَالّينَ وجَاهِلينَ لهذه المناسكِ على الوجهِ الذي يُرضِي ربَّهُم عنهُم.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾

قريشٌ كانت تُخَالِفُ سائرَ العربِ في حَجِّهِم في الجاهليّةِ ، فَلَمْ تكُنْ تخرجُ يومَ عَرفَةَ إلى عرفاتٍ التي هي خارجَ حدودِ الحَرَمِ، بل كانت تبقى في مُزْدَلِفَةَ التي هي داخلَ حدودِ الحَرَمِ، زاعمةً أنّه ما كان لها الخروجُ في الحَجِّ خارجَ حدودِ حَرَمِ الله، فإنّ هذا بزَعْمِهَا يُنْقِصُ مكانَتَها ومكانةَ الحَرَمِ بين العَرَبِ.

الآيةُ هنا تعلّمُ المسلمينَ أنّ الإفاضةَ إنّما تكونُ من عرفاتٍ إلى مُزْدَلِفَةَ، في ليلةِ العاشرِ من ذي الحِجَّةِ، كما هو حالُ أكثرِ النّاسِ الذين يُقيمونَ في عرَفَةَ يومَ التّاسعِ، لا كما تفعلُ قريش. أخرجَ البُخاريُّ ومسلمٌ عن عائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَت قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الْحُمْسَ، وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَةَ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ، أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ فَيَقِفَ بِهَا، ثُمَّ يُفِيضَ مِنهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾».

وفي الحديثِ المتّفقِ عليه كذلك، قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً، إِلَّا الْحُمْسَ، وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، كَانُوا يَطُوفُونَ عُرَاةً، إِلَّا أَنْ تُعْطِيَهُمُ الْحُمْسُ ثِيَابًا، فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجَالَ، وَالنِّسَاءُ النِّسَاءَ، وَكَانَتِ الْحُمْسُ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ يَبْلُغُونَ عَرَفَاتٍ، قَالَ هِشَامٌ: فَحَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «الْحُمْسُ هُمُ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ قَالَتْ: كَانَ النَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَكَانَ الْحُمْسُ يُفِيضُونَ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ، يَقُولُونَ: لَا نُفِيضُ إِلَّا مِنَ الْحَرَمِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾، رَجَعُوا إِلَى عَرَفَاتٍ». حتّى إنَّ جُبَيْرَ بنَ مُطْعِمٍ أنكرَ وقوفَ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعرَفَةَ، لأنّه من الحُمْسِ، كما دلَّ على ذلك ما أخرجه البخاريُّ عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: أَضْلَلْتُ بَعِيرًا لِي، فَذَهَبْتُ أَطْلُبُهُ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقِفًا بِعَرَفَةَ، فَقُلْتُ: «هَذَا وَاللهِ مِنَ الْحُمْسِ فَمَا شَأْنُهُ هَا هُنَا».

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ذِكْر الله تعالى بعد قضاءِ العبادةِ ثابتٌ في أكثرَ من توجيهٍ ربّانيٍّ، كما نفعلُ بعدَ الصّلواتِ الخَمْسِ وبعدَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ وغيرِ ذلك.

وكذلك هنا نُفيضُ إلى مُزْدَلِفَةَ، ثمّ إلى مِنَى، حَريصينَ على خَتمِ كلِّ طاعةٍ بالاستغفارِ عمّا كانَ منّا من تقصيرٍ، ولاستحضارِ نِعَمِ اللهِ علينا التي يبقَى الواحدُ منّا مُقصِّرًا في شُكرِهَا، وكذلك تأمّلُوا الآيةَ التّاليةَ في هذا المعنى، قال اللهُ تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾

هذا خطابٌ نزلَ على مَنْ كانوا يعظّمونَ آباءَهُم زَمَنَ الجاهليّةِ، حتّى إذا قَضَوْا حجَّهُم، اشتغَلُوا بالتّفاخرِ بالأنسابِ والآباءِ.

جاءَ الخِطَابُ القُرآنيُّ هنا، يوجِّهُ ويُصحِّحُ ويُرشِدُ إلى أنّهم إذا قَضَوْا أفعالَ الحَجِّ وذَهَبُوا بعدَ عَرَفَةَ ومُزْدَلِفَة إلى مِنَى، ورَمَوْا الجِمارَ وطَافُوا للإفاضةِ وسَعَوْا وانتهى حَجُّهُم، فلْيَجْعَلُوا ألسِنَتَهُم رَطْبَةً بذكرِ الله ولا يغْفُلُوا. اذكُروا الله كما يذْكُرُ الصبيُّ أَبَوَيْهِ ويتعَلَّقُ بهما، وكما كنتُم تذكرونَ آباءَكم وتتفاخرونَ بهم أيّامَ الجاهليّةِ، بل أشدَّ وأكثرَ.

ولفظة: ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى: بل، يعني: بل أشدَّ ذِكْرًا من ذِكْرِ الواحدِ منّا لأَبَوَيْهِ اللّذَيْنِ هُما أغْلَى ما في حياتِه.

الآيةُ فيها حَثٌّ وتحفيزٌ وتهييجٌ لذِكرِ الله تعالى وتعظيمِه.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ هنا بيانٌ لحالِ صِنفٍ من النّاسِ يَحْرِصُ على الدُّعاءِ الذي هو ذكرٌ لله تعالى، كما وَجَّهَتْ الآيةُ في ابتدائِهَا، لكن هذا الصِّنْفَ إذا دَعَا، لا يسألُ الله في دُعائِهِ إلا الدّنيا ومُتَعَهَا، وليسَ له هِمَّةٌ أو أدنى تَعَلُّقٍ بالآخرةِ، لا يسألُ الله العَفْوَ والمغفرةَ والفوزَ بالجنَّةِ والنّجاةَ من النّارِ، وإنّما يسألُه فقط الولدَ والمالَ والصّحَّةَ في الدّنيا.

ولذلك ليس له في الآخرةِ حَظٌّ ولا نصيبٌ، وهذا فيه تعريضٌ بالمشركين الذين لا يسألونَ الله الدّارَ الآخرةَ، فإنّهم لا يؤمنونَ بها.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾

أما الصِّنفُ الآخرُ، فهم أهلُ الإيمانِ الذينَ يسألونَ الله تعالى من فَضْلِهِ في الدّنيا والآخرةِ، كما أنّهم يسألونه نِعَمَ الدّنيا ولا حَرَجَ في ذلك، فإنّ قُلوبَهم متعلِّقَةٌ بالدّارِ الآخرةِ؛ يَرْجُونَ رحمةَ الله ويَخْشَوْنَ عذابَه.

وهذا الدُّعاءُ من أَجْمَعِ أنواعِ الدُّعاءِ وأشْمَلِهَا؛ نُريدُ حَسَنَةَ الدّنيا من عافيةٍ ودارٍ ورِزْقٍ وزَوْجٍ، وعِلْمٍ وعملٍ ومركبٍ وثَنَاءٍ وقَبولٍ بين النّاسِ، ونُريدُ حَسَنَةَ الآخرةِ من دخولِ الجَنّةِ، والأمنَ في أرضِ المَحْشَرِ، والعِتْقَ من النّارِ.

كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحرصُ على هذا الدُّعاءِ في طَوَافِهِ حولَ الكعبةِ، يقولُه بينَ الرُّكْنِ والمقام. أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ». وأخرج مسلمٌ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللهمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ اللهِ لَا تُطِيقُهُ -أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ- أَفَلَا قُلْتَ: اللهمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ». قَالَ: فَدَعَا اللهُ لَهُ، فَشَفَاهُ.

﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾

الذين يحرِصُونَ في دُعائِهم على خَيْرَيِ الدّنيا والآخرةِ، سيستجيبُ الله لهُم كَسْبَهُم وطَلَبَهُم بِحَسَبِ ما ينفَعُهُم، ولهم أَجْرُهُم عندَ ربِّهِم.

وهو سبحانَه سريعُ الحسابِ والجزاءِ والمَثُوبَةِ، وسيحاسبُهم حساباً يسيرًا، أو قدْ يعفو عنهُم.

﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾

بعدَ أنْ جاءَتْ الآياتُ السّابقةُ ببيانِ عددٍ من مناسكِ الحَجِّ وآدابِه، من الوقوفِ بعَرَفَةَ والمبيتِ بمُزْدلِفَةَ والحَلْقِ والذَّبحِ وغيرِ ذلك، جاءَتْ الآيةُ هنا تُرشدُ إلى طاعةٍ عظيمةٍ في أيّامِ مِنَى، وهيَ ثلاثةُ أيّامٍ، وتُسمّى أيّامَ التّشريقِ، تبدأُ من ثاني أيّامِ عيدِ الأَضْحَى وتنتهي رابِعَه، وهي أيّامُ الحادي عشَرَ والثّاني عشَرَ والثّالثِ عَشَرَ من شهرِ ذي الحِجَّةِ. وأفعالُ الحَجِّ فيها تتعلّقُ بتحقيقِ المبيتِ بِمِنَى ورَمْيِ الجِمارِ الثّلاثِ، الصُّغرى والوُسْطى والكُبْرى.

أمّا أوّلُ يومٍ في عيدِ الأضحى، فليسَ من أيّامِ التّشريقِ، بل يُعْرَفُ عندَ أهلِ العلمِ بيومِ النَّحْرِ.

في هذه الأيامِ تُرشدُ الآيةُ إلى الحِرْصِ على ذِكْرِ الله تعالى فيها، بخلافِ ما كانَ يفعلُه أهلُ الجاهِلِيَّةِ في حَجِّهِم من الاشتغالِ بالتَّفاخُرِ ومُغازَلَةِ النِّساءِ.

أخرجَ الإمامُ مسلمٌ عَنْ نُبَيْشَةَ الْهُذَلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لله». قال الإمامُ البخاريُّ: «وكانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنهُ يكبِّرُ في قُبَّتِهِ بمنىً، فيسمعُهُ أهلُ المسجدِ، فيكبِّرونَ، ويكبِّرُ أهلُ الأسواقِ، حتى ترتجَّ مِنى تكبيراً. وكانَ ابنُ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما يكبِّرُ بِمِنى تلكَ الأيامِ، وخلْفَ الصّلواتِ، وعلى فِراشِهِ، وفي فُسْطاطِهِ ومجلِسِهِ، وممْشاهُ تلكَ الأيامِ جميعاً».

وفي حديثٍ مختلَفٍ في صِحّتِه، أخرجه أحمدُ وأبو داود وغيرُهما عَنْ عَائِشَةَ رضيَ اللهُ عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمْيُ الْجِمَارِ، لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الآيةُ تُبيِّنُ أنّ من اقتصر على المَبيتِ ورَمْيِ الجِمارِ في يومينِ من أيّامِ التّشريقِ، فقد تمّ حَجُّه وثبتَ أجرُه، ولا يلزمُه شيءٌ، وله أنْ يتأخّرَ إلى اليومِ الثّالثِ لتحصيلِ مزيدٍ من الأَجْرِ، ما كانَ متحلِّيًا بتقوى الله تعالى من الإقبالِ على الطّاعةِ واجتنابِ المعصيةِ. فلا ذَنْبَ في التّعجيلِ ولا ذَنْبَ في التّأخيرِ، وإنْ كان التّأخيرُ أفضلَ وأكملَ وأَوْلَى وأكثرَ مَثُوبَةً.

والآيةُ فيها كذلك دَلالةٌ على وُجوبِ المَبيتِ بمِنى أيّامَ التّشريقِ، وجاءتْ السُّنّةُ باستثناءِ أصحابِ الحاجاتِ من الوجوبِ، لإذْنِ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعددٍ من أصحابِه بالمَبيتِ خارجَ مِنَى، لقيامِهم على خدمةِ الحَجيجِ ورَعْيِ أغنامِهم وغيرِ ذلك.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وَصِيَّةٌ بتقوى الله تعالى في خِتامِ آياتِ الحَجِّ، مع أنّه سَبقَتْ الإشارةُ إليها في الآيةِ، وما ذاكَ إلّا لأنّ التّقوى هو ما ينفعُ العبدَ من حَجِّهِ، فبِقَدْرِ تحصيلِه خشيةَ الله تعالى في السّرِّ والعَلَنِ، بقَدْرِ ما كان ذلك من علاماتِ قَبُولِ حَجِّه ورِفْعَةِ دَرَجتِهِ.

والتّقوى هي ما يحتاجُه الحاجُّ بعدَ رجوعِه لبلده ليكونَ الحَجُّ وِلادَةً جديدةً له في طريقِه إلى الله.

ثمّ تذكيرٌ بالوقوفِ بين يدَيْ الله تعالى في أرضِ المَحْشَرِ يومَ يجتمعُ النّاسُ كلُّهُم كما اجتمعَ الحُجّاجُ وحُشِرُوا هنا، وقطعًا في تلك اللّحظاتِ، لا ينجُو إلّا صاحبُ القلبِ التّقيِّ السّليمِ من الشّركِ والنّفاقِ.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾

نعوذُ بالله من النّفاقِ ومن أهلِه، وهم صِنفٌ من النّاسِ يعيشُ بين المسلمين في حياتِهم الدّنيا يتحدّثُ بلِسَانِهم، ويظهرُ بينهم بمظهرِ المُشْفِقِ عليهم المحبِّ لدينهم النّاصِحِ لهم، حتّى إنّه يُشهدُ اللهَ ويَحلفُ به على أنّه مؤمنٌ وغيورٌ على دِينه أمامَ الآخرين، ويُصرّحُ بصِدْقِه أمامَ النّاسِ يتحايلُ عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المُنَافِقُون ١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البَقَرَة ١٤]، وقال جلّ وعلا: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التَّوْبَة ٦٢].

والآيةُ تبيِّنُ أنّ أهلَ الإيمانِ قدْ يُعْجَبُونَ بقولِ أهلِ النِّفاقِ وكلامِهم، فقد أُوْتِيَ كثيرٌ منهُمْ لسانًا عليمًا ومعسولًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المُنَافِقُونَ ٤]. لكن حقيقتَهم ليست كذلك؛ فهؤلاءِ يُبطنون في قلوبِهم الكَراهيةَ والبَغْضاءَ للدِّينِ، ويحملونَ نارًا تَلظَّى على أهلِه، ويتربّصون بهم الدّوائِرَ. ربُّنا وَصَفه بأنّه ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾، والأَلَدُّ في اللُّغَةِ: هُوَ الأَعْوَجُ، يعني: هم شَديدُ والخُصُومةِ والعَداوَةِ لكم، مُعْوَجُّونَ يكذِبونَ ولا يستقيمون على الحَقّ ولا يرجعونَ إليهِ. أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ».

ومثلُ هذه الآيةِ توجِّهُ أهلَ الإيمانِ والصِّدْقِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، أنْ يحذَرُوا ويحتاطُوا من المنافقينَ والأعداءِ المتستّرين في ثيابِ الإخوةِ النّاصحينَ، وأنْ يكونُوا على بصيرةٍ من أمرِهم، فما أشدَّ ضَرَرَهُم على أهلِ المِلَّةِ، والله المستعان.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾

المنافقُ أمامَ أهلِ التّقوى والإيمانِ، يلبَسُ لِباسَ التَّدَيُّنِ والطّاعةِ، لكنه إذا فَارَقَهُم ظهرَ أنّه كاذبٌ في دَعْواه، فهو مُفسِدٌ في الأرضِ بأفعالِه القبيحةِ، ويسعى ويَجِدُّ ويجتهدُ ويُسْرِعُ في نشْرِ الكُفْرِ والرّذيلةِ والحَرامِ، ويُبيِّتُ الخِصَامَ والكَراهِيَةَ، ويحرصُ على إهلاكِ الحَرْثِ، وهو الزّرعُ ومَحَلُّ نمائِه من الأرضِ، ويحرصُ على إهلاكِ النّسلِ المنتفَعِ به للطّعامِ، وهو ما تَلِدُهُ وتُنْتِجُه الحيواناتُ.

وتأمّلُوا عِظَمَ فسادِه الذي ذَكَرَهُ كتابُ ربِّنا؛ فإنّ ثِمارَ الأرضِ ومأكولَ الحيواناتِ لا قِوامَ لحياةِ النّاسِ بدونِهما.

ومن أهلِ التّفسيرِ من ذهبَ إلى أنّ هذا المنافقَ لما انطلقَ وأسرعَ بالإفسادِ في الأرضِ، كانَ ذلك سببًا في حصولِ الكُفْرِ والمعاصي وانتشارِهما، فيمنعُ الله القَطْرَ من السّماءِ بذنوبِ العِبادِ، فيَهْلِكُ الحَرْثُ والنّسلُ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ والله لا يحبُّ المفسِدَ الذي يعتدي على ما به قِوامُ حياةِ النّاسِ، ولا يحبُّ الفَسادَ الذي يَنْشُرُه، بلْ يُبغِضُه ويتوعَّد صاحبَه بالعذابِ الأليمِ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ٢٠٦﴾

بلغَ من فُجُورِهِ وعُتُوِّه وإصرارِه على أنْ يكونَ ذا وجهَيْن، أنّه إذا ذُكِّر بالله، ودُعِيَ للتّوبةِ والرّجعةِ عمّا يقولُ ويفعلُ، امتنعَ وأبى وأصرَّ على باطِلِه، ولم يقبَلِ النُّصحَ واللَّوْمَ والإصغاءَ للآخرين، بل افتخرَ وأخذَتْهُ الحَمِيَّةُ بإثْمِه وفِسْقِه وجاهليَّتِه، بل ظنَّ أنّه لا يقدرُ عليه أحدٌ، وأنّ مثلَه لا يُعارَضُ؛ عِزّةٌ بالباطلِ مُلابِسَةٌ للإثمِ والظُّلمِ كما نَصَّتْ الآيةُ، وليست عزّةً محمودةً بحقٍّ كما في الآيةِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المُنافِقون ٨].

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ كان في الحياةِ الدّنيا يلبَسُ ثوبَ المصلحِينَ، أمّا في الآخرةِ فقدْ كُشِفَتْ السّرائرُ، وابتَلى الله تعالى ما في الصّدُورِ، وحُصِّلَ ما فيها، فكانَ جزاؤُه العَظِيمُ الذي يكْفِيه وهو حَسْبُه: جهنّم. أخرجَ أبو داود وغيرُه عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا؛ كَانَ لَهُ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ذمٌّ لمَضْجَعِهِ ومكانِه الذي يُعَذَّبُ فيه في النّارِ.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ٢٠٧﴾

كعادةِ القرآنِ الذي وُصِفَتْ آياتُه بأنّها مَثَانِي، جاءَ ذِكْرُ حالِ أهلِ الصّدقِ بعدَ ذِكْرِ حقيقةِ حالِ المنافقين وجزائِهم، جاءتْ الآيةُ هنا تُذَكِّرُ حالَ الذين عمّرَتْ عَظَمَةُ الله تعالى قلوبَهم، الذين لا يَرُوغُونَ رَوَغَانَ الثّعالِبِ، بل استوى ظَاهِرُهُم وباطِنُهُم وسِرُّهُم وعَلانِيَتُهُم، وحالُهم مع النّاسِ كما هو في خَلَوَاتِهِم.

هؤلاء يقدّمونَ أغلى ما يملكونَ من أجلِ دِينِهِم، يقدّمونَ أنفُسَهُم ومُهَجَهُم نُصْرَةً لدينِ الله تعالى في الأرضِ، لا يبتغونَ بذلك ولا يريدونَ إلّا أنْ يرضى الله عنهم.

ومن تأمّلَ سيرةَ صَحْبِ النّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجدَ أنّ كثيراً منهم باعُوا أنفُسَهُم ووَقَفُوهَا لله ودِينِه، وجاهَدُوا وقَدَّمُوا أموالَهم وأولادَهُم، وتَرَكُوا رَغَدَ العَيْشِ الذي كانوا فيه، وهاجَرُوا لله ورسولِه حُبًّا وطَوْعًا ورغبةً فيما عندَ الله. أخرجَ أبو داود وابن حبان عن عبدِ الله بنِ مسعودٍ رَضِيَ الله عَنهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجِبَ رَبُّنا من رجلٍ غَزا في سبيلِ الله، فانهزمَ أصحابُهُ، فعَلِمَ ما عليه، فرجعَ حتّى أُهْرِيقَ

دَمُهُ، فيقولُ اللهُ لملائكتِهِ: انظُروا إلى عبدِي، رجعَ رغبةً فيما عندِي، وشفقةً ممّا عندِي؛ حتّى أُهريقَ دَمُهُ».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يرْأَفُ بجميعِ عبادِه؛ فيَرْزُقُ الكافرَ في الدّنيا ويعطيهِ الصّحّةَ والولدَ، وهو رؤوفٌ بالمؤمنينَ، وبعِبادِهِ الصّالحينَ الذين يَشْرُونَ أنفُسَهم لله تعالى، يُعطِيهم في الدّنيا وكذا في الآخِرةِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾

نداءٌ من الله تعالى لعبادِه المؤمنينَ جميعًا أنْ يدخُلُوا في السّلمِ، أيْ: في الإسلامِ. يأمُرُهم فيه أنْ يتمَسَّكُوا بما في الإسلامِ من عقيدةٍ وعبادةٍ وأخلاقٍ، وأنْ يُطيعُوا ربَّهم ويستَسْلِمُوا لأوامِرِه حبًّا ورَغْبةً ورَهْبَةً، لا أنْ يقتصِرُوا فيه على ما وافقَ أهواءَهُم ومصالِحَهُم، بل يتمكّنُوا ويتَغَلْغَلُوا في هذا الدّينِ حتّى يتمكَّنَ من قلوبِهِم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ احذَرُوا خُطُواتِ الشّيطانِ التي تنتهي بكم إلى الكُفْرِ، أو إلى الوقوعِ في الكبائرِ، وأغلِقُوا أبوابَ الشّركِ والمعاصِي من أوّلِها ولا تسترسِلُوا معَها.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عداوتُه لبني آدمَ ظاهرةٌ وواضحةٌ، نصبَها منذُ خَلقَ اللهُ آدمَ وأَمرَهُ بالسّجودِ له.

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

أَيْ: فإنْ تركْتُم طريقَ الإسلامِ، وعدَلْتُم عنِ الحَقِّ بَعْدَ ما قامَتْ عليكُمُ دلائلُ صِحّةِ هذا الدّينِ، واتّبعْتُم خطواتِ الشّيطانِ في ذلك، فاعْلَمُوا أنَّ الله عزيزٌ في انتِقامِهِ، لا يغلِبُه غالبٌ، ولا يُفْلِتُ منه هاربٌ. وهو حكيمٌ في أوامِرِه وأَحكامِهِ وقدَرِهِ فيكم، فالْزَمُوا وانتبِهُوا.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾

هذه الآيةُ فيها تهديدٌ ووَعِيدٌ لِمَن كفرَ بالله العظيم ووَحْدانيّتِهِ، وزلَّ من بعد ما جاءَتْه البيّناتُ والمعجِزاتُ، وتركَ شريعةَ الإسلامِ الصّافيةَ النّقيّةَ المُنجِيَةَ. الآيةُ تُنادِيهم: هل ستستمرّونَ على ما أنتم عليهِ من الكُفرِ والفُسُوقِ والنّفاقِ، حتى يأتيَكُم الله تعالى يوم القيامةِ في ظُلَلٍ وسَحاباتٍ عظيمةٍ، وتأتيَ الملائكةُ في مشهدِ الفَصْلِ بين الأوّلين والآخِرينَ، في مشهدِ مُجازاةِ كلِّ عاملٍ بعمَلِه؛ إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرّاً فشرٌّ.

في ذلك اليوم قُضِيَ الأمرُ، فلا ينفعُكُم إيمانٌ ولا ندَمٌ، وليس ثَمَّةَ رجوعٌ للدّنيا، فاستقِيمُوا وادْخُلُوا في السّلم وأقِيموا الدّينَ. قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفَجر ٢١-٢٤]، وقال سبحانه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام ١٥٨]. وأخرجَ الطّبرانيُّ وغيرُه عن عَبْدِ الله بْن مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنهُ، عَنِ النَّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَجْمَعُ الله الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ قِيامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ»، قَالَ: «وَيَنْزِلُ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الْكُرْسِيِّ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَيُّهَا النَّاسُ: أَلَمْ تَرْضَوْا مِنْ رَبِّكُمُ -الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ وَأَمَرَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا- أَنْ يُوَلِّيَ كُلَّ نَاسٍ مِنْكُمْ مَا كَانُوا يَتَوَلَّوْنَ وَيَعْبُدُونَ فِي الدنيا، أَلَيْسَ ذَلِكَ عَدْلًا مِنْ رَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى»، قَالَ: «فَلْيَنْطَلِقْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا» الحديث.

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾

بنو إسرائيلَ بدَّلُوا نِعمةَ الله كُفْرًا عن علمٍ ودرايةٍ، فإنَّ الله تعالى أنْعَمَ الله عليهِم بمعجزاتٍ تُثبِتُ صِدْقَ رُسُلِهِ لعلّهم يهتَدُونَ، لكنّهم لم يؤمنوا بآياته كما أَمَرَ، ولم يشكُروه أو يَصْدُقوه في عبوديّتِهم، بل قتَلُوا عددًا من أنبيائه، وبدَّلُوا في شريعتِهم، وكتَمُوا منها ما كتَمُوا.

الآيةُ هنا تقولُ لنبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَلْ يا محمد مَنْ عندَكَ من ذُرِّيَّةِ بني إسرائيلَ، ممَّن عندَهُم علمٌ بكتابِهم وسيرةِ أنبيائِهم من اليهودِ: سَلْهُم كم آتَيْنَا سَلَفَهُم وأجدادَهم من آيةٍ ومعجزةٍ ودليلٍ، وبرهانٍ بيِّنٍ وواضحٍ وظاهرٍ وكَافٍ لمن أرادَ أنْ يهتدِيَ؛ أَمَا شاهَدُوا مع موسى عليه السَّلامُ معجزةَ اليدِ والعَصَا وفَلْقِ البحرِ، وضَرْبِ الحَجَرِ الذي خرجَتْ منه اثْنَتَا عَشْرَةَ عينًا. أَمَا أَظَلَّهُم اللهُ بالغَمَامِ في تِيهِهِم، وأنزل عليهم المَنَّ والسَّلوى وغيرَ ذلك من الآياتِ، لكنَّهم أبَوْا إلا كُفْرَانَ نعمِ اللهِ وآياته.

والآيةُ فيها تَسْلِيَةٌ لنبيِّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يا محمد، لا تَظُنَّ أنَّ العَدَاءَ الذي تَجِدُهُ من يهودِ المدينةِ جديدٌ عليهِم، بل هذه سُنَّتُهُم مع الأنبياءِ عمومًا.

والآيةُ فيها تقريعٌ وتأنيبٌ لهم، على كُفرِهم وإصرارِهم على نصبِ العَدَاوةِ والصَّدِّ عن دينِ اللهِ.

﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ إخبارٌ عن جزائِهم عندَ ربِّهم، وكذلك جزاءُ من سارَ على طريقِهم من بقَايَاهُم في المدينةِ، وممَّن بَلَغَتْهُ هذه الآياتُ فوَعَاهَا. كُلُّ من كَفَرَ بنِعَمِ اللهِ، فلم تأْخُذْهُ للتَّوحيدِ ولِشُكْرِ المُنْعِمِ بما يستحقُّه؛ فقد عرَّضَ نفسَه لعذابٍ وعقابٍ شديدٍ من عندِ اللهِ في الدُّنيا والآخرَةِ.
والآيةُ فيها إشارةٌ لِمَا فعلَه كُفَّارُ قريشٍ مع نبيِّهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكتابِهم، فقالَ اللهُ عنهُم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم ٢٨-٢٩].

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾

آياتُ كتابِ اللهِ تعالى هنا رَجَعَتْ إلى بيانِ حالِ من كَفَرَ من قريشٍ وقبائلِ العَرَبِ، وكأنَّ هذه الآيةَ تُعطِيكَ حقيقةَ من لم يستجبْ لأمرِ اللهِ ويؤمنْ باللهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِه، وتعطيكَ حقيقةَ من لم يشكرْ اللهَ تعالى على نِعَمِهِ التي لا تنقطعُ.

هؤلاءِ الذينَ كَفَرُوا وعَبَدُوا الأصنامَ أو غيرَها واستمرُّوا على ذلك، ولم يُؤْمِنُوا بنبوّةِ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حقيقتُهُم أنَّ الدُّنيا عمَّرَتْ قُلوبَهُم، وزُيِّنَت في أعيُنِهِم حتّى ظَنُّوهَا دارَ قرارٍ لهم، فاطْمَأَنُّوا إليها وسَارَعُوا في كُفرِهم وفُسُوقِهم، زُيِّنَتْ لهم فظَنُّوا سُوْءَ فِعَالِهِم فِيهَا أمرًا حَسَنًا سَدِيدًا، ولو أَعْمَلُوا عقولَهم فيها قليلًا لأَدْرَكُوا حقيقتَهَا.

والمرادُ من الآيةِ: احذرُوا أنْ تفعلَ بكم الدّنيا كما فَعلَتْ بِهِم، فإنّ الدّنيا فيها زِينَتَانِ: زينةٌ تُعينُ العَبْدَ في عبوديّتِه وتُكمِّلُ حاجاتِه في الدّنيا، فمثلُها نَلْزَمُهَا ونَتعَبَّدُ الله بها. قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعْراف ٣٢].

أمّا الثانيةُ، فهي التي تُنسي العبدَ الدّارَ الآخرةَ، وتُضعِفُ في قلبِه العملَ لها، وتُخْلِي القلبَ من التّوحيدِ، فهذه مذمومةٌ جاءتْ الآيةُ بتحذيرِ أهلِ الإيمانِ منها.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هؤلاءِ الذينَ امتلأتْ قُلوبُهم بالبغضاءِ للدِّينِ وأهلِه، عندهم غُرورٌ عجيبٌ بِمَا هُم عَليْهِ مِنَ الباطلِ، والدُّنيَا طَمَستْ على قُلوبِهم وأَعْمتْ أبْصارَهم، حَتَّى جَعلَتْهُم يَستهزِئُون بأهلِ التّقْوى والطّاعةِ ويسْخَرُونَ منهم، ويَغْمِزُونَهم ويَلْمِزُونَهم، ويَضْحَكُونَ منهم احتقارًا لهم، ولتَرْكِهم الشّهواتِ وإعراضِهم عن اللّذّاتِ التي حَرَّمَها ربُّهُم، يظُنُّونَ أنّ أهلَ التّقوى لا يفرحونَ ولا يطمئنّون في حياتِهم، ويا ليتهم يعلمونَ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ [المطففين ٢٩-٣٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أمّا الذين اتّقَوْا ما يُسخِطُ الله وأقْبلُوا على رِضْوانِه، فهؤلاءِ هم الذينَ فهِمُوا حقيقةَ الدّنيا، وما غرَّتْهُم بزينتِها، عمِلُوا لها وسَعَوْا فيها، دونَ أنْ تُلهِيَهُم وتَصْرِفَهُم عن آخِرَتِهم التي تعلَّقَتْ قلوبُهُم بها. ولذلكَ كانُوا في الجزاءِ عندَ الله فوقَ أهلِ الكُفْرِ والنّفاقِ والشّقاقِ والنّزاعِ الذين كانوا يسْخَرُونَ منهم، فوقَهم سيادةً وفَضْلًا في بَعْثِهم ومَحْشَرِهم وفي دخولِ الجَنّاتِ، أيُّ خِزْيٍ هذا لهم. قال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين ٣٤-٣٦].

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إذا فتحَ الله للعبدِ بابًا من فضلِه، فإنّه لا يملكُ أحدٌ إمساكَه أو تضييقَه. سيرزقُ الله أهلَ التّقوى من نُورِه وهِدَايتِه، ومن جُودِه وكَرَمِه وعَطَائِه ما لا يَخطرُ ببالٍ، عطاءً ورِزْقًا لا عَدَّ فيه عليهم، ولا انقطاعَ.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

لم يَكُنْ العَداءُ لِدِينِ الله تعالى ورُسُلِهِ فقط زَمَنَ نبيِّ الله محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصَحْبِهِ، بلْ هو عداءٌ قديم، بدأت قصتُه لمّا أنزلَ الله آدمَ عليه السّلامُ ورزَقَهُ الذّريّةَ، وبقيَ النّاسُ على دِينه مدّةً من الزّمنِ، إلى أنْ أشركَ القومُ الذينَ أُرسِلَ إليهم نوحٌ عليه السّلامُ.

كانوا قبلَ ذلكَ أُمّةً واحدةً على شريعة من الحقّ والعَدْلِ، ثمّ اختلَفُوا كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس ١٩]؛ فمنهُم من استقامَ، ومنهُم من ضَلَّ وعبدَ الأصنامَ، فأرسلَ الله تعالى رُسُلَه لِيُرْشِدُوا النّاسَ ويعلّموهُم، يبشّرُونَ الصّالحين منهُم بالأجرِ العظيمِ، ويُنْذِرُونَ أهلَ الفِسْقِ منهم بالعذابِ الأليمِ.

وأنزلَ الله تعالى مع رُسُلِهِ كُتُبًا، فيها حُكْمُ الله فيما يختلفُ فيه النّاسُ ممّا يحبُّهُ الله تعالى وممّا لا يحبُّه، وآتاهُم معجزاتٍ تُثْبِتُ أنّهم مرسلون بما معَهم من كُتُبٍ من عندِ الله بالحقِّ. أخرجَ ابنُ حبّان عن أَبي أُمَامَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله أنبيٌّ كَانَ آدمُ؟ قَالَ: «نعَمْ مكلَّمٌ». قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وبين نوح؟ قال: «عشَرَةُ قُرُونٍ». وأخرجَ الحاكمُ في مستدرَكِه عن ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُما، قال: «كان بينَ نوحٍ وآدم عشرةُ قرونٍ، كلُّهُم على شريعةٍ من الحقِّ، فاختلَفُوا؛ فبعَثَ الله النّبيِّينَ مبشّرينَ ومُنْذِرينَ».

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: وما اختلفَ بنُو إسرائيلَ من اليهودِ وغيرِهم في أصولِ دينِهم، إلّا من بعدِ ما جاءَهُم العلمُ في التّوراةِ وأُقِيمَتْ عليهمُ الحُجَّةُ الظّاهرةُ، عَلِمُوا الحقَّ ثمّ خالَفُوه واختلفُوا فيه وحَرَّفُوهُ، أعطاهُم الله تعالى الكتابَ ليَرْفَعُوا به الخلافَ فاختلفوا فيه.

البَغْيُ هو الذي دَفَعَهُم إلى الاختلافِ مع أنّهم من أهلِ دينٍ واحدٍ، والبَغْيُ هنا هو الاعتداءُ والتّجاوُزُ وطَلَبُ الرِّئَاسَةِ والسّيادةِ ظُلْمًا وعُدْوانًا.

وقد سارَ يهودُ المدينةِ على خُطى أسلافِهم وأجدادِهم، فبعدَ أنْ علِموا صِفاتِ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كُتُبِهم، وجاءَتهم البيِّناتُ في ذلك حتى أيْقَنُوا أنَّه رسولٌ من عندِ الله، اختلَفُوا فيه فيما بينَهُم كما اختلَفُوا في أصولِ عقائِدِهم؛ فمنهُم من آمنَ به ودخلَ في دِينِه، ومنْهُم من كَفَرَ وصَدَّ ونَصَبَ العداءَ لَه. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة ٨٩].

والمقصودُ بعدَ كلِّ هذا: احذرُوا أيُّها المسلمون أنْ تكونُوا مثلَهم، لا تختلفُوا فيما جاءَكُم من علمٍ في الكتابِ والسُّنَّةِ، ولا تَنَافسُوا الدّنيا فتهلِكَكُم وتُذْهِبَ ريحَكم، بل اثبُتُوا على الحقِّ واصْبِرُوا على ما تَلْقَوْنَ حتّى يأْذَنَ الله بالفرجِ.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ هذا من كَرَمِ الله تعالى على من آمَنَ واهْتَدَى وصَدَّقَ من أهلِ الإسلامِ، فقد أكرمَ الله تعالى هذه الأمّةَ المحمّديَّةَ بالهدايةِ إلى الصّراطِ المستقيم، هداهَا للحقِّ فيما اخْتلَفَ فيه أهلُ الكتابِ من عَقَائِدِهم وعباداتِهم، وأَذِنَ الله لهذه الأمّةِ أنْ تَتَوحَّدَ على كتابِ ربِّهَا وسُنَّةِ نبيِّهَا، وأنْ تكونَ يومَ القيامةِ شاهدةً على كلّ الأممِ لِمَا حَمَلَتْ من التّوحيدِ الحقِّ والعُبُوديّةِ الخالصةِ، فلا يُقبلُ طريقٌ غيرُ طريقِهَا بعدَ بَعثَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصّلاةُ والسّلام. أخرجَ مسلمٌ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ (آخر الأمم) الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، بَيْدَ أنّهم أُوْتُوا الكتابَ من قبلنا وأُوتيناهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فهَدَانَا الله لِمَا اخْتلَفُوا فِيهِ من الحَقِّ» الحديث.

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ فَضْلُ الله تعالى في الهدايةِ يؤْتِيهِ من يشاءُ من عبادِه، وَلَهُ الْحُكْمُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فيمَنْ هَدَاهُ إلى الصّراطِ المستقيم، وهو الإسلامُ، ثم يسّرَ له الثّباتَ عليه. في الصّحيحينِ عن عائشة رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي يَقُولُ: «اللهمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السموات وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾

آيةٌ فيها تسليةٌ عجيبةٌ لكلّ غيورٍ على دينه مستعجلٍ لنصرِ الله تعالى لأمّته ودينِه، آيةٌ فيها بيانٌ لطريقِ الأنبياءِ والرُّسُلِ ومن اصْطَفَاهُم ربُّنا ليكونوا في عِلِّيِّينَ، بيانٌ لحقيقةِ طريقِ الاستقامةِ والدّعوةِ لأولئك الذين أَحَبُّوا رَبَّهُم ولقاءَه، آيةٌ تُعيدُ البِنَاءَ العَقَائِدِيَّ والعلميَّ لمن ضَلَّ أو زاغَ عن دينِ الله تعالى.

لعلّكُم تأمّلتم كيفَ ذَكَرَتْ الآيةُ السّابقةُ اختلافَ الأُمَمِ فيها بينَهَا من بعدِ ما عَلِمُوا الحقَّ، ونَزَلَ عليهِم القولُ الفَصْلُ، لكنّهم لم يَصْبِرُوا على الصّراطِ المستقيمِ، ولم يَثْبُتُوا أمامَ الباطلِ، بل حرّفُوا دينَهُم وجَحَدُوا ما جَحَدُوا خوفًا على أنفُسِهِم وأموالِهِم.

هنا في الآيةِ إشارةٌ لِمَنْ كانَ مؤمنًا من الأُمَمِ السّابقةِ، ولِمَنْ قَبَضَ على دينِه أيّامَ غُرْبَتِهِ، لنقتدِيَ به ويكونَ لنا عَوْنًا. هنا في الآيةِ خطابٌ ونداءٌ للأمّةِ المحمّديّةِ التي مُدِحَتْ في الآيةِ السّابقةِ: هل تظنّونَ أنّ سِلْعَةَ الله رَخِيصَةٌ، وأنّها مضمونةٌ لكم بحسب ما تشتهونَ؟ والجواب: لا تغترُّوا بالثّناءِ عليكُم واعْلَمُوا أنّ الجَنّةَ غاليةٌ، وأنّكم لن تدخُلُوهَا حتّى تُبتلَوْا وَتُختَبَرُوا وَتُمْتَحَنُوا، كَما كانت السُّنَّةُ والطّريقةُ مع من اهتدَى واستقامَ ودَعَا إلى الله من الْأُمَمِ السّابقةِ.

الذين قبلكم مَسَّتْهُم بأساءُ الفقرِ والشّدّةِ، وضَرَّاءُ المَرَضِ وفقْدِ الوَلَدِ والجراحاتُ والقَتْلُ، وزَلْزَلَةُ الخوفِ من بَطْشِ أعداءِ الدّينِ في حُرُوبِهِم وقِتالِهِم وجهادِهِم في سبيلِ الله، حتّى دَعَا الرّسولُ ومن مَعَه من المؤمنين بقُرْبِ الفَرَجِ والمَخْرَجِ.

المؤمنُ الحقُّ يظهرُ إيمانُه في مثلِ هذه المواقفِ، مستأنسًا بكلامِ نبيِّنَا عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ، فيما أخرجَه البخاريُّ عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو الله لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَالله لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا الله، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»، وَمُستأنسًا بقولِ الله تعالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العَنكَبُوتِ١-٣].

ومن جميلِ ما جاءَ في السّيرةِ، ما أخرجَه البخاريُّ ومسلمٌ في قصّةِ سؤالِ هرقلَ مَلِكِ الرُّومِ أبا سفيان عن نبيِّنَا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال لأبي سفيان: «وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَدْ قَاتَلْتُمُوهُ، فَتَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالًا يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ» الحديث.

ومن تأمَّلَ سيرةَ نبيِّنَا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياتِه وجِهادِهِ، وتأمَّلَ سيرةَ صَحْبِهِ، بَلْ وسيرةَ الصّادقينَ من هذه الأمّةِ عَبْرَ التّاريخِ، وَجَدَ هذه الآيةَ الكريمةَ تعيشُ معَهُم وتَصِفُ حالَهُم، فلله دَرُّهُم من قُدْوَاتٍ ربّانيّةٍ، ولله دَرُّ من سارَ على خُطَاهُم وثبَتَ حتّى لُقْيَاهُم.

﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ بُشْرَى لكم أيها الثّابتونَ على دينِكُم، الصّابرون على عداوةِ أهلِ الباطلِ لكم، الماضونَ في جهادِ عدوِّ الله وعدوِّكُم؛ أَمَا وقد عَلِمَ الله تعالى صِدقَكُم، ورأى كيف بَذَلْتُم أسبابَ النّصرِ وأَخَذْتُم بها بِحَسَبِ قُدْرَتِكُم، جاءَكُم النّصرُ من عندِه، وأكْرَمَكُم ربُّنا بالرِّفْعَةِ على أعدائِكُم؛ كلُّ ذلك قريبٌ منكُم فلا تيأَسُوا ولا تَقْنَطُوا. قال ربُّنا: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشَّرح ٥-٦].

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾

يطلبُ أهلُ الإيمانِ والتّقوى من نبيِّهِم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنْ يُبيِّنَ لهم في شأنِ النَّفَقَةِ والصَّدَقَةِ والبَذْلِ والعَطَاءِ الذي يقبلُه الله ويحبُّه ويرضَاهُ، ويكونُ فيه الأجرُ العظيمُ، لِمَنْ يكونُ؟

﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ قلْ ما أنفقْتُم من مالٍ فلِلْأَبِ والأُمِّ وقرابَتِهما، هؤلاءِ هُمْ أَوْلَى مَنْ يُعطَوْنَ من الصَّدقَاتِ، وهم أَوْلَى النّاسِ ببرِّكَ وإكْرَامِكَ حتّى لو كانوا أغنياءَ.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ هؤلاءِ ماتَ آباؤُهُم وهم صِغارٌ لم يبلُغُوا الحُلُمَ، وغالبُ حالِهِم أنّهم لا كَسْبَ لهم ولا مالَ.

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ لا يجِدُونَ ما يَكْفِيهِم في طعامِهِم ولِباسِهِم وَسُكْنَاهُمْ، وغالبُ حالِهِم السِّتْرُ وعَدَمُ سؤالِ النّاسِ، فَيُعْطُونَ ما تُسَدُّ بِهِ حَاجَتُهُمْ وَخَلَّتُهُمْ.

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافرُ المنقطعُ عن أهلِه ولا نفقةَ مَعَه، تُكْرِمُ ضِيافَتَه وتُعينُه حتّى يرجعَ إلى بلدِه وأهلِه.

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ أَيْ: الله يعلمُ كلَّ ما قَدَّمْتُمُوهُ من خيرٍ في أمْوالِكُم وأقْوالِكُم وأعمالِكُم، وسيَجزيكُم عليهِ أَوْفَرَ الجزاءِ وأعظَمَه، فأكْثِرُوا وأَخْلِصُوا في أفعالِ الخيرِ.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾

كُتِبَ أي: فُرِضَ. والقتالُ: هو الجهادُ في سبيلِ الله، وهو جِهادَانِ: جهادُ دفعٍ إذا ما هَجَمَ عدوٌّ على أرضِ المسلمين، فهذا فَرْضُ عينٍ على جميعِ أهلِ تلكَ البِلادِ، ثمّ الذين يَلُونَهُم بحسبِ الحَاجَةِ والقُدْرَةِ. والجهادُ الثّاني جِهادُ فَتْحٍ، يكونُ بإخراجِ إمامِ المسلمينَ جَيْشًا لفتحِ البِلادِ ونَشْرِ الإسلامِ فيها، وهو فَرْضُ كفايةٍ.

ولأنّ الجِهَادَ فيه مَشَاقٌ متعَدِّدَةٌ، وفيه شِدَّةٌ لا تَخْفَى، وفيه تركٌ للرّاحةِ والطّمأنينةِ والمالِ والأهلِ والوَطَنِ، وفيه تعريضٌ للنّفسِ للمَوتِ أو الجِراحَةِ، لكلّ ذلك كان الجهادُ ثقيلًا على النُّفُوسِ، وربّما كَرِهَتْهُ بطَبْعِهَا.

جاءت الآيةُ فيها بيانٌ نَفِيسٌ متعَلّقٌ بالجهادِ في سبيلِ الله، وفيها توجيهٌ لا يَفقَهُهُ إلّا أهلُ الإيمانِ من أهلِ الجهادِ؛ فإنّهم وإنْ كَرِهُوا الجهادَ لِمَا فيه من خطرٍ، إلّا أنّهم أحَبُّوهُ لأنّ الله أمرَ به، وأعَدَّ لأهلِهِ الدّرجاتِ العُلَا.

الآيةُ جاءتْ تُطَمْئِنُ المكَلّفِينَ بالجهادِ بأنّهم على حقٍّ، وأنّ جِهادَهُم هذا بابٌ من أبوابِ الخيرِ، وضرورةٌ من ضَروراتِ هذه الحياةِ، فلا تَكرَهُوهُ؛ فإنّ فيه من الخيراتِ ما الله به عليمٌ، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾؛ فمن خَيْرِيَّتِهِ أنّ فيه كفًّا لشرورِ أعداءِ الإسلامِ عن بلادِ المسلمين، وفيه النّصرُ والظّفَرُ عليهم، ومن خيريّتِه التّوسُّعُ في الأرضِ والخيراتِ، ومنها التّمكينُ لهذا الدّينِ وتعبيدُ النّاسِ لربِّ العالَمِين، ومنها تحصيلُ رِضَا الله والشّهادةُ في سبيلِه والفَوْزُ بالجنّاتِ.

جاء في صحيحِ مسلمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ».

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ المرءُ بطَبْعِهِ يحبُّ القُعُودَ عن الجهادِ، ولكنّه لو تأمّلَ استيلاءَ عدُوِّهِ على أرضِه وعِرْضِهِ ونفسِه، لأدركَ أنّ القُعُودَ عن الجهادِ لا يأتي بخيرٍ ولا منْفَعَةٍ، بل هو الشّرُّ بعَيْنِهِ؛ فإنَّ تَرْكَ الجهادِ يعني الذُّلَّ والفقْرَ وحِرْمَانَ الغَنيمةِ والأَجْرِ. أخرجَ أبو داود في سُنَنِهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ».

وقِيسُوا على ذلك كلَّ ما أمَرَ الله به ممّا فيه كُلْفَةٌ ومَشَقّةٌ، فمثلًا النّفسُ تَرْكَنُ إلى الرّاحةِ والدّعَةِ وحُبِّ المالِ، فلا تريدُ أنْ تصلّي أو تصومَ أو تُخرجَ زكاةَ مالِهَا، والنّفسُ تحبُّ قضاءَ شهواتِهَا من أيِّ طريقٍ كانت، ولكنّ العاقلَ من يدركُ أنّ تركَ الواجباتِ وفعلَ المحرّماتِ يفتحُ على النّاسِ بابَ شرورٍ لا يكادُ يُغلقُ.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ربُّنا أعلمُ منّا بعواقبِ الأمورِ، وبما فيه صلاحُنا في الدّنيا والآخرةِ، وتشريعُه لا يخرجُ عن أحدِ أمرَيْنِ: إمّا جَلْبُ مصلحةٍ أو دفعُ مفسدةٍ.

ومثلُ هذه الفَاصِلَةِ القرآنيّةِ التي خُتِمَتْ بها الآيةُ، تبعثُ في المسلمِ الاعتقادَ الصّحيحَ، واليقينَ بشرعِ الله كلِّهِ، ما وافقَ هَوَاه وما خَالَفَه، وتبعثُ فيه الاستجابةَ لأمرِ الله بحبٍّ ورِضًا واستسلامٍ، وإنْ شَقَّ عليه.

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ
أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ
ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ
فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧ ﴾

أخرجَ النّسائيُّ في السُّننِ الكُبْرى، وكذا البيهقيُّ في السُّنَنِ وأبو يَعْلى في المسندِ والطَّبرانيُّ، عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ الله وعروةَ بن الزّبيرِ رَضِيَ الله عَنْهُما ، أنّ رسولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ تسعةً من أصحابه جِهَةَ طريقِ قريشٍ في تجارتِها إلى الطّائفِ، ليأتوهُ بأخبارِ قريشٍ وقوافِلِها قبلَ غزوةِ بدر بشهرَيْن تقريبًا، وجعلَ عليهِم أميراً عبدَالله بنَ جحش، وعندَما وصلُوا لمكانٍ بين مكّةَ والطّائفِ، مَرَّتْ قافلةٌ لقريشٍ تحملُ طعامًا مختلفًا وتجارةً، وكان معَهَا عددٌ من كُفَّارِ قريشٍ، منهم عمرو بن الحَضْرَمِيِّ، والحكم بن كَيْسان، والأَخوانِ عثمانُ ونوفلُ أبناءُ عبدِالله بنِ المغيرةِ، فتشاور أصحابُ النّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قتالِهم وأَخْذِ القافلةِ، ولم يَدْرُوا: هل هذا اليومُ من شهرِ جُمادى الآخرةِ الذي يَحِلُّ القِتالُ فيه عندَ العَرَبِ، أَمْ من شهرِ رَجَبٍ الذي تعظّمُه العَرَبُ وتحرّمُ فيه القتالَ. فاستقرُّوا على قتالِهم ظانّين أنّ يومَهُم ذلك هو من شهرِ جُمادى الآخرة، فرمَوْا عمرَو بن الحضرميّ بسهمٍ فقتلوه، وأسَروا عثمانَ والحَكَمَ، وأخذُوا القافلةَ، وهَرَبَ نَوْفَلُ. فلمّا رجعوا إلى المدينةِ ومعهم القافلةُ والأسرى، قَالَ لَهُمْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالله مَا أَمَرْتُكُمْ بِالْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ». فَأَوْقَفَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأَسِيرَيْنِ وَالْعِيرَ، فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا شَيْئًا، فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ؛ أُسْقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَظَنُّوا أَنْ قَدْ هَلَكُوا، وَعَنَّفَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَالَتْ قُرَيْشٌ حِينَ بَلَغَهُمْ أَمْرُ هَؤُلَاءِ: قَدْ سَفَكَ مُحَمَّدٌ الدَّمَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَأَخَذَ فِيهِ الْمَالَ، وَأَسَرَ فِيهِ الرِّجَالَ، وَاسْتَحَلَّ الشَّهْرَ الْحَرَامَ. فَأَنْزَلَ الله فِي ذَلِكَ: ﴿ **يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ** ﴾ ... فلمّا نزلَت؛ أَخَذَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعِيرَ، ووزَّعَها وفْقًا لمصارِفِها الشّرعيّةِ، وَأطلقَ الأَسِيرَيْنِ مقابلَ فِدْيَةٍ من قريشٍ.

الآيةُ هنا تبيِّنُ أنّ قريشًا سألوا نبيَّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن القتالِ في الأشهرِ الحُرُمِ على سبيلِ العَيْبِ عَلَى المسُلمينَ، كيفَ يَفعلهُ المسُلمونَ وهو مُحرَّمٌ، كيف يفعلونَ وهم يستعظمُون القتالَ في رَجَبٍ وباقي الأشهُرِ الحُرمِ. جاءتْ الآياتُ تبيِّنُ وتُرشدُ نبيَّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمُسلمينَ إلى مَا يَقولونَه لهؤلاءِ الطّاعنين في الدّين: ﴿قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ﴾، قلْ يا محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نعم، القتالُ في الشّهرِ الحَرامِ أمرٌ كبيرٌ لا يحلُّ فِعْلُه، وفيه إثْمٌ كثيرٌ، وكأنّ التّأكيدَ على عِظَمِ الدّماءِ في الأشهُرِ الحُرُمِ فيه إغلاقٌ لبابِ تأليبِ قبائلِ العربِ وأصحابِ القلوبِ المريضةِ على الإسلامِ، لِمَا لمكانةِ الأشهُرِ من استعظامٍ في قلوبِ عمومِ النّاسِ.

صحيحٌ أنّ القتالَ في الأشهُرِ الحُرُمِ لا يحِلُّ، ولكنّكم تأتونَ ما هو أعظمُ ممّا تُنْكِرُونَ؛ صَدُّكُم عن سبيلِ الله وكُفْرُكُمْ بالله العظيمِ، واعتداؤُكم على المسجدِ الحرامِ بإعلانِ الشّركِ فيهِ ومَنْعِ الموحّدينَ من عبادَتِهم، وإخراجُ محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصَحْبِهِ من مكّةَ ومن المسجدِ الحرام وهم أهلُه وأَحَقُّ به منكُم، وإيذاؤُكم لهم قولًا وفعلًا. كلُّ هذا أكبرُ بكثيرٍ وأعظَمُ عندَ الله من القتالِ في الشّهرِ الحَرامِ الذي حصلَ خطأً، كما قال الله تعالى عنهُم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الحج ٢٥].

قال الله تعالى هنا في السّورةِ: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ أي: ما فعَلْتُمُوهُ يا أهلَ مكّةَ مع النبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَنْ مَعَه مِنَ المُؤمنينَ، من إيذاءٍ وضَرْبٍ وإخراجٍ وفتنةٍ لهم ليَرْتَدُّوا عن دينِهم، أشدُّ وأعظمُ وِزراً وعقوبةً من القتلِ؛ فإنّ دينَ الإنسانِ أهمُّ وأعظمُ ما يملكُ، ولذلك جُعلَتْ الرُّوحُ فداءً له.

وقد تقدّم معَنا قولُ الله تعالى في حُكْمِ القتال عند المسجدِ الحرامِ: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ [البقرة ١٩١].

ومنَ المسائلِ المُتعلّقة بالقتالِ في الأشهُرِ الحُرُمِ رَجَبٍ وذي القعدة وذي الحِجّةِ والمحرم، مسألةُ بقاءِ حُرْمَةِ القتالِ فيها أو نُسخِهِ؟ وأهلُ العِلمِ أجمعُوا على الجوازِ في حالِ دَفْعِ العدوِّ عن بلادِ المسلمين، وأمّا جهادُ الفتحِ -وهو الذي نُخرجُ به الجيشَ المسلمَ لفتحِ البلادِ وتحقيقِ هيمنةِ الإسلامِ فيها-، فالجمهور على أنّ الحكمَ منسوخٌ بقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة ٣٦]، وقولِ الله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة٥]، فيجوزُ ابتداءُ القتالِ فيه. وذهبَ بعضُ الفقهاءِ ورَجّحه غيرُ واحدٍ من المحقّقينَ، إلى أنّ التّحريمَ باقٍ ولم يُنْسَخ، فلا يجوزُ ابتداءُ القتالِ فيها.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ هذه الآيةُ جاءتْ في معرضِ الحديثِ عن مشركي مكّةَ، وأنّه لن يهدأَ لهم بالٌ، ولن يصرِفَهُم عن قتالِ مُحمدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصَحْبِهِ إلّا أنْ يترُكوا دينَهم ويُشْرِكُوا بالله العظيمِ.

وعمومُ لفظِ هذه الآيةِ فيه بيانٌ لقاعدةٍ عظيمةٍ نافعةٍ للمسلمينَ في كلِّ زمانٍ: جُبِلَ أهلُ الكفرِ على العَداءِ لأهلِ الإيمانِ والتّقوى، ولا يزالون يُضمِرونَ غزْوَ المسلمين، ولا يزالون يقاتلونَ أهلَ التّوحيدِ في سبيلِ صَدِّهِم عن دينِ الإسلامِ، ولن يتوقّفُوا عن جرائِمِهم حتّى يتحقّقَ غرضُهُم ويَرْتَدَّ المسلمون عن دينِهِم.

لكن كَرَمَ الله على هذه الأمّةِ بمجموعِها عظيمٌ، فقد حَفِظَ عليها دينَها، وبَشَّرَ سبحانَه وتعالى المؤمنينَ بأنّ دينَهُم ظاهرٌ على كلّ دينٍ، كما قال ربُّنا في ثلاثِ سُوَرٍ في القرآنِ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة ٣٣] و[الصف ٩] و[الفتح ٢٨]، بل تعدّى كَرَمُه وعَمَّ، بإخبارِنا أنّ أهلَ الكفرِ أدركُوا حبَّ المؤمنين لدينِهِم وتعلُّقَهُم به، حتى يَئِسُوا من مبتغاهُم، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ﴾ [المائدة ٣]، وهذا لا ينفي رِدَّةَ أفرادٍ من هذه الأمّةِ ممّن استهوَتْهُم الدّنيا، وركَنُوا فيها للكُفْرِ وأهلِه، ولذلك قال ربُّنا في تَتِمَّةِ الآية:

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ كلُّ من تركَ دينَ الإسلامِ بقولٍ أو فعلٍ، وارتدَّ عمّا أكرمَه الله به من إيمانٍ، وبَقِيَ على ذلكَ حتّى ماتَ حَبِطَ عملُه، أي: بطَلَ أجرُ العملِ الذي فعلَه تقرُّبًا لله، وذهب ثوابه.

والمقصودُ من الآيةِ: اثبُتوا أيّها المؤمنونَ، واحذَرُوا رجوعَكم عن الحقِّ وتَرْكَه، ولا تغترُّوا بالمشركينَ وحِيَلِهِم في صَدِّكُم عن دِينِكُم.

والآيةُ ذكَرَتْ أنّ عَمَلَ المرتدِّ حَبِطَ وفسَدَ، وفسادُه يعني أنّه لا ثوابَ له في الآخرةِ، ولا يُؤْجَرُ على ما قَدَّمَ، بل موعدُه مع العَذابِ المُقيمِ في نارٍ تَلَظّى، فضلاً عمّا جاءَتْ به الأدلّةُ من وجوبِ إقامةِ حدِّ الرِّدَّةِ عليه في الدّنيا، وسقوطِ ولايتِه على أهلِه، ورجوعِ مالِه لبيتِ مالِ المسلمين، وغيرِ ذلك من آثارِ رِدَّتِهِ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

جاءَ في روايةِ أبي يَعْلَى وغيرِه في قِصَّةِ سَرِيَّةِ عبدِالله بن جحشٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ وعمّن معَه، والتي ذكَرْناها في تفسيرِ الآيةِ السّابقةِ، أنّ بَعْضَ المُسْلِمِينَ قالوا عنهم لمّا قاتَلُوا في شهرِ رجب: «إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَصابُوا في شَهْرِهِمْ هَذا وِزْرًا، فَلَيْسَ لَهُمْ فِيهِ أَجْرٌ»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ

يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. فهذه الآيةُ تبشّرُهم بأنّ لهم أجرَ المجاهدينَ في سبيلِ الله؛ فهؤلاءِ آمَنُوا بمحمّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما جاءَ بِهِ مِنْ عندِ الله، ثمّ هاجَرُوا مَعَه وفارَقُوا عَشائِرَهُم وأَوْطانَهُم، وقاتَلُوا يَرْجُونَ رِضا رَبِّهِم لا غيرَ ذلك. هؤلاءِ ومن مِثْلُهُم؛ غفرَ الله لهم ورَحِمَهُم رحمةً واسعةً، وأكرَمَهُم بما هو أهلُه.

﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ ﴾

هذه الآيةُ أوّلُ ما نزلَ في بيانِ حُكْمِ الخمرِ والمَيْسِر، فقد سألَ الصّحابةُ نبيَّهُم صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حُكْمِهِما. والآيةُ هنا لم تجزِمْ بالتّحريم، ولكنّها عرَّضَتْ بتحريمِ الخَمْرِ والمَيْسِر، وأشارتْ وأَلْمَحَتْ إلى أنّ فيهِما إثماً كبيراً وفيهِما منافعَ للنّاسِ. أخرجَ الإمامُ أحمدُ وغيرُه من أصحابِ السُّنَنِ، عن أبي هريرةَ وعُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُما، أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْخَمْرِ وَقَعَ على مراحلَ ثلاثٍ عنايةً بالنّاسِ ورِفْقًا بِهِم: الْأُولَى: حِينَ نَزَلَتْ آيَةُ: ﴿ ۞ **يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا** ﴾، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ نَهْيًا غَيْرَ جازِمٍ، فَتَرَكَ شُرْبَ الْخَمْرِ نَاسٌ كَانُوا أَشَدَّ تَقْوى، فَقَالَ عُمَرُ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بيانًا شافِيًا. ثُمَّ نَزَلَتْ الآيةُ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ** ﴾ [النساء ٤٣]، فَتَجَنَّبَ الْمُسْلِمُونَ شُرْبَهَا فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي يُظَنُّ بَقَاءُ السُّكْرِ مِنْهَا إِلَى وَقْتِ الصَّلاةِ. فَقَالَ عُمَرُ: اللهمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بيانًا شافِيًا. ثُمَّ نَزَلَ قولُ الله تَعالَى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ** ﴾. [المائدة ٩٠]، فَقَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنا.

والخمرُ: هي كلُّ ما خامرَ العقلَ، فستَرَهُ وحجبَه عن التّفكيرِ، وهو يَصْدُقُ على كلِّ مُسْكِرٍ مصنوعٍ من عصيرِ العِنَبِ أو التّمرِ أو الشّعيرِ أو غيرِ ذلك؛ لقولِه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْر، وَكلُّ مُسْكِرٍ حَرامٌ». أخرجَه مسلمٌ.

وفي شُرْبِ الخمرِ من المَضارِّ ما تعلمونَه على البَدَنِ والعقلِ والمجتمع.

وشُرْبُهَا من الكبائرِ، وتُقَامُ عقوبَةُ الجَلْدِ على من شَرِبَهَا في الّدنيا؛ أربعينَ أو ثمانينَ على خلافٍ عندَ أهلِ العلمِ.

وقد جاءتْ نُصوصٌ متعدّدةٌ في تحريمِهَا وتحريمِ الإعانةِ على شُرْبِهَا، من ذلك: ما أخرجَه أحمدُ وغيرُ واحدٍ من أصحابِ السُّنَنِ، واللّفظُ لأحمدَ وأبي داودَ، عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَعنَ اللهُ الْخَمْرَ، وَشَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَها، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَآكِلَ ثَمَنِها».

وأخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ».

وأخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ».

وأخرجَ أحمدُ وابنُ ماجه والترمذيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ وَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، وَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، فَشَرِبَ، فَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، فَشَرِبَ، فَسَكِرَ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَادَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ، أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ رَدَغَةِ الْخَبَالِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا رَدَغَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ».

والمعنى : أنّه لا يُؤْجَرُ عليها ولا يأخذ حَسَناتٍ، مع أنّه يجبُ عليه أنْ يصلّيها في الأربعينَ يوماً لإسقاطِ الفَرْضِ من ذِمَّتِهِ.

وأمّا المَيْسِرُ فهو القِمَارُ، وهو عَقْدٌ يقومُ على المُرَاهَنَةِ والشّرطِ من الطَّرَفَيْنِ. ومن صُوَرِ المَيْسِرِ ما يُعْرَفُ الآنَ بأَوراقِ اليانصيبِ، وكذلك ما يُسَمّى بطاولةِ الزّهرةِ إذا كانت عن مالٍ وشَرْطٍ.

وفي خصوصِ النَّرْدِ جاءَ قولُ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لَعِبَ بالنّردشيرِ ، فكأنّما صَبَغَ يَدَه في لَحْمِ خِنْزِيرٍ ودَمِهِ». رواهُ مسلمٌ. والنَّرْدُ معروفٌ وهي لَفظَةٌ عَجَمِيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ، ولَفْظَةُ «شير» معناها حُلو. والنَّرْدُ إنْ كان عن مالٍ فهو من القِمَارِ، وإنْ لم يَكُنْ عن مالٍ فهو حرامٌ كذا عندَ جمهورِ الفُقَهاءِ لِعُمومِ النُّصوصِ.

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ منفعةُ الخَمرِ لأصحابِها تَكْمُنُ في تجارتِهم فيها، وما يجدونه من لَذَّةِ شُرْبِها، وقوّةِ بَدَنِ شَارِبِها في بعضِ الأحوالِ.

أمّا منفعةُ المَيْسرِ بالنّسبةِ للمُخاطَبينَ، فقد كانت في طَلَبِ الرّزقِ الذي يُنفِقُه صاحبُه على نفسِه وعِيالِه، بل ويُنْفِقُهُ على المحتاجينَ، ولَكِنَّ هَذِهِ المَصالِحِ لَا تُوازِي مَضَرّتَها ومَفسَدَتَها الرّاجِحَة، لِتَعلُّقِها بالدِّينِ والعقلِ والمالِ، ولِهَذا قالَ ربُّنا: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

والإثمُ الكبيرُ في الخمرِ والميسرِ جاءَ بيانُه في قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة ٩١]، ومِنَ الإثمِ الكبيرِ كذلك ما فيهِما من تبذيرِ المالِ وذَهابِ العَقْلِ، فَضْلاً عن إِثْمِهِما الذي يَلْحَقُ صاحبَه في الآخرةِ.

وكأنّ الآيةَ فيها تأنيسٌ لمن تركَ شُرْبَها بعدَ أنْ تَعَلَّقَ بها، وهو أمرٌ معلومٌ عندَ العربِ ظَهَرَ في أشعارِهم وأقوالِهم، وكذلك نراه زمانَنا عندَ كثيرٍ من ضِعَافِ النّفوسِ، وإنّا لله وإنّا إليه راجعونَ.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ وممّا سألُوه حرصًا منهم على ما يحبُّه الله ويرضاه، أنّهم سألُوا عن مِقْدَارِ ما يُنفِقُونَ، فجاءتْ الآيةُ هنا: قلْ يا محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم: أنفِقُوا العَفْوَ، أي: ما يَفْضُلُ ويزيدُ عن حاجاتِكُم وحاجاتِ من تَلْزَمُكُم نفقتُه. والآيةُ تُفيدُ أنّ المُنْفِقَ لا يُنْفِقُ ممّا يحتاجُه، لئلا يجلسَ بعدَ ذلكَ يطلبُ أموالَ النّاسِ، ويرجُوهُم في ذلك. أخرجَ البخاريُّ في الأدبِ المُفْرَدِ وابنُ حبّان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: أَمَرَ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَدَقَةٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: عِنْدِي دينارٌ؟ قَالَ: «أَنفِقْهُ عَلَى نفسِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخرُ؟ قَالَ: «أَنفِقْهُ عَلَى زَوْجَتِكَ». قَالَ: عِنْدِي آخرُ؟ قَالَ: «أَنْفِقْهُ عَلَى خادِمِك، ثُمَّ أَنْتَ أَبْصَرُ». وأخرج مسلم عن جابر رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِرَجُلٍ: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا». وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خيرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ» متفق عليه.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ جاءتْ هذه الأحكامُ من حلالٍ وحرامٍ مبيَّنَةً مُفَصَّلَةً مُوَضَّحَةً، لعلّنا نتفكرُ ونكونُ على بصيرةٍ وعلمٍ في أمرِ الدّنيا والآخرةِ كما في الآيةِ بعدَه، نعملُ لدُنْيانا على حَسَبِ حاجَتِنا إليها، ونعملُ لآخِرَتِنا التي مَرَدُّنا إليها.

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾

ذكرَ الله تعالى في الآيةِ السّابقةِ، أنّه سبحانَه إنّما شَرَعَ للنّاسِ أحكامَ الحلالِ والحرامِ وبيَّنَها لهم، لعلّهم يُعْمِلُونَ عُقُولَهُم ويكونونَ على بصيرةٍ ويتفكّرونَ، كما في خِتامِ الآيةِ السّابقةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾. ولقائلٍ أنْ يقول: فيمَ يتفكّرون؟ والجوابُ جاءَ هنا في الآيةِ، قال الله تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: لعلّهم يتفكّرونَ في أَمْرِ دُنْياهُم، فيُدْرِكُونَ حقيقةَ زَوالِها وفنائِها، ويعلمونَ أنّها دارُ بَلاءٍ ثمّ دارُ فَناءٍ، ويعملونَ لها على حَسَبِ حاجاتِهم فيها.

ويتفكّرونَ كذا في أمرِ آخرتِهم وما فِيهَا، فيعلمون أنّها دارُ جزاءٍ ثمّ دارُ بَقاءٍ، فيُشَمّرونَ لها ويَغُذُّونَ الخُطَا نحوَها، ويُؤْثِرونَها على دُنْياهُم.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ نصوصُ الشّريعةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ كَثُرَتْ في حفظِ مصالحِ الأيتامِ والنَّظَرِ في أُمُورِهِم وشؤُونِهِم، وهذا واحدٌ منها. أخرجَ أبو داود واللّفظُ له، والنّسائيُّ والحاكمُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُما، قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [الأنعام ١٥٢]، وَ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء ١٠]؛ انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِهِ (أي: اليتيم) فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾، فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِ».

الآيةُ هنا تَذْكرُ أنّ أصحابَ النّبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شِدّةِ حرصِهم على ما يحبُّه ربُّهم ويرضاه، ومن شِدَّةِ تحرُّجِهم من الوقوعِ في الإثمِ، سألوا رسولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن فِقْهِ تعامُلِهم مع أموالِ اليَتامَى التي يكونونَ هم أولياءَ عليها، وذلك لما نَزلَتْ الآياتُ المُحذِّرةُ من مالِ اليتيمِ.

قُلْ يا محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾. وهذا السّياقُ القرآنيُّ وسببُ النّزولِ للآيةِ

الكريمةِ يدلُّ على أنّ الإصلاحَ المطلوبَ، هو حِفْظُ أموالِهم وتعهُّدُها وتَنْمِيَتُها بالتّجارةِ فيها، أو بدَفْعِهَا إلى مَنْ يُحسِنُ ذلك، وهذا خيرٌ من إهمالِهَا وعَزْلِهَا وتَرْكِهَا فتضيعُ.

والآيةُ فيها حَثٌّ على رعايةِ أموالِ اليتامى، وعَدَمِ التّخلّي عن ذلك لِمَا في رعايتِهَا من مُعوِّقَاتٍ وصُعُوبَاتٍ وتحمُّلٍ لكلامِ ونَقْدِ الآخرينَ.

ولعلّ التعبيرَ القرآنيَّ هنا، يشملُ كذلك ضرورةَ تقديمِ الوَلِيِّ كلَّ إصلاحٍ مستطاعٍ للأيتامِ، ابتداءً من إصلاحِ تربيتِهِم وتنشئَتِهِم على العقيدةِ الطّيّبةِ والأعمالِ والأخلاقِ الحَسَنَةِ، ثم بكفايةِ حَاجَاتِهِم من علمٍ ومَلْبَسٍ ومَسْكَنٍ وطعامٍ وشرابٍ، إلى غيرِ ذلك ممّا يحتاجُه اليتيمُ حتى يكبُرَ ويستقلّ بأمرِه وشأْنِهِ.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أَيْ: وَإِنْ خَلَطْتُمْ طَعَامَكُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابَكُمْ بِشَرَابِهِمْ وفقًا لما عُرِف بينَ النّاسِ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْكُم؛ لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، ومُخَالَطَتُهُم تقتضِي حُسْنَ عِشْرَتِهِم ورِعايَتَهُم ومعامَلَتَهم كالإخوةِ الذين هم من أقربِ النّاسِ للواحدِ منّا.

ولا يُفهم من هذا جوازُ أَخْذِ الوَلِيِّ من مالِ اليتيمِ ما يشاءُ، بل ذلك مقيَّدٌ بحصولِ الحَرَجِ كما مَرَّ، أو حاجةِ الوَلِيِّ وفَقْرِهِ فينتفعُ وفقًا لِمَا عُرِف بينَ النّاسِ، كما قال الله: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء ٦].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ أَيْ: والله مطّلعٌ على سرائِرِكم وضمائِرِكم، يَعْلَمُ مَنْ قَصْدُه وَنِيَّتُهُ في تصرُّفِه إفسادُ مالِ اليتيمِ وتضييعُه، ممّن نيّتُه إصلاحُه وتنميتُه وحفظُه. وهذا يعني أنّ ثوابَ مَنْ أَحْسَنَ إلى اليتيمِ ثوابٌ عظيمٌ عندَ الله، وأنّ عقوبةَ من اعتدَى على مالِه وتجاوزَ حدودَ الشّرعِ عقوبةٌ أليمةٌ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ بيانٌ لتيسيرِ الشّريعةِ في ذلك، وأنّه من رحمةِ الله بالأولياءِ والمكلَّفِينَ؛ فإنّه سبحانَه لو شاءَ لضَيَّقَ في الحكمِ عليهِم في ذلك، ولأَوْقَعَهُم في الحَرَجِ، ولمَنَعَهُم من مُخَالَطَةِ اليَتَامَى ورعايةِ أُمُورِهِم، ولكنّه خَفَّفَ عليهِم وعليهِ، وأَذِنَ لهم بمُخَالَطَتِهِم بما عُرِفَ بينَ النّاسِ، وبالتي هي أَحْسَنُ.

إنّه عزيزٌ غالبٌ قادرٌ على أنْ يكلّفَكُم بما يريدُ سبحانَه، حكيمٌ في تيسيرِه على المكلَّفِينَ، وتشريعِه ما يُصلِحُهُم ويُصلِحُ حالَهم.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

آيةٌ فيها حكمٌ شرعيٌّ مُتعلِّقٌ بالأسرةِ في الإسلامِ وبنظامِها الاجتماعيِّ، وفيها بيانٌ متعلِّقٌ بعقيدةِ المسلمِ الَّتي هي طريقُ نجاتِه وفلاحِه، وفيها بيانٌ لكلِّ مَنْ يعيشُ في مجتمعٍ يختلطُ فيهِ أهلُ الإسلامِ بأهلِ الشركِ كما كانَ الحالُ زَمَنَ صدرِ هذهِ الشريعةِ، وكحالِ كثيرٍ ممَّن يعيشُ في بلادِ الكفرِ زمانَنا، بلْ في بعض بلادِ المسلمين.

الآيةُ فيها تحريمُ النكاحِ والزواجِ بينَ أهلِ الإسلامِ وأهلِ الشركِ، فلا يجوزُ للمسلمِ أنْ يَعْقِدَ نكاحَهُ على مشركةٍ، ولا يجوزُ للمسلمةِ أنْ يَعقِدَ عليها مشركٌ، ومثلُ هذا العقدِ باطلٌ في شرعِ الله لا يترتبُ عليهِ آثارُ الزواجِ وأحكامُه.

وأهلُ العلمِ على طريقَتَين اثنتين في التعاملِ معَ مُصْطَلَحِ الشركِ هنا في الآيةِ:

الأولى: الشِّركُ مُصطَلَحٌ قرآنيٌّ يُطلَقُ على كلِّ مَنْ كفَرَ باللهِ العظيمِ أو أشركَ معهُ أَحداً، فيشملُ هذا المصطلحُ أهلَ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنصارى، ويَشملُ غيرَهُم ممَّنْ ليسَ لهُ دينٌ سماوِيٌّ مِنْ عَبَدَةِ البقرِ والأصنامِ والكواكبِ وغيرِ ذلكَ، فتكونُ الآيةُ هُنا وِفقاً لِذلِكَ قدْ حرَّمَتِ الزواجَ مِنَ المُشركِينَ عُموماً، سواءً أكانوا أهلَ كتابٍ أمْ لا.

إلَّا أنَّهُ استُثْنِيَ مِنْ هذا العُمومِ زواجُ الرَّجُلِ المُسلِمِ مِنْ نِساءِ أهلِ الكتابِ، الَّذي جاءَتْ بإباحَتِهِ آيةٌ أُخرى فيْ سورةِ المائدةِ، فيَبْقى ما عَداهُ على عُمومِ التحريمِ، والآيةُ الَّتي في سورةِ المائدةِ هي قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المَائدَة ٥].

ولقائلٍ أنْ يقولَ: هَلْ عُهِدَ في الشَّرعِ إطلاقُ لَفظِ الشِّركِ على أهلِ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى لِيَعُمَّهُمُ النَّصُّ هُنا؟ والجوابُ: نعمْ، كما في قولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة ٣١].

الثَّانيةُ: أَنَّ الشِّركَ هُنا مصطلحٌ قرآنيٌّ يُشيرُ إلى مَنْ أشركَ مَعَ الله آلهةً أُخرى مِمَّنْ ليس لَهُمْ دِينٌ سماوِيٌّ؛ كَعَبَدةِ الأصنامِ وعَبَدَةِ النَّارِ والبَقرِ وغيرِ ذلكَ، وبالأَوْلَى مَنْ يُنكِرونَ وُجودَ الخالقِ مِنْ أهلِ الإلحادِ. أمَّا أهلُ الكتابِ فهؤلاءِ كُفَّارٌ وليسوا مشركينَ، فلا يَشمَلُهُمُ النَّصُّ هُنا.

والتَّفريقُ بينَ المُصطلحَينِ مِمَّا عُهِدَ في السِّياقِ القرآنيِّ، كقولِ الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البيِّنة ١].

فهؤلاءِ حَرَّموا النِّكاحَ مِنَ المُشركينَ بهذه الآيةِ، أمَّا تحريمُ زواجِ المسلمةِ من رجالِ أهلِ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى، فهذا دليلُهُ عِندَهُمُ الإجماعُ، ولبعضِ العلماءِ أدلةٌ مبثوثةٌ في ذلكَ، كقولِ الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المُمتحنَة ١٠]، وغيرِ ذلكَ مِمَّا هُوَ في بُطونِ كُتبِ أهلِ الفِقهِ. أمَّا نكاحُ الرَّجلِ المسلمِ مِنْ نساءِ أهلِ الكتابِ، فحُكمُهُ الإباحةُ كما في سورةِ المائدةِ.

ومَنْ تأمَّلَ الطريقَتينِ في فهمِ النَّصِّ، أدركَ أنَّ الجميعَ متفقٌ على الأحكامِ الَّتي جاءتْ بها آياتُ كتابِ الله، فلا يباحُ إلاَّ زواجُ الرَّجلِ منَ الكِتابيَّةِ، وما عداهُ يبقى على أصلِ التَّحريم. ومنَ الأحكامِ الَّتي تَنبني على فقهِ المسألةِ، عدمُ جوازِ بقاءِ المشركِ والمشركةِ معَ أزواجِهِمْ إذا أَسلموا، فتأمَّلوا.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لا تَغْتَرُّوا بجمالِ المشركةِ ومالِها وحَسَبِها إنْ وُجِدَت، فإنَّها في ميزانِ الشَّرعِ منْ أهلِ الضَّلالِ والزَّيغِ، ونكاحُها لا تعدُو ولا تَتجاوزُ منافِعُهُ متاعَ الدُّنيا، فإنَّها تَفتقِدُ إلى الدِّينِ الذي هو طريقُ الفلاحِ وتحصيلِ رضا الرَّبِّ جَلَّ وعَلا، ولذلكَ كانتِ الأَمَةُ خيرًا منها بإيمانِها وإسلامِها، معَ أنَّها ليستْ حُرَّةً، وكانَ نكاحُ الأَمَةِ بشروطِهِ الشرعيَّةِ فيه بركةٌ وخيرٌ وفيرٌ لمنْ تأمَّلَ، وهو أنفعُ للمسلمِ من نكاحِ المشركةِ أيًّا كانَتْ، ومِنْ بابِ أولى كانَ نكاحُ الحُرَّةِ المؤمنةِ هو الأصلُ، وهو المقدَّمُ لِمَنْ حَرَصَ على تحقيقِ مقاصدِ زواجِهِ الشرعيةِ. جاءَ في الصَّحيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا؛ فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ». وأخرجَ مسلمٌ عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُما، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الدُّنْيَا مَتاعٌ، وَخَيْرُ مَتاعِ الدُّنْيا المَرْأَةُ الصَالِحَةُ».

وقُلتُ في نكاحِ الأمةِ: بشروطِهِ؛ لأَنَّهُ لا يجوزُ نكاحُ الحرّ للأمةِ المسلمةِ إلا إذا عَجَزَ عن نكاحِ الحُرَّةِ، وخَشِيَ مِنَ الوقوعِ في الحرامِ، كما دَلَّ على ذلكَ قولُ الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [النساء ٢٥].

﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ ﴾ وكذلك لا يَحِلُّ للمسلمةِ أن تتزوجَ من غيرِ مسلمٍ، ولا يَحِلُّ لِوَلِيِّها أن يَمضيَ في شيءٍ من ذلكَ، سواءً كان الرجلُ من أهلِ الكتابِ، أم من غيرِهم.

﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ ﴾ أن تتزوجَ المسلمةُ من رجلٍ مسلمٍ مؤمنٍ خيرٌ لها من الزَّواجِ من غيرِ المسلمِ، ولو كانَ الزوجُ عبداً، وكانَ الكافرُ سيِّداً؛ فإنَّ العِبرةَ بما يحفظُ عليها دينَها.

على أنَّهُ في الإسلامِ لا يجوزُ زواجُ الحُرَّةِ المسلمةِ من عبدٍ مسلمٍ، لأنَّهُ ليس كُفُؤاً لها، والآيةُ هنا جاءَتْ منْ بابِ التمثيلِ لبيانِ خطورةِ مُناكَحةِ أهلِ الشِّركِ.

ولِقائلٍ أنْ يقولَ: ما المعنى الَّذي اعتبرَهُ الشَّرعُ وأرادَهُ في إباحةِ الزَّواجِ من الكتابيَّةِ للرَّجلِ المسلمِ، وحَرَّمَ ما سِوى ذلكَ من نكاحِ المشركينَ والمشركاتِ؟ والجوابُ أنَّ المسلمينَ يجمعُهمْ معَ أهلِ الكتابِ، اعتقادُ وجودِ اللهِ وانفرادِهِ بالخلقِ، ويجمعُهم إيمانُهم بالأنبياءِ، بخلافِ أهلِ الشِّركِ، ولذلكَ كانَ أهلُ الكتابِ أقربَ إلينا من غيرِهم، مَعَ أنَّ الجميعَ كُفَّارٌ غيرُ مسلمينَ. ثُمَّ إنَّهُ من المعلومِ أنَّ المرأةَ تبَعٌ لزوجِها غالباً، وأنَّ زواجَها منْ غيرِ المسلمِ بابٌ عظيمٌ من أبوابِ فِتنَتِها عن دينِها، فإنَّ عاطِفَتَها وحُنُوَّها وعطفَها وقلبَها مرتبطٌ بزوجِها غالباً، ويُخشى عليها من رِدَّتِها، ولذلكَ حرَّمَ عليها النكاحَ من غيرِ المسلمِ مُطْلقا، بخِلافِ المسلمِ الذي نكَحَ كتابِيَّةً، فإنَّ لهُ قُوَّةً عليها وعلى التَّأثيرِ بها، بحُكمِ قوامتِه وما أعطاهُما اللهُ من خصائصَ.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ معاشرةُ المشركينَ والمشركاتِ ومخالَطَتُهم، تدعُو إلى فعلِ أسبابِ دخولِ النَّارِ، فإنَّ كُلّاً من الزَّوجَينِ عادةً ما يكونُ حريصاً على إرضاءِ الآخرِ.

أهلُ الشِّركِ لا ينطلقونَ في أقوالِهمْ وأفعالِهمْ من قاعدةِ الشَّرعِ، بل نَجدُ أنَّ أهواءَهُم هي إلهُهُم الذي يعبدونَه من دونِ اللهِ، ونجدُ أنَّ أفعالَهم إنَّما تبعَثُ على التَّعلُّقِ بالدُّنيا والعملِ لها على أنَّهُ لا دارَ بعدَها.

واللهُ يدعُوكُمْ إلى جنَّتِهِ وفضلِهِ ومغفرتِهِ بإذنِهِ، أي: بأمرِهِ وشَرْعِه، ولذلكَ شَرَعَ لكمْ ما يُصْلِحُكُمْ ويَهدِيكُمْ، وأَمَرَكُم ونهاكُمْ وبيَّنَ لكُم لتكونوا على بصيرةٍ من أمرِكُم وتتذكَّروا ولا تَغفَلوا، بخلافِ أهلِ الشِّركِ الذين تقدَّمَ ذِكرُهُمْ.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

أخرجَ مسلمٌ في صحيحِهِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عنهُ، أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ (أي: لم يخالطوهن ويساكنوهن في بيت واحد)، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ». فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ» الحديث.

ومِمَّا يُؤَكِّدُ ما كان يعتقِدُهُ اليهودُ في ذلكَ ما جاءَ في عددٍ من النُّصوصِ عندَهُم في توراتِهم، كما جاءَ في سِفْرِ لاوي ١٥:١٩: «إذا كانت امرأةٌ لها سيلٌ، وكان سيلُها دماً في لحمِها، فسبعةُ أيَّامٍ تكونُ في طَمثِها، وكلُّ من مَسَّها يكونُ نَجِساً إلى المساءِ، وإنِ اضطجعَ معها رجلٌ، فكان طمثُها عليها، يكونُ نجساً سبعةَ أيَّامٍ، وكلُّ فِراشٍ يضطجعُ عليه يكونُ نجساً».

فحديثُ رسولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا، يَدُلُّ على ما دلَّتْ عليهِ الآيةُ من سؤالِ الصحابةِ نبيَّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمَّا يَحِلُّ وعمَّا لا يَحِلُّ في حقِّ المرأةِ الَّتي رأَتْ دمَ الحيضِ، وهو دَمُ طبيعةٍ وجِبلَّةٍ كَتَبَهُ الله على بناتِ آدمَ، وجاءَ بسببِهِ تخفيفُ عددٍ منَ الأحكامِ في حقِّهِنَّ، فنزلَتِ الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ دمَ الحيضِ دمُ أذىً وضررٍ؛ ضررٍ على المرأةِ وعلى الرَّجُلِ إذا كانَ الجماعُ بينهما حالَ الحيضِ، ولذلكَ أوجبَتِ الآيةُ اعتزالَ الزَّوجةِ في محيضِها، أيْ: في محَلِّ جماعِها، وهو الفَرْجُ. فالمَمْنوعُ فقط هو مُجامَعتُها ووَطؤُها زمَنَ حَيضِها، أمّا مساكَنَتُها ومُؤاكَلتُها وتَقبيلُها وضَمُّها وسائرُ مُقدِّماتِ الجماعِ، فهذا مُباحٌ وليسَ ممنوعاً إلا إذا خَشِيَ على نفسِهِ الوقوعَ في الجماعِ فَيجتنِبُ مقدماتِ الجماعِ.

فإنْ جامَعَها وهي حائضٌ وَجَبَ عليهِ أنْ يَتَصدَّقَ بدينارٍ أو نصفِ دينارٍ عندَ بعضِ أهلِ العلمِ، وعِندَ أهلِ التَّحقيقِ لا يجِبُ عليهِ إلَّا التوبةُ إلى الله؛ لأنَّ الحديثَ الواردَ في وُجوبِ التَّصدُّقِ ضعيفٌ لا يَصِحُّ رفْعُهُ للنَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والآيةُ نزلَتْ كذلِكَ لِتُبيِّنَ خطأَ اليهودِ وبعضِ قبائلِ العربِ في تعامُلِهِمْ معَ المرأةِ حالَ عُذرِها الشَّرعِيِّ، بلْ جاءَ تأكيدُ ذلكَ فيما جاءَ من أحاديثَ صحيحةٍ تصفُ رُقِيَّ الإسلامِ في ذلكَ. تأمّلوا ما أخرجَهُ البُخاريُّ ومسلمٌ، من أنَّ نبيَّنا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَضْطَجِعُ مع نسائِهِ وهُنَّ حُيَّضٌ، ويباشِرُهُنَّ فوقَ الإزارِ دونَ وطءٍ، وإذا انسلَّتْ إحداهُنَّ دعاها إلى خَميلَتِهِ (الثوب) لِتنامَ معَهُ. وكانَتْ عائشةُ رضي الله عنها تُرَجِّلُ وتَغسِلُ رأسَهُ وهي حائضٌ، وكانَ يقرأُ القرآنَ وهو في حِجْرِها حالَ حَيضِها. وعندَ مسلمٍ جاءَ قولُ أمِّنا

عائشةَ رضيَ اللهُ عنها: «كنتُ أشربُ وأنا حائضٌ، ثم أناوِلُهُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيضَعُ فاهُ على موضِعِ فِيَّ فيشرَبُ، وأَتعَرَّقُ العَرْقَ وأنا حائضٌ (يعني: آكل اللحم الذي على العظم)، ثُمَّ أناوِلُه النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيضَعُ فاه على مَوضِعِ فِيَّ».

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ نَهْيٌ عن قُرْبانِهِنَّ بالجماعِ والوَطْءِ ما دامَ الحيضُ موجودا. يعني: لا تُجامِعُوهُنَّ حتَّى يَطْهُرنَ من الدَّمِ بالجفافِ أو بِعلاماتٍ أُخرى تعلَمُها المرأةُ.

ولا يكفي لإباحَةِ الجماعِ حصولُ الطُّهرِ منَ الحَيضِ، بل لَّا بُدَّ منِ اغتسالِها منْ حَيضِها، ثُمَّ تَحِلُّ لزوجِها، ولذلكَ قالَ اللهُ في تتمةِ الآيةِ:

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ والتَّطَهُّرُ هو غَسْلُ الأذى بالماءِ، يعني: لا يَحِلُّ جِماعُها بِمُجرَّدِ انقطاعِ الدَّمِ، بل لَّا بُدَّ منِ اغتِسالِها بالماءِ أو تَيَمُّمِها إذا تعذَّرَ استعمالُ الماءِ. وهذا ما أرشَدَتْ إليهِ الآيةُ هنا وبيَّنَتْ.

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، أيْ: جامِعُوهُنَّ في المحلِ الذي أَذِنَ اللهُ تعالى لكمْ بِهِ، وهو الفرجُ، وفي الحالِ الذي أَذِنَ اللهُ لكم به بعدَ الاغتسالِ منَ الحَيضِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ خِتامٌ للآيةِ عظيمٌ يُذكِّرُ أهلَ المعاصي بأنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ توبتَهُمْ ورَجعتَهُم إليه، يُحِبُّ محاسبَتَهُم لأنفسِهم وكَثرةَ طَرْق أبوابِ التَّوبةِ إذا ما اقترَفُوا شيئا مِمَّا نَهى عنهُ.

﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ويُحِبُّ المُتنزِّهِينَ عَنِ الأَقْذارِ والأَذى الذين يَحرِصونَ على التَّطَهُّرِ كما أمرَ اللهُ وشَرَعَ.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)﴾

الآيةُ تُبيِّنُ عُمقَ وقُوَّةَ علاقةِ الرَّجُلِ بزوجِه، وكيفَ أنَّها قريبةٌ منهُ قُرباً مُعتبرا في الشَّرعِ ولهُ قدْرُه ووزْنُه.

زوجةُ الرَّجُلِ حَرْثٌ له، شبَّهها بالحرْثِ لأنَّ رَحِمَها يحمِلُ نُطفتَهُ وَوَلَدَهُ، كما تحمِلُ الأرضُ البِذرةَ فتُنبِتُ ما تُنبتُ.

فالزَّوجُ له أنْ يَأتِيَ زوجتَه ويُجامِعَها في قُبُلِها في محَلِّ إنجابِ الولدِ في أيِّ وقتٍ شاءَ وكَيفَما شاءَ، سواءٌ جاءَها مِنْ أمامِها أو مِنْ خلفِها. المُهِمُّ أَنْ يكونَ الجِماعُ في القُبُلِ لا في الدُّبُرِ، وألَّا يكونَ زمنَ حيضِها.

أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قالَ: « كانتِ اليهودُ تقولُ: إذا أَتَى الرَّجُلُ امرأتَهُ من دُبُرِهَا في قُبُلِها كانَ الولدُ أَحولَ (يعني: جامعَها في قُبُلها وهي على بطنِها وجاءَها من جهةِ الخَلْفِ)، فنزلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ . وفي روايةٍ عندَ البُخاريِّ: «كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ: إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فنزَلَتْ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ فِي الْحَدِيثِ: فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُقبِلَةً ومُدبِرةً إذا كانَ ذلكَ في الفرجِ». وأخرجَ أبو داودَ والحاكمُ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، قالَ: «كانَ هذا الحَيُّ منَ الأنصارِ وهُمْ أهلُ وَثَنٍ معَ هذا الحَيِّ من يهودَ وهُمْ أهلُ كتابٍ، وكانوا يَرَوْنَ لهمْ فضلاً عليهِمْ في العلمِ، فكانوا يَقتَدونَ بكثيرٍ من فِعلِهِم، وكانَ مِنْ أَمْرِ أهلِ الكتابِ أن لَّا يَأتوا النِّساءَ إلَّا على حرفٍ (أي: لا يُجامعوهُنَّ إلا أن تكونَ على جنبِها) وذلك أسترُ ما تكونُ المرأةُ، فكانَ هذا الحَيُّ من الأنصارِ قد أَخذوا بذلِكَ مِنْ فِعلِهِمْ، وكانَ هذا الحَيُّ مِنْ قريشٍ يَشْرَحُونَ النِّساءَ شَرْحاً مُنْكراً (أي: يُجامِعوهُنَّ وهُنَّ مُستلقياتٌ على بُطُونِهِنَّ)، ويَتَلَذَّذُونَ مِنْهُنَّ مُقبلاتٍ ومُدبراتٍ ومُستَلقِياتٍ، فلمَّا قَدِمَ المُهاجِرونَ المدينةَ، تزوَّجَ رجلٌ منهمُ امرأةً من الأنصارِ، فذهبَ يَصنعُ بها ذلكَ، فأنْكَرَتْهُ عليهِ وقالت: إنَّما كُنَّا نُؤتَى على حرفٍ، فاصْنعْ ذلكَ وإلَّا فاجْتَنِبْني، حتى شَرِيَ أمرُهُما (أي: تَفاقَمَت الخصومةُ وعَظُمت وكبرت)، فبلغَ ذلكَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، أي: مُقْبلاتٍ ومُدبراتٍ ومستلقياتٍ، يعني بذلك موضِعَ الولدِ.

وهذا يَدُلُّ على أنّ الآيَةَ لا يُستَدَلُّ بها على جوازِ جماعِ الزَّوجَةِ في الدُّبُرِ، بلْ إنَّ هذا ممَّا جاءَ النَّهيُ الشديدُ عنهُ، كالحديثِ الذي أخرجَهُ أحمدُ وابنُ ماجه والنَّسائيُّ، قالَ فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا ينظرُ اللهُ إلى رجلٍ يأتي امرأتَهُ في دُبُرِها» ، وكذلكَ ما أخرجَه أحمدُ وابنُ ماجه والتِّرمذيُّ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «منْ أتى حائضاً أوِ امرأةً في دُبُرها، أو كاهِناً فصدَّقَهُ بما يقولُ، فقدْ كفَرَ بما أُنزِلَ على محمَّدٍ»، وغيرِ ذلكَ من الأحاديثِ.

بلْ ثبتَ عن غيرِ واحدٍ من الصحابةِ إطلاقُ لفظِ الكُفرِ على فاعِلِه، بمعنى أنَّ هذا لا يفعَلُهُ إلَّا أهلُ الكُفرِ، فمِثلُه يُحذرُ منهُ.

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ احرِصوا على الأعمالِ الصالحاتِ، فإنَّ نفعَها يكونُ لكمْ في الدَّارينِ. واجتنبوا ما حرَّم الله عليكُم، ولا تَتَهاونُوا وتتساهَلوا في ذلك، فإنَّكُم أيُّها الناسُ موقوفونَ بينَ يَدَيْ ربِّكم ومُلاقُوه، وسيُحاسِبُكم على أَعْمالِكُمْ جميعاً.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وكأنَّ من أطاعَ الله تعالى فيما أمرَ به ممَّا تقدَّمَ، كان مِنْ أهلِ الإيمانِ الَّذين يُحِبُّهُمُ الله، وهؤلاءِ: بَشِّروهم بحُسن ما ينتظِرُهم من جزاءٍ عندَ ربِّهم؛ آمَنوا بالله وأطاعُوه فيما أمرَ، وتركُوا ما زجرَهُم عنه، فهَنيئاً لهم.

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾

هذهِ الآيةُ تصِفُ حالَ صِنفٍ مِنَ النَّاسِ، يغضَبُ فيحلِفُ بالله ألَّا يَصِلَ رَحِمَهُ وألَّا يفعلَ خيراً معَ أحدٍ وألَّا يبذُلَ المعروفَ ونَحْوَ ذلكَ، فيجعلُ يمينَه مانعاً لهُ من أداءِ ما عليهِ من حقوقٍ، ومانعاً من فِعلِ الخيراتِ.

هنا جاءَ التَّوجيهُ الرَّبَّانيُّ لأهلِ الإيمانِ الحريصِينَ على ما يُحِبُّه الله ويرضاهُ، بألَّا يجعلوا أَيمانَهُم مانعةً لهم من طاعةِ الله وتحقيقِ التقوى والإصلاحِ بينَ النَّاسِ، فإنَّ هذا ليسَ من تعظيمِ اسمِ الله تعالى، فلا تَحلِفوا أيُّها المؤمنونَ حَلْفاً تعتذِرونَ به عن فِعلِ الخيرِ، فإنَّ الله تعالى سميعٌ لأقوالِكُم، عليمٌ بحالِكُم وبما هو أنفعُ لكُم.

والنَّهيُ هنا نهيُ تحريمٍ أو كراهةٍ بحسبِ المَحْلوفِ عليه.

وقدْ وَجَّهتِ السُّنةُ مَنْ حلفَ على يمينٍ فيه تركٌ للخيرِ والإصلاحِ بينَ النَّاسِ؛ أن يُكفِّرَ عن يمينِه، ويَمضِيَ في معروفِه وخيرِه. أخرجَ مسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عنهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَفْعَلِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ».

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥﴾

جاءَتِ الآيةُ السَّابقةُ للنَّهي عن التَّسرُّعِ في الحَلِفِ بالله، وعن جَعْلِ اليمينِ مانعاً من فِعْلِ الخيرِ، ثُمَّ استطردَ البيانُ القرآنيُّ هنا لبيانِ ما يُؤاخِذُ الله به من الأيمانِ.

والْأَيْمَانُ جَمْعُ يَمِينٍ، وَهو الْقَسَمُ وَالْحَلِفُ بِذِكْرِ اسمٍ من أَسْمَاءِ الله تَعَالَى أَوْ صفةٍ من صفاتِهِ. ولا يجوزُ بغيرِها، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ».

والأيمانُ عند أهلِ العلمِ ثلاثةٌ: إمَّا أنْ يكونَ اليمينُ يمينَ لَغوٍ، وهو المقصودُ هُنا في هذه الآيةِ، وهو الذي يَجري فيه الحَلِفُ دونَ قَصْدٍ ولا نِيَّةٍ، وإنَّما يَجري على اللِّسانِ خطأً؛ كأنْ يقولَ: بلى واللهِ، وكلّا واللهِ، بدونِ قصدٍ منهُ. وألحقَ بعضُ العلماءِ باليمينِ اللَّغوِ، ما لو حلفَ الرَّجلُ على الشَّيءِ يَرى أنَّهُ كذلك وليسَ كما ظَنَّ.

ويمينُ اللغوِ، لا يُؤاخِذُنا الله به كما نصَّت الآيةُ هنا، بمعنى: لا إثمَ فيهِ ولا كَفَّارةَ، ولا يَلزمُ الوفاءُ به؛ لأنَّهُ إنَّما جرى على لسانِ الحالِفِ بدونِ قصدٍ. أخرجَ البُخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». فهذا التَّوجيهُ النَّبويُّ جاءَ لقومٍ أَسلموا حديثًا، وكانتْ أَلسنتُهم مُعتادةً على الحَلِفِ بالأصنامِ، فأُمِروا إنْ سَبق لسانُهم وأقسمَ باللاتِ والعُزى بدونِ قصْدٍ، أن يتلفَّظُوا بكلمةِ التوحيدِ، مُراعاةً لحَلِفِهم الذي له حكمُ اللَّغوِ.

واليمينُ الثاني: هو اليمينُ المُنعقِدةُ، وهو الذي يجري فيه الحَلِفُ بقصدٍ ونِيَّةٍ، يَحْلِفُ أن يفعلَ شيئا فلا يَفْعَلُهُ أوِ العكسُ. يعني: يَحنَثُ في يمينِهِ، إمَّا بغيرِ اختيارِه أو يَرى غيرَها خيراً منها. وهذا الذي تَلزمُ فيه الكفَّارةُ للخروجِ من الإثمِ، فالمُؤاخذةُ الشرعيَّةُ تكونُ في اليمينِ المنعقِدةِ، وصاحِبُها إذا حنثَ في يمينِهِ وأرادَ مخالفتَهُ، لزمتْهُ الكفَّارةُ المذكورةُ في قولِ الله تعالى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ﴾ [المَائِدَة ٨٩].

واليمينُ الثَّالثُ: هو الغموسُ، وهو الذي يَحلِفُ فيه كاذِبا قاصِدا، وهو من الكبائرِ، وجُمهورُ الفقهاءِ على أنَّهُ لا كفَّارةَ فيهِ، وليسَ له إلَّا التوبةُ الصَّادِقةُ، خلافاً للشافعيِّ الذي جعلَ فيه الكفَّارةَ. أخرجَ البخاريُّ عن عبد الله بنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قالَ: «جاءَ أَعرابيٌّ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسولَ اللهِ، ما الكبائرُ؟ قال: الإِشراكُ بِالله. قال: ثم ماذا؟. قال: عُقوقُ الوالدين. قال: ثم ماذا؟ قال: اليمينُ الغَمُوسُ. قلتُ: وما اليمينُ الغموسُ؟ قال: الَّتِي يُقْتَطَعُ بِهَا مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ».

وأَخرج مسلم عن أبي أُمامة أَن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ. فقال رجلٌ: وإن كانَ شيئًا يسيرًا؟ قال: وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا من أَراك».

واليمينانِ المنعقدةُ والغموسُ، هما المقصودانِ بقولِ الله تعالى هنا في تتِمَّةِ الآيةِ: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، فكلاهُما للقلبِ فيه كَسْبٌ ونيَّةٌ وعزمٌ، ولأنَّ فيهما تعظيمًا لله لا يخفى، فكانت المُؤاخذةُ فيهما.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أَيْ: غَفورٌ لِعبادِهِ، حَلِيمٌ عَلَيْهِمْ، يغفرُ لهم زلَّتهم وخطأَهم، إن هم تابوا وصدقوا.

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾

الإيلاءُ أن يحلفَ الزَّوجُ ألَّا يُجامِعَ زوجتَهُ مُدَّةً من الزَّمنِ؛ إمَّا إضراراً بها، أو عقوبةً لها، أو غيرَ ذلك.

وهذا أمرٌ يُضِرُّ بالحياةِ الزَّوجيَّةِ واستقرارِها، ولذلك نَزَلتِ الآياتُ تُبيِّنُ حُكمَ ذلك وتضبطُه، بخلافِ ما كان عليهِ الأمرُ في الجاهِليَّةِ قبلَ الإسلامِ، فقد كان للرَّجلِ أن يَضُرَّ زوجتَه ويمتنعَ عن الوطءِ والجماعِ ما شاءَ، ويُولي من زوجتِه السَّنةَ والسنتينِ، وليس للزوجةِ حقوقٌ ولا أحكامٌ ولا كلمةٌ في ذلك.

أما في الإسلامِ، فالإيلاءُ يحرمُ إذا كان بقصدِ الإضرارِ بالمرأة، فإنَّ هذا ممَّا لا يرتضِيهِ الشَّرعُ.

أمَّا إن كان بغيرِ قصدِ الإضرارِ بها، بل لِمَقْصِدٍ شرعيٍّ مُعتبرٍ كالتأديبِ، فهذا مِمَّا يُباحُ، فقد جاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، «أَنَّ رَسُولَ الله آلَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا» الحديث.

والآيةُ هنا تُبيِّنُ أنَّهُ من آلى من زوجتِه أكثرَ من أربعةِ أشهرٍ، فإنَّهُ يُمْهَل أربعةَ أشهرٍ ليرجِعَ عن فَعلَتِهِ ويأخُذَ حظَّهُ من التفكيرِ، ويُعطِيَ أهلَه حقَّها في الفراشِ، ويُكفِّرَ عن يمينِه، فهذا الحكمُ يكونُ إذا كانَتْ مُدَّةُ الإيلاءِ أكثرَ من أربعةِ أشهرٍ.

أمَّا إذا كانت مُدَّةُ الإيلاءِ أقلَّ من أربعةِ أشهرٍ، فلا تُطلّق عليهِ، ولا تُطبَّقُ هنا أحكامُ الإيلاءِ، وإنَّما تَصبِرُ أو يُكفِّرُ هو عن يمينِهِ ويُعطِيها حقَّها في الفراشِ، أو ترفعُ أمرَها للقاضي لينظُرَ فيه إنْ لَزِمَ. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ فَإِن فَآءُو ﴾ أَيْ: رَجَعُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أَيْ: لِمَا سَلَفَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِنَّ بِسَبَبِ الْيَمِينِ.

﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

إذا مرَّتْ أربعةُ أشهرٍ ولم يعطِ زوجتَهُ حقَّها، فلها أن تطلُبَ الطَّلاقَ إن شاءَتْ، وترفعَ أمرَها للقاضي فيُطَلِّقَ عليه جبْرا. والله سميعٌ لأقوالهم، عليمٌ بما يُخفونَه في قلوبِهم، فليَحذَروا مِنْ قَصدِ الأذيَّةِ لبعضِهم وليستقيموا.

وفي هذهِ الآياتِ مسائلُ عِلميَّةٌ عِدَّةٌ، أذكرُ منها ما ذهبَ إليهِ جمهورُ الفقهاءِ من أنَّ الطلاقَ بينهما في حالِ الإيلاءِ لا يقعُ بِمُجرَّدِ مُضِيِّ الأربعةِ أشهرٍ، وإنَّما يُلزَمُ الزوجُ بعد انتهاءِ المُدَّة بالفيءِ والرُّجوعِ وإعطاءِ الزَّوجَةِ حقَّها في الفراشِ، فإنْ لم يَفعلْ أُلزِمَ بالطَّلاقِ، فَإِنْ لَمْ يُطَلِّقْ؛ طَلَّقَ عَلَيْهِ القاضي جبرًا، فإذا وَقعَ الطَّلاقُ هنا كان رجعياً، فللزَّوجِ إرجاعُها بلا مَهرٍ ولا عَقدٍ ولا رضا. وهذا قولُ جُمهورِ أهلِ العلمِ من المالكيةِ والشافعيةِ والحنابلةِ.

بخلافِ ما ذهبَ إليه أئمةُ الحنفيةِ مِن أنَّ الطلاقَ يقعُ بِمُجرَّدِ مُضِيِّ أربعةِ أشهرٍ، ويقعُ بائنًا، فلا يَحِلُّ له إرجاعُها إلا بمهرٍ وعقدٍ جديدينِ مع اشتراطِ رضاها.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾

جاءَتْ عِدَّةُ آياتٍ وأحاديثَ تُبيِّنُ العِدَّةَ التي يجبُ على المُطلَّقةِ أن تمضيها قبلَ الزَّواجِ من رجلٍ آخرَ، وتُبيِّنُ أحكامَها، فلا عِدَّةَ على المُطلَّقةِ التي لم يَدخُل بها زوجُها ولم يجامِعْها، كما بيَّنَتْ سورةُ الأحزابِ.

أمَّا المدخولُ بها؛ فإذا كانت حاملاً، فعِدَّتُها تنتهي بوضعِ حملِها، وإن كانت صغيرةً لا تحيضُ أو كبيرةً آيسةً من المحيضِ، فعِدَّتُها تكونُ ثلاثةَ أشهرٍ، كما بيَّنتْ ذلك سورةُ الطَّلاقِ.

فإنْ كانتْ مِمَّنْ تحيضُ، فقد جاءتِ الآيةُ هنا ببيانِ المُدَّةِ التي يجبُ أن تتربَّصَ فيها وتمتنعَ عن الخِطبةِ والزَّواجِ، وهذه المُدَّةُ هي ثلاثةُ قروءٍ كما ذكرتِ الآيةُ.

والعربُ تُسمي الحيضَ قُرءًا، وكذلك تُسمي الطُّهرَ قُرءًا، ولذلك كان هذا اللَّفظُ من الألفاظِ المُشتركةِ التي سبَّبَت اختلافاً في المُرادِ منه هنا في الآيةِ. وقد ذهبَ جُمهورُ الفقهاءِ إلى أنَّ القُرءَ هنا معناه الطُّهرُ، فلا تَحِلُّ للأزواجِ حتى تَطْهُرَ من حَيضِها ثلاثَ مرَّاتٍ. ومِنْ أهلِ العلمِ من فَسَّرَ القُرءَ هنا بالحيضِ، فلا تَحِلُّ للأزواجِ حتى تحيضَ ثلاثَ مرَّاتٍ، وهو قولُ الحنفيةِ. وتَظهرُ ثمرةُ الخِلافِ في طولِ المُدةِ الزمنيةِ التي تُمضيها المطلَّقةُ أو قِصرِها.

ومعلومٌ لديكُم أنَّ اعتدادَ المرأةِ له حِكَمٌ مُتعدِّدةٌ قَصدَها الشَّرعُ؛ فمنها التَّأكُّدُ من براءةِ الرَّحِمِ لِئلَّا تختلطَ الأنسابُ، ومنها إعطاءُ الزَّوجِ مُدَّةً كافيةً لعلَّهُ يُراجعُ نفسَه ويَرجعُ إلى زوجِه، ومنها الوفاءُ للزوجيَّةِ وتقديرُ شأنِها ورفعُه، وغيرُ ذلك.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ يَحرُمُ على المرأةِ إذا طُلِّقت أن تكتمَ ما في رَحِمِها من حبلٍ أو حيضٍ، والمرأةُ قد تفعلُ ذلك إضرارًا بزوجِها الذي طلَّقها، أو لغاياتٍ أُخرى من استعجالِ انقضاءِ عِدَّتِها أو تطويلِها، ولا يعلمُ حقيقةَ ذلك إلا هي، والمَرجعُ إليها. وهذا ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، فكتمانُ ذلك ليس من شأنِ المؤمناتِ ولا مِنْ سَمْتِهِنَّ وهَدْيِهِنَّ، فمن كانت تعلم أنها مَوقوفَةٌ بين يَدي الله تعالى في يومِ الحسابِ، حَرَصَتْ على قولِ الحقِّ في ذلك وبيانِه.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا﴾ إذا طَلَّقَ الزَّوجُ زوجتَه طلاقاً رجعيًّا، فهو أَحَقُّ بِردِّها ما دامتْ في عِدَّتِها، إذا كان يقصِدُ بذلك الإصلاحَ والخيرَ لا الإضرارَ، فيُرجِعُها بلا مهرٍ ولا عقدٍ جديدَينِ، ولا يُشترطُ رضاها في ذلك.

والطَّلاقُ الرَّجعيُّ يكونُ فقط في الطَّلقةِ الأولى والثانيةِ، أما الثَّالثةُ فلا تقعُ إلا بائناً بَينُونَةً كُبرى، كما سيأتي بيانُه في الآيتينِ التاليتينِ.

وفي الطَّلاقِ الرَّجعيِّ أمرَ ربُّنا المُطلَّقةَ ألَّا تخرُجَ من بيتِ الزوجيَّةِ، وأن تقضيَ عِدَّتها فيه، وليس لزوجِها أن يُخرِجَها إلا إذا جاءَتْ بفاحشةٍ مبيِّنةٍ، كما دلَّ على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ [الطلاق ١].

بل نَهى الشَّرعُ عن طلاقِ الزَّوجةِ وهي حائضٌ، وجعلَ الطَّلاقَ المَسنونَ هو طلاقُها بعدَ طُهرِها من الحيضِ وقبلَ أن يجامِعَها. والحكمةُ من ذلكَ هو تَشوُّفُ الشَّرعِ لبقاءِ الأُسرةِ وتماسُكِها بإرجاعِها، وإغلاقِ أبوابِ الإفسادِ بينهُما، وإعانةِ الزَّوجِ على التأنّي والتُّؤَدَةِ والتَّفكيرِ قبلَ طلاقِهِ.

﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بالمعروفِ أيْ: وِفقا لأعرافِ النَّاسِ وما عَهِدوهُ بينهم، فالزَّوجةُ لها من الحقوقِ مثلُ الذي عليها من الواجباتِ، وفقًا لما تقتضيهِ أعرافُ النَّاسِ. الزوجةُ لها من التَّكريمِ والعنايةِ وحُسنِ المُعاملةِ، كما يجبُ عليها أن تَبذُلَ لزوجِها ذلك.

ولا يُظَنُّ بلفظِ المِثليَّةِ هنا التساوي المطلقُ، بدليلِ ما جاءَ بعدَها «وللرِّجالِ عليهنَّ درجةٌ»، ولأنَّ نصوصَ الشَّريعةِ طافحةٌ ببيانِ عددٍ من الأحكامِ الخاصَّةِ بحقوقِ الرِّجالِ وواجباتِهم، وأُخرى خاصَّةٌ بحقوقِ النِّساءِ وواجباتِهنَّ، ومن تأمَّلَ وتتبَّعَ هذه الأحكامَ أدركَ أنَّها تقومُ على قاعدةِ العدلِ، الَّذي يجعلُ كُلّا من الزوجينِ مُكمّلا للآخرِ، لا عدوّا له ونِدّا، كما يَظهرُ في فلسفةِ عددٍ من المدارسِ الحديثةِ المُحادَّةِ والمُعارضةِ لله ودينِه.

ومقصودُ الآيةِ: فليَحرِصْ كُلٌّ من الزَّوجينِ على أن يبذُلَ من الإحسانِ ما يستطيعُ بَذْلَهُ، ولا يُقَصّرَ في ذلك، وفقاً لما أرشدَتْ إليهِ نصوصُ الشَّرعِ، وما عَهِدَتْهُ وألِفَتْهُ أعرافُ النَّاسِ وعاداتُهم.

ومثلُ هذه الآياتِ أقامَتْ وأسَّسِتْ للمرأةِ حقوقاً لم يكُنْ غالبُ العربِ والأممِ الأخرى يلتفِتُ إليها ويُقرِّرُها، فإنَّها كانت مبنيَّةً على التَّهاونِ والتحكُّمِ والمِزاجيَّةِ، ولذلك قدَّمَ في الآيةِ لفظَ ﴿وَلَهُنَّ﴾ على لفظ ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾؛ لشدةِ الاهتمامِ والعنايةِ بما لَهُنَّ.

أخرجَ مسلمٌ عَنْ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أخذتموهُنّ بِأَمَانَةِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أَحَدًا تكرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» الحديث.

وأخرجَ أحمدُ وأبو داودَ وابنُ ماجه، عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْقُشَيْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ، وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ».

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أعطى اللهُ عزَّ وجلَّ واجبَ القيامِ على البيتِ ورعايتِه وقيادتِه للرَّجُلِ، لِمَا خَصَّهُ اللهُ تعالى من مقوِّماتِ ذلك من قُوَّةٍ وجَلَدٍ، ولِمَا ألزمَهُ به من النَّفَقةِ. قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النِّسَاء ٣٤]، فكانَ للرَّجُلِ على المرأةِ درجةٌ بذلك.

وتظهرُ هذه الدرجةُ كذلك بما أوجبَ اللهُ تعالى من أحكامٍ تَخُصُّ الحياةَ الزَّوجِيَّةَ، من مثلِ إيجابِ استئذانِ المرأةِ زوجَها في خروجِها، وثبوتِ نسبِ الأولادِ والولايةِ عليهم له، وجَعْلِ رضا الزَّوجِ طريقَها إلى الجنَّة، وإعْطائه حقَّ الطَّلاقِ والرَّجعةِ، وغيرِ ذلك.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أطيعوا اللهَ تعالى فيما أمرَ، وأعطوا النِّساءَ حُقُوقَهُنَّ، ولا تعتدوا على حدودِه؛ فإنَّهُ عَزِيزٌ قويٌّ في انتقامِهِ، حكيمٌ في أَمْرِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾

لم يكُنْ في ابتداءِ تشريعِ الأحكامِ في الإسلامِ عددٌ مُحَدَّدٌ لعددِ الطَّلْقاتِ التي يجوزُ للزوجِ إيقاعُها على زوجتِه، بل كانَ له أن يوقِعَ ما يشاءُ، ويكونُ الطَّلاقُ فيها رجعيًّا، وذلك استِصحابًا لما كان عليه الأمرُ في الجاهليةِ. أخرجَ التِّرمذِيُّ وغيرُهُ بسندٍ ضعيفٍ عَنْ عَائِشَةَ رضي اللهُ عنها قَالَتْ: كَانَ النَّاسُ وَالرَّجُلُ يُطَلِّقُ

امْرَأَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يُطَلِّقَهَا، وَهِيَ امْرَأَتُهُ إِذَا ارْتَجَعَهَا وَهِيَ فِي العِدَّةِ، وَإِنْ طَلَّقَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ، حَتَّى قَالَ رَجُلٌ لِامْرَأَتِهِ: وَاللهِ لاَ أُطَلِّقُكِ فَتَبِينِي مِنِّي، وَلاَ آوِيكِ أَبَدًا، قَالَتْ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: أُطَلِّقُكِ، فَكُلَّمَا هَمَّتْ عِدَّتُكِ أَنْ تَنْقَضِيَ رَاجَعْتُكِ، فَذَهَبَتِ المَرْأَةُ حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ فَأَخْبَرَتْهَا، فَسَكَتَتْ عَائِشَةُ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَتْهُ، فَسَكَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى نَزَلَ القُرْآنُ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍ﴾، قَالَتْ عَائِشَةُ: «فَاسْتَأْنَفَ النَّاسُ الطَّلاَقَ مُسْتَقْبَلاً، مَنْ كَانَ طَلَّقَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ طَلَّقَ».

جاءَتِ الآيةُ هنا والتي بعدَها لِتُبيِّنَ أنَّ عددَ الطلْقاتِ المسموحِ بها للزوجِ في دينِ الله تعالى ثلاثٌ فقط.

أما هنا فقدْ جاءتِ الآيةُ في بيانِ حُكمِ الطلقتينِ الأولَيينِ، وهما الطلقتانِ اللّتانِ تقعانِ رجعيَّتينِ، فيكونُ معنى الآيةِ هنا: الطَّلاقُ الذي يَحِقُّ للزَّوجِ إيقاعُهُ رجعيًّا مرتانِ.

وفي الطَّلاقِ الرجعيِّ، يكونُ للزَّوجِ حالَ عِدَّةِ الزَّوجَةِ أن يُرجِعَ زوجتَه إن رَغِبَ فيها، بلا مَهرٍ ولا عَقدٍ ولا رِضا، على أنْ يكونَ إرجاعُه لها عن حُسنِ نِيَّةٍ، وأن يعْزِمَ على أن يُمسِكَها، ويؤدِيَ إليها حقوقَها بما عُرِفَ بين النَّاسِ.

وإرجاعُها أمرٌ يَندُبُ الشَّرعُ إليهِ ويَستحِبُّهُ، ولذلك قدَّمَهُ على التَّسريحِ.

أما إذا انقضَتْ عِدَّتُها ولم يُرجِعْها، فإنَّ الطَّلاقَ هنا يقعُ بائنًا بينُونَةً صُغرى، أرشدَ الشَّرعُ هنا في الآية، أنْ يكونَ تسريحًا وتطليقًا بإحسانٍ، فلا يظلِمُها ولا يَضُرُّها ولا يَأخذُ من حقوقِها شيئًا. ولذلك قال الله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ الآيةُ هنا تُشيرُ إلى صِنفٍ من الأزواجِ، يَعْمَدُ إلى التَّضْييقِ على زوجتِه، ويتعمَّدُ كثرةَ مُخاصمتِها والإضرارِ بها، لتتنازَلَ له عن مهرِها أو جُزءٍ منه، أو تعطيَه مزيداً من المالِ ليُطَلِّقَها وتفتديَ نفسَها منه ومن اعتدائِه.

الآية فيها نهيٌ جاءَ يُفيدُ حُرمةَ ذلك، كَما قَالَ تَعالَى: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ [النِّساءِ ١٩]، بخلافِ ما لو أرادَتْ هي أن تعطيَه وتَهبَه شيئا عن طيبِ نفْسٍ منها ورضا، فهذا من حُسْنِ تَبعُّلِها لزوجِها. قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ [النِّساءِ ٤].

ويُستثنى من هذا الحُكمِ ما لو أبغَضتِ المرأةُ زوجَها لسببٍ مُعتبرٍ، وعلِمَتْ أنَّها لن تقومَ بحقِّهِ من شِدَّةِ بُغضِها له، وأنَّها لا تقدرُ على معاشرَتِه بالمعروفِ، ولا تستطيعُ أنْ تطيعَ الله تعالى فيهِ، فلا حَرجَ ولا إثمَ عليها أن تبذُلَ شيئا من مهرِها له، أو تبذلَه جميعا ليُطلِّقها، وكذلك لا إثمَ عليه بقَبُولِ ذلك، إلَّا إذا قصدَ إضرارَها لتفعلَ ذلك، فهذا حرامٌ عليه.

وَبَذْلُها هذا مقابلَ أنْ يُطلقها، يُسمّى بالخُلْع، وهو إما رِضائيٌّ يكونُ بالتوافقِ بين الزَّوجينِ، وإما قضائيٌّ ترفعُ فيه الزوجةُ أمرَها للقاضي ليُطَلِّقَ عليه، وفقًا لأحكامٍ فقهيةٍ وشرائطَ بيّنها أهلُ العلمِ في أُمهاتِ كُتبِ الفقهاء.

ومِمَّا يَدُلُّ على جوازِ الخُلعِ كذلك، ما أخرجه البخاريُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قيسٍ أَتَتِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْبَلِ الْحَدِيقَةَ، وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً».

فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا عُذْرٌ معتبرٌ وَسَأَلَتِ الِافْتِدَاءَ مِنْهُ والطَّلَاقَ، فهذا مِمَّا جاءَ التَّنفيرُ منه والتحذيرُ في الشَّرعِ، حِرصًا على قُوَّةِ الأُسرةِ في المجتمعِ المسلمِ وتماسُكِها، وإغلاقًا لبابِ الإفسادِ بين الزَّوجينِ. فقد أخرجَ أحمدُ وغيرُ واحدٍ من أصحابِ السُّننِ، عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ».

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ما شرعَه الله لكم وبيَّنَهُ في كتابِه من حدودِ الله، لا تنتهِكُوها ولا تتجاوَزُوها، وإلا كُنتُم من الذين ظلموا أنفسَهم واستحقُوا عقوبةَ الله لهم.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٢٣٠﴾

هذه الآيةُ تُبيِّنُ أحكامَ الطَّلقةِ الثالثةِ بعد آيةِ: «الطَّلاقُ مرّتانِ»، وجاءَتْ بحُكمِ ما لو طَلَّقَ الرَّجلُ امرأته طلقةً ثالثةً، فإنَّها تَحْرُمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَنْكِحَ وتتزوجَ زَوْجًا غَيْرَهُ، وهذا ما يُسمى بالطَّـلاقِ البائنِ بينونةً كُبرى. أخرجَ أبو داودَ والنَّسائيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنهُمَا، أنَّهُ قال: «كان الرَّجلُ إذا طَلَّقَ امرأته فهو أحقُّ برجعتِها وإنْ طلَّقها ثلاثًا، فنسخَ ذلك قولُه تعالى: «الطلاقُ مرتان» إلى قوله: «فإنْ طلَّقها فلا تَحِلُّ له من بَعدُ حتى تنكِحَ زوجاً غيرَه»».

وجاءَتِ السُّنةُ ببيانِ اشتراطِ حصولِ الدُّخولِ والوطءِ والجماعِ بينَها وبينَ زوجِها الجديدِ، ثمَّ تَطْليقِها وانْتهاءِ عِدَّتها، ثم يَحِلُّ لزوجِها الأولِ أن يعقِدَ عليها. أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ من حديثِ عَائِشَة رضي الله عنها وعن أبيها، أَنَّ امْرَأَةَ رِفَاعَةَ القُرَظِيِّ جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ رِفَاعَةَ طَلَّقَنِي فَبَتَّ طَلَاقِي، وَإِنِّي نَكَحْتُ بَعْدَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّبِيرِ القُرَظِيَّ، وَإِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ الهُدْبَةِ (كناية عن عدم قدْرَته على الجماع)، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَلَّكِ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لاَ، حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ وَتَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ». أي: حتى يحصُلَ الجماعُ بينكُما.

وهذه الشروطُ تدلُّ على أنَّ الشرعَ أرادَ أن يُؤدِّبَ الزَّوجَ الأوَّلَ لِتَسرُّعِهِ في الطَّلاقِ، وعدمِ إعطاءِ زوجِه وعِشرتِها المكانةَ اللَّائقةَ، وتهاوُنِه في تَشتُّتِ أهلِ بيتِه. وهذا حالُ عددٍ من الرِّجالِ لا يقدِّرونَ ما أعطاهُمُ الإسلامُ من القِوامَةِ وحقِّ الطَّلاقِ، فيجهلونَ معانيَ ذلك، فيَزِلُّونَ ويستخِفُّونَ.

وتأمَّلوا اشتِراطَ دُخولِ الزَّوجِ الثَّاني بها، فإنَّ هذا مِمَّا تَأنفُه طبيعةُ الرُّجولةِ، فكأنَّ الحُكمَ الشَّرعِيَّ يَطلُبُ من المُطلِّقِ أن يتأنَّى، وألَّا يصِلَ إلى الطَّلقةِ الثَّالثةِ إلَّا إذا تحققَّتِ المصلحةُ في ذلك.

وهنا مسألةٌ يذكرُها أهلُ العلمِ فيمنِ اتَّفقَ وتَواطَأَ مع رجلٍ ليتزوَّجَ مُطلَّقتَهُ التي طلَّقَها ثلاثًا، ثُمَّ يُطلِّقُها لِتَحِلَّ لزوجِها الأوَّلِ؛ هذه المسألةُ جاءَ فيها حديثٌ أخرجَهُ أحمدُ وأصحابُ السُّننِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُحَلِّلَ وَالمُحَلَّلَ لَهُ». فالمُحَلَّلُ له هو الزوجُ الأوَّلُ الذي يريدُها أن ترجِعَ له، وأمَّا المُحلِّلُ فهو الرَّجُلُ المُستأجَر أو المُتَّفَقُ معهُ لِيتزوَّجَها ثُمَّ يُطلِّقَها. أخرجَ ابنُ ماجه وغيرُه بسندٍ مُختَلَفٍ فيهِ، عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ الله عَنهُ قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخبِرُكُمْ بِالتَّيسِ المُسْتَعَارِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «هُوَ المحلِّل، لَعَنَ الله المُحَلِّلَ وَالمُحَلَّلَ لَهُ».

ومن هنا ذكرَ أهلُ العلمِ أنَّ زواجَها من الرَّجُلِ الثاني، لا بُدَّ أنْ يكونَ عن رغبةٍ وحِرصٍ على دوامِ العِشرةِ والمَوَدَّةِ، لا أنْ يكون تلاعُبا بكتابِ الله وشرعِه، حتى إنَّ أصحابَ متونِ الحديثِ والآثارِ أخرجوا آثاراً، تُبيِّنُ أنهم كانوا يَعُدُّونَ زواجَ التَّيسِ المُستعارِ زِنًا وسفاحًا على عهدِ رسولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابِه.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: فإنْ طلَّقَها الزوجُ الثَّاني، فلا حَرَجَ أنْ ترجِعَ لزوجِها الأوَّلِ، إذا عَلِما من أنفُسِهما إقامَةَ الحقوقِ والواجباتِ الزوجيةِ وفقا لما شَرَعَ الله.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ هذه الشرائعُ والأحكامُ بيَّنها ربُّنا، وأرشدَ النَّاسَ إليها، فلا يجوزُ تعدِّيها ولا تجاوُزُها. وإنَّما هيَ لقومٍ يفهمونَ الأحكامَ، ويُدركونَ مقاصِدَها، ويَحرِصُونَ على تطبيقِها.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

أَمْرٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ متعلِّقٌ بالأسرةِ في شرعِ الله، فيه زيادةٌ في الإيصاءِ بحُسنِ المُعاملةِ بينَ الزَّوجَينِ في الاجتماعِ والفُرقَةِ. إيجابٌ على الأزواجِ إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهمُ المَرْأَةَ طَلاقًا رجعيًّا، ثم قاربَتْ عِدَّتُها على الانتهاءِ والانقضاءِ، أن لا يظلِمَها، سواءٌ أرادَها زوجةً له فأرجَعَها، أو أرادَ تسريحَها وطلاقَها.

فإنْ أمسكَها أمسكَها بمعروفٍ، فنوى نيَّةً طيِّبةً، وأدَّى إليها حُقوقَها كما يُحِبُّ ربُّنا ويرضى، وإن لم يُراجِعْها وسرَّحَها وطلَّقها، سرَّحَها بمعروفٍ، من غيرِ شِقاقٍ ولا إيذاءٍ ولا إضرارٍ، ولا أكلٍ للحقوقِ، ولا ذكرٍ لها بسُوءٍ.

وتأمَّلُوا كيفَ بلغَ الإيصاءُ بالمطلَّقاتِ، حتى في آخرِ عِدَّتِهِنَّ، وهذا هو المقصودُ بقولِ الله هنا: فبَلَغنَ أجلَهُنَّ، أي: فاقتربَتْ عِدَّتُهُنَّ على الانقضاءِ، لأنَّ الزوجَ لا يملكُ إمساكَها بعد انقضاءِ عِدَّتِها.

والإيصاءُ هُنا حتى لا يتغافلَ الزوجُ عمَّا يجِبُ عليه، ولعلَّهُ يَرجِعُ إليها قبلَ انقضاءِ عِدَّتِها، فهذا مَرغوبٌ فيه في الشرعِ ومحبوبٌ.

والسِّياقُ القُرآنِيُّ فيه تكرارٌ للوصيةِ بالزَّوجاتِ والإحسانِ إليهِنَّ، حتى لو طُلِّقنَ، وهذا من حرصِ الشَّرعِ على استقرارِ حالِ الأُسرةِ في جميعِ أحوالِها.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ ولْيحذَرِ الأزواجُ أن يُعلِّقوا المرأةَ ويُمسِكوها إضرارًا بها وانتقامًا منها؛ فلا هم يُحسِنونَ إليها ويُعاشِرونَها بالمعروفِ، ولا هم يُطَلِّقونَها طلاقًا تمْلِكُ فيه نفسَها.

وقد تقدَّمَ معنا كيف كانوا يُضارّون زوجاتِهم قبلَ الإسلامِ، فيُطَلِّقُ الواحدُ منهم زوجتَه، حتَّى إذا قاربَتْ عِدَّتُها على الانقضاءِ، أرجَعَها، ثُمَّ طلَّقها، ثمَّ أَرجَعَها، وهكذا يَقصِدُ إيذاءَها والإضرارَ بها. بلْ منهم من يَتعمَّدُ إيذاءَها والتَّضييقَ عليها لِتفتدِيَ نفسَها منهُ، وتَطلبَ منه الطَّلاقَ مُقابلَ إعطائِه المالَ. وهذا من تمامِ الاعتداءِ على الزَّوجةِ وعلى أحكامِ شرعِ الله، والاعتداءُ هنا انتقالٌ من الإحسانِ إلى الإساءةِ. ولذلك قال الله:

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ ظُلمُ الزَّوجةِ لا يُحِبُّهُ الله ولا يرضاه، وفيه مُخالَفةٌ لأَمرِ الله تعَالَى. سَمَّى الله تعالى هذا الفعلَ ظُلمًا لنفسِه لِتَعريضِها لعقوبةِ الله في الآخرة، ولأنَّ ظالمَ زوجَتِهِ مُضيِّعٌ لِبيتِه وأُسرَتِه، ومُشتِّتٌ لاستقرارِ عائلتِه وراحتِها، ومثلُ هذا الصِّنفِ توعدَتْهُ الآياتُ هنا وأَنذرَتْ.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ لا تلعبُوا وتَستخِفوا بأوامرِ الله تعالى فيما يتعلَّقُ بطلاقِ المرأةِ وارتجاعِها، ولا تستهزِؤوا بأحكامِ الشَّرعِ التي جاءَتْ تَضبِطُ علاقتَكُم مع أزواجِكم وبُيوتِكم، وتُحقِّقُ مَصالِحَكُم.

عقدُ الزَّواجِ في الإسلامِ مِيثاقٌ غليظٌ لا يُقبل فيه الهُزْء واللَّعبُ، وتُحمل عباراتُ الهازِلِ واللاعبِ فيه على ظاهِرِها، وتترتَّبُ عليها أحكامُها؛ فإذا طلَّقَ الزَّوجُ زوجَتَهُ على سبيلِ اللَّعِبِ والسُّخريَةِ وقعَ طلاقُهُ، وكذا الزَّواجُ والرَّجعةُ في العِدَّةِ من طلاقٍ رَجعِيٍّ. أخرجَ الترمذيُّ وأبو داود وابن ماجه وغيرُهم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثٌ جَدُّهُنَّ جَدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جَدٌّ: النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ».

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾ بعد أنْ خوَّفَهُم وأَنذرَهُم وحذَّرَهُم من اتِّخاذِ أحكامِ الشَّرعِ هُزُوًا، جاءَتْ آياتُ القُرآنِ كما عَهِدناها بترغيبِ الأزواجِ بالتزامِ أحكامِ الزَّواجِ التي تُحقِّقُ مقاصِدَهُ، بتذكيرِهم بإكرامِ الله لهم، ونِعَمِهِ الَّتي لا تنقَطِعُ عنهم؛ كيفَ هداهُم للإسلامِ، وأنزلَ عليهم خيرَ كُتُبِهِ، وشَرَعَ فيه ما يُصلِحُهم، وأنزلَ عليهِمُ الحكمةَ، وهي العلمُ الذي أتاهُم به شَرعُ ربِّ العالمينَ، ومنه السُّنةُ التي جاءَ بها خيرُ الرُّسُلِ محمدٌ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أَيْ: يَأْمُرُكُمْ وَيَنْهَاكُمْ لِتلينَ قلوبُكم وتحذَروا، ولِتستقيموا ولا تَضِلُّوا.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أَيْ: راقِبوا الله تعالى فيما تقولونَ وتفعلونَ، فإنَّهُ سُبحانه لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ حالِكم، وَسَيُجازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ.

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾

فلا تَعضُلوهُنَّ، أي: فلا تَمنعُوهُنَّ. والخطابُ هنا في هذه اللَّفظةِ لأولياءِ المرأةِ الذين يمنعونَها من الرُّجوعِ لزوجِها الذي طلَّقَها، فإنَّ الزَّوجَ إذا طلَّق زوجتَه وانتهتْ عِدَّتُها، لا يَحِلُّ له الرُّجُوعُ إليها إلا بعقدٍ جديدٍ تُشتَرَطُ فيهِ موافقةُ الوَليِّ عندَ جُمهورِ أهلِ العلمِ.

ولاحِظوا أنَّ الخِطابَ لأولياءِ المرأةِ هنا وليس لها، لأنَّ المرأةَ غالباً تريدُ زوجَها وتَرغبُ في الرُّجوعِ إليهِ، إذا علمَتْ منه ندمًا، ورأَتْ منه صِدقًا في مُعاشرتِه لها بالمعروفِ، بخلافِ أوليائِها الذين تختلفُ نَظرَتُهم في ذلك غالبًا.

جاءَتِ الآيةُ هنا تَنهى الوليَّ عن عَضْلِ ومَنعِ رَجعَتِهما لبعضِهما، إذا اتفقوا وتراضَوا بينهم على إقامةِ حياةٍ زوجيَّةٍ قائمةٍ على المودَّةِ والرَّحمةِ والإحسانِ وفقًا لإرشادِ الشَّرعِ وعُرفِ النَّاسِ وعادتِهم.

أخرجَ البخاريُّ عن معقلِ بنِ يسارٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، أنَّ هذه الآيةَ نَزلَتْ فيه، قَالَ: زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا، حَتَّى إِذَا انْقَضتْ عِدَّتُهَا جاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ، فَطَلَّقْتَهَا، ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا، لاَ وَاللهِ لاَ تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رَجُلًا لاَ بَأْسَ بِهِ، وَكَانَتِ المَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فَقُلْتُ: الآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَزَوِّجْهَا إِيَّاهُ».

ولكنْ قد يغلبُ على ظَنِّ الوليِّ أنَّ رُجوعَهُما لبعضِهما، سيفتحُ بابًا جديدًا من الشُّرورِ، لِعدمِ ظُهورِ علاماتٍ على صدقِ النَّوايا؛ فلهُ أنْ يمنعَ مُولِّيَته من الرُّجوعِ لزوجِها، ولا يدخلُ مِثْلُهُ في حُكمِ الآيةِ للقيدِ الذي جاءَ فيها منَ التَّراضي بينهما بالمعروفِ.

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ مثلُ هذهِ المواعظِ والتَّوجيهاتِ والوصايا، لا يفقهُها ولا يُدركُ قيمَتَها ويَتمثَّلُها، إلَّا أهلُ الإيمانِ والخشيةِ.

﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ وإنَّما كانَ ما شَرَعَ لكُمْ في ذلك من تَرْكِ الحَمِيّةِ والتَّعصُّبِ، وتركِ عَضْلِ الزَّوجةِ ومَنْعِها من زوجِها وغيرِ ذلك، لِيُزكِّيَكم، ويجعلَكم من الرَّاشدينَ أصحابِ القلوبِ الطَّاهرةِ السَّليمةِ، ويُقرِّبَكُم من الخيرِ، ويَقطَعَ العداواتِ والأحقادَ والشُّرورَ بينكُمْ.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ كُلُّ الخيرِ والمَصلَحةِ فيما أمرَ اللهُ بهِ، فهو خالِقُنا ومُدبِّرُ أمرِنا، وهو الذي يعلمُ ما الذي يُصلِحُنا ويُسعِدُنا.

﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣ ﴾

هذه الآيةُ جاءَتْ في سِياقٍ يتحدَّثُ عن أحكامٍ تَخُصُّ الطَّلاقَ، ومعلومٌ لديكُم أنَّه قد تكونُ الزَّوجةُ المُطلَّقةُ مُرضِعةً، فتَمْتَنِعُ عن النِّكاحِ رغبةً في إعطاءِ رَضيعِها الرِّعايةَ الكامِلةَ، وهذا أمرٌ بيَّنهُ الشَّرعُ وذَكَرَ أحكامَه؛ لِئَلَّا تلعبَ به الأهواءُ، ولِئَلَّا تَحْكُمَهُ نارُ الخُصومةِ والبَغضاءِ، ولِئَلَّا يَعتديَ كلٌّ من الزَّوجينِ على الآخرِ رغبةً في الانتقامِ، فَتضيعَ مصلحةُ الأولادِ بينَ خُصوماتِ الآباءِ.

الآيةُ هُنا تَتحدَّثُ عن المُطلَّقاتِ إن كُنَّ والداتٍ، وتُرشِدُهُنَّ إلى إرضاعِ المولودِ سنتَينِ كامِلتَينِ، فهذا من تَمامِ الرَّضاعةِ.

وإِرضاعُها لولدِها ليسَ لازِما عليها إنْ كانت مُطلَّقةً، وإنْ كانت هي أولى الناسِ به، بدلالةِ ما جاءَ في تمامِ الآيةِ التي نشرَحُها: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾، وكذلك دلالة قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ [الطَّلاق ٦]، يعني: إنِ اختلَفَ الوالدانِ في تفاصيلِ الرَّضاعِ، فليأتوا بأُخرى تُناسبُ الحالَ.

والآيةُ بيَّنتْ أنَّ الأمرَ لمن أرادَ ذلكَ، فعلِمنا أنَّ الخبرَ هنا يُفيدُ أمرَ إرشادٍ وليسَ أمرَ إلزامٍ، لكنِ لو خُشيَ على الرَّضيعِ لامتناعِهِ عن الطَّعامِ والشَّرابِ، وامتناعِه عن الرَّضاعةِ من غيرِ أُمِّهِ، أو لعدمِ وجودِ نفقةِ الرَّضاعِ، فيجب عليها إرضاعُه، تقديمًا لمصلحَتِه.

وهذا بخِلافِ المُقيمةِ مع زوجِها غيرِ المطلَّقةِ، فقد أوجبَ عليها بعضُ أهلِ العلمِ إرضاعَ ولدِها، ولا أُجرَةَ لها على ذلكَ؛ فإنَّ هذا من مُعاشَرةِ زوجِها بالمعروفِ، إلَّا إذا كان مثلُها في عُرفِ النَّاسِ لا يُرضِعُ.

وأُشيرُ هنا إلى أنَّ من أهلِ العلمِ من فَسَّرَ الآيةَ هُنا بأنَّ المقصودَ فيها عُمومُ المُرضعاتِ، سواءٌ كُنَّ حالَ قيامِ الزَّوجيَّةِ أو كُنَّ مُطلَّقاتٍ. ومن العلماءِ من أَوْجبَ الرَّضاعَ على الأُمِّ بهذه الآيةِ.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المَولودُ له هو الأَبُ الذي يُنسَبُ له المَولودُ ويكونُ على اسمِه.

هذا الأبُ يجبُ عليهِ أن يُنفقَ على الوالدةِ المُرضِعةِ لولدِه، ويكسوَها من اللِّباسِ بما عُرِفَ بين الناسِ من كِسوةٍ ورزقِ أمثالِها، وذلك بدلَ قيامِها واحتباسِها على رَضاعِ ولدِه الذي يُنسَبُ إليه وتلزَمُه نفقتُه. قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطَّلَاق ٦].

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا نَشُقُّ على المولودِ له في مِقدارِ ما يُنفِقُ، ولا نكلِّفُه ما لا يُطيقُ، بل ننظرُ في ذلك إلى قُدرتِه وحالِه، كما قال ربنا: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطَّلَاقِ ٧]. وما جاءتْ به هذه الآيةُ ونحوُها من التيسيرِ والتَّوسعةِ حالَ المَشقَّةِ ومراعاةِ حالِ المُكلَّفِ، أصلٌ من الأصولِ التي قامَتْ عليها أحكامُ هذه الشريعةِ الغَرَّاءِ، فتأمَّلوا.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ ومن توجيهاتِ الآيةِ الكريمةِ، تحريمُ إيقاعِ الضَّررِ على والِدَيْ الطِّفلِ، فلا تتعمَّدُ الأمُّ مثلًا حبسَ الطِّفلِ عن والدِه حالَ الخُصومةِ أوِ الطَّلاقِ، ولا تَتعمَّدُ كذلك دفعَهُ إلى والدِه الذي لا يَقدِرُ على الاعتناءِ به في هذه المرحلةِ لِتنتقِمَ منه.

وكذا ليس للوالدِ أن يَقهرَها في ولدِها بحِرمانِها من مولودِها، والتَّضييقِ عليها فيه، ومنعِ النَّفقةِ عنها وعنه حالَ إرضاعِه وتربيتِه. ولكمْ أن تتأمَّلوا قيمةَ هذا التَّوجيهِ القُرآنيِّ للأبوينِ الَّذين يُرجى منهما تقديمُ الأصلحِ لولدِهما، لِئلَّا يكونَ ضحيةَ خلافاتِهما وخصومتِهما.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ هذه جُملةٌ معطوفةٌ على قولِ الله تعالى في الآيةِ: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ، فتكونُ هذه الجملةُ دليلاً على أنَّه يجبُ على القَرابةِ الذين يرثونَ، أن ينفِقوا على الوالدةِ وولَدِها إذا ماتَ المولودُ له وهو الأبُ، ولا يجوزُ لهمْ إيقاعُ الضَّررِ بتركِهم ذلك.

والوارثونَ هنا همْ وارِثُو الطِّفلِ فيما لو ماتَ.

ووُجوبُ النَّفقةِ على القرابةِ هو مذهبُ الحنفيةِ والحنابلةِ بالجملةِ، وفي مذهبِهم ومذهبِ غيرِهم تفصيلاتٌ نافِعةٌ ماتِعةٌ، تُراجعُ في كتبِ أهلِ الفقهِ.

على أنَّ مِن أهلِ العلمِ من جَعلَ العطفَ هُنا على النَّهي عن المُضارَّةِ الواردِ قبلَها، فيكونُ معنى الجُملةِ: لا تُلحِقوا أيُّها القرابةُ الوارِثونَ ضُرًّا بأحدِ أبوي الرَّضيعِ، بل كونوا مِفتاحَ خيرٍ فيما يُصلِحُ الحالَ.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الفِصالُ: الفِطامُ عن الرَّضاعِ. والآيةُ تَدُلُّ على أنَّ للوالِدَينِ أن يُوقِفا إِرضاعَ صَبيِّهِما قبلَ الحَولينِ، ولا جُناحَ ولا إِثْمَ في ذلكَ إذا كانَ بالتَّراضي بينهما. وكأنَّ الآيةَ تُرْشِدُ إلى ضرورةِ التَّوافُقِ على ما يُصلِحُ أمرَ الصَّبيِّ، ويَضْمنُ له نباتًا طيبًا.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ قد تَمتنِعُ الأُمُّ عن إرضاعِ وَلَدِها لسببٍ ما أو بدونِ سببٍ؛ لا جُناحَ عليها في ذلك، ولا جُناحَ عليها أن تتوافقَ مع والِدِه أن يُسلِّماه لمُرضِعَةٍ أُخرى بأَجْرٍ أو بغيرِ أجرٍ. فإنْ كانَ بأَجْرٍ؛ فعلى الوالِدِ أن يُؤدِّيَ لمُرضِعتِه ما توافَقوا عليه بالمعروفِ، أي: بِدونِ إجحافٍ ولا مُماطَلةٍ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تذكيرٌ آخرُ في السِّياقِ القُرآنيِّ بتقوى الله؛ فإنَّهُ مِفتاحُ التَّوفيقِ والرَّشادِ وطاعةِ أمرِ الله في كُلِّ ما أمَر.

وهو البصيرُ العليمُ بأحوالِنا وأقوالِنا، فراقِبوه أيُّها الأزواجُ واستعينوا بأمرِه على قضاءِ منافِعِكُم وحوائِجِكُم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٣٤﴾

بعدَ أنْ بيَّنَتِ الآياتُ السَّابقةُ عِدَّةَ المُطلَّقةِ، جاءَ السِّياقُ القُرآنيُّ يُبيِّنُ عِدَّةَ المُتوفَّى عنها زوجُها، وهي أربعةُ أشهرٍ وعَشَرةُ أيّامٍ بلياليها كما ذكرتِ الآيةُ هنا.

وقد أجمعَ أهلُ العلمِ على أنَّ عِدَّةَ الوفاةِ واجبةٌ على كُلِّ من عقَد عليها زوجُها، سواءٌ ماتَ بعدَ الدُّخولِ والجماعِ، أو ماتَ قبلَه، وسواءٌ كانت صغيرةً أو كبيرةً، أو حتَّى كتابيَّةً عند جُمهورِ الفُقهاءِ، لعُمومِ الآيةِ هنا. وقد أخرجَ أصحابُ السُّننِ وأحمدُ عَنْ عَبْدِ الله بن مسعودٍ رَضِيَ الله عَنهُ، فِي رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً فَماتَ عَنْهَا، وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا وَلَمْ يَفْرِضْ لَهَا الصَّدَاقَ، فَقَالَ: لَهَا الصَّدَاقُ كَامِلًا، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ، وَلَهَا الْمِيرَاثُ. فَقَالَ مَعْقِلُ بْنُ سِنَانٍ رَضِيَ الله عَنهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بِهِ فِي بِرْوَعَ (ضبطت بفتح الواو وكسرها) بِنْتِ وَاشِقٍ.

إذاً، الآيةُ هنا تُوجِبُ على من تُوفِّي عنها زوجُها وترَكَها، أن تتربَّصَ وتَعتدَّ مدةَ أربعةِ أشهرٍ وعَشَرةِ أيَّامٍ بلياليها، والتَّربُّصُ المذكورُ هنا هو العِدَّةُ، وهو أن تمتنعَ عن الزَّواجِ والخِطبةِ في تلك المُدَّةِ. وقد حرَّمَ الشَّرعُ أن تُحِدَّ امرأةٌ على ميتٍ أكثرَ من ثلاثةِ أيامٍ، إلا في حقِّ الزَّوجةِ، فقد أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ وَزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ أُمَّي الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحد عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا».

وحِدادُها يكونُ بتَرْكِ ما يدعو إلى نكاحِها من زينةٍ في الثِّيابِ وفي الوجهِ، ووَضْعِ الطِّيبِ، وإن كانت كبيرةً في السِّن. أخرج أبو داود وغيرُه عن أمِّ سلمةَ أمِّ المؤمنين رضيَ الله عنها، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «المُتوفَّى عنها زوجُها، لا تلبِسُ المُعَصْفَرَ من الثياب، ولا المُمَشَّقَةَ (المصبوغ بلون أحمر)، ولا الحُلِيَ، ولا تختضب (وضع الحناء)، ولا تكتحل». وكذلك أوجبَ عليها جُمهورُ الفقهاء عدمَ المبيتِ خارجَ بيتِ الزَّوجيَّةِ إلا لضرورةٍ؛ كخوفِها على نفسِها، وأمَّا في النَّهارِ فتَخْرُجُ لقضاءِ حوائجِها إن لم يكنْ ثَمَّةَ من يعينُها، ولا حَرجَ في ذلك عليها. أخرجَ أصحابُ السُّننِ في قصةِ الْفُرَيْعَةَ بِنْتِ مَالِكٍ رضي الله عنها، والتي جاءَتْ تستفتي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَبيتِها عند أهلِها لوفاةِ زوجِها، أنَّه قال لها: «امْكُثِي فِي بَيْتِكِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ نَعْيُ زَوْجِكِ، حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ». وفي أحكامِ حدادِها في عِدَّتِها تفصيلٌ عندَ أهلِ الفقهِ يُراجعُ في مَظانِّه.

والحِكمةُ منِ اعتِدادِ المُتوفَّى عنها زوجُها، التَّأكُّد من بَراءةِ الرَّحِمِ وعدمِ وُجودِ جَنينٍ فيه، ومن العلماءِ من قالَ: هي للتَّعبُّدِ، ومنهم من قال: هي وفاءٌ للزَّوجِ وعِشْرتِهِ.

ويُستثنى من هذا الحُكمِ المرأةُ الحاملُ، فإنَّ عِدَّتَها تنتهي بولادتِها ووَضْعِ حَمْلِها، وإن كان بعد يومٍ من وفاةِ زوجِها لِعُمُومِ قَوْلِهِ سبحانه: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق ٤]، ولِما أخرجَه البخاريُّ ومسلمٌ في حديث سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ رضي الله عنها، والتي تُوفِّي عنها زوجُها وهي حاملٌ، وفي قِصَّتِها أنَّها سألَتْ نبيَّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عِدَّتِها، قالت: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حلَلَتُ حِينَ وضعتُ، وَأَمَرَنِي بِالتَّزْوِيجِ إِنْ بَدَا لِي».

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: فإذا انتهت وانقضت عِدَّتُهنَّ، فلا جُناحَ عليكم أيُّها الأولياءُ فيما فعلنَ في أنفُسِهنَّ من التزيُّنِ والتَعرُّضِ للأزواجِ، وما فَعَلْنَ في أنفُسِهنَّ من الزَّواجِ إذا انقضتْ عِدَّتُهُنَّ، ما دام فِعْلُهُنَّ مُنضبطٌ بما عُهِدَ وعُرِفَ بين النَّاسِ فيما هو مباحٌ.

ولا ينزعِجْ ولا يَتحرَّجْ ولا يأنفْ أقاربُ الزَّوجِ المُتوفَّى من سُرعةِ زواجِها بعدَ انقضاءِ عِدَّتِها؛ فإنَّ للزوجةِ حاجاتٍ لا تَقِلُّ عن حاجاتِ الزَّوجِ الذي قد يُسارِعُ كذلك للزَّواجِ إذا ماتَتْ زوجتُه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ راقِبوهُ وأطيعوهُ فيما أمرَ، وتذكَّروا أنَّ الله تعالى لا يخفى عليه ما قدَّمتُم من خيرٍ أو شرٍّ، وسَيُجازِيكُم على ذلك.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾

لَمَّا بيَّنتِ الآيةُ السَّابقةُ حُكْمَ اعتدادِ المرأةِ المُتوفَّى عنها زوجُها، ومُدَّةَ ذلك، جاءَتْ هُنا تذكرُ حُكماً مُهمّاً لها ولأوليائِها، وهو أنَّهُ يَحرُمُ شرعاً التَّصريحُ بخِطبَةِ المرأةِ المُعتدَّةِ، وتَحرُمُ مواعدتُها بالزَّواجِ بعد انتهاءِ عِدَّتِها؛ كأنْ يقولَ لها: إذا انقضَتْ عِدَّتُكِ تزوَّجتُكِ، فإنْ وعدَها في عِدَّتِها، وتزوَّجها بعدَ انقضاءِ العِدَّةِ، فمُواعَدَتُها حرامٌ، والزَّواجُ صحيحٌ غيرُ باطلٍ، بخِلافِ ما لو تزوَّجها في عِدَّتِها كما سيأتي.

أمَّا التَّعريضُ بذلك فقدْ بيَّنتِ الآيةُ الكريمةُ إباحتَه وجوازَه، والتَّعريضُ هو أنْ يُريدَ المتكلمُ من كلامِه شيئًا آخرَ. يعني: يقولُ كلاماً يحتملُ الخِطبةَ وغيرَها؛ كأنْ يقولَ أمامَها وأمامَ أوليائِها: أنوي الزَّواجَ وأسألُ الله أن يرزُقَني زوجةً صالحةً ذاتَ دِينٍ، أو زوجةً تُعينُني وأُعينُها، أو يقولَ: شاوِروُني إذا أردتُم تزويجَها، أو يقولَ: أُحِبُّ المرأةَ التي هي كذا وكذا، ويَذكرُ صفاتٍ عامةً، أو يقولَ لها: مِثلُكِ يُرغَبُ فيها، أو لعلَّ الله أن يسوقَ لك خيراً أو رزقًا.

وهذا التَّعريضُ إنَّما هو للمُتوفَّى عنها زوجُها أو المُطلَّقةِ طلاقاً باتًّا لا رجعِيًّا. أمَّا الطَّلاقُ الرَّجعِيُّ فلا يجوزُ التَّعريضُ فضلاً عن التَّصريحِ؛ لأنَّها في حُكمِ الزَّوجةِ.

﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ أي: ولا جُناحَ عليكم أن تُخفُوا وتنوُوا وتُضمِروا في أنفسِكم خِطْبَةَ المُعتدَّةِ، فإنَّ

اللهِ يعلمُ سِرَّكُم ونجواكُم، وقد علِم منكم ما يدورُ في أفهامِكم وأنفُسكم، فلا حرجَ عليكُمْ في ذِكرِهِنَّ في أنفسِكُم، ولكنْ لا يَحِلُّ لمن يرغبُ بالزَّواجِ منها أن يعتدِيَ في حدودِ التَّواصُلِ معها حالَ عِدَّتِها، فيواعدَها سِرًّا، أي: فيُسِرَّ لها بِحُبِّه وعِشقِه، ويعاهِدَها أن يتزوَّجَها حالَ انتهاءِ عِدَّتِها، ويأخُذَ عليها الميثاقَ بالسِّرِّ ألا تتزوجَ غيرَه؛ هذا مِما لا يُجيزُهُ الشَّرعُ ولا يرضاهُ.

الشَّرعُ أباحَ خِطبَتَها بعدَ انتهاءِ عِدَّتِها، وأباحَ بأنْ يَتكلَّمَ هو وأهلُه بكلامٍ معروفٍ بينَ النَّاسِ في مثلِ هذه الأحوالِ من التَّعريضِ ونحوِه.

﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾ لا يَحِلُّ لكم أن تعقِدُوا عليها حالَ عدَّتِها، إلا بعدَ انقضائِها وانتهائِها، فمَن عقدَ عليها فعَقدُه باطلٌ عند الفقهاءِ، ويُفرَّقُ بينهما، وله أنْ يتزوَّجَها بعد انتهاءِ عِدَّتِها. وعند المالكيةِ: لو تزوَّجَها في عِدَّتِها فإنَّها تَحرُمُ عليهِ على التَّأبيدِ.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ تذكيرٌ للمؤمنينَ وللمؤمناتِ بألَّا يعتدُوا على حدودِ اللهِ، ولا ينتهِكوا محارِمَهُ، ولا يتساهلوا في ذلك أو يَتأوَّلُوا؛ فإنَّه سبحانه يعلمُ ما في ضمائرِ النُّفوسِ مما تُبطِنُه من خيرٍ أو شرٍّ، فاحرِصوا على طريقِ الخيرِ ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ لا تيأسُوا من رحمةِ اللهِ، ولا تقنَطوا من فضلِه، فمن ابتُلِيَ بشيءٍ مِمَّا حرَّمَ اللهُ عليه فيما ذكرَتْه الآياتُ هنا وبيَّنتْه، فليرجِعْ وليلزَمْ وليستقِمْ.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦﴾

السِّياقُ هنا بدأَ في بيانِ أحكامِ المُطلَّقةِ قبلَ الدُّخولِ، بعد أنْ جاءَتِ الآياتُ ببيانِ عددٍ من أحكامِ المُطلَّقةِ المدخُولِ بها، ثُمَّ المُتوفَّى عنها زوجُها.

أهلُ العلمِ مُجمِعُونَ على وُجُوبِ المهرِ للزَّوجةِ، ولكنَّ المهرَ ليسَ شرطاً من شُروطِ عقدِ الزَّواجِ، ولا رُكناً من أركانِه، فيَصِحُّ بدونِ تسميتِهِ أو استلامِه، فإذا تزوَّجَها بدونِ تسميةِ المهرِ، فالعقدُ صحيحٌ ويجبُ لها مهرُ مثيلاتِها من النِّساءِ إذا حصلَ الدُّخولُ والوَطءُ بينهُما، وهذا قولُ جُمهورِ الفُقهاءِ. ولا يَجِبُ دفعُ المهرِ كاملاً إلا بالدُّخُولِ والوَطءِ، أو بالخَلوةِ الصَّحيحةِ عندَ جُمهورِ الفُقهاءِ خلافاً للشَّافعيَّةِ. والخَلوةُ الصَّحيحةُ هي جُلوسُهُما بعدَ العقدِ في مكانٍ يأمَنانِ فيه دُخُولَ غيرِهما عليهِما؛ كما لو جلسا في غُرفةٍ مُقفَلةٍ أو بيتٍ مُقفَلٍ، أو نحوِ ذلك.

الآيةُ هُنا تَدُلُّ على جوازِ طلاقِ الرَّجُلِ لزوجتِه التي عقدَ عليها وإباحَتِه، حتى لو لم يَحصُلِ الدُّخولُ والجِماعُ بينهما، وكذا لو لم يكُنْ قد اتَّفقَ معها ومع وليِّها على تسميةِ مقدارِ المَهرِ، ففي مثلِ هذه الحالةِ قال الله تعالى:

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعويضًا للزَّوجةِ عمَّا فاتَها، ومُراعاةً لانكسارِ قلبِها الذي يحصُل غالبا بطلاقِها؛ أَمَرَ الشَّرعُ في حالةِ تطْليقِهِ لها قبلَ الدُّخولِ وقبلَ فرضِ المهرِ وتسميَتِه، أن يُعوِّضَها بما يَقدِرُ عليه من اللِّباسِ والمالِ، فيزيدُها في العَطيَّةِ إنْ كان واسعاً في الحالِ والعيشِ، وبما يستطيعُ إن كان مُقْترا ضيِّقَ الحالِ والعيشِ. ويُجزِئُ في ذلكَ القليلُ ممَّا هو في عُرفِ النَّاسِ إكرامٌ وإمتاعٌ.

فهنا في مثلِ هذه الحالةِ لا يَجِبُ المهرُ ولا نِصفُهُ؛ لأنَّه لم يحصُلِ الدُّخولُ ولم يُسَمَّ المهرُ.

أخرج الْبُخَارِيُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ وَأَبِي أسيد رَضِيَ الله عَنْهُمَا، أَنَّهُمَا قَالَا: «تَزَوَّجَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَيْمَةَ بِنْتَ شَرَاحِيلَ، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا فَكَأَنَّهَا كَرِهَتْ ذَلِكَ، فَأَمَرَ أَبَا أَسِيدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا وَيَكْسُوَهَا ثَوْبَيْنِ رازِقِيَّيْنِ». أي: من كتَّان أَبيض وَفِي اللَّوْن زُرقة. والأمرُ بإمتاعِها هنا للوجوبِ عند جُمهورِ الفُقهاءِ، خلافا للمالكيَّةِ الذين قالوا باستحبابِ ذلك.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

هذه الآيةُ تَدُلُّ على وجوبِ نصفِ المَهرِ على الزَّوجِ إذا طلَّقَ زوجَتَه قبلَ الدُّخولِ، وكان قد فرَضَ وسمّى المهرَ لها، فالفرقُ بين هذه المسألةِ والَّتي قبلَها هو أنَّ المهرَ هنا سُمِّيَ وتَمَّ الاتفاقُ عليهِ، بخلافِ الآيةِ السَّابقةِ.

فأصبحَتِ الحالاتُ المتعلِّقةُ بالمهرِ ثلاثًا:

١- إذا عقدَ عليها وحَصَلَ الدُّخولُ أو الخَلوةُ الصَّحيحةُ، فيجبُ المهرُ المُسمَّى كاملاً، أو مهرُ المِثلِ إذا لم يكنْ هناكَ تسميةٌ واتفاقٌ على المهرِ.

٢- إذا عقدَ عليها ولم يحصُلِ الدخولُ أو الخلوةُ الصحيحةُ، وكان المهر قد سُمِّي فيجبُ نصفُ المَهرِ.

٣- إذا عقد عليها، ولم يحصل الدُّخولُ أو الخلوةُ الصحيحةُ، ولم يكنِ المهرُ قد سُمِّي، فيُمتّعها بحسب قُدرتِه كما بيَّنت الآيةُ السابقةُ.

﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ يجبُ عليه أداءُ نِصفِ المهرِ إلا إذا عفَتْ وسامحتِ الزَّوجةُ عمَّا وَجَبَ لها بطيبِ خاطرٍ منها، أو سامحَ الذي بيدِهِ عُقدةُ النِّكاحِ.

ولأهلِ العلمِ قولانِ في تحديدِ الذي بيدِه عقدةُ النِّكاحِ:

الأوَّل: أنَّه وليُّ الزَّوجةِ كأبيها أو أخيها؛ فمعَ أنَّ المهرَ حقٌّ خالصٌ للزَّوجةِ، إلَّا أنَّ الشَّرعَ أجازَ عفوَه في هذه الحالةِ، رعايةً لحقِّه ومكانتِه في عقدِ النِّكاحِ ابتداءً، وهو قولُ المالكيَّةِ.

الثاني: أنَّهُ الزَّوجُ، فهو الذي بيدِه إنشاءُ عقدِ النِّكاحِ وإنهاؤُه والتَّصرُّفُ فيه، وليس لوليِّ المرأةِ حقٌّ في أنْ يعفُوَ؛ لأنَّ مالَها حقٌّ خالِصٌ لها، وعفوُ الزَّوجِ هنا يكونُ بأن يُعطيَها المهرَ كامِلا لا نِصفَه، وهو قولُ الحنفيةِ والشَّافعية والحنابلة.

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ الشَّرع يندُب إلى العفوِ بينَ الزَّوجينِ ويستحِبُّ ذلكَ، فإنَّ ذلك أقربُ لتحقيقِ التَّقوى، حتى لا تكونَ الحياةُ الزَّوجيةُ وإنهاؤُها مسرحًا للخُصوماتِ والمُشاحناتِ التي لا تعودُ على أحدٍ بالنَّفعِ.

والتَّمسُّكُ بالحقِّ لا يُنافي التَّقوى، ولكنَّه يُشعِرُ بتَصَلُّبِ صاحِبه وشِدَّتِه، لا رحمتِه وسِعَةِ صَدرِه.

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ إيصاءٌ للزَّوجين والأولياءِ، بألَّا يَنسَوُا الإحسانَ في التَّعاملِ بينهم، حتى انتهاءِ الحياةِ الزَّوجيةِ؛ فليَحرِصُوا على التَّيسيرِ والتَّسامُحِ في المهرِ، ولْيُؤدُّوا الحقوقَ إلى بعضِهم بلا مُماطلةٍ أو تهاوُنٍ، ولْيكتمُوا عوراتِ بعضِهم، ولا يأذنُوا لغيرِهم بإحداثِ الشَّحناءِ والبغضاءِ بينهم، ولْيتذكَّروا قولَ الله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء ١٣٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أَيْ: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمورِكم وأحوالِكم، وسَيُجازِيكُم على عفوِكم وتسامُحِكُم وإحسانِكم.

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾

تنويعٌ في السِّياقِ القُرآنيِّ بتشريعاتٍ بيَّنتْ أحكاماً تَخُصُّ الزَّوجينِ كالطَّلاقِ والعِدَّة، ثُم تشريعاتٍ تُعينُ المُكلَّفَ على امتثالِ أمرِ الله فيما أمرَ.

هنا أمرٌ من الله تعالى مُتعلِّقٌ برُكنِ الدِّينِ، يُرشِدُ فيه عِبادَهُ المؤمنينَ إلى المحافظةِ على الصَّلواتِ الخمسِ التي فَرضَها وأوجَبَها، بأدائِها في وقتِها، وإتمامِ شُروطِها وأركانِها وواجباتِها، وتحصيلِ الخُشُوعِ فيها. أخرجَ أحمدُ وأبو داودَ عَنْ عُبادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنهُ، قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللهُ تَعَالَى، مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ، وَصَلَّاهُنَّ لوقتِهِنَّ، وَأَتَمَّ رُكوعَهُنَّ وخُشوعَهُنَّ؛ كَانَ لَهُ عَلَى اللهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ، فَلَيْسَ لَهُ عَلَى اللهِ عَهْدٌ؛ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ».

ثُمَّ خَصَّ الصلاةَ الوُسْطَى بالذِّكرِ من بين الصَّلواتِ، والصلاةُ الوُسطى هي صلاةُ العصرِ عندَ أكثرِ أهلِ العلمِ؛ لما أخرجَه البخاريُّ ومُسلم عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ: «حَبَسُونَا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى؛ صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا»، وروى الترمذي عَن ابْنِ مَسْعُود وَسمرَة بن جُنْدُب رَضِيَ اللهُ عَنهُما، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلَاةُ الْوُسْطَى صَلَاةُ الْعَصْرِ». ويكونُ معنى الوُسْطى هُنا: الفُضْلى.

ويمكنُ القولُ بأنَّ الوسطى تعني: المُتوسِّطَ بين الشَّيئينِ؛ فإنَّ صلاةَ العصرِ وسطٌ إذا اعتبَرنا بدايةَ الصلواتِ الخمسِ من صلاةِ الفجرِ.

ومنْ أهلِ العلمِ من ذهبَ إلى أنَّها صلاةُ الفجرِ؛ لأنَّها تقعُ بين صلاتَيْ لَيلٍ جَهرِيَّتَيْنِ، وَصَلَاتَيْ نَهارٍ سِرِّيَّتَيْنِ، فيكونُ معنى الوُسطى على هذا القولِ: المتوسِّطُ بين شيئينِ، وكذلكَ لعددٍ من الأدلَّةِ التي خَصَّتْ صلاةَ الفجرِ بالفضلِ والمثوبةِ.

قُلت: والقول الأول معه الدليل. وقد جاءت أدلة أخرى تخص صلاة العصر بالذكر والفضل؛ ففي مسند أحمد وغيره عن عَبداللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ». وأخرجَ البخاري عَنْ بُرَيدة بْنِ الْحُصَيْب رَضِيَ اللهُ عَنهُ، أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ».

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ القيامُ في صلاةِ الفرضِ رُكنٌ من أركانِها للقادرِ عليه، والآيةُ أشارتْ إليهِ آمِرةً أن يكونَ معه قُنوتٌ، وهو الخُشوعُ والخُضوعُ. يعني: قوموا في صلاتِكم خَاشِعِينَ خاضعين ذَليلينَ مُسْتَكِينِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ. أخرج البخاري ومسلم عن زَيْد بْن أَرْقَم رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قال: «إِنْ كُنَّا لَنَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُكَلِّمُ أَحَدُنَا صَاحِبَهُ بِحَاجَتِهِ، حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ». فهذا

الحديثُ يَدُلُّ على أنَّ الآيةَ أفادَتْ وُجُوبَ الاشتغالِ بالقراءةِ والذِّكرِ والدُّعاءِ في الصَّلاةِ، وعدمَ الاشتِغالِ بكلامِ الدُّنيا وحاجاتِ النَّفسِ. أخرجَ البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي الصَّلاَةِ، فَيَرُدُّ عَلَيْنَا، فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ، سَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فِي الصَّلاَةِ فَتَرُدُّ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «إِنَّ فِي الصَّلاَةِ شُغْلًا». ولأهلِ العلمِ تفصيلٌ فيما يُبطلُ الصَّلاةَ من الأفعالِ والأقوالِ وما لا يُبطِلُها، يجِدُه الباحثُ في كتبِ أهلِ الفقه.

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

في الآيةِ السَّابقةِ يأمرُ الله تعالى بالمُحافظةِ على الصَّلواتِ، والقيامِ بها على أتمِّ وجهٍ وأكملِهِ كما علَّمنا الشَّرعُ، ولكن قد تَعرِض للمكلف أحوالٌ يعسُر ويصعُب عليهِ فيها أداءُ الصَّلاةِ على وجهِها المطلوبِ، كحالِ القتالِ والجهادِ والالتِحامِ مع الأعداءِ.

جاءَتْ الآيةُ لتُبيِّنَ أنَّ فرضَ الصَّلاةِ لا يَسقُطُ في أشدِّ الحالاتِ وأصعَبِها، وأنَّهُ يجبُ على المسلمِ أداؤُها بحسبِ استطاعَتِه. ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ ﴾ أَيْ: فَصلُّوا في حالِ الخوفِ في الحربِ وغيرِها عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ؛ سواءٌ كنتم تمشُونَ على أرجُلِكم وأقدامِكم، أو تركبونَ على دوابِّكُم، مُستقبِلي القِبلةِ أو غيرَ مستقبِلينَ، ففي مثلِ هذه الحالاتِ يَسقُطُ ركن القيامِ والوُقوفِ. أخرجَ أحمدُ وأبو داود وغيرُهم عن عَبْدِ الله بْنِ أُنَيْسٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ إِلَى خَالِدِ بْنِ سُفْيَانَ بْنِ نُبَيْحٍ الْهُذَلِيِّ لِيَقْتُلَهُ، وَكَانَ يُجَمِّعُ لِقِتَالِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ بِعُرَنَةَ (اسم مكان) وَهُوَ فِي ظَهْرٍ لَهُ، وَقَدْ دَخَلَ وَقْتُ الْعَصْرِ، فَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مُحَاوَلَةٌ تَشْغَلُنِي عَنِ الصَّلاَةِ، قَالَ: فَصَلَّيْتُ وَأَنَا أَمْشِي أُومِئُ إِيمَاءً» الحديث. يعني: أُحرِّكُ رأسي بالرُّكوعِ والسُّجودِ حالَ صَلاتي وأنا أَمشي. ومعلومٌ لديكُم أنَّ أهلَ العلمِ يذكُرونَ أحكامَ الصَّلاةِ حالَ جهادِ الأعداءِ في كُتبِ الفِقهِ في باب صلاةِ الخوفِ، ويذكرونَ هَيئاتِها وأحكامَها.

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ جاءَتِ الرُّخصةُ بالصَّلاةِ على الدَّابةِ أو مَشْيًا حالَ الخوفِ، فإذا أَمِنَ المُصلُّونَ بَأسَ عَدُوِّهِم، فإنَّهم يُؤدُّونَ صلاتَهم كما أُمِروا، بقيامِها ورُكوعِها وسُجودِها وخُشوعِها وأذكارِها، ويحرِصُونَ على ذلك مُستحضِرين نعمةَ الله عليهم أنْ هداهُم

للإيمانِ، وعلَّمهُمْ ما ينفعُهُم في دُنياهم وأُخراهم. قالَ الله تعالى بعدَ ذِكرِ صلاةِ الخوفِ: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النِّساءِ ١٠٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٤٠﴾

جُمهورُ أهلِ التَّفسيرِ على أنَّ حُكمَ هذه الآيةِ مَنسوخٌ لا يُعملُ به، وأنَّ هذه الآيةَ من أَمثِلةِ الآياتِ التي رُفع حُكمُها، وبَقِيَت تِلاوتُها تعبُّدًا لله تعالى.

هذه الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ عِدةَ المرأةِ التي تُوُفِّيَ عنها زوجُها حولٌ كاملٌ، وقد كان الأمرُ في الجاهليةِ أن تَعتدَّ المرأةُ المُتوفَّى عنها زوجُها في الجاهليةِ سنةً كاملةً، وكان لها أحكامُها الخاصةُ عندَهم، جاء ذِكرُ شيء من هذهِ الأحكام في حديثٍ أخرجَهُ البخاري ومسلم عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ ابْنَتِي تُوفي عَنْهَا زَوْجُهَا، وَقَدِ اشْتكَتْ عينُها، أفنكْحُلُها؟ فَقَالَ: «لَا». كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لَا» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا. ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ. قَالَ حُمَيْدٌ: فَقُلْتُ لِزَيْنَبَ (بنت أم سلمة)، وَمَا تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ؟ فَقَالَتْ زَيْنَبُ: «كَانَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا، دَخَلَتْ حِفْشًا (بيتًا صغيرًا)، وَلَبِسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا، وَلَمْ تَمَسَّ طِيبًا حَتَّى تَمُرَّ بِهَا سَنَةٌ، ثُمَّ تُؤْتَى بِدَابَّةٍ، حِمَارٍ أَوْ شَاةٍ أَوْ طَائِرٍ، فَتَفْتَضُّ بِهِ (تتمسح به)، فَقَلَّمَا تَفْتَضُّ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ (من شدة النَّتن وسوء الرائحة)، ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُعْطَى بَعَرَةً فَتَرْمِي، (ترمي بعرة الغنم أو البقر أمامها)، ثُمَّ تُرَاجِعُ بَعْدُ مَا شَاءَتْ مِنْ طِيبٍ أَوْ غَيْرِهِ».

والإسلامُ أَقرَّ اعتِدادَ المرأةِ سنةً كاملةً في ابتداءِ االتَّشريعِ، وأبطلَ الغُلوَّ في سُوءِ الحالةِ المذكورِ في حديثِ أُمِّ سَلَمَةَ.

وقد دلَّتِ الآيةُ التي مَعَنا على اعتدادِها سنةً، حتى نَسَخَها قولُ الله تعالى الذي ذكرناه سابقًا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [الْبَقَرَةِ ٢٣٤]، فنُسِخَ اعتِدادُها حولًا كاملًا إلى أربعةِ أشهرٍ وعَشْرِ ليالٍ.

وممَّا استدلُوا به على النَّسخِ، ما أخرجَه البخاريُّ عن ابنِ الزُّبيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، أنَّه قال: قُلْتُ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي البَقَرَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قَدْ نَسَخَتْهَا الأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ قَالَ: «تَدَعُهَا يَا ابْنَ أَخِي، لاَ أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ». فابن الزُّبير يسألُ عثمانَ عن سببِ إبقاءِ الآيةِ في المُصحفِ، مع أنَّ حُكمَها نُسِخ، فأخبره أنَّ الأمر توقيفيٌّ من النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا نُبدِّلُ شيئًا ولا نحذِفُه إلا عن دليلٍ وبيانٍ من الشرْعِ.

فالآيةُ تَدُلُّ على أنَّ زوجةَ المُتوفَّى، يجبُ عليها أنْ تَعتدَّ وتمتنِعَ عن الزَّواجِ عامًا كاملًا.

﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ أي: يأمُرُكُمُ اللهُ أن تُوصوا لأزواجِكم بإمتاعِها من مالِ الزَّوجِ بالنَّفقةِ والسُّكنى وكلِّ ما يلزمُها مُدة حولٍ كاملٍ.

﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ إذا أوصى الزَّوجُ فلا نُخرِجُها من بيتِ الزَّوجِيَّةِ، بل تَسْكُنُهُ وتبقى فيه.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ الآيةُ تُشيرُ إلى إكرامِها إنْ بَقِيَتْ في بيتِ الزَّوجِيَّةِ، أمَّا إذا لم تَقبلِ الوصيَّةَ، أو لم يُوصِ لها الزَّوجُ، وأرادتْ أن تخْرُجَ منه قبلَ تمامِ السَّنةِ فلها ذلك، على أنْ يكونَ خُروجُها بما عُرِفَ بين النَّاسِ من خُروجِ أمثالِها. فإنْ خرجَتْ وأَرادتْ الاعتِدادَ في مكانٍ آخرَ سقطَتْ نفقتُها، مَعَ بقاءِ عِدَّتِها بامتناعِها عن الزَّواجِ إلى تمامِ الحَوْلِ.

ومنْ أهلِ العلمِ منْ قالَ: إنَّ قولَ اللهِ ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا﴾ معناهُ أنَّها وصيةٌ من اللهِ مُلزِمةٌ ببقائِهنَّ حولاً كاملاً في بيتِ الزَّوجيةِ. ويكونُ قولُ اللهِ ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ بعدَ انتهاءِ العِدَّةِ التي هي حولٌ كاملٌ.

والنَّسخُ الذي حصلَ في هذه الأحكامِ، يتمثَّلُ في آياتِ المواريثِ التي بيَّنَتْ ميراثَها عِوضاً عن سُكناها ونَفقَتِها حولًا كاملًا، وكذا حديثُ «لا وَصِيَّةَ لوارثٍ». أمَّا عِدَّتُها فأربعةُ أشْهرٍ وعَشْرًا. هذا قولُ أكثرِ المُتقدِّمينَ والمُتأخِّرينَ مِنْ أهلِ التَّفسيرِ.

ومِنْ أهلِ التَّفسيرِ من ذهبَ إلى أنَّ الآيةَ لا نسخَ فيها، لأنَّها لا تَدُلُّ على وُجوبِ أن تَعْتَدَّ المرأةُ سنةً كما فَهِمَ الجُمهُورُ، وغايةُ ما تَدُلُّ عليهِ أنْ يكونَ للمرأةِ حَقٌّ في أنْ تبقى في بيتِ زوجِها حولًا كاملًا إنِ اختارَتْ وأرادَتْ ذلك. أمَّا الآيةُ الأُخرى فإنَّها جاءَتْ في وُجُوبِ أن تَعتدَّ أربعةَ أشهرٍ وعشرًا.

فالجمعُ بين الآيتينِ أنَّ المرأةَ تَعْتَدُّ وتبقَى في بيتِ الزَّوجيَّةِ وُجوباً أربعةَ أَشْهُرٍ وعَشْرًا، فإذا انتهتْ انقضتْ عِدَّتُها، وجازَ لها البقاءُ في بيتِ الزَّوجيَّةِ حتى تمامِ الحَوْلِ، وجازَ لها الخُروجُ منه والانتقالُ إن أرادَتْ، لقولِ الله تعالى في الآيةِ هنا: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ .

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سبحانه غالبٌ على أمرِه، وسُلطانُه نافذٌ، وشرعُهُ قائمٌ على الحِكمةِ والعلمِ، فأطيعُوه واستَسلِموا لأمرِه.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾

المُتعةُ هي إعطاءُ المُطَلِّقِ طليقتَهُ ما يقدِرُ عليه من اللِّباسِ والمالِ؛ تعويضاً للزَّوجةِ عمَّا فاتَها، وجبرًا لخاطِرِها، ومُراعاةً لانكسارِ قلبِها الذي يحصُلُ غالبا بطلاقِها كما تقدَّمَ معنا.

وهذه الآيةُ استدلَّ بها بعضُ أهلِ العلمِ على وُجوبِ المُتعةِ لكُلِّ مُطلَّقةٍ؛ سواءٌ ذُكِرَ المهرُ في عقدِ الزَّواجِ أو لم يُذكَرْ، وسواءٌ حصلَ الدُّخولُ أم لم يحصُلْ؛ فالآيةُ ذَكَرَتْ أنَّ ذلك حقٌّ، والحقُّ هو الأمرُ الواجبُ، كما ختَمَتِ الآيةُ، وهذا قولٌ عند الحنابلةِ. ويؤيده قول الله تعالى في المطلقة قبل الدخول مُطلقًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب ٤٩]. والوُجوبُ لكُلِّ مُطلَّقةٍ هو مذهبُ الشَّافِعيَّةِ كذلك، إلاَّ المُطلقةَ قبلَ الدُّخولِ التي فُرِضَ لها المهرُ، فإنّ لها نصفَ المهرِ وليس لها مُتعةٌ عندهم.

ومن أهلِ العلمِ من ذهبَ إلى استِحْبابِ المُتعةِ للمُطلَّقةِ مُطلَقا، وليسَ وجوبَها، وهو قولُ المالكيةِ.

وأمَّا الحنفيةُ والحنابلةُ في المُعتمدِ عندهُم فالمُتعةُ إنَّما تكونُ للتي لم يُفرَضْ لها مهرٌ، ولم يَحصُلِ الدُّخولُ، جمعًا بين هذه الآيةِ، وبينَ قولِ الله تعالى الذي جاءَ الأمرُ فيه صريحًا بالإمتاعِ في قولِه سبحانه: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة ٢٣٦].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

أمرَ ونَهى وأَحلَّ وحرَّم، وبيَّنَ ووضَّح وفسَّر؛ لئلا يَضِلَّ الناسُ في عُبودِيَّتِهِمْ، ولعلهم يتدبَّرُون ويفهمُون ويُطيعون.

﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣ ﴾

المفسرونَ يَذكُرونَ عن غيرِ واحدٍ من الصَّحابةِ، أنَّ هؤلاءِ القومِ كانوا في بني إسرائيلَ، وأنَّهم قومٌ أصابَهمُ الطَّاعُونُ وابتلاهُمُ الله به، فحَصَلَ لهم بذلك بلاءٌ عظيمٌ وشِدَّةٌ، فلم يصبِروا وتَسَخَّطُوا، وخَرجُوا من ديارِهِم وتمنَّوُا الموتَ، فأماتَهُمُ الله، ثُمَّ مرَّ عليهم نبيٌّ من الأنبياءِ بعدَ زمنٍ، ودعا ربَّه أنْ يُحيِيَهُم ليعبُدُوه، فأحياهُم. ومنْ أهلِ التَّفسيرِ من قال: بل خرجُوا من ديارِهِم خوفاً من جهادِ عدُوِهِم.

هنا: يُخبرُ الله نبيَّه محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين مِنْ بعدِهم بما جرى معهم لينتفِعوا، ويجتنِبوا سُوءَ ما وقعوا فيه.

يعني: إيَّاكم أن تتسخَّطوا على القدر إنْ أصابكم ببلاءٍ واصبروا واشكروا. أو: جاهدوا عدوَّ الله وعدوَّكم، ولا تتركوا أمرَ الله تعالى في ذلكَ.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ يعني كانَ إحياؤُهم هذا من فضلِ الله على النَّاسِ، ففي إحيائِهم هذا دليلٌ على وُقوعِ البعثِ، وقُدرةِ الرَّبِ على إحياءِ الأبدانِ بعد تفرُّقِها. ومِنْ عِبرِهَا أنَّهُ لا يُغني حذرٌ من قَدرٍ، وأنه لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ، فهؤلاءِ ذاقُوا الموتَ الذي هرَبوا منه، ثمَّ أحياهُم ربُهم بعد موتِهم ليوقِنوا بالبعثِ والحسابِ، وهذا تأديبٌ منه لهم لِيَعبُدُوه كما أمر.

أخرجَ البُخاريُّ ومسلمٌ عن عبدِ الرَّحمنِ بن عوفٍ وأسامةَ بنِ زيد رضي الله عنهم، أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الطَّاعُونُ رِجْسٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ». وسببُ ذلك أنَّهُ مرضٌ يُعدي، والانتقالُ بسببه يُؤذي الآخرينَ، فليسَ له إلا الصَّبرُ وصدقُ الاستعانةِ بالله.

ومعَ كُلِّ هذا البيانِ، وهذهِ الآياتِ الباهراتِ والحُجَجِ القاطِعاتِ، نَجدُ أكثرَ النَّاسِ لا يشكُرونَ فَضلَ الله ونِعمَهُ، ولا يُحسِنُونَ عُبودِيَّتَهُ وتعظِيمَهُ. والمطلوبُ: أحسِنوا توكَّلكُم على الله، واقْصِدوهُ وَحدَهُ بالرَّغْبةِ والرَّهْبَةِ.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾

كما أنّ بني إسرائيلَ فرّوا من الطَّاعُونِ خَشْيةَ المَوتِ، فكذلك نَجدُ من يَفِرُّ من الجِهادِ في سبيلِ الله خَشيةَ الموتِ؛ ولذلكَ جاءَ التَّوجيهُ الرَّبانيُّ هنا: لا تترُكُوا الجهادَ في سبيلِ الله فِرارًا من الموتِ، بل قاتِلُوا وأَقبِلوا في سبيلِ رَفعِ كلمةِ التَّوحيدِ ونشرِ الإسلامِ في الأرضِ، وتَعبيدِ النَّاسِ لله وَحدَه. واعلمُوا أنَّ الفِرارَ من الجهادِ لا يُؤخِّرُ أَجَلًا ولا يُباعِدُهُ؛ ولا يُنجِّيكُم من قَدَرِ الله؛ فإنَّ أَقدارَ الخَلْقِ من رِزقٍ وحياةٍ وموتٍ وسعادةٍ وشقاءٍ قد كُتِبَتْ وفُرِغَ منها. قالَ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ ١٦٨]، وقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النِّساء ٧٧-٧٨]، وقَالَ تَعالَى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [الأَحْزَاب ١٦].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ والله يسمعُ قولكُم، ويعلمُ جِهادكُم وبَذْلَكُمْ، وهو مُطَّلِعٌ على ضمائِرِكُم وحديثِ نُفوسِكُم ويعلمُ صِدقَكُم، فليسَ لكم إلَّا أنْ تَصْدُقُوهُ في طاعتِه.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾

كثيرٌ من آياتِ الإنفاقِ جاءَتْ في سِياقِ الحديثِ عن الجِهادِ في سبيلِ الله، كما هو الحالُ هُنا، وهذا فيهِ إشارةٌ إلى أهميَّةِ كِفايةِ أهلِ الجِهادِ بما يحتاجُونَ، وكِفايةِ أهلِيهِم من بَعدِهم.

والآيةُ هُنا فيها حَثٌّ من الله تعالى لعبادِه لِيَعتنُوا بالإنفاقِ من أموالِهم إنفاقًا واجبًا: كالزَّكاةِ والنَّفقاتِ والكفَّاراتِ، وإنفاقًا مُستحبًّا: كالوقفِ والوَصِيَّةِ والهِبةِ ونحوِ ذلك.

ولكُم أن تتأمَّلوا أثَرَ الخِطابِ الرَّبانيِّ هُنا على نُفوسِ أهلِ التَّقوى، فقدْ أخرجَ أحمدُ والتِّرمِذيُّ وغيرُهما، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران ٩٢] وَ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾، قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ الله حَائِطِي الَّذِي بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، وَالله لَوِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُسِرَّهَا لَمْ أُعْلِنْهَا. فَقَالَ: «اجْعَلْهُ فِي فُقَرَاءِ أَهْلِكَ». وفي رواية: «اجْعَلْهُ فِي فُقَرَاءِ قَرَابَتِكَ».

والآيةُ هُنا وَصَفَتِ القرضَ المقبولَ عندَ اللهِ بالحَسَنِ، والقَرضُ الحَسَنُ يكونُ بالإنفاقِ على العِيالِ وفي سبيلِ اللهِ، ولا يَقبلُ اللهُ منه إلَّا ما كانَ خالِصًا له، ولا مِنَّةَ فيه على أحدٍ ولا إيذاءَ.

وقد أعدَّ اللهُ لمنْ أنفقَ ثوابًا عظيمًا، وجزاءً وعطاءً جزيلًا، ومُضاعفةً في الأجرِ. قال اللهُ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٦١].

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ اللهُ هو القابِضُ الباسِطُ ابتلاءً وامتحانًا؛ إذا أمسكَ اللهُ رزْقَهُ عن أحدٍ، فلا رازِقَ لهُ إلَّا هو، وإذا بسطَ رِزقَهُ لِأَحدٍ، فلا يُمسِكُه إلَّا هو، فأنفِقوا ولَا تجبُنُوا وتبخَلُوا، وربُّنا له الحِكمةُ البالغةُ في ذلك، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يومَ القيامةِ فيجزيكم ما وعدَكُم.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾

هذه القصةُ حَصَلَتْ بعدَ زمنِ موسى عليه السلام، يُخبِرُ اللهُ تعالى عنها؛ لينتفِعَ بها أهلُ الإيمانِ؛ ففي حكايةِ هؤلاءِ القومِ فوائدُ جمَّةٌ، ما أحوَجَنا إليها زمانَنا.

قصةُ هؤلاءِ القومِ تُعلِّمُنا أثرَ التَّخلُّفِ عن الجهادِ بعدَ أنْ عزَمْنا عليه وعرَفْنا قيمَتَه، وتُرشِدُنا الآياتُ القادِمةُ حتى لا نكونَ مثلَ أولئكَ الذين آثَروا دُنياهُم على أُخراهُم، وجَبُنوا واطمأنُّوا إلى ضعفِهم وهوانِهم، ولنكونَ كالذين صبروا وثَبَتوا وقدَّموا حُبَّ الآخرةِ حتى ظَفَروا بالنَّصرِ، وتخلَّصوا من الذِّلَّةِ والهوان.

هذهِ الآياتُ تُمثِّلُ قواعدَ وثَوابتَ للمسلمينَ الذين تجتمِعُ عليهِمْ مِلَلُ الكُفْرِ في الأرضِ.

نزلَتْ هذه الآياتُ في المدينةِ التي كانت فيها النُّواةُ الأولى للدولةِ وللأُمَّةِ، وكانَ الجميعُ يَتربَّصُ بهم، وقد خرجَ المُهاجِرونَ من أرضِهم، وحِيلَ بينَهُم وبين ذرارِيهم وأبنائِهم، ثُمَّ رأى الأنصارُ تربُّصَ من حولَهُم بهم؛ فإنَّهُم آووا ونصرُوا سيِّدَ البشرِ محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وداعيةَ تعبيدِ النَّاسِ للهِ وَحْده.

والقصَّةُ هنا لم تَذكرِ اسمَ النَّبيِّ؛ لأنَّ القِصَّةَ قصدَتْ أن نعتبِرَ بحالِ القومِ، لا بحالِ النَّبي.

وفيها أنَّ الله سلَّطَ على بني إسرائيلَ عدوَّهُم من عُبَّاد الأصنامِ، لما ابتَعدوا عن منهج الله تعالى الذي جاءَهم في التوراةِ التي أُنزِلَت على نبيِّ الله موسى عليه السلام، وكان فيهم من الأنبياءِ من يَعِظُهم ويُذَكِّرُهم ويدعُوهُم، فلما سُقِطَ في أيديهم، وأُغلِقَتِ الأبوابُ في وُجوهِهم، وأذاقَهم عدوُّهم ما أذاقَهم من القتلِ والأَسرِ والذِّلةِ والطردِ من الدِّيارِ، جاء الملأُ منهم، وهم أشرافُهم وكبراؤُهم، لنبيٍّ كان فيهم، وسأَلوه أن يُقيمَ الله تعالى لهم مَلِكًا، ويختارَ ويُعيِّنَ لهم قائدًا، ليُجاهِدوا معه في سبيلِ الله ويَستردُّوا مُلكَهم وأرضَهم وأموالَهم وعِزَّتَهم.

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ﴾ كأنَّ نبيَّهم يعرفُهم ويعرفُ ضعفَ هِمَّتِهم وعزيمَتِهم، فهو يعيشُ معَهم.

لَمَّا طلبوا ما طلبوا قال لهم: هل حماستُكم هذه للجهادِ يَقينيَّةٌ نابعةٌ من حُسنِ توكُّلٍ على الله وأخذٍ بالأسبابِ، أم هي عابرةٌ سيذهبُ نورُها مع أولِّ بلاءٍ وشِدَّةٍ، هل أنتم قادرُونَ على الوفاءِ بما عاهدتُّم؟ فهو لم يَغتَرَّ بحماستِهم كثيرا؛ لأنَّه يعلمُ أنَّ كثيرًا من المؤمنينَ يتحمَّسُون، فإذا جاءَ العملُ الصَّادِقُ، وَوُضِعُوا على المِحكَّاتِ، يتولَّون إلا قليلاً منهُم.

﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ﴾ في قولِهم هذا تأكيدٌ على استعدادِهم للتَّضحِيةِ من أجلِ ما أرادُوا، خاصَّةً أنهم قد سُلِبَتْ منهم ديارُهم، وأُخرِجوا منها، وسُبِيَ أبناؤُهم وأصبحوا عبيدًا عندَ أعدائِهم.

هم يُطمئِنونَ نبيَّهُم بأنَّهم لن يترُكوا القِتالَ، ولن يفِرُّوا منه، وخاصَّةً أنَّ عددًا من أسبابِ مُتعةِ الحياةِ وزينتِها فُقِدتْ، وسُلِبَتْ منهم الدِّيارُ والأموالُ والأبناءُ.

وهذا المشهدُ ينفعُنا في معرفةِ حقيقةِ ما يُريدُهُ عدوُّنا؛ هو يريدُ سرقةَ الأوطانِ والأبناءِ، ليكونَ له التَّمكينُ والنَّصرُ.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ختامُ الآيةِ هنا يُخبِرُ بأنَّ حماستَهم هذه لم تكن حقيقيةً عند غالبِهم، وأنَّ أكثرَهم نكَلوا عن الجهادِ، وأخلفُوا الوعدَ الذي أخذُوهُ على أنفسِهم وأعلنُوه أمام نبيِّهم، وأنَّهم فرُّوا من القتالِ الذي أرادُوه وأعطَوُا العُهودَ والمواثيقَ عليه، وأبدَوا له حماسةً لا نظيرَ لها.

وختامُ الآيةِ يَدُلُّ على أنَّهم ظَلَمُوا أنفسَهم بِنُكولِهم وخَوفِهم ورُكُونِهم إلى ما عَهِدُوه من الذِّلَّةِ. وتفصيلُ وبيانِ ما جَرى بينَهم وبينَ نبيِّهم يأتيكُم هنا في الآيات:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾

طالوتُ كان رجلًاعاديًّا من جُندِهم. وقيل: كان من فلاحِيهم، ولم يَكنْ من قادتِهم ولا من أمرائِهم، اختارَه الله عز وجل واصطفاه ليكونَ ملكًا وقائدًا لهم.

﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ ﴾ ظَنُّوا أن المَلِك والقائد لا بدَّ أن يكونَ صاحبَ مالٍ كثيرٍ، وجاه كبيرٍ، فهذه ثقافةُ عُمومِ الناس الذين يعيشُون في عالمٍ كلُّ مُلوكِه أغنياءُ جدا، ولذلك سَجَّلوا أوّلَ اعتراضاتِهم على ما طلبُوه هم بأنفسِهم، وقالوا: كيف يقودُنا فقيرٌ، وعندنا منَ الأغنياءِ من هو أحقُّ بقيادتِنا منه.

وهذا الجِدالُ ليس مما عُهِدَ عن الصَّادِقِينَ في دعواهُم، والأصلُ في مثلِ هذه المواطنِ أن يَقولوا قولًا حَسنًا، وأن يكونوا سريعِي الطَّاعةِ والاستجابةِ، وأن يتفطَّنُوا إلى أنَّ القائدَ الحقَّ هو من جمعَ بين العلمِ والحكمةِ والقُوَّةِ وغنى النَّفسِ، لا من أغرَتْهم ظواهرُه.

وتأمّلوا كيف أنّهم لم يُسارعوا إلى الالتفافِ حول قائدِهم، بل شكّكوا في اختيارِ الله لهم، وصاروا إلى الجدالِ والاعتراضِ، وإعمالِ مقاييسِهمُ الماديَّةِ الواهيةِ.

وهذه سمةٌ من سماتِ بني إسرائيلَ بيَّنتْها آياتٌ عِدَّةٌ، كيف أنّهم كثيرو الجِدالِ، وكثيرو مُعارضةِ الحقِّ بالباطلِ.

﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ هذا من تصحيحِ المفاهيم؛ يبيِّنَ لهم نبيُّهم ويُخبرُهم أنَّه ليس هو من اختارَه، بل إنَّ الله تعالى أرادَه قائدًا لكم، لِما يملكُه من صفاتِ القائدِ الحقِّ؛ فقد أكرمَه بالعلمِ الذي يُحْسِنُ به قيادَتكم وسياسَتكم وتدبيرَ أمرِ قتالِكم، وأعطاهُ جِسمًا قويًّا يصبرُ به على شدائدِ الحربِ والقتالِ، وهو أعلمُ به منكم.

ومَنْ جمعَ القوةَ إلى العلمِ؛ أجرى الله على يَديه النَّصرَ والتَّمكينَ ووفرةَ المالِ.

وكأنَّ قارئَ هذا السِّياقِ القُرآنِيِّ يُدرِكُ صفاتِ القائدِ الذي تحتاجُه الأُمَّةُ، بل تحتاجُه كُلُّ مؤسسةٍ أرادتِ النَّجاحَ.

﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ من تمامِ علمِه وحِكمتِه سبحانه، أنَّه يُؤتِي نعمةَ المُلكِ من شاءَ من عبادِه، لحِكَمٍ أرادَها.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسعُ الفَضلِ يَختصُّ برحمتِه مَن يَشاءُ، عَليمٌ بمَن يَستحِقُّ المُلكَ ممَّن لا يَستحِقُّه.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾

قدَّمَ لهُم نبيُّهم الدليلَ على بركةِ مُلك طالوتَ عليهم، وقدَّمَ لهُم علامةً أنَّه الأحقُ والأجدَرُ بما طَلبوا. قال لهم: التابوتُ (وهو صُندوقٌ خشَبيٌّ) الذي أَخذَه عدوُّكم منكم سيرجِعُ إليكم بدونِ قتالٍ، وسَتجِدون فيه من الدَّلائلِ والعلاماتِ ما يُسْكِنُ قلوبَكم، ويُعطيها الطُّمأنينةَ بأمرِ الله ووَحيه. وكأنَّه يقولُ لهم: إنَّ عَودةَ التَّابوتِ ورجعَتَه من علاماتِ رحمةِ الله بكم لعلَّكم تُطيعوا وتَثبُتوا.

﴿وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: وفي التَّابوتِ بقيَّةٌ من آثارِ آلِ أنبياءِ الله موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ، من بقايا ألواحِ موسى ومن التوراةِ ومن عصا موسى ونعلِه وعِمامَةِ هارونَ وغيرِ ذلك. وهذه البقيَّةُ جاءَتْكم بها الملائكةُ تحمِلُها بين السماءِ والأرضِ، حتى تضَعَها بين يدي طالوتَ، وأنتم تنظرون.

وقد ذكرَ أهلُ التَّفسيرِ والسِّيَرِ أنَّ التابوتَ هذا كان ممَّا أخذَه أعداؤُهم واحتفظوا به، لِعلمِهم أنَّ ما فيه سببٌ من أسبابِ وَحْدةِ بني إسرائيلَ وتمسُّكِهم بدينِهم ودعوتِهم.

والآيةُ جاءَتْ بذكرِ حملِ الملائكةِ لهذا التَّابوتِ، وعندَ أهلِ التَّفسيرِ نقلا عن عُلماءِ بني إسرائيلَ وكُتُبِهم، أنَّ الذين سرقوا التابوتَ وأخذُوه عُنوةً، ابتلاهُم ربُّهم بأمراضٍ وآفاتٍ لم يشهدُوها من قبلُ، فقرَّروا ردَّ التَّابوتِ إلى أصحابِه، فجعلوه في عَربةٍ يجُرُّها بقرَتانِ أو فَرسانِ، ووجَّهوها إلى جهةِ منازلِ بني إسرائيلَ، فمشتِ العَربةُ، فساقَتْها الملائكةُ حتى وصلَت بها إلى منازلِهم.

وفعلًا: لَمَّا رأوا التَّابوتَ اطمأنُّوا وأطاعُوا طالوتَ، وقَبِلوا بقيادتِه، وسارَ بهم إلى طريقِ المعركةِ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أعطاكُم ربُّنا ذلك لتنتفِعوا وتؤمنوا وتَتَّبِعوا طالوتَ، إن كنتم صادقين مؤمنين بالله وبنُبُوَّتي وباليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾

طالوتُ قائدٌ آتاه الله قُوَّةً وعِلمًا، وهو لا يَغْتَرُّ بحماساتِ الشُّعوبِ، بل يختبِرُها ويسبُرُ غورَها قبل المُضيِّ بها إلى ما طَلَبَتْ.

هنا فَصَلَ وخرجَ طالوتُ بجيشِه الذي طلبَ القتالَ، وابتعدَ بهم عن ديارِهم، فأرادَ أن يختبِرَ صبرَهُم وصِدقَهُم في المخاطرةِ بأنفُسِهم وتحمُّلِ المتاعِبِ والمشاقِّ، فمرَّ بنهرٍ، فمنعَهُم من الشُّربِ من ماءِ النَّهرِ، إلا أنْ يأخُذَ الواحِدُ منهم اليسير بكفِّهِ فيشربَ ويَبُلَّ ريقَهُ، فلا بأسَ عليهِ. وأخبرَهم قائلًا: كُلُّ من شَرِبَ من هذا الماءِ على الوجهِ الممنوعِ، فشرِبَ حتى ارتوى وبِحَسْبِ ما اشتهى وتَمَنَّى، فلا يَصحبْني في جيشي؛ فإنَّه ليس مني ولا ينفعُني ولا هو على طريقتي، بخلافِ من أطاعَ وشرِبَ اليسير، فهو الذي ينفعُني في جهادي.

ومع أنَّه ليس نبيًّا ولا يُوحى إليه من الله تعالى، إلَّا أنَّه أخبرَهم أن الله سَيَبتلِيهم بنهَر، والمقصودُ أنَّه قائدٌ اختارَهُ الله، فكانت طاعتُه من طاعةِ الله. قال الله تعالى عنهم:

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ هذا دليلُ قِلَّةِ صبرِهم، وأنَّ غالِبَهم ليس من أهلِ الحروبِ.

الآيةُ أخبرَتْ أنَّه لم يُطِعْ أمرَ طالوتَ إلَّا القليلُ منهم، وهذا القليلُ كان أصحابُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكرونَه فيما بينهم، فقد أخرج البخاري عن البَرَاء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: «حَدَّثَنِي أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، أَنَّهُمْ كَانُوا عِدَّةَ أَصْحَابِ طَالُوتَ، الَّذِينَ جَازُوا مَعَهُ النَّهَرَ، بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ». قَالَ البَرَاءُ: «لَا وَاللهِ مَا جَاوَزَ مَعَهُ النَّهَرَ إِلَّا مُؤْمِنٌ». ورُوي عن بعضِ الصَّحابةِ والتابعين، أنَّ عددَ الذين شرِبوا وخالَفوا ستةٌ وسبعونَ ألفًا من مُجمَلِ عددِهم البالغ ثمانينَ ألفًا، يعني: تبقى معه أربعةُ آلافٍ فقط.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ حتى القليلُ الذي بَقِيَ، لم يَثْبُت أمامَ كثرةِ جيشِ العَدُوِّ إلا القليلُ منهم.

جيشُ العدو الذي كان يقودُه جالوتُ، وقد كان جيشًا قويًّا وكثيرًا، فلما رأَوْه، استقلُّوا عددَهم، وخارَتْ عزائِمُهم واستَسلمُوا ورجعُوا عن القتالِ. لكنْ ثَمَّةَ قائدٌ بطلٌ لا يهزُّه تخلُّفُ أكثرِ من مَعَه أو فرارُهم، ولا يضيرُه إرجافُ المُرجفِين، فإنَّه يعلمُ مفاتيحَ النَّصرِ حقَّ المعرفةِ.

وكذلكَ ثَمَّةَ صِنفٌ من أهلِ الإيمانِ عاهدُوا الله فصدقُوه فيما وَعدوا، وصِدْقُهم وإيمانُهم إنما يظهرُ عند المُهِمَّات والمُلِمَّاتِ، يظهرُ في أوقاتِ الشِّدَّةِ لا الرَّخاءِ. قال الله تعالى عنهم:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يظنُّون هنا بمعنى: يعلمونَ ويُوقِنونَ. هؤلاءِ الذين أيقنُوا بوقوفِهم بين يدي ربِّهم، وبأنَّ ما عِندَه خيرٌ وأبقَى فأحَبُّوا لِقاءَه، تمَثَّلوا ما اعتقدوا، فصَبروا على جهادِ عدُوِّهم، ولم يستسلِموا لمقاييسِ أهلِ الدُّنيا وطريقةِ تفكيرِهم، بل علَّمُونا أنَّ الفِئةَ القليلةَ المؤمنةَ التي تقاتِلُ عن عقيدةٍ، وتصبرُ على بأساءِ الحُروبِ، وتعلمُ أنَّ وعدَ الله حقٌّ، هي التي تتمكَّنُ وتنتصِرُ على الجيشِ الكثيرِ عددًا ، والعظيمِ عَتادًا، كلُّ ذلك بإذنِ الله تعالى وتَوفيقِه لها. ومقولَتُهم هذه في هذا الموطنِ، أرادُوا بها تثبيتَ أنفسِهم ومَنْ معهم.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾

أدركَ جُندُ الإيمانِ ضرورةَ التَّوجُّهِ إلى الله تعالى بالدُّعاءِ، بعد بَذْلِ ما يستطيعون من أسبابٍ.

لَمَّا واجهُوا أعداءَهم من جيشِ جالوتَ، طلبوا من الله أن يُعينَهم على الصَّبرِ في أرضِ المعركةِ، وسألُوه ثباتَ الأقدامِ بألَّا تَزِلَّ فيخافُون ويفِرُّون ويَهرُبون، واستعانوا بالله بصدقٍ لينصُرَهُم على عُبَّادِ الأصنامِ الصادِّينَ عن دينِ الله. والدُّعاءُ في مثلِ هذه المواطنِ له قَدرُه وقيمَتُه، وقطعًا لا يكون كدعاءِ المُطمَئِنِّ بين أهلِه.

وهنا فائدةٌ تهُمُّ كُلَّ من أرادَ نصرَ دينِ الله تعالى والعملَ له، وهيَ ضرورةُ الصِّدقِ في الاستعانَةِ بالله تعالى، والاعتماد عليه سُبْحانه أوَّلًا وآخرًا، كَثُر من معه أو قلَّ عددُهم، كما استعانَ أهلُ بدرٍ والذين ثَبتُوا يومَ حُنينٍ بخالِقِهم وهم أقلُّ عددًا وعُدَّةً، فأكرمَهُمُ الله تعالى بالظَّفرِ والنَّصرِ. أخرجَ البُخاريُّ ومسلمٌ عن عبدالله بنِ أبي أوفى رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ رسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» الحديث.

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾

لَمَّا اطَّلعَ الله على صدقِ قُلوبِهم، وثباتِهم على عهدِهم، أعزَّهم ونصرَهُم على عدوِّهم.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ نبيُّ الله داودُ عليهِ السَّلامُ كان جُنديًّا في جيشِ طالوتَ، ولم يكنْ يومَئذٍ نبيًّا يُوحى إليه، إلَّا أنَّ الله تعالى أكرمَ هذا الشَّابَ بقتلِ قائدِ المُشركينَ جالوتَ في هذهِ المَعركةِ. وتأمَّلوا كيفَ تصنعُ المِحَنُ والظُّروفُ الصَّعبةُ القادةَ الأبطالَ، الذين رُبَّما كانوا مغمورينَ لا يَدري بهم أحدٌ، كما حصلَ لطالوتَ ونبيِّ الله داودَ.

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ﴾ وورِثَ داودُ مُلكَ طالوتَ، وأعطاهُ الله الأمرَ من بعدِه، وكذلك أوحى إليه ليكونَ نبيًّا في بني إسرائيلَ، وعلَّمهُ الله من علمِ النُّبُّوةِ، ومن مفاتيحِ الحُكْمِ وتدبيرِ أمورِ الرَّعيَّةِ ما يشاءُ.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعقيبٌ قرآنيٌّ على قصةِ طالوتَ وجالوتَ، تعقيبٌ يُعَدُّ قاعدةً من قواعدِ الفهمِ والتَّفكيرِ، وسُنَّةٌ من سُننِ الله الكونيَّة التي لا تتخلَّفُ ولا تتبدَّلُ، وفيها من التوجيهِ الكثيرِ لنا، فتأمَّلوا:

من أعْظمِ أنواعِ الإفسادِ في الأرضِ، أنْ تكونَ الغلبةُ فيها لأهلِ الشِّركِ والكُفرِ؛ فإنَّهم لا يتأخَّرونَ عن نشرِ شُرورِهم حتى يَسُودوا، ووَدُّوا لو يَغْفُلُ أهلُ الحقِّ عن دعوتِهم ليطيبَ لهم نشرُ فسادِهم بلا مُنغِّصاتٍ ولا

مُعوِّقاتٍ، لكنَّ الله تعالى يدفعُ شُرورَهم بقيامِ أهلِ الصَّلاحِ والخيرِ والتَّوحيدِ بواجِبِهم. وواجبُهم مُدافعةُ أهلِ الباطلِ لِئَلَّا يَفسُدَ أهلُ الأرضِ، فلولا قيادةُ الرَّجُلِ الصَّالحِ طالوتَ وشجاعةُ نبيِّ الله داود، لأهلكَ جالوتُ ومن معه من الجبَّارينَ كُلَّ خيرٍ وصلاحٍ في الأرض.

ومثلُ هذه الآياتِ، تدفعُ أهلَ الصَّلاحِ إلى أن يكونوا مُصلحين، وأن يعمُروا الأرضَ بالخيرِ والدَّعوةِ والجهادِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكرِ؛ ليحفظَ الله بنا معالمَ التَّوحيدِ والعُبُوديَّةِ والصلاحِ في البشريَّةِ، كما قال ربنا: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحَجّ ٤٠].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من أنواعِ فَضلِه ومنِّهِ ورحمَتِه، أنَّهُ يدفعُ كيدَ الفُجَّارِ، ببذلِ وعطاءِ ودعوةِ الأخيارِ. وختامُ الآيةِ فيه إشارةٌ إلى أن المُدافعةَ هذه تحفظُ العالمَ كُلَّه من نقمةِ الله وعُقوبتِه واستبدالِه.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

تأنيسٌ وتَطمينٌ لقلبِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللسائرين على هديه وطريقتِه في دعوتِه؛ هذا هو الدِّينُ الحقُّ، وهذا هو الصراطُ المستقيمُ، وما أنزلَه عليكم ربُّكم من قِصَصِ الأُمَمِ قبلَكم حقٌّ وصِدقٌ، وفيه من العِبَرُ والعِظاتُ ما يغنيكُم، ويكونُ سببًا في نصرِكم وفلاحِكم. وَإِنَّكَ يا مُحَمَّدُ رسولُ الحقِّ والهُدى في الأرضِ.

والمطلوبُ: امضُوا أيُّها القابِضون على دينِكم في دعوتِكم، ولا تحزنوا ولا تيأسوا.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

الرُسُل نؤمنُ بهم جميعًا في دينِنا، وهم مناراتُ الهُدى للنَّاسِ، وعُنوانُ سعادتِهم في الدُّنيا والآخِرة.

واعلموا أنَّ التفاضُلَ بين الأماكنِ والأزمانِ والنَّاسِ مما قدَّرهُ الله تعالى في خلقِه بحسبِ علمِه وحكمتِه، وهذا التفاضُل قدَّره كذلك ربُّنا بين الرُّسُلِ، مع اشتراكِهم في خصْلةِ أنَّهم خيرُ البشرِ؛ فإبراهيمُ عليه السَّلامُ فُضِّلَ بالخُلَّةِ، وموسى عليه السَّلامُ بالتَّكليمِ، وداودُ عليه السَّلامُ بالزَّبورِ الحافلِ بالتَّسابيحِ والمحامدِ والعِبرِ والمواعِظِ، وسليمانُ بالمُلْك من تسخيرِ الجنِّ والرِّيحِ وغيرِ ذلك، ومحمدُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمغفرتِه له ما تقدَّمَ من ذنبِه وما تأخَّر، وأنَّه سيدُ ولدِ آدمَ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء ٥٥].

وهنا مسألةٌ عِلميَّةٌ، ذكرَها أهلُ العلمِ تخُصُّ الآيةَ، فإنَّ ظاهِرَها يدُلُّ على التَّفاضُلِ بين الأنبياءِ، وهذا يُخالِفُ حديثًا مُتَّفقًا عليه ينهى فيه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن التَّفضيلِ بينَ الأنبياءِ. وأنقُلُ لكم ما قالَه الإمامُ النَّوويُّ في شرحِه على صحيحِ مسلمٍ في التَّوفيقِ بين الآيةِ والحديثِ. قالَ رحمه الله: «وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْآخَرُ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»، فَجَوَابُهُ مِنْ خمسةِ أوجهٍ: أحدها: أَنَّهُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، فَلَمَّا عَلِمَ أَخْبَرَ بِهِ. وَالثَّانِي: قَالَهُ أَدَبًا وَتَوَاضُعًا. وَالثَّالِثُ: أَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ تَفْضِيلٍ يُؤَدِّي إِلَى تَنْقِيصِ الْمَفْضُولِ. وَالرَّابِعُ: إِنَّمَا نَهَى عَنْ تَفْضِيلٍ يُؤَدِّي إِلَى الْخُصُومَةِ وَالْفِتْنَةِ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ فِي سَبَبِ الْحَدِيثِ. وَالْخَامِسُ: أَنَّ النَّهْيَ مُخْتَصٌّ بِالتَّفْضِيلِ فِي نَفْسِ النُّبُوَّةِ، فَلَا تَفَاضُلَ فِيهَا، وَإِنَّمَا التَّفَاضُلُ بِخَصَائِص وَفَضَائِلَ أُخْرَى».

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ الأنبياءُ الذين ثبَتَ أنَّ الله تعالى كلَّمَهُم آدمُ وموسى ومحمدٌ عليهم الصلاةُ والسَّلامُ.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أهلُ العلمِ بتتبُّعِ الأدِلَّةِ واستقرائها على أنَّ محمدًا صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلُ البشرِ، بما خصَّهُ الله تعالى بخصائِصَ من إرسالِه للنَّاسِ كافَّةً، وإمامتِه بالأنبياءِ في الإسراءِ والمعراجِ والشَّفاعةِ العُظمى وغيرِ ذلك.

والتفاضُلُ بينهم في المَنْزلةِ مِمَّا ذكرَه أهل العلمِ، وفصَّلوا فيه، صلواتُ ربي وسلامُه عليهم جميعًا.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ ومِمَّا أكرمَ الله به نبيَّه عيسى عليه السلامُ، أنْ أعطاه معجزاتٍ وحُججًا ودلائِلَ قاطعاتٍ بيِّناتٍ على أنه عبدٌ لله ورسولٌ من عنده، وأيَّدهُ ربُّنا كذلك بروحِ القُدُسِ، وهو جبريلُ عليه السَّلامُ، كما أيَّدَ غيرَهُ من الأنبياءِ به.

وتخصيصُه هنا بذكرِ نُزولِه على عيسى عليه السلام من دونِ الأنبياءِ؛ فيه معنى الردِّ على اليهودِ الذين كفرُوا بسيِّدِنا عيسى، وكذا ردٌّ على النَّصارى الذين جعلُوه إلهًا، وإنَّما هو رسولٌ من عندِ الله بشرٌ، كان ينزِلُ عليه جبريلُ بالوحي كإخوانِه من الأنبياءِ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ هذه سنةٌ من سُننِ الله في الأرضِ عُمومًا، وفي أقوامِ أنبياءِ الله تعالى خُصوصًا؛ فإنَّهم كانوا يختلِفُونَ في أُمورِ دينِهم فيما بينَهم، ويقتتِلونَ فيقتُلُ بعضُهم بعضًا، مع أنَّ البيِّناتِ والدلائلَ ظاهرةٌ معهم وواضحةٌ وموفورةٌ عند علمائِهم، ولكنَّهم أساؤوا الفهمَ، وارتفعَتْ لغةُ الخلافِ بينَهم حتى تقاتلوا مُكابرةً واتباعًا للهوى، فمنهم من كفر بعيسى ومحمدٍ عليهم الصلاةُ والسَّلامُ كاليهودِ، ومنهم من كذَّب بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام كالنصارى.

ولو أنَّهمُ التزموا طريقةً واحدةً تقومُ على الإيمانِ بجميعِ الرُّسُلِ والأنبياءِ وبما جاؤوا به، لما حَصلَ بينهم ما حصلَ، ولكنَّ الله تعالى قضى وقَدَّرَ أن يختلِفوا، وأن يكونَ منهمُ المؤمنُ ومنهم الكافرُ، لتمامِ حكمتِه وإرادتِه في ذلك سبحانه. والتاريخُ يشهدُ على كثيرٍ من الحُروبِ التي قامت بين أقوامِهم، وقُتلَ فيها كثيرٌ من الناسِ.

ومقصودُ هذه الآيةِ: احذروا أيُّها المسلمون من الوُقوعِ فيما وقعوا فيه، وكونوا عبادَ الله إخوانًا، كما أوصى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّته في خُطبةِ حجَّةِ الوداعِ: «فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» الحديثُ. يعني: لا تتسارعوا إلى تكفيرِ بعضِكم بعضًا ولا تتقاتلوا وأنتم أبناءُ دينٍ واحدٍ، ونبيُّكم واحدٌ، والكتابُ الذي أُنزِلَ عليكم محفوظٌ وواحدٌ، اتبعوا الحقَّ وعَضُّوا عليه بنواجِذكُم، ولا تُكابِروا وتتَّبعوا الهوى، ولا تُخالِفوا الحقَّ طلبًا لمدحِ أشياعِكم وأنصارِكم، أو تزَلُّفًا وتقرُّبًا لأهلِ الدُّنيا لتحصيلِ متاعٍ عاجلٍ.

ومع كُلِّ هذه الوصايا والتَّوجيهاتِ الرَّبانيَّةِ النَّفيسةِ لهذه الأُمَّةِ، إلَّا أنَّ تاريخَنا شهِدَ عددًا من الاختلافاتِ التي سبَّبتْ تقاتُلًا بينَ أبناءِ الأُمَّةِ الواحدةِ، إلا أنَّ الله تعالى يُكرِمُ هذه الأمةَ ويُيَسِّرُ لها من أمرِها رَشَدًا في كُلِّ مَرَّةٍ، لئلا تُستبدَلَ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

نداءٌ من الله تعالى لأهلِ الإيمانِ، يُرشِدُهم فيه ويحُثُّهم على الإنفاقِ من الخيراتِ التي رزقَهُم الله تعالى إيَّاها، وليبادروا ويُسارِعوا في ذلك، قبلَ أن يأتيَ يومُ القيامةِ، وهو اليومُ الذي ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أيْ: لا يستطيعُ أحدٌ أن يُعتِقَ نفسَه من العقوبةِ ببيعٍ وشراءٍ وبذلِ مالٍ وفديةٍ، ولو جاءَ بملءِ الأرضِ ذهبًا، انتهى تقديمُ العملِ في هذا اليومِ، وبدأ الحسابُ والجزاءُ.

وهو يوم لا خُلَّةَ فيه، أي: لا صداقةَ ولا قرابةَ ولا نسبَ ينفعُه، وصحبتُه التي كانت في الدنيا لأهلِ السُّوءِ، ستكونُ على صاحِبِها حسرةً وندامةً، كما قالَ الله تعالى حكايةً عن أهلِ النَّارِ في النَّارِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء ١٠٠-١٠١]، وقـال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المُؤْمِنُونَ ١٠١].

وهو يومٌ لا شفاعةَ فيه لمنِ امتنعَ عن العملِ الصَّالحِ من الإنفاقِ في سبيلِ الله وغيرِه من الصَّالحاتِ، بخلافِ الشَّفاعةِ التي ثبتَتْ لأهلِ الصَّلاةِ والصَّدقاتِ.

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا أحدَ أظلمَ لنفسِه وغيرِه ممَّنْ كفرَ وماتَ على الكُفْرِ، فإنَّهُمْ لا يؤمنونَ بالبعثِ ولا بالحسابِ، ولا يُعدُّون العُدَّةَ لما ينتظرُهم من أهوالٍ في أرضِ المحشرِ.

الذين كفروا يَسخرُون من المؤمنينَ المُطَّوِّعينَ بالصَّدقاتِ، ويُنفقونَ أموالَهم ليصُدُّوا عن سبيلِ الله، وهذا هو الظُّلمُ الذي ليس بعدَه ظُلْمٌ. وكأنَّ الآيَةَ تُنادي أهلَ الإيمانِ وتقولُ لهم: تَرْكُ الإنفاقِ في سبيلِ الله ليس مما عُهِدَ وعُرِفَ عن أهلِ التَّقوى والإحسانِ، فتأمَّلوا.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

هذه آيةُ الكُرسيِّ، أفضلُ آيةٍ في كتابِ الله تعالى، ولها شأنٌ عظيمٌ، جاءَ في بيانِ فضلِها عِدَّةُ أحاديثَ، منها:

ما أخرجَهُ مسلمٌ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَالله لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ». وفي روايةٍ في مسندِ أحمدَ: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لِهَذِهِ الآيَةِ لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقدس الْمَلِكَ عند ساقِ العرشِ».

ومنها ما أخرجَه البخاريُّ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، أنَّه أتاهُ آتٍ يحثُو من الصَّدقةِ، وكان قد جعلَه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليها ليلةً بعدَ ليلةٍ، فلمَّا كانَ في الليلةِ الثَّالثةِ قال: لأرفعنَّكَ إلى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: دَعْني أُعلِّمْك كلماتٍ ينفعُك اللهُ بهنَّ -وكانوا أحرصَ شيءٍ على الخيرِ- فقال: إذا أويتَ إلى فراشِك فاقرأْ آيةَ الكُرسِيِّ: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» حتى تختِمَها؛ فإنَّه لن يزالَ عليكَ من اللهِ حافظٌ، ولا يقربُك شيطانٌ حتى تصبحَ. فقال: «صَدَقَك وهو كذوبٌ، ذاك شيطانٌ».

ومنها ما أخرَجه النَّسائيُّ والطبرانِيُّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ».

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ إخبارٌ من الله تعالى بأنَّه الفردُ الأحدُ، هو إلهُ جميعِ الخلائِق، لا إلهَ غيرُه.

وهو حيٌّ لَا يَمُوتُ أَبَدًا، قائمٌ بنفسِه مُستغنٍ عن غيرِه، وهو قائمٌ سبحانَه على ملكوتِه يُدبِّرُ أمرَه ويُصرِّفُه ويُسيِّرُه، وهو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ، وهو قيُّومٌ لا تقومُ الخلائقُ إلا به وبأمرِه، والجميعُ مفتقرٌ إليه.

أين تلك الآلهةُ التي تعلَّقتْ بها القلوبُ ولجأتْ إليها، أين هي من صفةِ الحياةِ والقيامِ على تدبيرِ أمرِ الخلائقِ؟! يعني: كيفَ يكونُ مدبِّرُ الأمورِ جمادًا كالأصنامِ التي لا تملكُ لنفسِها نفعًا ولا ضَرًّا، وكيف يُعبد البشر من دونِ الله، وقد علمَ القاصي والدَّاني صفاتِ النَّقصِ التي قامَتْ في جميعِ المخلوقاتِ.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ ومن صفاتِ الكمالِ للرَّبِ الذي نُعظِّمُه ونعبُدُه، ولا نصرِفُ عبادتَنا إلَّا لَهُ، أنَّه لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ وَلَا غَفْلَةٌ وَلَا ذُهُولٌ عَنْ خَلْقِهِ، ولا يغيبُ عنه شيءٌ، ولا تخفى عليه خافيةٌ.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾ أَيْ: لا يَغلِبُه النُّعاسُ، ولا تعتريه مقدماتُ النَّومِ. ﴿وَلَا نَوۡمٞ﴾ لا ينامُ سبحانَهُ. أخرجَ مسلمٌ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحات وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ كُلُّ ما أوجدَ اللهُ وخلقَ في ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ، وما خلقَه بينَهما، له سبحانه وفي مُلكِه وتحتَ سُلطانِه وقهرِه.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ ثلاثةُ شروطٍ دلَّتْ عليها النصوصُ الشرعيةُ لحصولِ الشَّفاعةِ غدًا يوم القيامةِ، ولينتفعَ بها المشفوعُ له. أولها: ما دلَّتْ عليه الآيةُ هنا من إذنِ الله تعالى بذلك، وهذا من كمالِ عظمةِ الله تعالى وجلالِه وكبريائِه.

وثانيها: رضا الله عن الشافعِ، كما قال الله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النَّجم ٢٦].

وثالثها: رضا الله عن المشفوعِ له، كما دلَّ على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء ٢٨].

فكُلُّ ما زعمَه أهلُ الكفرِ والفِسقِ من حُصولِ شفاعةِ الأصنامِ لهم، وشفاعةِ من زعموا أُلوهِيَّتَه لهم، مبنيٌّ على الوهمِ والضَّلالِ والزَّيغِ.

في يومِ الحسابِ: لا ينفعُ أحدٌ أحدًا، ولا يُغني أحدٌ عن أحدٍ، إلا ما أذنَ الله تعالى به.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ وهذا الموضعُ من دَلالاتِ عظمةِ هذه الآيةِ كذلك؛ فإنَّ العبدَ الذي يستحضرُ أنَّ ربَّه محيطٌ بجميعِ الكائناتِ عِلمًا، يُحسنُ التَّذلُّلَ والخضوعَ له سبحانه، فالله يعلمُ ظاهرَ الأمرِ مما يراهُ الخلقُ ويعلمونَه، ويعلمُ باطنَه ممَّا يخفى عليهم ويجهلونَه، ويعلمُ سبحانه ما كان قبلَهم، ويعلمُ حالَهم وما سيكونُ بعدَهم من أمورِ الدُّنيا والآخرةِ. قال الله تعالى عن الملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم ٦٤].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ أي: لا يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِن عِلمِ الله عَلَى شَيْءٍ، إلا بِمَا أَعْلَمَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ وَأَطْلَعَهُ عَلَيْهِ.

والإحاطةُ بذاتِ الله تعالى وجميعِ صفاتِه، وبجميعِ تفاصيلِ ما يحصُلُ في العوالِمِ، لا يكونُ إلا للخالقِ جلَّ وعلا، وكل منِ ادَّعى عِلمَه بالغيبِ فهو كاذبٌ على الله، واحذروا مقولتَه ودَعْواهُ.

وقد يشاءُ الله تعالى إطلاعَ من اصطفاهُ من خلقِه على شيءٍ من علمِه، كما أشارَ إلى ذلك قولُ الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن ٢٦-٢٨].

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ أكبرُ مخلوقاتِ الله تعالى فيما علمْنا العرشُ، وهو الذي استوى عليه ربُّنا استواءً يليقُ بجلالِه وعظمتِه. ثُمَّ الكرسيُّ، وكُرسِيُّه بلغَ في العِظَمِ ما ذَكرتِ الآيةُ، من أنَّه وسِعَ السماواتِ والأرضَ، فهو أكبرُ منهما. أخرج البيهقيُّ في الأسماءِ والصِّفاتِ عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ مَا السَّمَوَاتُ عِنْدَ الْكُرْسِيِّ إِلا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلاةٍ (صحراء)، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ».

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ أَيْ: لا يُثقله ولا يُتعِبُه ولا يُعجِزُه حِفظُ السموات والأرضِ ومن فيهما وما بَيْنَهُما، بَلْ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ لَدَيْهِ، وهو سبحانه لا يغيبُ عنه شيءٌ من أمرِهما.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ وهو العليُّ بذاتِه وصفاتِه، الرفيعُ فوقَ خلقِه، والمتعالي عن الأشباهِ والأندادِ، وهو العظيمُ ، أي: ذو العظمةِ والقُوَّةِ والكبرياءِ.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

دينُ الإسلامِ دينٌ بَيِّنٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ، ودلائلُ صدقِه وصِحتِه متواترةٌ وكثيرةٌ، وهو دين الفطرةِ التي فطرَ الله الناسَ عليهِ. ولأنَّ آيةَ الكرسيِّ حَوَتْ دلائِلَ كافيةً لهدايةِ كُلِّ من تأمَّلَها، فقد جاءَتْ هذه الآيةُ لِتبيِّنَ لنا ما يلزَمُنا تجاهَ غيرِ المسلمينَ.

الآيةُ هُنا تأمرُنا بألا نُكرِهَ أحدًا من غيرِ المسلمينَ على الدُّخولِ فيه، فإنَّ طريقَ الرُّشدِ والهدايةِ ظاهرٌ ومعلومٌ وبيِّنٌ بإنزالِ الكُتبِ وإرسالِ الرُّسُلِ، وكذا طريقُ الغِوايةِ والضلالةِ، وغيرُ المسلمِ له أن يختارَ طريقَه الذي يُريدُ، والجزاءُ يكونُ على ما اختارَه.

أمَّا أهلُ الإسلامِ فليس لهم أن يرتدُّوا عن دينِهم متى شاؤوا؛ فإنْ فعلَ أحدٌ منهم ذلك وارتدَّ، فإنَّ من واجباتِ الإمامِ أن يُقيمَ عليه عقوبةَ الرِّدةِ. فالآيةُ هنا في حقِّ غيرِ المسلمينَ لا المسلمينَ.

أخرجَ أبو داودَ وابنُ حِبَّانَ واللفظُ له، عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنهُما في قَولِهِ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ قَالَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنَ الْأَنْصارِ لَا يَكَادُ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَتَحْلِفُ: لَئِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ لَتُهَوِّدَنَّهُ. فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ، إِذَا فِيهِمْ نَاسٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ الله أَبْنَاؤُنَا. فَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ . قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: فَمَنْ شَاءَ لَحِقَ بِهِمْ، وَمَنْ شَاءَ دَخَلَ فِي الإِسْلامِ.

ولا يفهمْ أحدٌ من عدمِ إكراهِهم عدمَ دعوتِهم، بل إنَّ دعوتَهم واجبةٌ علينا نحنُ المسلمينَ، وكذا جهادُهم حتى تكونَ الكلمةُ العليا للإسلامِ وأهلِه.

وفي فِقهِ جهادنا، نَخرجُ إليهم، فإذا وَصَلْناهم؛ دعَوْناهم للإسلامِ، فإن أبَوْا ورفضوا، عرضنا عليهمُ الجزيةَ التي هي دخولُهم تحتَ سلطانِ الإسلامِ وهيمنتِه، ثم إن أبَوْا، فالقتالُ بيننا وبينَهم حتى يأذنَ اللهُ بأمرِه. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التَّحْرِيم ٩]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التَّوْبَة ١٢٣].

وإتمامًا للفائدةِ في تفسيرِ الآيةِ وفقهِ المسألةِ، فأهلُ العلمِ على مذهبينِ اثنينِ في قَبولِ الجزيةِ من غيرِ أهلِ الكتابِ؛ يعني: إذا قاتَلنا أهلَ الكُفرِ من غيرِ اليهودِ والنَّصارى، هل نقبلُ منهم الجزيةَ إذا امتنعوا من الدُّخولِ في الإسلامِ، أم لا يُقبلُ منهم إلا الإسلامُ أو القتلُ. وبطريقةٍ أُخرى: هل عدمُ الإكراهِ هنا في الآيةِ خاصٌّ بأهلِ الكتابِ والمجوسِ فقط، أم بجميعِ المشركينَ والكُفَّارِ؟

والجوابُ: أمَّا أهلُ الكتابِ فنَقبلُ منهم الجزيةَ لنصِّ آيةِ سورةِ التوبةِ على ذلك، ويُلحقُ بهم المجوسُ عندَ غيرِ واحدٍ من العلماءِ. أما غيرُهم، فعندَ الحنفيةِ نقبلُها من جميعِ المشركينَ إلا من مُشركي العربِ، وعندَ المالكيةِ من جميعِ المشركينَ بدونِ استثناءٍ، بخلافِ الشَّافعيَّةِ والحنابلةِ الذي لا يقبلونَ الجزيةَ إلا من اليهودِ والنَّصارى والمجوسِ، ويكونُ حكمُ هذه الآيةِ خاصًّا في أهلِ الكتابِ دونَ غيرِهم، فإنَّ غيرَهم لا يُقبلُ منه إلا الإسلامُ أو يُقتل. ولِكُلٍّ أدلَّتُه في ذلك، يجِدُها الباحثُ في كُتبِ أهلِ الفقهِ.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ هذا تثبيتٌ لقلوبِ أهلِ الإسلامِ على دينِهم، وترغيبٌ لغيرِ المسلمينَ بالدُّخولِ فيه.

الآيةُ تُبيِّنُ أنَّ من خلعَ وتبرَّأ ونبذَ كلَّ معبودٍ من دونِ اللهِ منَ الطَّواغيتِ من أصنامِ الحجرِ والبشرِ، ثُمَّ آمنَ باللهِ وحدَه ربًّا وإلهًا ، وصرفَ رغبتَه ورهبتَه ورجاءَه له سبحانَه، فقد استمسكَ بطريقِ الاستقامةِ والنَّجاةِ والثَّباتِ.

والعُروةُ هي الحلقةُ التي يُمسك بها في البابِ ونحوِه، وهذه الحَلقةُ وُثْقى، أي: المُوثَقةُ والمربوطةُ بقوَّةٍ والمُحكمةُ الشَّدِّ التي لا تنفَصِمُ ولا تنقطعُ ولا تتفرَّقُ.

والمقصودُ: من أخلصَ في توحيدِ الله، كان ثابتًا في يقينِهِ وتوكُّلِه، وعُصِمَ من السُّقوطِ والضَّلالِ، وإيمانُه وعملُه الصَّالحُ لا ينقطعانِ حتى يفوزَ بجنَّةِ الله.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سميعٌ لأقوالِ عبادِه، عليمٌ بنيَّاتِهم وخفيَّات أعمالِهم، وسَيَجزي كُلًّا بكسبِه وعملِه.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

أنفعُ وِلايةٍ للعبدِ هي التي تكونُ من الله تعالى له، ووِلايتُه سبحانه لا تكونُ إلا لِمن آمنَ به وكفرَ بالطاغوتِ، والولايةُ هذه هي النُّصرةُ والحفظُ والإعانةُ.

الله تعالى بنصِّ الآيةِ الكريمةِ يتولى أهلَ الاستقامةِ والصلاحِ والطَّاعةِ، يهديهم ويَشرحُ صدورَهم لما يُحِبُّ ويرضى، ويُخرِجُهُم من ظلُماتِ الْكُفرِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ إِلَى نُورِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ، يحفظُهم ربُّنا ويدفعُ عنهمُ الشَّهواتِ والشُّبُهاتِ، ويزيدُهم هدىً إلى هداه، ويُعينُهم على الثَّباتِ حتى المماتِ.

أمَّا أهلُ الكفرِ، فأولياؤُهمُ الشَّياطينُ؛ يُحسِّنون لهمُ الباطلَ، ويُزيِّنونَ لهم سوءَ صنيعِهم وفِعالِهم، ويَصدُّونَهم عن طريقِ الهدى والنَّجاةِ، وينقلونَهم من طَرِيقِ الْحَقِّ إِلَى الْكُفرِ.

وهؤلاء: لما فقدوا ولايةَ الله لهم، حالَ بينهم وبين قلوبِهم، وازدادُوا في غيِّهم وضلالِهم، فلا ناصرَ لهم ولا هاديَ ولا مُعين.

وذِكرُ كلمةِ الظُّلُماتِ بصيغةِ الجمعِ، وكلمةِ النُّورِ بصيغةِ الإفرادِ، دليلٌ على أنَّ طريقَ الحقِّ والنَّجاةِ طريقٌ واحدٌ لا يتعدَّدُ، بخلافِ طرائقِ أهلِ الباطلِ، فما أكثرَها. قالَ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام ١٥٣].

ثم تأمَّلوا حولَكم: كمْ شرحَ الله صدورَ أقوامٍ علِم صدقَهم ورغبتَهم في اتِّباعِ الهدى، فأكرمَهم بطريقِ الاستقامةِ وأعانَهم وثبَّتَهم عليه، بعد أن غرِقوا في ظُلماتِ الجهلِ والهوى والكفرِ.

وصدقوني: لولا ولايةُ الله تعالى لكثيرٍ منَّا، لتلاعبَت بنا الدُّنيا وفُتنَّا بها وركَنَّا إليها، لكنَّه فضلُ الله وكرمُه، فلله الحمدُ أولًا وآخرًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هذا جزاءُ من استبدلَ وِلاية الطاغوتِ بولايةِ الله عزَّ وجلَّ، هذا جزاؤُهم هم وأولياؤُهم؛ يكونونَ يومَ القيامةِ وَقودَ النَّارِ وحطبَها، ولا يخرجونَ منها ولا يُقبل منهم فداءٌ ولا طاعةٌ ولا توبةٌ.

ثم إليكم ثلاثةُ شواهدَ قرآنيةٍ، فيها من الهدى والإرشادِ ودلائلِ التَّوحيدِ ما يكفي لأن تُفتحَ قلوبُ أولياءِ الطَّاغوتِ، شواهدُ تكفي لهدايةِ عُبَّادِ أصنامِ البَشرِ والحجرِ، بل هي مفتاحُ لاستقامةِ مُتَّبِعي شياطينِ الإنسِ والجنِ، لو كانوا يعقلون.

القصةُ الأولى: قصةُ رجلٍ كافرٍ تبيَّنَ له الحقُّ، ولكنَّه أصرَّ على كفرِه.

الثانيةُ: قصةُ رجلٍ تبيَّنَ له الحقُّ فاقتنعَ به، واعترفَ بأنَّ الله على كل شيءٍ قديرٌ.

الثالثةُ: قصَّةُ نبيٍّ أظهرَه الله على بعضِ آياتِه، فازدادَ إيمانًا وتثبيتًا.

أما القصة الأولى فقال الله تعالى فيها:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾

لَمَّا خرجَ نبيُّ الله ورسولُه سيِّدُنا إبراهيمُ بدعوتِه، ودعا أهلَ بابلَ إلى التَّوحيدِ وتَرْكِ عبادةِ البشرِ والحجرِ، وذلك بعد أنْ نجَّاهُ الله مِنَ النَّارِ كما ذكرَ بعضُ أهلِ التَّفسيرِ، طلبَه ملكُ بابلَ ليُجادِلَه ويُخاصِمَه خصومةً باطلةً في وجودِ ربِّهِ وعظمتِه وقدرتِه، ويقابلَ حُجَّتَهُ بالحجَّةِ أمامَ النَّاسِ، ولم يكنْ قد التقى به قبلَ ذلكَ. وقد قيلَ: إنَّ اسمَه هو النُّمرودُ، والنمرود هذا كان مِمَّنْ دعا الناسَ ليعبُدُوه، وكان مِمَّن توسَّعَ مُلكُه كثيرًا في الأرضِ، وطالَتْ مُدَّتُه كذلك كما جاءَ في بعضِ الآثارِ، ومنهم من ذَكَرَ أنَّه هو من بنى مملكةَ بابلَ. والقرآنُ ذَكرَ أنَّ الله تعالى أعطاه مُلكًا، وهذا يَدُلُّ على عظمةِ مُلكِه وسَعَتِه.

يُخبرُ القرآنُ عن قِصَّتِه، لما فيها من معالمَ نافعةٍ لأهلِ النُّهى والإيمانِ، ولعلَّ أهلَ الكفرِ تتفتَّقُ أذهانُهم، وتُبصِرُ أفهامُهم، وتزولُ الغِشاوةُ التي على قلوبِهم فيهتدون، ولعلَّهم يوقنون بحفظِ الله تعالى لأوليائِه ونصرتِه لهم، ويتأمَّلون وضوحَ الحقِّ وقُوَّتَه.

﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ كأنَّ هذا الملِكَ سأَلَ إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ أمامَ النَّاسِ عن صفاتِ الله تعالى ودلائلِ وجودِه، ما هي الصفاتُ التي تُثبتُ أنَّه ربٌّ موجودٌ يستحقُّ العبادةَ التي لا تكون لغيرِه، فذكرَ نبيُّ الله عليه السلام باختصارٍ صفتي الإحياءِ والإماتةِ، وهما أمرٌ يُدْرِكُهُ أصحابُ الفِطرِ السليمةِ، ولا يحتاجُ لتأكيدٍ أو تذكيرٍ.

الإحياءُ والإماتةُ أمرٌ نشاهِدُه كلَّ يومٍ، ويُثبتُ قطعًا أنَّ ثَمَّةَ من يملِكُهُ ويَتصرَّفُ فيه بحِكمةٍ وعلمٍ وقدرةٍ.

﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ هذا ما ردَّ به النُّمرودُ على نبيِّ الله إبراهيمَ عليه السلامُ. وظاهرٌ من كلامِه هذا أنَّه أُصيبَ بالبطرِ وبجنونِ العظمةِ والكِبْرِ والإعجابِ بمُلكِه الواسعِ، حتى ادَّعى أنَّه ربٌّ يُحيي ويُميت.

زعمَ النُّمرودُ أنه قادرٌ على ذلك، ولذلك استحقَّ أن يُعبدَ. وطريقتُه في إثباتِ ذلك أنَّه دعا برجلينِ ممن حُكمَ عليهما بالقتلِ، فقتلَ أحدَهما، وعفا عن الآخرِ. وهذه مغالطةٌ عجيبةٌ، فإنَّه أرادَ بفعلِه هذا أن يقولَ لإبراهيمَ عليه السلامُ ولمن حضرَ: إنَّ الحياةَ والموتَ يحصُلانِ بسببِ فعلِ البشرِ، لا بقُدرَةِ الخالقِ.

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ لم يجاريه سيدُنا إبراهيمُ في بيانِ بُطلانِ قولِه، وسذاجةِ فكرِه واضمحلالِه، ولم يجهرْ باستخفافِ هذا المَلِكِ لعقولِ النَّاسِ، ولم يَقُلْ له مثلًا: أحيي من قتلتَ إن كنتَ صادقًا، وإنَّما عَدَلَ بذكاءٍ في حوارِه ومُحاجَّتِه إلى ما لا نظيرَ له من أفعالِ البشرِ، ولا يشتركُ معه باللفظِ شيءٌ، بل لا يكون إلا بفعلِ العظيمِ مالكِ المُلكِ، فحاجَّ الملكَ وسألَه أن يُخرِجَ الشَّمسَ من مغربِها لا من مشرِقِها.

يعني: كأنَّه قال له: ما دُمْتَ تملكُ التَّصرُّف في الخلقِ والكونِ، فاجعلِ الشَّمسَ غدًا صباحًا تُشرقُ من مكانِ غُروبِها.

فما كان من هذا المُفتري، إلا أن بُهِتَ، يعني: أصابَتْهُ الحَيرَةُ وأُخرِسَ فلا يتكلمْ، وعَجَزَ ولم يجدْ ما يَعترضُ به.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أن يكفرَ العبدُ بخالِقه ورازِقه ومالِكه، ثم يزعُم أن ذلك بِيدَيه، ثم يدعو الناسَ لعبادتِه وهو مخلوقٌ لا حولَ له ولا قُوةَ؛ هذا من ظُلمِ العبدِ لنفسِه ولغيرِه، ومثلُه لا يهديهِ اللهُ؛ لكفرِه وعنادِه وافترائِه على الله.

فالظُّلم يحولُ بين المرءِ وبين أنْ يتأمَّلَ في عظمةِ الخلقِ، ويُعملَ الفكرَ ليصلَ إلى توحيدٍ نقيٍّ خالصٍ يُريحُه من التَّخبُّطِ والضَّلالِ.

والآيةُ في ختامِها تَدُلُّ على أنَّ هذا النُّمرود لم يهتدِ، ولم يُطع سيدَنا إبراهيمَ عليه السلامُ في دعوتِه، مع وُضوحِ حُجَّتِه وظهورِها. ذكرَ بعضُ أهلِ التفسيرِ أنَّ الله تعالى عجَّلَ لهذا الملكِ عُقوبتهُ في الدنيا قبلَ الآخرةِ، فقد أرسلَ الله عليه وعلى قومِه البَعوضَ، ودخلَتْ واحدةٌ منها في أنفِه، وما خرجَتْ لسنواتٍ حتى أهلكَه الله بها وماتَ.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

وهذا بيانٌ آخرُ يُظهرُ عظمةَ الله وقدرتَه، بيانٌ فيه زيادةُ إقامةِ حُجَّةٍ على الذين كفروا بالربِّ العظيمِ.

أكثرُ الأقوالِ على أنَّ هذه القريةَ هي قريةُ بيتِ المقدسِ.

وقد جاء عن غيرِ واحدٍ من الصحابةِ أنَّ هذا الرجلَ اسمُه عُزَيْرٌ، وهو رجلٌ من بني إسرائيلَ.

والآيةُ تُبيِّنُ أنه مَرَّ على قريةٍ وهي خاويةٌ ليس فيها أحدٌ من الناسِ، خاويةٌ على عروشِها، أي: سقطَتْ سقوفُ بيوتِها والجدرانُ فلا بناءَ فيها ولا سُكَّانَ، ثم لما رأى شِدَّةَ خرابِها وما حلَّ فيها من دمارٍ، قال: كيفَ سيُرجعُ الله القريةَ هذه إلى ما كانت عليه من العُمرانِ والخيراتِ، كأنه استبعدَ أن ترجعَ عمارًا بعد أن أصبحَتْ خرابًا، أو أنَّه أحبَّ أن يزدادَ بصيرةً في إيمانِه، كقولِ سيِّدنا إبراهيمَ عليه السلامُ: «رب أرني كيف تحيي الموتى»، فسؤالُه هنا سؤالٌ عن كيفيةِ الإحياءِ لا عن وقوعِه، فأراهُ الله تعالى آيةً من آياتِه؛ أماتَه مُدَّةَ مائةِ عامٍ، عادتْ فيها القريةُ إلى حضارتِها وامتلأَتْ بسُكَّانِها، ثم أحياهُ.

﴿كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لَّما أحياهُ الله تعالى سألَه: كم لبِثْتَ فيما لبِثْتَ فيه؟ فأجابَ: يومًا أو أقلَّ. والظاهرُ أنَّ الله أماتَه من شروقِ الشمسِ، وقدَّرَ إفاقتَه في آخرِ النهارِ قبلَ غُروبِ الشمسِ، فظنَّ أنه لبِثَ يومًا أو أقلَّ.

ومخاطبةُ الله لمنِ اصطفى، علامةٌ على تكريمِه ورِفعةِ شأنِه. والآيةُ لم تذكرْ كيف كلَّمه الله، إلا أنَّه جاءَ قولُ الله تعالى يُبينُ ذلك: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴾ [الشورى ٥١].

والله سبحانَه جعلَ خبَرَ هذا الرَّجُل آيةً لأهلِ الإيمانِ الذين يُصدِّقون بخبرِ الوحي ولا يُكذِّبونَ أو يُشكِّكون، وجعلَه آيةً لأهلِ القريةِ الذين فقدُوه مائةَ عامٍ حتى عرفوه بصفاتِه وتحقَّقوا منها، وأخبرَهم الخبرَ.

﴿قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ أخبرَه الله أنَّه إنَّما لبِثَ وأقامَ ومكثَ مائةَ عامٍ، ظهرَتْ فيها قدرةُ الله تعالى التي لم يُدرِكْها ويَعلمْها، طعامُه وشرابُه لم يتسنَّه، أي: لم يتغيرْ ولم يتعفَّنْ وبقيَ كما هو. ثمَّ أمرَه ربُّنا أنْ ينظرَ كيفَ أصبحَ حمارُه عِظامًا، ليتيقَّنَ أنه مكثَ مائةَ عامٍ، ثُم أحيا الله حمارَه أمامَه، ودعاه إلى أن ينظُرَ في ذلك: تأمَّل كيف يُنشِزُ الله عظمَ حمارِك، أي: يُحييه بأنْ يجمَعه ويُركِّبَ بعضَه على بعضٍ، ثم يكسوَه باللَّحمِ ويقيمَه ويبعثَ فيه الرُّوحَ، كلُّ ذلك بِمَرأىً منه.

ثم أخبرَه أنه سيُخَلَّدُ وسيَبْقى ذكرُ ما جرى معه؛ ليكونَ آيةً وعلامةً لكُلِّ النَّاسِ، من عاشَ منهم زمانَه ومن سيأتي بعدَهم، لعلَّهم يوقنونَ ويؤمنونَ حقَّ الإيمانِ بعظمةِ الرَّبِّ وبالبعثِ والنُّشورِ.

ويرى بعضُ المفسرينَ أنَّ الحمارَ بقيَ حيًّا لم يَمُتْ طَوالَ مائةِ عامٍ، وأنَّ العِظامَ التي أُمِرَ أن ينظرَ إلى إعادتِها وكِسوتِها باللحمِ، هي عظامُ أهلِ هذه القريةِ التي مرَّ عليها يومَ أنْ كانت خاويةً على عُروشِها، فقد أحياهُم الله له.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلمَّا رأى ما رأى، أظهرَ عِلمَه السَّابقَ بقدرةِ الله التي رآها عيانًا، فزادَ إيمانًا إلى إيمانٍ، ويقينًا إلى يقينٍ. والمقصودُ: أنه علمَ من قبلُ قُدرةَ الله على إحياءِ الموتى وإحياءِ الأرضِ الخرابِ، ثم ازدادَ إيمانًا ويقينًا برؤيةِ ذلك.

أخيرًا: تأمَّلوا كيفَ تولَّاهُ الله، وحَفِظَ عليه إيمانَه ودينَه، وبيَّنَ له من دلائلِ عظمتِه وقُدرتِه ما يَجعلُه قادرًا على معرفةِ الحقِّ من الباطلِ.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾

مثالٌ ثالثٌ في السِّياقِ القُرآنيِّ، يُبيِّنُ عظمةَ الله وقدرتَه، بعد آيةِ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ وآيةِ ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ .

إبراهيمُ عليه الصلاةُ والسلام نبيٌّ من أنبياءِ الله ورسلِه، قال الله تعالى فيه: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء ١٢٥].

هنا يطلبُ من الله تعالى أنْ يُريَه كيفَ يكونُ إحياءُ الموتى، معلِّلًا طلبَه بأنَّه يُريدُ أن يطمئِنَّ قلبُه. أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ في هذه الآية حديثًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ: رَبِّ أَرِنِي كيف تحيي الموتى؟ قال: أولم تُؤْمِنْ. قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي». فهلْ شكَّ هنا سيدُنا إبراهيمُ في قدرةِ الله تعالى على إحياءِ الموتى؟ إليكمْ عددًا من أجوبةِ أهلِ العلمِ عن الحديثِ والآيةِ، لتعلموا أنه عليه الصلاة والسلام ما شَكَّ، وإنَّما أرادَ أن يرتقيَ في إيمانِه ويزدادَ في يقينِه وسكينتِه، برؤيةِ ما علِمَه وآمنَ به، وأرادَ زيادةَ طُمأنينةِ القلبِ بانتقالِه من علمِ اليقينِ إلى عينِ اليقينِ، وهي الرُّؤيةُ. ومما قاله أهلُ العلمِ في الآيةِ والحديثِ:

١ -هذا نفيٌ ظاهرٌ لشكِّ إبراهيمَ عليه السلامُ؛ ووجهُ ذلكَ وبيانُه أنه عليه الصلاة والسلام سَألَ عن كيفيةِ الإحياءِ فقط كما في الآية. فيكونُ معنى قولِ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام في الحديث: «نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ» هو: أنَّنا لم نَشُكَّ ونحن أقلُّ من إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلام مكانةً وإيمانًا، فإنَّه خليلُ الله وعبدُه المقرَّبُ، فكيف يشكُّ هو. وهذا يكونُ على سبيلِ التَّواضعِ منه والتَّفنُّنِ في نفيِ الشَّكِّ عن إبراهيمَ أبي الأنبياءِ، أو يكونُ قبلَ أن يعلمَ أنه خيرٌ منه وأنه سيدُ ولدِ آدمَ.

ومما يُدلِّلُ على ذلك قولُه عليه السلام في الآية: «ولكن ليطمئن قلبي»، فهذا دليلٌ على انتفاءِ الشَّكِّ عنه، وأنَّ قلبَه ممتلئٌ باليقينِ بعظمةِ الرَّبِّ وقُدرتِه، فإنَّ اليقينَ أنواعٌ؛ منه ما يقعُ عن طريقِ السَّمعِ، ومنه ما يقعُ عن

طريقِ البصرِ، ومعلومٌ لديكم أن يقينَ البصرِ أقوى وأعلى، وإلى ذلك أشارَ ما أخرجه أحمد عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ؛ إِنَّ الله تَعَالَى أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْقَى الْأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ».

ونحن موقنون بالبعثِ والحسابِ والجنةِ والنارِ، لكنَّ هذا اليقينَ يكون أعلى وأعظمَ وأكبرَ، لَمَّا نراها غدا يومَ العرضِ الأكبرِ. وهكذا كلُّ واحدٍ منَّا؛ علمُه بالشيءِ ليس كرؤيته، ويقينُه وإيمانُه وتوكلُه يزدادُ كُلَّما رأى شيئًا جديدًا من عَظيم صُنعِ الله وقدرتِه في خلقِه.

٢- ومن أهلِ العلمِ من قال: قد يكونُ هذا من بابِ ما يَخطُرُ أحياناً على بعض الصُّدورِ من وساوسِ الشَّيطانِ، إلا أنَّ الله تعالى أكرمَ نبيَّه وَرَضِيَ منه بِأَنْ قَالَ بَلَى، كما في الآية. وهذا يدل على ولايةِ الله تعالى لإبراهيمَ عليه السلامُ، فقدْ أراهُ من آياتِه ما اطمأنَّ به قلبُه، وسَكنتْ وهدأتْ له نفسُه.

فالشكُّ هنا في الآيةِ والحديثِ بمعنى الخواطرِ، والقلبُ يزدادُ يقينًا وإيمانًا، وتُدفعُ الخواطرُ عنه بزيادةِ الأدلةِ وتنوُّعِها وتضافرِها.

وقد أشارَ إلى ذلك أثرٌ جاءَ عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، حتى إنَّه وصفَها بأنَّها أرجى آيةٍ في القرآن؛ لأنَّ الله تعالى قَبِلَ من نبيِّه ما طلبَه وإن كان فيه ما فيه، وهذا الأثرُ أخرجَه الحاكمُ في المستدركِ بسندٍ مُختلَف فيه، جاء فيه عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، قَالَ: الْتَقَى عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهم، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ الله أَرْجَى عِنْدَكَ؟» قَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرٍو: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر ٥٣]. فَقَالَ: «لَكِنَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ هَذَا لِمَا فِي الصُّدُورِ وَيُوَسْوِسُ الشَّيْطَانُ، فَرَضِيَ الله مِنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ بِقَوْلِهِ ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ﴾».

٣- ومن أهلِ العلم من أشارَ إلى أن سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ أرادَ أن يعرفَ منزلَته عند ربِّه ومقدارَ اصطفائِه، وكأنَّه أرادَ أن يختصَّ بشيءٍ من عندِ الله دونَ سائرِ الأنبياءِ.

﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾

يأمُره الله تعالى بأن يأخذَ أربعةً من الطيورِ مختلفةَ الأنواعِ، ثم قال الله له: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾، أَيْ: قرِّبهن منك وتأمَّلْ كيف يكونُ كلُّ جزءٍ منها في محلِّه. ثم أمَرَه أن يجعلَ على كُلِّ جبَلٍ مِنْهُنَّ قطعةً وجُزْءًا زيادةً في تفريقِ أجزائِهن، وهذا يلزمُ منه أن يذبَحهُنَّ ويقطِّعهُنَّ ويجزِّئهنّ أجزاءً. ثم أمرَه الله تعالى أَنْ يَدْعُوهُنَّ، فَدَعَاهُنَّ، فقام كلُّ طائرٍ كما كان، وجاءَتِ الطيرُ الأربعةُ كما كانت قَبْلَ الذبحِ والقطعِ.

﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سبحانه عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَمَا شَاءَ كَانَ بِلَا مُمَانِعٍ لِأَنَّهُ الْعَظِيمُ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ. وهو حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

تأمَّلوا هذا المثَلَ العظيمَ الذي ضربَه ربُّنا لأصحابِ اليقينِ من المُنْفقينَ، الذين يتصدَّقون ابتغاءَ مرضاتِ الله تعالى، لا رياءً ولا فخرًا ولا مِنَّةً ولا أذىً، الذين يبذُلون أموالَهم فيما افترضَ الله عليهم من زكاةٍ وكفاراتٍ ونذورٍ، ويبذُلونَها كذلك فيما ندبَ إليه الشرعُ من القرضِ والوقفِ والوصيةِ والهبة والصدقة المستحبَّة، وكفالةِ الأيتامِ وطلبةِ العلم، وبناءِ المساجد ودورِ القرآن.

ومن أهلِ العلمِ من قصَرَ النفقةَ المذكورةَ في الآيةِ هنا على الإنفاقِ في الجهادِ في سبيلِ الله من إعدادِ السلاح وبذلِ النفقة لأهلِ المجاهِدينَ وغيرِ ذلك، وكلا الفريقين له أدلتُه.

الآيةُ تُبيِّنُ أنَّ ربَّنا يضاعفُ للباذلينَ أموالَهم في سبيله ثوابَهم وأجورَهم، ويُباركُ لهم فيما رزقَهم وأعطاهُم، فإنَّه أكرمُ الأكرمين.

والمثَلُ الذي ضربَه سبحانه يدُلُّ على أن عملَهم الصالحُ هذا ينمّيه الله تعالى لهم، كما ينمو الزرعُ ويزدادُ بعدَ أنْ كان بذرةً مزروعة في أرضٍ نَقِيَّةٍ وتُرابٍ طَيِّبٍ، حتى أنبتَتْ هذه البذرةُ سبعَ سنابلَ، وأثمرتْ كلُّ سُنبلةٍ منها مائةُ حبَّةٍ، ما أرقاه من تحريضٍ وحثٍّ على الإنفاقِ في سبيلِ الله تعالى.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ (فيها خطام وهو زمامها الذي تقاد به)، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ». وأخرج الترمذي والنسائي وغيرهم، عَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللهِ كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ». وأخرج البخاريُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ (أي: المُهْرُ وهو صغير الخيل)، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ».

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ لا يقتصرُ الثوابُ على سبعمائة، بل إن المُضاعفَةَ درَجاتٌ كَثِيرَةٌ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وهو يعطيها لمن يشاءُ إذا قدّم سببًا من أسبابِ المضاعفةِ؛ كشدَّةِ إخلاصِه وصدقِه، والحرصِ على صدقةِ السِّرِّ، والتصدُّقِ حالَ حاجتِه للمالِ، أو حال شدة حاجة غيرِه له، أو تصدّقَ على من يُبغضُه ويُعاديه.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فضلُ الله واسعٌ وكثيرٌ، وهو عليمٌ بمن يستحقُّ.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾

زيادةُ بيانٍ لما كان مقبولًا من الصدقةِ عند الله، ولذلك أُعيدت العبارة: ﴿يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. الآيةُ تبينُ حال أولئك الذين ينالونَ الأجرَ العظيم، ولا خوفٌ عليهم مما يستقبلُهم من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوه وراءَهم من الأهل والذُّريةِ وزهرةِ الدُّنيا.

هؤلاء هم الذين كانت نفقتُهم خالصةً لوجهِ الله تعالى، تجرَّدُوا لله في إعطاءِ صدقتِهم، وقصدوا بها إعانةَ إخوانِهم من المسلمين، ونصرَ الدِّين والعونَ في التَّمكين له. لم يبذُلوا أموالَهم طلبًا للجاهِ ولا للسُّمعةِ ولا للثناءِ ولا للمَحمدةِ ولا التَّزلُّفِ والتقُّربِ للآخرين، ولا لأيِّ حظٍّ من حُظوظِ الدنيا.

ثم إنهم لما تصدَّقوا وقدموا وأنفقوا، لم يمُنُّوا على من أعطَوْه، ولم يُؤذوه بالقول أو الفعلِ مقابلَ صدقتِهم، ولم يُلحِقوا به مكروهًا. وهذا مما نجدُه من عددٍ ممَّنْ أنفقَ وتصدَّقَ؛ فإنه يُحدِّثُ بصدقتِه في غالبِ مجالسِه، وهو حريصٌ على اطِّلاعِ الناسِ عليها، ويَعُدُّ نِعمَه وفضلَه على من أنفقَ عليه على الدَّوامِ، بل ويتبجَّحُ ويتطاولُ على المُعطَى له فيُعيِّرُه بفقرِه تارةً، ويتكبَّرُ عليه تارةً أخرى، بل قد يشتُمُ ويضرِبُ. وكأنَّ هذا المنفقَ كرِه أن يُملِّكَ مالَه لغيرِه، ورأى نفسَه أنه خيرٌ من أهلِ الفقرِ. أخرج مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عَنِ

النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْمَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ».

وفي حديثٍ عند النسائيِّ وغيرِه عَن ابنِ عَمر رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثلاثةٌ لا ينظرُ اللهُ عز وجل إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالِدَيه، والمرأةُ المُترجِّلةُ، والدَّيُّوثُ. وثلاثةٌ لا يدخلون الجنة: العاقُّ لوالديه، والمدمنُ الخمرَ، والمنَّانُ بما أعطى».

وللتذكيرِ فقط: لو حدَّثَ بصدقتِه وأبداها، دون إيذاءٍ للغيرِ ودون طلبِ محمدةِ النَّاسِ له، فلا حرجَ في ذلك، لقولِ الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وسيأتي معنا بيانُ هذه الآية هنا في سورة البقرة.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

هذه الآيةُ فيها توجيهٌ نفيسٌ للمنفقين بأنْ لا يُبطِلوا ثوابَ صدقاتِهم بسوءِ خصالِهم، وتُعلِّمهم أنَّ الكلمةَ الطيبةَ التي عُرِفَت بين الناسِ مما لا أذيَّةَ فيها، وأنَّ الابتسامةَ والدعاءَ للمُحتاجِ، خيرٌ للمنفق من نفقتِه التي أساءَ فيها للمنفَقِ عليه، وآذاهُ بالقولِ والفعل وإن كان قليلًا.

ولا يُفهم من هذه الآيةِ التوقُّفُ عن الصدقةِ والإنفاقِ لمن خَشِيَ حصولَ الإيذاءِ منه، بل يُنفقُ ويُقدِّمُ، ويسدِّدُ ويقارب ويتقي الله ما استطاع في قولِه وفعلِه.

ولا يفوتُني قبل إنهاءِ تفسيرِ الآيةِ أن أُشيرَ إلى دَلالةِ لفظةِ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ التي جاءَتْ في السِّياقِ، والمغفرةُ المطلوبةُ هنا أن يتسامحَ ويتجاوزَ المُعطي عن الفقيرِ الذي آذاه وأساءَ له، أو كان مجافيًا له. وكأني بقولِ الله تعالى لأبي بكرٍ رَضِيَ الله عَنهُ، لمَّا أوقفَ النفقةَ على قريبه مِسْطَح بْن أُثَاثَةَ لخوضِه في عِرضِ ابنتِه عائشة الطَّاهرةِ رضي الله عنها مما عُرِفَ بحادثةِ الإفك، فَقدْ قَالَ الله تَعالَى في ذَلِكَ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور٢٢]، فَرجعَ رَضِيَ الله عَنهُ لنفقتِه على مَنْ آذاه في ابنتِه، راجيًا مغفرةَ الله وفضلِه.

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ الله غنيٌّ عَنْ خَلْقِه، وهو حليمٌ لا يُعاجلُ بالعقوبةِ، بل يَغْفِرُ وَيَصْفَحُ وَيَتجاوَزُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾

هذا نصٌّ ظاهرٌ في بطلانِ صدقةٍ من أتبعَها بالمنِّ والأذى، وعدمِ قبولِها عند الله تعالى، فخطيئةُ المنِّ والأذى أحبطَت ثوابَ الصدقةِ، كحالِ من تصدَّقَ رئاءَ الناسِ، أي: ليراهُ النَّاسُ ويُثنوا عليه بالصفاتِ الجميلةِ ويمدحُوه ويشكُروه، وهذا في حقيقتِه لا يؤمنُ بالله واليومِ الآخر، ولذلك قصدَ غيرَ وجهِ الله في عملِه ونفقتِه.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ثُمَّ ضَرَبَ تعالَى مَثَلَ ذَلِكَ الْمُرائِي بِإِنْفَاقِهِ، ومثَل من أبطَلَ صدقتَه بالمنِّ والأذى.

مثلُهم ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ وَهُوَ الصَّفَا، وَهُوَ الصَّخْرُ الْأَمْلَسُ، ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗا﴾ أَيْ: فأصبحَ هذا الحجرُ الأملسُ الذي عليه ترابٌ يابساً من المطرِ الذي أصابَه، فلا هو صالحٌ للزِّراعةِ ولا انتفعنا بالماءِ ولا بالتُّرابِ. وكذلك لا يبقى للمنَّانِ وللمُرائي ثوابٌ عند الله، فلا هو انتفعَ بمالِه لنفسِه، ولا انتفعَ بإعطائِه غيرَه.

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ لا ينتفعون بشيءٍ من صدقاتِهم، وهي باطلةٌ مَرْدودةٌ في وجُوهِهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ احذروا أيُّها المؤمنونَ الصادقون أنْ يتسربَ إلى أعمالِكم شيءٌ مِن أحوالِ أهلِ الكفرِ وأعمالِهم، فهؤلاء: لا يُوفِّقُهم ربُّنا إلى الهدايةِ بما كسبَتْ قلوبُهم وأيديهم.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

ضربَ الله تعالى مثلاً في الآيةِ السابقة للذين ينفقون أموالَهم تقرُّبًا للناسِ وطلبًا للجاهِ ورياءً، وكذلك للذين يتصدَّقون ثم يُؤذون من تصدَّقوا عليه بالقولِ والفعلِ، ويَمُنّون ويُعدِّدون نعمَهم عليه.

أما في هذه الآيةِ، فيضرِبُ الله مثلًا لأولئك المخلصينَ لله، الصادقينَ معه في بذلِهم وعطائِهم، الذين لا يُريدون من عطيَّتِهم إلا أنْ يرضى الله عنهم ويتقبَّلها منهم. هؤلاء: امتلأَتْ قلوبُهم إيمانًا ويقينًا بأنَّ الله تعالى سيجزيهم أوفرَ الجزاءِ وأحسَنه على ما قدَّموا، بلا تَشكُّكٍ ولا تَردُّدٍ، ولذلك جاء في الآية: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فهم يؤمنون في أنفسِهم أنَّ الله شرعَ ذلك، ويحتسبون بصدقتِهم الثوابَ عند الله تعالى وحدَه.

ومثلُ هؤلاء كما قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ أيْ: كَمَثَلِ بُسْتانٍ بمَكَان مرتفعٍ من الأرضِ، كالتَّلةِ الصغيرة. ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ نزلَ عليها مطرٌ شديدٌ. ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ فأثمرَتْ ثمارًا كثيرةً مقارنةً بما حولَها مِنَ الجِنَانِ والبساتين.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ هذا البستانُ دائمُ الخيرِ، لا ينقطعُ ثمُره ولا تتوقفُ بركتُه، لأنَّه إن لم يُصبْه مطرٌ شديدٌ، فطلّ يكفيه ويُبقي حياتَه. والطَّلُّ: هو المطرُ الخفيفُ اللَّيِّنُ، والذي يُسمى رذاذًا. فهذا البستانُ الطيِّبُ زكا وزادَ وكَثُرَ ثمرُه وخيرُه لَمّا أصابَه ماءُ المطر، وخيرُه هذا قد يَقِلُّ بنزولِ رذاذِ المطر، لكنه لا ينقطعُ ولا يتوقفُ.

وَكَذَلِكَ عَمَلُ المُنفقِ المُخلصِ الذي لا يُبطِلُ نفقتَه بالمنِّ والأذى: عملُه مقبولٌ عند الله، يُكثِّره له وَيُنَمِّيه، ولا يضيعُ منه شيءٌ، وإن قلَّ، وقد يزيد وينقص الثواب بحسْب صِدق المُعطي ومقدارِ ما ينفق.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ والله سبحانه لَا يَخْفى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمالِ عِبادِهِ شَيْءٌ، وسيجزيهم عليها؛ كُلُّ عَامِلٍ بِحَسْبِهِ.

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾

آيةٌ فيها مثل عجيب لِصنفٍ من الناس لا يكادُ ينقطعُ من أمثالِهم زمانٌ أو مكان، صنفٌ أقبلَ على فعلِ الطاعات، وبَذْلِ المعروفِ والخيراتِ، لكنَّه لم يَثْبُتْ على ذلك لما كبُر، بل فرّطَ في طاعةِ الله، وافتُتن في دينِه، وانتكسَ وسارعَ في المعاصي أو في كبائرِ الذنوبِ أو في الكفرِ، وبقيَ مُقيمًا على ذلك حتى مات، فأذهبَ سوءُ فعلِه ما كان قدَّمه من خيرٍ، وأبطلَ بعملِه الثاني ما كان فعَله من الأعمالِ الصالحات، وكان كلُّ شيءٍ عليه حسرةً بعد موتِه، لسوءِ خاتمتِه التي اختارها. أخرج البخاري عن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ سَأَلَ الصَّحابَةَ عَنْ تَفْسِيرِ هذه الآية، فلم يُجيبوهُ إلا ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَعَنْ أبيه، فقال عمرُ: «إنها ضربت مثلا لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمالَهُ».

وهذا كحالِ من كان عنده بستانٌ فيه خيراتٌ كثيرة، من النَّخيلِ والعنبِ ووفرةِ الماء، ويأكلُ منها ما لذَّ وطابَ، وفي الوقت الذي كان فيه أحوجَ ما يكون إلى جنتِه وبستانِه، حيثُ كَبِرَتْ سِنُّه، وكَثُرَتْ عيالُه، وضَعُفَ عن العملِ، احترَقَتْ جنَّتُه، فلم يعُدْ قادرًا على إحيائِها، ولا هو قادرٌ على الإنفاقِ على عيالِه. تأملوا:

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ يعني عنده بستانٌ من أطايبِ الثِّمارِ وأحسنِها.

﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أصبحَ كبيرًا في السِّنِّ عاجزًا عن العمل، وعندَه عيالٌ ضعفاءُ محتاجون للنَّفقةِ.

﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ فأصابَ بُستانَه ريحٌ شديدةٌ حارّةٌ جدًا، أحرقَتْ ثمارَ بستانِه وأهلكَتِ الأشجارَ. وهنا: لا قوةَ له ليعملَ، ولا أولادُه ونسلُه قادرون على فعل شيءٍ فإنَّهم صغارٌ أو ضعفاءُ لا خيرَ فيهم. تأمَّلوا هنا كيف يكونُ حالُه.

وكذلك يكونُ حالُ من استبدلَ الكفرَ بالإيمانِ، والمعاصي بالطاعاتِ، لمّا يُقبلُ على الله تعالى، فلا هو منتفعٌ بأعمالِ الخيرِ التي قدَّمها، ولا هو قادرٌ على أن يرجعَ إلى الدنيا فيتزودَ من أعمال البرِّ والتقوى، ولا يحملُ عنه وزرَه وإثمَه أحد؛ حتى حُرِمَ جنة الله ورضوانَه.

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ضربَ الله لنا في هذا القرآنِ العظيم من مِثلِ هذه الأمثالِ، لعلنا نتفكَّرُ في معانيها، وما تريدُه منا، فنستقيمَ ونعاهدَ الله على الثباتِ حتى المماتِ، فإنه لا ينفعُ العبدَ إلا ذلك. قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العَنكَبُوت ٤٣].

ولكم أن تتأمَّلوا تعدُّدَ ضربِ الأمثالِ وتتابُعِها، للمنفقين في سبيلِ الله، ولِمَنْ أفسدوا إنفاقَهم بسُوءِ خصالِهم، ولكمْ أن تَقيسوا على ذلك كلَّ عملٍ يَتقرَّبُ فيه العبدُ لربِّه، فإنَّ كثيرًا من الأعمالِ يَبْطل ثوابُها بسوءِ أخلاقِ أصحابِها، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم. ولذلك: نادى الله تعالى أهلَ الإيمانِ بقولِه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ [محمد ٣٣].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾

في هذا السِّياقُ القرآنيُّ الذي استطرَدَ في بيانِ حالِ المنفقينَ وفضلِ الإنفاقِ في سبيلِ الله، يأتي نداءٌ من الله تعالى لا يعقلُه إلا أهلُ الإيمانِ، نداءٌ فيه توجيهٌ نفيسٌ لكلِّ من قدّم مرادَ الله تعالى على حُظوظِ نفسِه وهواها، نداءٌ يُبيِّنُ أدبًا من آدابِ الإنفاقِ لا يسعُ أهلَ التقوى إلا تحصيلُه.

يأمرُ الله تعالى عبادَه المؤمنينَ بأن ينفقوا من طَيِّبِ أموالِهم التي اكتسبُوها بما شرعَه الله لهم من طرائِق التجارةِ وغيرِها، وأن يُؤدوا حقَّ الثِّمارِ والزُّروعِ مما رزقَهم الله وأنعمَ عليهم به. وكذلك: أنفقوا أيها المؤمنون من أطيبِ مالِكم وأحسنِه وأجودِه وأفضلِه، واعلموا أنَّ الإنفاقَ من أطيبِ المالِ وأحسنِه، من علاماتِ حُبِّ العبدِ لربِّه وصدقِه في ذلك. قال الله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران ٩٢].

﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ ولا تقصِدوا وتتعمَّدوا إخراجَ المالِ الخبيثِ في صدقاتِكم، مما جنيتُموه وأخذتُموه من طريقِ الحرامِ من الغِشِّ والظُّلم والرِّبا ونحوِ ذلك، فإنَّ الله تعالى طيِّبٌ لا يقبلُ إلا

طيِّبًا. أخرجَ البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ الله إِلَّا الطَّيِّبَ ، وَإِنَّ الله يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِها، كَما يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ (أي: المُهْرُ وهو صغير الخيل)، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ».

وكذلك تَنْهى الآيـةُ الكريمة عن التصدُّقِ بـأرذلِ المـالِ وأخسّه وأدنـاه عند صاحبِه، ممَّا يكرهُه ولا قيمةَ له عنده، ومما لا ينتفعُ به غـيرُهُ كثيرًا، ولا يكاد يُلتفتُ إليه، ولذلك قال الله: ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ يعني: لو أنَّ أحدَهم تصدَّقَ عليكم بهذا المالِ، وكنتم محتاجين له، لما أخذتمُوه إلا أن تُغمضوا أعينُكم عنه لما فيه من النقيصةِ في حقِّكُم، ولقِلَّةِ نفعِه لكم، فيلزمُكم أن تكرهوا بذلَه وإعطاءَه كما تكرهون أخذَه وقَبولَه.

والمطلوبُ: لَا تَجْعَلُوا لله عز وجل مَا تَكْرَهُونَ من نفقاتِكم، وتُبقون عندكم أحبَّ أموالِكم إليكم، فإنّ حقيقةَ من يفعلُ ذلك أنَّه يتصدق لله بما لا يرضاه لنفسِه.

أخرجَ الترمذيُّ واللفظُ له وابن ماجه، عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ الله عَنهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ، قَالَ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ قَالَ: «نَزَلَتْ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، كُنَّا أَصْحَابَ نَخْلٍ فَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي مِنْ نَخْلِهِ عَلَى قَدْرِ كَثْرَتِهِ وَقِلَّتِهِ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي بِالقِنْوِ وَالقِنْوَيْنِ فَيُعَلِّقُهُ فِي الْمَسْجِدِ (القنو: هو الْعِذْقُ من النخلة بما فِيهِ مِنْ الرُّطَبِ)، وَكَانَ أَهْلُ الصُّفَّةِ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا جَاعَ أَتَى القِنْوَ فَضَرَبَهُ بِعَصَاهُ فَيَسْقُطُ مِنَ البُسْرِ وَالتَّمْرِ فَيَأْكُلُ، وَكَانَ نَاسٌ مِمَّنْ لاَ يَرْغَبُ فِي الخَيْرِ يَأْتِي الرَّجُلُ بِالقِنْوِ فِيهِ الشِّيصُ وَالحَشَفُ وَبِالقِنْوِ قَدْ انْكَسَرَ فَيُعَلِّقُهُ (الشيص: التَّمْرُ الَّذِي لَا يَشْتَدُّ نَوَاهُ وَيَقْوَى، والحشف هو أَرْدَأُ التَّمْرِ، أَوْ الْيَابِسُ الْفَاسِد)، فَأَنْزَلَ الله تَبَارَكَ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ قَالُوا: لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أُهْدِيَ إِلَيْهِ مِثْلُ مَا أَعْطَى، لَمْ يَأْخُذْهُ إِلاَّ عَلَى إِغْمَاضٍ أَوْ حَيَاءٍ. قَالَ: فَكُنَّا بَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي أَحَدُنَا بِصَالِحِ مَا عِنْدَهُ».

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ واعلموا حالَ أدائِكم لما أوجبَ الله عليكم من صدقاتٍ، ولما بذلتُموه من طيبِ أنفسِكم، أنَّ الله غنيٌّ وَاسِعُ الْعَطَاءِ. غنيٌّ عن صدقاتِكم التي قدمتُموها من حرامٍ واخترتُم أحقرَها

عندكم، وهو سبحانَه واسعُ العطاءِ، وما أمرَكم بالطَّيِّبِ من صدقاتِكم وبالصدقِ في بذلِها إلا لينفعَكم، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحَجّ ٣٧].

وهو سبحانه حميدٌ؛ أي: مَحْمُود فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، ويشكرُ لكم ما قدَّمتُموه ابتغاءَ مرضاتِه، ويجزيكم عليه خيرَ الجزاءِ، ويعطيكم أوفرَ النصيبِ وأكثرَه، ويضاعفُ لكم المثوبةَ والأجرَ أضعافًا كثيرةً.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

مما يُديمُ الشيطانُ قذْفَه في قلوبِ النَّاسِ، خوفُ الفقرِ لِيصُدَّهم عن بذلِ أموالِهم. وهذا سلاحٌ لا يَسلمُ منه إلَّا أهلُ اليقينِ والتَّوكلِ. الشيطانُ يقذِفُ في قُلوبِ أهلِ النفقةِ الخوفَ من الفقرِ إنْ هم أنفقوا في مرضاةِ الله، ويزيدُ تعلُّقَهم في الدنيا حتى يحرِصوا أشدَّ الحِرصِ على كلِّ ما فيها، وَيُغْرِيهِمْ بالبُخل، أو الاقتصارِ على التصدُّقِ بالرَّدِيءِ وَالْخَبِيثِ من أموالِهم.

﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ هو لا يكتفي بالنهي عن النفقةِ والتخويفِ بالفقرِ، بل يفتحُ للعبدِ آفاقَ الشُّرورِ والمآثمِ والمعاصي، ويأمُركم ويدُلُّكم على كلِّ قبيحٍ.

أخرج الترمذي والنسائي وغيرُهما بسندٍ مُتكلَّم فيه عندَ أهلِ الصَّنعةِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً (واللمّةُ هي ما يوقِعُه في قلبِ صاحبِه من حث على الخير، أو وسوسةٍ بالشرِّ)؛ فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ الله فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾.

والآية هنا وإن جاءَتْ في مَعرِضِ الحديثِ عن النفقاتِ والصدقاتِ، لكنَّ عُمومَها يُفيدُ أنَّ الشيطانَ لا يَنفكُّ عن التَّخويفِ بالفقرِ في كُلِّ عملٍ فيه صلاحٌ، ثم يوسوس لباغي الخيرِ بأن الحرامَ قريبٌ سهلٌ ولا نفقةَ فيه. فمثلًا: لو هَمَّ واحدُنا وسعى في أمرِ الزواجِ والنكاحِ باغيًا العفافَ، ضيَّقَ عليه الطريقَ وخوَّفَه، ثم فتحَ له أبوابَ الزنا واتخاذَ الخليلاتِ والعشيقاتِ، وهو أمرٌ لا يُكلِّفُ صاحبَه إلا القليلَ، وقيسوا على ذلك.

وهنا يأتينا خبرٌ من عندِ الله، يفرحُ به أهلُ القلوبِ الواثقةِ باللهِ تعالى. قال الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ يعني: لا تخافوا على رزقِكم وعلى أموالِكم، ففضلُ الله واسعٌ، وعطاؤه لا ينقطعُ، وقد تكفَّلَ سبحانَه بأن لا يَنقُصَ مالٌ من صدقةٍ، بل جعلَ نفقاتِكم هذه سببًا للمغفرةِ والرَّحمةِ، فأَقْبِلوا وتصدَّقوا واثبُتوا على نفقاتِكم في الطَّاعةِ، ولا تغُرَّنَّكم سهولةُ الحرامِ وقربُه منكم وثمنُه البَخْسُ.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ سبحانه: واسعُ العطاءِ، وخزائنُ السماواتِ والأرض عندَه، وهو عليمٌ بما يُصلِحُ خلقَه، فيُقدِّرُ لهم من الرِّزقِ ما يعينُهم، ويحفظُ عليهم دينَهم وقلوبَهم.

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾

الحكمة: هي ذاكَ النورُ الذي يَختَصُّ الله به من اصطفاهُم من عبادِه، ويقذِفُه في قلوبِهم، فيَميزوا به بينَ الحقِّ والباطلِ، والخيرِ والشَّرِّ، وهي علامةٌ على سلامة العقلِ واعتدالِه، وقدرتِه على فهمِ حقائقِ الأشياءِ على ما هي عليه.

والحكمة تَمْنَعُ صَاحِبَهَا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْغَلَطِ وَالضَّلَالِ، وهي وِفقاً للشَّرعِ لا تكون إلا لمن أُوتيَ عِلمًا وفهمًا، وعقَلَ الكتابَ والسُّنةَ، ومِن ذلك ما أرشدَتْنا إليه الآياتُ الكريمةُ هنا، لتكونَ الاستجابةُ لها عن رضا علامةً على حِكمةِ العبدِ وسدادِ أمرِه؛ فإنه لا يُقدِّمُ وعدَ الرحمنِ على وعدِ الشيطانِ إلا أولو الحكمةِ والعلمِ، فمن وجدَ من ذلك شيئا فليحمدِ اللهَ على نعمتِه وليستقمْ ولْيلزمْ. أخرج البخاري ومسلم عن ابن مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنهُ قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالًا فسلَّطه عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتاهُ الله حكمةً، فهو يقضي بها ويُعلِّمُها».

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لا ينتفعُ بهذه الموعظةِ والتَّذكرةِ ومثلِ هذا الخطابِ، إلا أولوا النُّهى الذي أعملوا عقولَهم فيما ينفعُهم في دنياهم وأُخراهم.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠﴾

ذكرَتِ الآيةُ الكريمةُ إحاطةَ الله تعالى وعلمَه بجميعِ ما يَتقرَّبُ به الصَّالحونَ إليه من النَّفقاتِ الواجبةِ والمندوبةِ، وكذلك من النُّذورِ.

والنُّذورُ المقصودةُ هي ما يُلزِمُ أصحابُها أنفسَهم بالتقرُّبِ إلى الله تعالى في التَّصدُّقِ من أموالِهم، بقولِه: لله عليّ نذرٌ أن أتصدَّقَ بكذا.

ولا يقتصرُ علمُ الله تعالى على نذرِ الطَّاعةِ، بل إنَّ عِلمَ الله تعالى محيطٌ بمن أنفقَ مالَه في المعاصي، وجعلَ نذرَه في غيرِ مرضاةِ الله.

ولازمُ ذلك أنه سبحانَه مُطَّلِعٌ على أحوالِهم ونيَّاتِهم، وسيجزيهم عليها أوفرَ الجزاءِ وأحسنَه ما صدقوا الله في بذلِهم وعطائِهم، بخلافِ ما لو جعلوها فيما حرَّم الله.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ والظالمونَ الذين بَخِلوا بأموالِهم ولم يُؤدُّوا حقَّها، والذين ظلموا أنفسَهم بضَعفِ يقينِهم ومخالفةِ أمرِ الله لهم، والذين صرفوا أموالَهم في الصدِّ عن دينِ الله ومُعاداةِ أوليائِه، والذين جعلوا نذورَهم وتقرُّبَهم لغيرِ الله؛ هؤلاء: لا يُغنيهم من عذابِ الله وعقوبتِه شيءٌ، ولا يُثيبُهم ولا يَجْزيهم على ما قدَّموا أحدٌ.

﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾

فنعمّا هي، يعني: فنِعمَ إبداؤُها وإظهارُها أمامَ النَّاسِ، والله راضٍ عن صاحبِها، ويقبلُها.

هذه الآية تدلُّ على جوازِ إظهارِ أمرِ الصَّدقةِ، إن أَمِنَ المُنفِقُ على نفسِه من الرِّياءِ، ولم يكنْ في إظهارِها إيذاءٌ للغيرِ.

وقد يُظهِرُها صاحبُها إن غلبَ على ظنِّه انتفاعُ الآخرينَ بذلك، بحيثُ يدفعُهم ذلك إلى البذلِ والعطاءِ كما فعلَ هو، وفي ذلك جاءَ الحديثُ الذي أخرجَه مسلمٌ في قصة دعوةِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصدقة على قَوم فقراءَ جاؤوه، إذ جاءَ في الحديثِ: «فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ» الحديث.

وقد ثبتَ إبداءُ الصَّدقةِ وإظهارُها في عددٍ من الأحاديثِ والآثارِ عن الصحابةِ والصالحينَ، كما الحالُ في إسْرارِها.

﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ شرعَتِ الآياتُ جوازَ إظهارِ أمرِ الصدقة، وجعلَتْ الإسرارَ بالصَّدقةِ وإخفاءَها خيرًا لصاحبِها وأفضلَ وأنفعَ، وأبعدَ عن شُرورِ الرِّياءِ وحُبِّ الظُّهورِ والعُجْبِ.

أخرجَ أحمدُ وغيرُ واحدٍ من أصحابِ السُّننِ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ». يعني: الذي يُسِرُّ بقراءةِ القرآن، أفضلُ من الذي يجهرُ بها، وكذلك الصدقةُ.

ومِمَّا يَدُلُّ كذلك على فضلِ الإسرارِ بالصدقةِ وتقديمِ ذلك على إظهارِها، ما ثبتَ في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ الله عَنهُ قال: قال رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ» الحديث.

وتخصيصُ الفقراءِ بالذِّكرِ في قولِه: «وتؤتوها الفقراء» علامةٌ على أن الفقيرَ المتصدَّقَ عليه يفرحُ بإخفائِها، فإنَّ في ذلك حفظًا لماءِ وجهِه من نظراتِ الآخرين وكلامِهم.

وللفقهاء كلامٌ في أيها أولى: أن يُظهرَ الصدقةَ أو يخفيَها؛ فغالبُ كلامِ الفقهاءِ يدورُ على أنَّ الأفضلَ في صدقةِ الفرضِ إظهارُها، لتشجيعِ الناسِ ولئلا يُظن بصاحبِها سوءٌ، كما هو حالُ الصلاةِ والصيام، أما صدقةُ التَّطوعِ والنافلة فالأفضلُ الإسرارُ بها.

وهنا أمرٌ لا بد من التذكيرِ به، وهو أنه من امتنعَ عن أداءِ الصدقةِ خَشيةَ الرِّياء، فلْيعلمْ أن ذلكَ من لعبِ الشيطانِ به، فلا يلتفتْ لذلك، ولْيبذُلْ مالَه ولْيجاهدْ نفسَه في طلبِ مرضاة الربِّ عنه، ولا يتركْ صدقتَه، وَتذَكَّرُوا أنَّ الله يَرضَى عَنْ صَدَقَةِ السرِّ وَصَدَقَةِ العَلَنِ، فَابْذُلوا يَرْحمْكُم رَبي.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ﴾ بذلُ الصدقاتِ ابتغاءَ مرضاةِ الله سببٌ من أسبابِ غفران الذنوبِ وسَترِها. تأمَّلوا ما أخرجَهُ الطبراني في الأوسط، والبيهقي في شُعبِ الإيمان وغيرُهما، مما صحَّحه أهلُ العلم بمجموعِ طُرقِه، عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ».

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ لا يخفى على الله شيءٌ من عطائِكم وبذْلِكم، وسيجزيكم عليه أوفر الجزاءِ وأطيبَه وأحسنَه.

﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢ ﴾

أخرج النسائيُّ والحاكم وغيرُهما واللَّفظُ للحاكم، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَرْضَخُوا لِأَنْسَابِهِمْ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يعني: يكرهون إعطاءَهم من الصدقات)، فَنَزَلَتْ ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ قَالَ: فَرَخَّصَ لَهُمْ». يعني: كانوا يكرهون إعطاءَهم من الصدقاتِ لأنَّهم أهلُ كُفرٍ، فأذنَ الشرعُ بذلك لعل قلوبَهم تلينُ، وأخبرَهم كما في الآيةِ هنا، أنَّ قلوبَهم بيدِ خالقِهم، يقذِفُ فيها الهدايةَ، ويشرحُ صدرَ صاحِبها إن شاءَ.

على أنَّ من أهلِ العلمِ من منعَ إعطاءَ غيرِ المسلمِ من الصدقاتِ الواجبةِ كالزكاةِ، وأجازَ إعطاءَه من الصدقاتِ الاختياريةِ.

الآيةُ تُخاطب نبيَّنا عليه الصلاةُ والسلامُ، وهو خطاب لأمتِه: يا محمدُ: ليس عليك أن تهديَهم بأكثرَ من الدعوةِ والإرشادِ، فإنَّ الشرعَ لا يُكرِهُهُم على الدُّخولِ في الإسلامِ، بل يسعى لتأليفِ قلوبِهم ما استطاعَ إلى ذلك سبيلًا، وتتبَّعوا الشرعَ فيما أعطاكُموه من أسبابٍ، وابذُلوها لعلَّ الله يكتُبُ بها خيرًا.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡ﴾ أنتم من ينتفعُ بالصدقةِ، والله غنيٌّ عنها، فتصدقوا وقدِّموا لتنالوا خيرًا. قال الله تعالى: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» [فُصِّلَتْ ٤٦]. وهذا التوجيهُ فيه نفعٌ لنا لا يخفى؛ فإنه من عَلِم أنَّ الصدقةَ له، حَرِصَ على اختيارِ أخيرِها وأفضلِها وأحبِّها إلى الله.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ لا ينتفعُ العبدُ بنفقتِه إلا إذا كانت خالصةً، سواءً تصدَّقَ على مسلمٍ أو كافرٍ أو مؤمنٍ أو فاسقٍ، حتى وإن وقعَتْ في يدِ غيرِ من يستحقُّها، فقد وقعَ أجرُه على الله إذا كانت خالصةً له. أخرج البخاريُّ ومسلم واللفظُ له عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، قَالَ: اللهمَّ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، قَالَ: اللهمَّ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى غَنِيٍّ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ، فَقَالَ: اللهمَّ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ،

وَعَلَى غَنِيٍّ، وَعَلَى سَارِقٍ، فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ، أَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا تَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ زِنَاهَا، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ يَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ».

وإخلاصُ المُعطي في نفقاتِه يحتاجُه قبل قبضِ المُعطَى لها، وحين إعطائِها، وكذا بعد عطِيَّتِه، فإنْ نجا من أمراضِ النفس في ذلك، كان له أن يوفيَه الله ثوابَ ذلك كما وعدَ في تمام الآية. قال الله:

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ وقعَ الأجرُ على الله، وسيُكرِمُ أهلَ البذلِ من عطاياه وثوابِه على ما قدَّموا، ولن يَنقُصَ من ثوابِهم شيءٌ.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

هذه الآيةُ جاءَتْ في ذِكرِ أحوالِ أصحابِ النبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين هَاجَرُوا مِنْ مَكةَ إلى المدينةِ، وَتَرَكُوا وَرَاءَهم أموالَهم وتجارتِهم، وهاجروا إلى الله ورسولِه، يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا، وينصرون دينَه.

وصحيحٌ أنَّ الآيةَ في الصحابةِ المهاجرينَ، لكنَّ عُمومَ لفظِها يشمَلُ كُلَّ من خرَجَ في سبيلِ الله تعالى من المجاهدين، ثم أُصيب أو ضُيِّق عليه بسببِ جهادِه وإعلاءِ كلمةِ دينِه، وحصلَ معه ما عوَّقَه عن العملِ والإنفاقِ على نفسِه وأهلِه.

أمثالُ هؤلاءِ: التفِتوا إليهم، وقيسوا على ذلك كلَّ من أُحصر في سَبيلِ الله تَعالى من الدُّعاةِ وطلبةِ العلم. وهذا فيه حثٌّ على إيصالِ الصدقات لُمستحِقِّيها، والتَّحرِّي لإيقاعِها في محلِّها.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هَؤلاءِ أَول ما سَكَنُوا المَدِينَةَ، لَمْ تَكُنْ لَهُم تِجارةٌ فيها، ولا يملكون أرضًا يزرعونَها، أو بيتًا يَخُصُّهم، هم أُحصروا في سبيل الله، أي: حُبسوا ومُنعوا وضُيق عليهم من أجل دينِهم وإسلامِهم.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يستطيعون سفرًا لطلبِ الرزقِ، وغيرُ قادرين على التِّجارةِ.

﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ الجاهل بحالِهم يظنُّهم أغنياءَ وعندَهم ما يكفيهم من النَّفقةِ، من شِدة تعفُّفِهم في مقالِهم وكلامِهم وظاهرِ حالِهم، فمن نظرَ إليهم وسمعَ كلامَهم لا يُخيَّلُ إليه أنهم محتاجون، لما يحملونَه من عِزَّةِ نفسٍ، ولأنهم لا يَسألون النَّاسَ إلا على استحياءٍ وفيما اضطُّروا إليه. أخرج البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ المِسْكِينُ الَّذِي لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ، فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ». فهذا الحديث يذكرُ حالَ أحقِّ أصنافِ المساكينِ بالصدقةِ، وهم مستورو الحالِ.

﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾ ترى هؤلاءِ مع حرصِهم على عدمِ إظهارِ فاقتِهم وحاجتِهم، إلا أن لهم سِيما وعلاماتٍ يعرفُها أهلُ الحِرصِ على إيقاعِ صدقاتِهم في محلِّها، ويعرفُها من تصدَّى لمعرفةِ أحوالِ أهلِ الفقرِ والحاجةِ، من لونِ وجوهِهم وثيابِهم التي يلبَسونَها، ومن مراقبةِ نفقةِ أطفالِهم، وغيرِ ذلك من علاماتٍ.

هم لا يسألونَ الناسَ إلحافًا، يعني: لا يُلِحُّون في طلبِ المالِ من النَّاسِ، ولا يُكثرونِ من سؤالِهم حتى يعطوهم، ولا يطلبون فوق حاجتِهمُ الأصليةِ. جاءَ في حديث أبي هريرة المذكورِ آنفًا روايةٌ عند البخاري ومسلم، جاء فيها قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلاَ اللُّقْمَةُ وَلاَ اللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا المِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ» يَعْنِي قَوْلَهُ: ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾».

والأصلُ أنَّ الإسلامَ أرشدَنا إلى العملِ والإنفاقِ على النفسِ والأهلِ، ومنعَ سؤالَ الناس دونَ حاجةٍ، وأجازَها عند الحاجةِ فقط وبقدْرِها، كما دلَّ على ذلك ما أخرجَه الإمام مسلم عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً (أي: تداينت أو كفلت مدينًا للإصلاح بين الناس)، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ (أي: آفةٌ أصابتْ ثمارَه ومالَه فأهلكتْه)، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ (أي: حاجةٌ شديدةٌ عرفها قومُه عنه) حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ؛ فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا».

وجاءَ كذلك في حقِّ من يسألُ الناسَ ليكثُرَ مالُه دونَ حاجةٍ، حديثُ أخرجه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا؛ فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ».

أخرج أحمد والترمذي وغيرهما عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ، جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُدُوشًا أَوْ خُمُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ» قِيلَ: يا رسول الله، وَمَا يُغْنِيهِ؟ قَالَ : «خَمْسُونَ دِرْهَمًا، أَو قِيمَتُهَا مِنْ الذَّهَبِ».

وأخرجَ أحمدُ والنَّسائي وغيرُهما، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: سَرَّحَتْنِي أُمِّي إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَيْتُهُ فَقَعَدْتُ فَاسْتَقْبَلَنِي وَقَالَ: «مَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللهُ، وَمَنِ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللهُ، وَمَنِ اسْتَكَفَّ كَفَاهُ اللهُ، وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةُ وَقِيَّةٍ فَقَدْ أَلْحَفَ». فَقُلْتُ: نَاقَتِي الْيَاقُوتَةُ خَيْرٌ مِنْ وُقِيَّةٍ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَسْأَلْهُ».

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ تأكيدٌ على الفضلِ الذي ينتظرُ أصحابَ النفقةِ، ممَّن صرفَ مالَه في وجوهِ الخيرِ والصلاحِ، ربُّنا يعلم ذلك منه سبحانه.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٧٤﴾

هذه الآيةُ هي ختامُ السِّياقِ القرآنيِّ في الحديثِ عن النفقةِ، ومن تأمَّلَها وجدَ فيها خُلاصةً لعملِ المنفقِ وثوابِه، بل وجدَ فيها إشارةً إلى أهميةِ الإكثارِ من النفقةِ والتَّوسُّعِ فيها، وبَذْلِها للقريبِ والبعيدِ: للأبوين وللزوجةِ وللأولادِ وللأرحامِ، ولليتامى والأراملِ، وللفقراءِ والمساكينَ.

فإنَّ من أنفقَ أموالَه في جميعِ الأحوالِ والأوقاتِ، كانت له المثوبةُ عند الله تعالى، وأمّنَه حالَ نزعِ الرُّوحِ منه ممَّا هو آتٍ بعد ذلك من أهوالٍ، وقذفَ في قلبِه الطُّمأنينةَ والسكينةَ فلا يحزنُ على مالٍ أو أهلٍ ممَّا خلَّفَ وراءَه، أهلُ النفقةِ لهم الأمنُ وهم مهتدون.

المُكثرون من النفقةِ: لا تَحِلُّ عليهم مصائبُ الدنيا إلا ما لا يسلمُ أحدٌ منه، ثم هم في طيبٍ من العيشِ وراحةٍ وطُمأنينةٍ، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون في الدنيا والبرزخِ والآخرةِ.

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾

بعد سياقٍ قرآنيٍّ ممتدٍّ في بيانِ حالِ أهلِ البرِّ والإنفاق، وما يلزمُهم من آدابٍ شرعيةٍ تجعلُ نفقاتِهم وصدقاتِهم سببًا لرفعتِهم عندَ الله في الدنيا والآخرة، وسببًا لقَبولِها ووُقوعِها على الوجهِ الذي أرادَه الله، أقولُ: بعد ذلك، جاءَ ذِكرُ حالِ من يأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطلِ، ويتعاملون مع الناسِ بطرائقَ لا تأتي إلا بالضغينةِ والشَّحناءِ بينهم، ويستغلُّون حاجاتِهم ليكثُر مالُهم ويزدادون غنىً دون أدنى نظرةِ رحمةٍ لغيرِهم. هؤلاء هم أهلُ الرِّبا، يأخذون الرِّبا وينتفعونَ بمالِه ويحرِصُون عليه.

الآياتُ تصِفُ حالَ وهيئةَ خروجِ أهلِ الربا من قبُورِهم، وَقِيَامِهِمْ مِنْهَا إِلَى بَعْثِهِمْ وَنَشُورِهِمْ في أرضِ المَحشرِ يومَ القيامة، يقومون في ذلك اليومِ ويكون حالُهم كحالِ الممسوسِ والمَصروعِ مِنْ تخبُّطِ الشيطانِ به، يَضطربُ ويتحركُ تحرُّكا شديدًا دون أن يضبطَ نفسَه، ويَقومُ ويقعُدُ ويُصرَعُ كالمجانين، هكذا نعرفُهم في أرضِ المحشرِ، ولعل قيامَهم هذا يذكِّرُنا بما يفعلُه آكلُ الربا مع المدينينَ، حيثُ يجعلُهم يتخبَّطون في الدنيا ليُرجِعوا له الدَّينَ مع الزِّيادةِ.

وقد كانوا في الجاهليةِ إذا داينَ الواحدُ منهم آخرَ، ثُمَّ عَجزَ المدينُ عن السَّدادِ، قال له الدائنُ: نُؤخِّرُ السَّدادَ ونزيدُ على المالِ المطلوبِ مُقابِلَ الأجلِ. والربا يقعُ على هذه الصورةِ وعلى صورةِ أن يشترِطَ عليه سدادَ الدَّينِ بزيادةٍ، ويقع كذلك بالتفاضُلِ في بيعِ الأصنافِ الرِّبويةِ ببعضِها؛ كبيعِ صاعٍ من التَّمرِ بصاعينِ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ هذه حجةٌ نسمعُها زمانَنا من بعضِ من انغمسوا في أكلِ الرِّبا، فيزعُمون أنه لا اختلافَ بين البيعِ والرِّبا، فكلاهُما يؤدي إلى الرِّبحِ وإلى المساومةِ.

قلنا لهم: هذه شبهةٌ ذكرَها أهلُ الكفرِ لما نزلَ عليهم تحريمُ الرِّبا، واعترضوا على الشَّرعِ، وكَذَبوا على الله، وزعموا أنَّه فرَّقَ في الحُكمِ بين أمرينِ مُتشابهينِ، وهو أمرٌ لم تَعقلْهُ عقولُهُم البائسةُ، ولذلك جاءَتِ الآياتُ هنا تُنكِرُ عليهم كلامَهم وفِعلَهم.

هم قصدوا بكلامِهم هذا تسويغَ فعلِ الرِّبا لأنفُسِهم وتبريرَهُ، وكذلك تشكيكَ المسلمينَ بأحكامِ شريعتِهم، وقد وجدنَا زمانَنا من إذا أُحيلَ على أبوابِ الحلالِ في تعامُله، سوّى بين مؤسساتِ الرِّبا، والمؤسساتِ القائمةِ على أحكامِ الشريعةِ بالمُجملِ.

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ القرآنُ لم يذكرِ الفروقَ بينَ الرِّبا والبيعِ مع أنّها موجودةٌ ومتعدِّدةٌ، يُدرِكُها ويعلمُها أهلُ التَّخصُّصِ ويذكرونَها على الدَّوامِ، وكأنَّ الآياتِ أعرضَتْ عن شُبهتِهم هذه؛ لأن داعيَها هو الهوى والعنادُ، ولذلك عَدَلَت الآياتُ على الفورِ إلى بيانِ حُكمِ الله في الرِّبا؛ تثبيتًا لقلوبِ المؤمنينَ على وُضوحِ حُكمِه لِئَلَّا يختلِطَ الحقُّ بالباطلِ.

الآيةُ دليلٌ ظاهرٌ على أنَّ الله تعالى حرَّمَ الرِّبا على عبادِه بعلمِه وحكمتِه؛ لما فيه من طامّاتٍ لا تخفى على من ابتُلِيَ به؛ فإنَّه يؤدي إلى انقطاعِ المعروفِ بين الناسِ، وفيه رفعٌ لِنسَبِ البطالةِ، فإنَّ المرابِيَ لا يقومُ بمشاريعَ نافعةٍ له وللناسِ، وبالربا يزدادُ الغنيُّ غنىً على حسابِ الفقيرِ، ولكم أن تنظروا فيما يوقِعُه الرِّبا في المجتمعات من أضرارٍ أخلاقيةٍ واجتماعية واقتصاديةٍ، وهذا كلُّه بخلافِ البيعِ الذي هو من حاجاتِ الأممِ فأُبيحَ.

وهذه الآيةُ تُعدُّ أصلًا من أصولِ الشَّريعةِ في بابِ التَّعامُلِ الماليِّ؛ الأصلُ فيما كان بيعًا أنَّهُ مُباحٌ، ومن حرَّمَ شيئًا فلا بُدَّ له من دليلٍ، بخلافِ الرِّبا.

وقد جاءَ في بيانِ عِظَمِ جُرمِ الربا أحاديثُ متعددةٌ، أختارُ منها:

- ما أخرجه مسلم عن جابر رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ»، وَقَالَ: «هُمْ سَوَاءٌ».
- ما أخرجه البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحصنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمنَاتِ».
- ما أخرجه الطَّبَرانيُّ عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ الله عَنْهُما، قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا ظهرَ الزِّنا والرِّبا في قريةٍ، فقد أحلّوا بأنفسِهم عذابَ الله».
- ما أخرجه البخاري في الحديثِ الذي يصِفُ عذابَ آكلِ الرِّبا في البرزخِ قبلَ البعثِ، والذي جاء فيه عن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ الله عنهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ، فَانطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ وَعَلَى وَسَطِ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ

كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُ الرِّبَا».

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ النفوسُ في تعامُلِها مع أوامرِ الشَّرعِ ومع هذه الآياتِ لَمَّا نزلَتْ صنفانِ: الأولُ مذكورٌ هنا، وهو فريقٌ من النَّاسِ يستجيبُ للموعظةِ لَمَّا تأتيه لِمَا يحمِلُه قلبُه من تعظيمٍ للربِّ جلَّ وعلا، فتجِدُه ينتهي عن التعاملِ بالرِّبا والشهادةِ عليه وكفالةِ أصحابِه، أوَّلَ ما تأتيه مثلُ هذه الآياتِ ويعلمُ ما فيها. ومثلُه له ما سلفَ، يعني: لم يأمُرْهُ الشَّرعُ بردِّ الزِّياداتِ المأخوذةِ زمنَ الجاهليَّةِ، فما أخذَه وأكلَه من مالِ الرِّبا قبلَ التَّحريمِ فهوَ لهُ، ثم يكونُ أمرُه إلى الله تعالى في قبولِ توبتِه والتجاوزِ عنه، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حجة الوداع في خطبته: «وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ» الحديث.

وهذا الحكمُ لا يسري على من تعاملَ بالربا وهو يعلمُ حُرمَتَه، بل يلزمُه أن يَصْدُقَ الله تعالى في توبتِه منه، فيندمَ ويقلعَ ويعزِمَ ألَّا يعودَ لذلك، ولْيعلمْ أنَّ مالَ الربا مالٌ حرامٌ، يجبُ عليه شرعًا أن يتخلَّص منه بالتصدُّقِ به في مصالحِ المسلمينَ، ويلزمُه أن يُغلِقَ حساباتِ التوفيرِ في مُؤسساتِ الرِّبا؛ لئلَّا يكونَ ممَّن قال الله فيهم: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هذا هو الصِّنفُ الثاني من الأصنافِ التي تسمع نداءَ الله لها، هؤلاء لا يُسارعون إلى الاستجابة لأمر الله وموعظتِه، بل تراهم يفرُّون منها فرارَهم من الأسد، ويعاوِدون فعلَ الربا مرةً بعد مرةٍ، ويُصِرُّون عليه. هؤلاء هم الذين وجبَتْ لهم العقوبةُ بخُلودِهم في النار وعدمِ خروجِهم منها.

والآيةُ إنَّما هي في صنفِ المشركين الذين كفروا بالله العظيم وبما جاء في شرعِه من أحكامٍ.

وخلودُهم في النار لأنهم سوَّوا بين الربا والبيعِ، فاستحلُّوا حرمةَ الربا التي عُلمت في دينِنا بالضرورة، وهذا كفرٌ بواحٌ يُخلِّدُ صاحبَه في النار.

وقد ينطَبِقُ الخلودُ في النَّارِ إلى أجلٍ، وليس خلودًا أبديًّا، لمن أصرَّ من المسلمين على التعاملِ بالرِّبا بعد أن جاءَته الموعظةُ وفَقِهَها.

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾

هذه الآية تُخبِر عن واقعٍ عاشَه كثيرٌ من أهل الربا وينتظِرُه آخرونَ، وهو الصِّنفُ الذي لا ينتهي عن الربا وإن جاءَتْه موعظةٌ بعد موعظةٍ.

الآية تبين أن المالَ المأكول بالحرامِ عن طريق الربا يمحقُه الله، والمحقُ هو إزالةُ الشيءِ ومحوُه وإتلافُه، يعني: لا يُديمه في يد صاحبِه، بل يُذْهبُه شيئًا فشيئًا حتى يَفْنى، أو يُذهبُ بعضَه، أو يحْرِمُه من بَرَكةِ المالِ فلا ينتفعُ به كما يُحِبُّ.. أخرج أحمد وغيره عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قُلٍّ» ، وعند ابن ماجه: «ما أحدٌ أكثرَ من الربا إلا كان عاقبةُ أمرِه إلى قِلَّة». يعني: إلى نقصٍ وخُسران. بل قد يجعلُه سببًا لعذابِ صاحبِه في الدنيا، فضْلًا عما ينتظِرُه بعد موتِه.

وتأمّلوا كيفَ أنَّ آكِلَ الربا يفرحُ بكثرةِ مالِه الخبيثِ الذي حصَّله من طريقِ الربا، ويظُنُّ أنه أفلحَ بفعلِه دون أيِّ مُخاطرةٍ منه أو جُهدٍ أو تعبٍ، لكنه نسيَ قول الله: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة ١٠٠].

صحيحٌ أنَّ المالَ نما ظاهرًا، لكنَّه عند الله لا ينمو، بخلافِ الصَّدقاتِ التي يبذُلها صاحبُها ابتغاءَ رضوانِ الله، فإن الله تعالى قال فيها: ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أي: يُنمِّيها ويُكثِّرُها ويباركُ فيها، ويدفعُ عن صاحبِها كثيرًا من الشُّرورِ والبلايا، ويعطيه المثوبةَ والأجرَ العظيمَ في الآخرة. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم ٣٩].

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من تصدَّق بعَدْلِ تمرةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقبَلُ الله إِلَّا الطَّيب، وَإِنَّ الله لَيَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِها كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّه (أي: المُهْرُ وهو صغير الخيل)، حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ».

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ وربُّنا لا يُحبُّ من يجحدُ نِعمَ الله عليه، ويأبى إلا أن يُحصِّلَ رزقَه من الربا الذي هو من شعاراتِ أهلِ الكفرِ وخِلالِهم، يُقبل على المالِ الحرامِ والكسبِ الخبيثِ، ولا يرضى بما قسمَ الله من حلالٍ، فهذا جاحدٌ للنِّعمة، آثمٌ إثمًا كثيرًا وعظيمًا بِأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

هذه الآيةُ جاءَت بين آيات الربا لتُعينَ القابِضين على دينِهم، الحريصينَ على طاعةِ ربِّهم، الذين يفِرُّون من الربا وطرائقِه فِرارَهم من الأسدِ. هؤلاء هم أهلُ الإيمانِ الحقِّ الذي ملأ جوانحَهم وصدورَهم، فأورثَهم عملًا خالصًا لوجهِ الله على الهَدي المحمديِّ صلواتُ ربي عليه، ثمَّ مُحافظةً على الصلواتِ بأدائِها في وقتِها وإتمامِها على الوجهِ الذي يُحبُّه الله ويرضاه، ثم بذلًا للصدقةِ الواجبةِ كما شرعَ الله وأمرَ. ومثلُهُم: يعدُهُم الله عنها بالأجرِ على ما قدموا، وبالأمنِ من الخوف على أنفسِهم وذرارِيهم وأموالِهم، بل يُبشِّرُهم بالفرحِ الدائمِ المجافي للأحزانِ والهمومِ، لهم كل ذلك في الدنيا وفي الآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾

بعد أن بيَّنتِ الآيةُ حُرمة الربا، وذكرَتْ شيئًا من عقوبتِه، جاء النِّداءُ الرَّبانيُّ موجَّها لأهل الإيمان بالمُسارعةِ للتوبةِ إلى الله من الرِّبا، وتركِ ما بقيَ لهم عند الآخرينَ من مالِ الربا وأرباحِه المُحرَّمةِ.

ثم تأمَّلوا كيف ذكَّرتهُم الآيةُ بتقوى الله تعالى قبل أمرِهم بتركِ كلِّ زيادةٍ ربويةٍ لهم عند الناسِ، وتركِ ما بقيَ في ذممِ من عاملوُهُم بالربا، وتقوى الله هي أصلُ الامتثالِ والاجتنابِ.

ثم تأمَّلوا كيفَ تكرَّرَتْ لفظةُ الإيمانِ في خِتام الآيةِ بقول الله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، أي: إيمانًا حقًّا. وكأنَّ الآيةَ مع قِلَّةِ عدد كلماتِها، تُعلِّمُنا أنَّ مِثلَ هذه النداءاتِ لا يعيها ويسمعُها ويتمثلُها إلا أهلُ الإيمانِ الذين إذا خُوطِبوا وذُكِّروا بتقوى الله، بادروا وسابقوا إلى امتثالِ الأمرِ، وكَفوا عمَّا زُجِروا عنه.

أمَّا غيرُهم فلْيسألوا الله تعالى أن يعمُرَ قلوبَهم بالإيمانِ والتقوى، فإنَّه لا قلبَ لهم، ولذلك قال الله تعالى لأمثالِهم:

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾

من استمرَّ وأصرَّ على فعلِ الربا، وأكلِ المالِ الحرامِ بعد هذه الموعظةِ، ولم يترُكْ ما بقيَ من الرِّبا، فلْيعلمْ ولْيستيقنْ بأنَّه استجلبَ غضبَ الربِّ عليه، حتى آذنَه سبحانه بالحربِ؛ أيُّ تهديدٍ ووعيدٍ هذا!

واعلموا أنَّ من أهلِ العلمِ من حَملَ الحربَ هنا على التخويفِ، ومنهم من حملَها على الحقيقةِ، وفَسَّروا ذلك بأنَّ إمامَ المسلمين مطلوبٌ منه أن يعاقبَ من يتعاملون بالربا، ويوقعَ عليهم أشدَّ العقوبةِ وأغلظَها. أو بطريقةٍ أخرى: يجبُ على المُخلِصين من هذه الأمةِ مقارعةَ الرِّبا وطرائقِه وأهلَه، حتى ينزِعوا عن باطلِهم. حتى إنَّ حربَهم هذه لا تقتصر على الدنيا، بل هي مُمتدةٌ لأرضِ المحشرِ، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُمَا: «يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِآكِلِ الرِّبَا: خُذْ سِلَاحَكَ لِلْحَرْبِ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

﴿وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ أما من تاب منكم، فله رأس مالِه الذي اكتسبَه بطريقٍ مباح، فلا تأخذوا زيادةً على ذلك، فتظلِموا المحتاجين، وليس لأحدٍ أيضًا أن يعتديَ على رؤوسِ أموالِكم، لئلا تُظلموا في ذلك.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠﴾

أمرٌ من الله تعالى لأصحاب الديون بأن يصبِروا على من أعسرَ من المدينين عن سدادِ دينِه، انتظروا من لا يجِدُ مالًا يسُدُّ به دَينَه حتى الميسرةِ، بأن يتيسرَ معه ما يُعطيكُموه، ولا تفعلوا كالمرابينَ الذين يزيدونَ الدَّيْن على صاحبِه كلما تأخَّر عن السدادِ، حتى يعجَزَ عن سدادِ رأسِ المال، وكأنَّ الإسلام يُغلق على الأغنياءِ طرائقَ ابتزازِهم للفقراءِ والتضييقِ عليهم.

جاء في الحديث الذي أخرجه أحمدُ وغيرُه، واللفظ لأحمدَ بتصرُّفٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «من أنظرَ مُعسرًا فلهُ بِكُلِّ يوم صدقةٌ قبلَ أن يحِلَّ الدينُ، فإذا حلَّ الدينُ فأنظرَه، فله بكل يوم مِثلاه صدقةٌ». وَفي صَحِيحِ مسلم قالَ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ الله فِي ظِلِّهِ».

﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ترغيبٌ ودعوةٌ لأصحابِ الدُّيون، بأن يتصدَّقوا على المدينينَ ويسامحُوهم ويُسقطوا عنهم رأسَ مالِهم. هذا خيرٌ لهم عند ربِّهم وأزكى وأطهرُ وأكثرُ مثوبةً وفضلًا. أخرج البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفِتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ الله أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ الله عَنْهُ».

وفي صحيح مسلم: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ الله مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ».

وفي صحيح مسلم: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ الله عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

وهذه الآيةُ لا تشملُ المُماطِلَ القادرَ على سدادِ دينِه، بل إن مماطلتَه هذه تُحِلُّ للدائن أن يُعاقبَه بالحديث عنه والشكوى.

ولا تشملُ الآيةُ كذلك من يأخذُ أموالَ الناس كذبًا وبُهتانًا.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾

هذه آخرُ آيةٍ نزلَتْ مِنْ كتابِ الله على قلبِ محمدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَ وفاتِه، فقد أخرجَ البخاري في صحيحِه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: «آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةُ الرِّبَا»، يقصِدُ رَضِيَ الله عَنهُ هذه الآيةَ.

ما أعظمَها وما أنفعَها لمن تأمَّلَها وما فيها من عظات، تدبَّروا أين وقع محلُّها؛ في آياتِ الربا، وكأنَّ أهل الربا هم أهلُ الدنيا لا أهلُ الآخرةِ، وكأنَّ أكثرَ ما قرَّبهم من الحرامِ حرصُهم على مُتعِ الدنيا ولذائِذِها، دونَ استحضارٍ لمستقبلِهم الحقيقيِّ الذي يبدأ بعد الموت.

جاءَتِ الآيةُ هنا تعِظُ العبادَ وتُذكِّرُهم بزوالِ الدنيا وفنائِها، وفناءِ ما فيها من أموالٍ وعيالٍ وصحةٍ وعافية، وأن مَرَدَّ الناس جميعًا بعد موتِهم إلى الله، يقفون عندَه في يومٍ مقدارُه خمسونَ ألفَ سنةٍ، ثم يحاسبون على أعمارِهم وشبابِهم وأموالِهم وعلمِهم، ثم يكرمُ الله تعالى أهلَ التقوى منهم بالرِّضوان والجنَّاتِ والنَّعيم المُقيم، ويُعاقبُ أهلَ الفسادِ والإفسادِ بالدركاتِ في نارِ الجحيمِ، لا يُظلمون في ذلك شيئًا، إن قدَّموا خيرًا فخيرٌ، وإلا فلا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾

الإنسان مجبولٌ على خصالٍ لا يكادُ يَنفكُّ عنها أحدٌ، منها النسيانُ وارتكابُ الأخطاءِ والجحودُ. وهذا أمرٌ راعتْه شريعةُ ربِّ العالمين في أحكامِها، واحتاطَتْ له لِئلَّا تضيعَ الحقوقُ، وتحدُثَ الشَّحناءُ والبغضاءُ بين الناسِ. ومن هنا نُدركُ مجيءَ أحكامٍ وإرشاداتٍ وتوجيهاتٍ ربَّانيَّةٍ متعلِّقةٍ بالمالِ وحفظِه وحفظِ حقوقِ أصحابِه، ولكم أن تتأمَّلوا مجيئَها في أطولِ آيةٍ في القرآنِ وفي أكبرِ سورةٍ، لما لها من أهميةٍ لا تخفى.

الآيةُ تُرشِدُ أهلَ الإيمانِ إلى كتابةِ معاملاتِهم الماليةِ المؤجَّلةِ وتوثيقِهَا، والتي يعني تأجيلُها أنَّ ثمَّةَ دينًا لأحدِ الطَّرفين على الآخرِ.

والدَّينُ يَعمُّ ما يحصُلُ بسببِ القرضِ أو البيع أو بدلِ المهر أو غيرِ ذلك، نوثِّقُ مقدارَ الدَّينِ وزمنَ سدادِه وسببَه وأطرافَه، هذا أحفظُ وأثبَتُ في معرفةِ الحقوق عند حصول المخاصمة والتقاضي، وكذلك أنفعُ لأهل الإيمان في دفعِ ما قد يعتريهم من صفاتِ نقصٍ قد توقعُهم في الظُّلمِ، من نسيانٍ وجحودٍ وخطأ. وكذلك تُعينُ الشهودَ في ضبطِ شهادتِهم وأدائِها على الوجه الشرعيِّ الصحيحِ، خاصَّة أن التداينَ من حاجاتِ النَّاسِ في معاملاتِهم وانتفاعِهم من بعضِهم، ومما لا يكادُ ينفكُّ عنه زمانٌ ومكانٌ، فكانتِ الإشارةُ إلى توثيقِه وتثبيتِه من أعظمِ أسبابِ رواجِ المعاملاتِ وإيتائِها أُكُلَها المَرْجوّةَ.

والكتابةُ لا تعني سوءَ الظنِّ بين الناسِ، بقدرِ ما أنَّها تضبط كثيرًا من شؤون معاملاتِهم، وتحتاطُ لهم.

والآيةُ ترفعُ الحرجَ عن الدَّائنِ إذا ما طلب إلى المدينِ أن يَكْتُبَ الدَّينَ بينهما ويُشهدَ عليه، فهذا ممَّا أرشدَ إليه الشَّرعُ.

وَقَوْل الله تعالى: ﴿فَٱكۡتُبُوهُ﴾ هذا أمرُ إرشادٍ، وليس أمرَ وجوبٍ عند جُمهورِ الفقهاءِ والمفسرين، فكتابة الدَّينِ مندوبٌ إليها ومستحبَّةٌ.

ومع أنَّ الأمرَ يُفيدُ الوجوبَ، إلا أنَّ أهلَ العلم نصُّوا على أنَّ الحُكمَ الاستحبابُ، لوجودِ آيةٍ أخرى أجازَتْ أن تكون الأمانةُ بديلةً عن الكتابةِ، بمعنى أن تكونَ الثِّقةُ بين الناسِ وائتمانُ بعضِهم بعضًا هي مفتاحُ العلاقةِ بين المتعاملينَ، وهذه الآيةُ هي قول الله تعالى في أواخر سورة البقرة: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾.

والأمر بكتابة الدَّينِ مُوجَّهٌ أولًا للدائنِ والمدين إن كانا يُحسنان الكتابةَ والقراءة، وإلا عدَلنا إلى من يكتُبُ لهما، كما هو حالُ غالِبِ العرب عند نُزولِ الآياتِ، ولذلك جاء في تتمَّةِ السِّياقِ القرآني:

﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ يعني: اجعلوا من يكتبْ لكم معاملتَكم، واحرصوا على أن يكتبُها بالقِسطِ والعدلِ والحقِّ، بحسْبِ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ هذا توجيهٌ لمن يُجيدُ كتابةَ العُقودِ بين الناس، ولمن كانت طبيعةُ مهنتِه أنْ يُعينَ النَّاسَ بحفظِ حقُوقِهم عن طريقِ توثيقِها، ولمنْ يستعينُ به الآخرونَ ويثِقونَ به ويُعطونَه أسرارَ بُيوعِهمُ الآجلةِ ليكتُبَها.

الآية هنا تأمُرُه بألا يمتنع عن كتابةِ دُيونِ النَّاسِ إذا سألَه الناسُ ذلك، كما أنَّ الله تعالى أكرمَه وعلَّمَه كيف يكتبُ ويقرأُ، فليذكرْ نعمةَ الله عليه، ولْيُؤَدِّ زكاةَ هذه النعمةِ بإعانةِ الناسِ الذين لا يُجيدونَ الكتابةَ على حِفْظِ حُقوقِهم.

وهل كِتابتُه هذه واجبةٌ عليه؟ الأصلُ عند أهلِ العلمِ أنَّها على الكفايةِ إلا إذا لم يكنْ غيرُه يُجيدُ فِعلَ ذلك، فيلزمُه. بل إنَّ هذا من الصَّدقةِ التي يُؤجَرُ عليها، وهي بابُ خيرٍ لَهُ.

﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ فليكتُبِ الكاتبُ ما يُمليه عليه الذي عليه الحقُّ، وهو المدين الذي استدان لقضاءِ حاجاتِ نفسِه وأهلِه، ولْيحرِصِ المدينُ على تقوى الله في ذكر تفاصيل استدانتِه التي سيكتُبها الكاتبُ، فلا يبخسْ من ذلك شيئًا بإنقاصِ ما استدانَه وكتمِ بعضَ. أو: فليتقِ الله الكاتبُ ولا يُغيِّرْ شيئًا مما يُمليهِ عليه المدينُ والدائنُ لمصلحةِ أحدِهما.

والشرعُ جعلَ المدينَ هو الذي يُملي على الكاتبِ ما يكتُبه؛ لأنَّ إملاءَه اعترافٌ منه وإقرارٌ بالذي عليه من الحقِّ، ثم هو أكثرُ طُمأنينةً للدائنِ لَّما يرى المَدينَ صادقًا فيما يذكُرُه.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ قد يكون المدينُ المحتاجُ للمالِ سفيهًا، أي: عندَه خِفَّةٌ في العقلِ قد يستغلُّها الآخرون. وقد يكونُ ضعيفًا، أي: مجنونًا أو صبيًّا فيَسْتَخِفُّهُ الآخرونَ، أو لا يستطيع أن يعطيَ المعلوماتِ للكاتبِ لعلَّةٍ وسببٍ ما عندَه من بَكَمٍ أو كِبَرٍ في السِّنِ أو غيرِ ذلك.

هنا يقوم الوليُّ مقامَهُ ويُملي على الكاتبِ ما يطلُبُه ويحتاجُه لحفظِ الحقوقِ، ولْيكن الوليُّ وليَّ عدلٍ ليُمليَ الحقَّ بدون زيادةٍ أو نُقصانٍ.

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ هذا إرشادٌ ثانٍ من أجل توثيق الحقوق وحفظِها، فمع كتابتِها اجعلوا رجُلينِ يشهدان على ما جرى، أو اجعلوا رجلًا وامرأتين يشهدُون. وتخصيصُ الشَّهادةِ بقولِ الله تعالى «من رجالِكم»، أي: من المسلمين؛ لأنَّ الأصلَ عند جمهورِ الفقهاءِ عدمُ جوازِ شهادةِ غيرِ المسلمِ على المسلمِ. وتأملوا كيف أن الشرع لم يكتفِ بشاهدٍ واحد؛ ازديادًا في الحِيطةِ، ودفعًا للتُّهمةِ.

وهنا سؤال يطرحُ نفسَه في فهمِ الآية: لماذا أرشدَتِ الآيةُ إلى أن يكون في الشهادة امرأتان بدلًا عن الرَّجلِ الواحدِ، وهل في هذا انتقاصٌ لها ولعقلِها، خاصةً أنَّ النبيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفَ المرأةَ بأنَّها ناقصةُ

عقلٍ مُفسِّرًا ذلك بأنَّ شهادتَها على النِّصفِ من شهادةِ الرجلِ، كما أخرج مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهِ عَنهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الِاسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رأيتكُن أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ»، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزْلَة: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ الله أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وتكفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رأيتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍ مِنْكُنَّ». قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، مَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؟ قَالَ: «أَمَّا نُقْصَانُ عَقْلِهَا فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدل شَهَادَةَ رَجُلٍ، فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِي لَا تُصَلِّي، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نُقْصَانُ الدين».

ولبيان أنَّ الآيةَ والحديثَ إنما جاءَا في معرِضِ تكريمِ المرأةِ لا غير، أبيِّنُ ما يلي:

١- الشهادةُ في المحاكمِ منصبُ تكليفٍ، وليست منصِبَ تشريفٍ، فلا يفرحُ أحدُنا إذا ما طلبَه القضاءُ للشهادة في جريمةٍ ما، فكيف إذا طُلبتِ الزوجةُ أو البنتُ أو الأختُ أو الأمُّ، فكان إنقاصُ شهادتِها عن الرَّجلِ في مثل هذه المواطن سببًا لحفظِها، بصَرفِها عن مواطنِ الخُصوماتِ والمرافعاتِ والعُدوانِ على الأنفسِ والأعراضِ والأموالِ، وكان التكليفُ أشدَّ على الرَّجلِ؛ مراعاةً لقُوَّتِه وما اختصَّ به من واجباتٍ كما سيأتي بيانُه.

٢- شهادة المرأة في الآية إنما جاءَت في معرِضِ الحديث عن الدَّيْن، وقد فهمَ الفقهاءُ من ذلك أن شهادَتها في الأموالِ تكون على النصف من شهادة الرجل، وهذا أمرٌ معلومةٌ حكمتُه في الشَّرع، وقد جاء مُنسجمًا مع أحكامِه، فالواجباتُ الماليَّةُ في الحياة مُلقاةٌ على الرجل، فهو المأمور بالسعي لتحصيلِ الرزق، والكسبِ للإنفاق على من تجِبُ عليه النفقةُ، فكان الرجلُ أكثرَ ممارسةً وأقربَ من المرأة فيما يتعلَّق بالمعاملاتِ الماليةِ، ولذلك علَّلَتْ الآيةُ القرآنيَّةُ عدمَ قَبولِ شهادة المرأة وحدَها في الأمورِ الماليةِ بالضَّلالِ، قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

والضَّلالُ هنا معناه النسيانُ، وهذا النسيانُ له أسبابُه عند النساء خصوصًا؛ فإنَّ الذِّهن لا يستحضِرُ ولا يختزِنُ إلا ما يُهِمُّه من الأمور، والمرأة ليست وظيفتُها الأصلية متعلقةٌ بالمال وما يتبعُه، ثم إن طبيعة المرأة الانفعاليةَ الناتجةَ عن وظيفة الأمومةِ وما تتطلبُه من تكوينٍ عُضويٍّ ونفسيٍّ خاصٍّ، يجعلُها سريعةَ التأثُّرِ بالعاطفة، وهو ما يؤثر في أداءِ الشهادةِ التي بها تُحفظُ الحقوقُ.

٣- لا يُقتصرُ في بيانِ شهادةِ المرأةِ على هذه الآية، فأهلُ العلم نصُّوا على أنَّ شهادةَ المرأةِ لا تُقبلُ في الحدودِ والقِصاصِ بالمُجملِ؛ وذلك لأنَّ الإسلامَ يسعى لحفظِ المرأةِ عن هذه المواطنِ التي تنتقِصُ من قدرِها وتجعلُها عُرضةً للمجرمين، فضلًا عن أن الإسلام يُضيِّقُ في إقامةِ القِصاصِ والحُدودِ ما استطاعَ، وهو ما نلحظُه في طُرق إثباتِه للجريمةِ، ونلحظُه في شرائطِ إقامة العقوبة.

ثم إن الإسلام خصَّ المرأةَ بالشهادة على ما يَخُصُّ النساءَ من أحكامٍ تتعلق بكشف عوراتِهنَّ؛ من إثباتِ الرَّضاعةِ والبَكارةِ والثُّيوبةِ (أي: كونُها مدخولٌ بها).

ثم إن الإسلام ساوى بين الرجل والمرأة في شهادة المُلاعنةِ بين الرجل وزوجتِه فيما إذا قذَفَها واتَّهمَها في عِرضها؛ مُراعاةً لحقِّها في دفعِ ما اتُّهِمَتْ به عن نفسِها، بنفسِ وسيلة الإثبات التي كُلِّفَ بها القاذفُ وهو الزَّوج. والمُلاعنةُ هي التي بيَّنَتْها أوائلُ سورةِ النُّورِ من إلزامِ كُلٍّ من الزَّوجينِ بخمسِ شهاداتٍ على السَّواء.

٤- المتأمِّل للحديث، يجد أنه جاء تحذيرًا للمرأة الصالحة من أن تسلُكَ دربَ أهلِ النار من النساء، فوصفَ سببين من أسباب دُخول المرأة النارَ؛ لتكونَ المرأة على دِرايةٍ بهذه الصفات فتجتنِبَها، فالحديث فيه نفعٌ عظيمٌ للمرأة التي ترجو مرضاةَ ربِّها والنَّجاةَ من نارِه، ولذلك قالَه رَسولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ عيدٍ، وإنما أراد بذلك إدخالَ السرورِ على المرأة بحثِّها على الصدقة لتكون سببًا من أسباب النجاة من النار.

٥- ثم إن النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بَيَّن صفةً في المرأة تدُل على قُوتِها، فمع أن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل، ومع أنها تمكُثُ الليالِيَ لا تصومُ ولا تصلي، فإنها تستطيع بضعفِها هذا أن تتسلَّطَ على أقوى الرجالِ وأكثرِهم حكمةً وعلمًا، وهذا فيه إرشادٌ للمرأةِ بأنَّ سبيل تحصيلِها لما تريدُ وأكثَرَ هو ضعفُها واحتماؤُها بالرجل، وليس تعامُلُها معه على سبيل النِّدية والمُغالبة، فإن هذا يُتعبُها.

﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ استدلَّ الفقهاء بهذا الجزء من الآية على اشتراط أن يكونَ الشُّهود عُدولًا لا فُسَّاقًا، لأنَّ المتخاصِمَيْن الصادقَيْن لا يرضَون في الخُصومةِ إلا بالشاهد الذي ظهر صلاحُه وحرصُه على فعل الواجباتِ واجتناب المنهيَّات.

﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ أكثرُ أهلِ العلم على أن الآية فيها توجيهٌ للشهود بأنهم إذا ما دُعوا لتحمُّل الشهادة ابتداءً وحضورِ عقدٍ من العقود، وكذلك إذا ما طُلبوا لمكان القضاء بين المتخاصمَين لإعطاءِ شهادتِهم، أن يذهبوا ويُؤدُّوا شهادتَهم ولا يمتنعوا من ذلك؛ لئلَّا تضيعَ الحقوق.

والأصلُ في أداء الشهادة أنه فرضٌ على الكفاية، إلا إذا لم يكنْ غيرُه، فيلزمُه ذلك، ويأثمُ بتركِها، ما لم يكن ثمَّةَ مضرَّةٌ على الشاهدِ في بدنِه أو أهلِه أو مالِه.

وقد أخرج مسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؛ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا». وهذا يدلُّ على استحبابِ أن يبادرَ إلى الشهادة من عَلِمَ أن شهادتَه يترتبُ عليها إرجاعُ الحقِّ إلى صاحبِه، وثبوتُه له، ولم يكنْ ثمَّةَ غيرُه. بخلافِ ما لو كان شاهدَ زورٍ شهد على ما لا يعلمُه، أو نصّبَ نفسَه للشهادةِ وهو ليس من أهلِها، فعليه يُحمل ما أخرجه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِينَ بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ، يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا».

ومن أهل العلم من جمع بين الحديثين بأنَّ المحمودَ في الشهادة فيما إذا كانت في حقوقِ الله، بخلاف حقوقِ العباد، فتقديمُ الشهادة فيها قبل أن يُسأَلها المكلفُ مذمومٌ.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ اكتبُوا الحقَّ الذي لكم أو عليكم، ولا تسأموا من ذلك، أي: لا تملُّوا ولا تضْجَروا من تفصيله وإن كان بسيطًا وصغيرًا وقليلًا، اكتبُوه إلى أجلِه وتاريخِ سدادِه واستحقاقِه.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ هذا أقربُ لتحقيقِ القِسطِ والعدلِ والحقِّ، وأكثر إرضاءً لله، وأعونُ للشهداء على تذكُّرِ ما حصل، وأداءِ شهادتِهم على الوجه المرضِيِّ، وأدنى وأقربُ إلى البعد عن مواضعِ التُّهمة والرِّيبة.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أَيْ: إِذَا كَانَ الْبَيْعُ مباشرة، وتمَّ تسليمُ البدلَينِ في مجلسِ العقدِ ولم يكن هناك دَينٌ أو حقٌّ مُؤجَّلٌ، فَلَا بَأْسَ بِعَدَمِ الْكِتَابَةِ، لأنَّ الحقوق استقرَّتْ بالقبضِ، وانتفَتِ التُّهمةُ.

﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ احرصوا على الإشهاد إذا بِعتُمْ واشتريتُمْ ولو بغيرِ دَينٍ، ولا تستخِفُّوا بثمرتِه وضرورتِه. وهذا أمرُ إرشادٍ واستحبابٍ.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ هذا احتياطٌ لما قد يفعلُه أحدُ المتخاصِمين أو غيرُهما من إلحاقِ الضَّرر والتهديد والوعيد لكاتبِ العقد أو الشاهِد، لتغييرِ ما عَلِموه من الحقوق كتابةً وشهادةً. وكذلك لا نُوقعُ الشاهد أو الكاتب في حرجٍ ومشقة بكثرة ما نطلُبُه منهم من إجابةٍ عن الأسئلة التي قد يكون مرَّ على بعضِها

عشراتُ السِّنين، ولا نكثر من طلبَهم في جلسات المُقاضاةِ، مما يؤذيهم في عملِهم وسعيهم لرزقِ عيالِهم وراحتِهم، وغيرِ ذلك مما فيه إضرار بهم. ويُفهم من هذا قطعًا حرمة الإضرارِ بالمكتوب له والمشهود له.

﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ﴾ إذا أوقعتمُ الضُّرَّ بغيرِكم، أو حاولتُم أن تحتالوا لتضييعِ الحقوق، ومخالفةِ ما أُمرتُمْ به ونُهيتُم عنه، فهذا من الفِسْقِ الذي هو خروجٌ عن طاعةِ الله تعالى وفيه إثمٌ عظيمٌ.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ ختامٌ عجيبٌ في نهاية الآية بالتَّذكيرِ بتقوى الله تعالى وخَشيتِه ومُراقبتِه، فإنَّ العبد إذا تعامل مع المال ضعُفَت نفسُه بالجُملة، وربما سوَّغَ لنفسِه أكلَ الباطل، وأكل المال الحرام لسبب ما، فجاء هذا التذكير ليكون مُعينًا له على أن يجعلَ بينه وبين الشهواتِ والذنوبِ سدًّا وحاجزًا.

ثم تأملوا كيف أن الآية ذكرَتْ ثمرةَ ذلك، ذكرَتْ ثمرةً أجمع الناس على حُبِّها، وهي أنَّهُ من اتقى الله وكان حريصًا، أورثَه الله تعالى وأعطاه علم الدِّين الذي يُعرف به الحقُّ من الباطل، وجعل في قلبه نورًا يُدركُ الأشياء من حولِه على حقيقتِها لا على ظاهرِها، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال ٢٩]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد ٢٨].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ الله عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا وَعَوَاقِبِهَا، وهو محيطٌ بكم وبما في نفوسِكم، فاستقيموا ولا تضِلُّوا.

﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾

الآية السابقة أرشدَت إلى كتابة الدَّينِ والإشهادِ عليه، حرصًا من الشَّرع على حفظِ أموال الناس، وضمانِ ثباتِ التعامُلات بينهم على الوجهِ الذي يُحبُّه الشرع ويرضاه، لتُحقِّقَ هذه المعاملاتُ غاياتِها المرجُوَّةَ.

هذه الآية تُتَمِّمُ وتكمِّلُ الحديثَ عن الإرشاداتِ الشرعيةِ، والتوجيهات الرَّبانيةِ، فيما يتعلق بالدَّينِ الذي قد يكون بسبب قرضٍ أو بيعٍ وشراءٍ أو بدلِ مهرٍ، أو غيرِ ذلك.

الآيةُ تُبيِّنُ مشروعيةَ الرَّهنِ، وهو ما يجعلُه المدينُ عند الدائنِ من عَقَارٍ أو عينٍ أخرى، ليطمئنَّ الدائن ويحفظَ ويأخذَ حقَّه حال عَجزِ المدين عن السدادِ.

والرهن يحتاجُه النَّاسُ في السَّفرِ وفي الحضرِ، إلا أنَّ الآيةَ علقَتِ الحُكمَ بالسفر لقلَّةِ الناس فيه عادةً، وقد لا يُجيدُ المتعاقدانِ المسافران الكتابةَ، ولا يجدان من يكتبُ لهما. هنا يرشِدُ الشرعُ لأخذِ الدائنِ وقبضِه رهنًا ممّا يملِكُه المدينُ بدلًا عن الكتابةِ، وذلك لضمانِ حقِّه.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ هذا الجزء من الآية هو الذي صرفَ أوامرَ الشَّرعِ المتعلقةِ بالكتابةِ والاشهادِ وأخذِ الرهنِ من الوُجوب إلى الاستحبابِ. وبيانُ ذلك أنَّ عددًا من الناس يتداينون فيما بينَهم ويشترون ويبيعون إلى أجلٍ، دون تقييد ذلك وتثبيتِه، ويكتفون بما عهدُوه بين بعضِهم من التعامل بالثقة والأمانة.

الآية تجيز اقتراضَهم وبيعَهم وشراءَهم إلى أجل دون أن يكتبوا أو يُشهدوا أو يَرْهنوا، مُكتفين بالأمانة التي بينَهم، ولكنْ مع توجيهٍ عظيمٍ جاء فيه: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾، أي: من اؤتمنَ على شيءٍ فليجعلْ مخافةَ الله بين عينيه، ولْيحرِصْ على ردِّهِ وبيانِه كما هو، ولا يكنْ من أهلِ خيانةِ الأمانةِ ونقضِها، المدين يدفعُ الدينَ الذي عليه بدونِ تأجيلٍ أو إنكارٍ، والدائن إن اؤتمن على شيء فكذا. وتأمَّلوا ذِكْر اسمِ الجَلالَةِ (الله) مع إمكانِ الاِسْتِغْنَاءِ عنها لتكونَ الآية: (وَلْيَتَّقِ رَبَّهُ)، وما ذاك إلا لبيانِ أهميةِ وعِظمِ الأمانة، وإعطائِها هيبتَها الشرعية المطلوبةَ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النِّسَاء ٥٨]. وأخرج البخاري تعليقًا وأحمد بسند متصل عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِالله شَهِيدًا، قَالَ: فَأْتِنِي بِالكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِالله كَفِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي البَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى البَحْرِ، فَقَالَ: اللهمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلاَ، فَقُلْتُ: كَفَى بِالله كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِالله شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي البَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا المَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ المَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَالله مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ

بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ الله قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا».

﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ من شهد على حقٍّ فلا يكتُمْ ويخفي شيئًا منه، فهذا من الزُّورِ الذي لا يرضاه الله ولا يُحبُّه، بل هو من أكبرِ الكبائرِ بنصِّ حديث رسولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في الصحيحين عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الكَبَائِرِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ.

ومن هنا أرشدَ أهلُ العلم أصحابَ الشهاداتِ التي يترتَّبُ عليها حقوقٌ للناسِ، أن يُبلِّغوها كما هي إن طُلبوا للشهادة، وأنْ يُوثِّقوها ويذكُروها لغيرِهم إذا خافوا على أنفسِهم الموتَ أو المرض أو النسيان.

﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ كِتْمَانَ الشَّهادَةِ إِصْرَارٌ قَلْبِيٌّ عَلَى مَعْصِيَةٍ، ولذلك وصفَتِ الآية قلبَه بأنَّه آثمٌ، أي: فاجرٌ وفيه خُبثٌ لا يخفى، ويكونُ صاحبُه قد عرَّض نفسَه لإثمٍ عظيمٍ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فراقِبُوه واتبعوا أمرَه فيما يتعلقُ بالشهادة وغيرِها، وهو مُجازيكم على ما قدَّمتم، فاستقيموا تُفلحوا.

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

من معالمِ عظمةِ الله تعالى وقدرتِه، أن له ملكَ السموات وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ.

وهو سبحانه عالمٌ ومطَّلعٌ على ما في النفوس والضمائرِ، ولا تخفى عليه خافيةٌ في ذلك وَإِنْ دقَّتْ وصغُرتْ، وسيحاسِبُ عبادَه على ما أبدوه من عمل، وما أخفوه وأضمروه من شرٍّ وسُوءٍ في صُدورِهم، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمْرَانَ ٢٩]. وقال الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك ١٣-١٤].

والآية هذه التي معنا، وَجدَ الصحابةُ شِدَّةً بنزولِها، ووقعوا في خوفٍ ووجلٍ شديدٍ، حتى بلغَ الأمرُ بهم من

شِدَّةِ إيمانِهم وحرصِهم وتعظيمِهم للربِّ جلَّ وعلا أنَّهم خافوا محاسبةَ الله تعالى لهم على أعمالِهم كلِّها، حتى الخواطرِ التي أسرُّوها في صدورِهم وما وسوسَتْ به نفوسُهم منها، وظنُّوا أنَّ الآيةَ تعمُّ كلَّ ذلك. أخرج الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَوْا رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ الله، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ الله فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا الله تَعَالَى، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾» الحديثُ.

والمتأمِّلُ للحديث الذي جاءَ يُبين مفهومَ الآياتِ والسياقِ القرآني، يجد أن الآية هنا مُحكمةٌ غيرُ منسوخةٍ، وأنَّ النسخ الذي جاء على لسان الصحابيِّ هنا إنما هو بمعنى البيانِ والإيضاحِ، أي: إن الآيةَ هنا التي معنا تدُلُّ على أن الله تعالى سيحاسِبُ عبادَه على أيِّ حديثٍ تحدثَتْ به نفوسُهم، وإن كان مجردَ وسوسةٍ أو خاطرةٍ خطرَتْ على بالِهم، لكنَّ قولَ الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، جاءَ بعد ذلك ليدُلَّ على أنَّ الذي يُحاسَبون عليه هو ما قَدِروا عليه وما كان بحسْبِ وُسْعِهم وطاقتِهم، وليس على جميعِ حديثِ النفس، وجاء ليدُلَّ على أنَّ ما لا طاقةَ لهم به، لا يؤاخَذون به ولا يُكلَّفون بتركِه. بخلافِ أعمالِ قلوبِهمُ التي قدروا على تركِها وهي من طاقتِهم كما سيأتي بيانُه.

وتفصيلُ ذلك أنَّ ما يقعُ في النفسِّ الإنسانيةِ ليس على مرتبةٍ واحدةٍ، بل على مراتبَ وأحوالٍ إليكموها مع بيانِها وبيانِ حُكمِها:

١- الهواجسُ والخواطرُ التي تَرِدُ وتأتي على القلبِ والفكرِ ممَّا لا يستطيعُ الواحدُ منَّا دفعَها، فهذه لا نُؤاخَذُ بها، ولا نُحاسَبُ عليها بفضلِ الله وكرمِه. ويَلحقُ بذلك كذلكَ حديثُ النفسِّ الذي يتردَّدُ صاحبُه بين الفعلِ وعدمِه، يعني: هلْ يَفعلُ أو لا، دون عزمٍ أو نيَّةٍ أو إرادةٍ للفعلِ. وفيه جاءَ حديثُ الصحيحينِ

واللفظُ للبُخاريِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ يَرْفَعُهُ، قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ». واستدلُّوا على ذلك بروايةٍ أخرجَها أحمدُ في مسندِه، قالَ فيها ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «فَتُجُوِّزَ لَهُمْ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَأُخِذُوا بِالْأَعْمَالِ».

٢- ومن المراتبِ مرتبةُ الهَمِّ بالشَّيءِ فعلًا أو تَرْكًا، والهَمُّ نوعانِ:

أ- منه ما هو حديثُ النَّفسِ اختيارًا، ولا يَصحبُه عزمٌ أو نيَّةٌ أو إرادةٌ جازِمةٌ؛ فهذا لا يُؤاخَذُ به العبدُ كذلك.

ب- ومنهُ ما يكونُ معه عزمٌ ونيةٌ، وأهلُ اللغةِ يقولون: همَّ بالأمرِ، أيْ: عَزَمَ على القيامِ به. ويقولون: هَمَّ الرجلُ لنفسِه، أي: طلبَ واحتالَ. وفيه جاء الحديثُ المتفقُ عليه واللفظُ لمسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبْتُهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا، لَمْ أَكْتُبْهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

فهذا الحديثُ يدُلُّ على أنَّ من همَّ بالخيرِ وعَزَمَ عليه وأرادَ فِعلَه، فإنَّه يُؤجَر على كلا الحالينِ، سواءً فعلَه أم لم يفعلْه.

فقد يَهُمُّ العبدُ وينوي ويعزمُ على صلاةٍ أو صيامٍ أو جهادٍ أو غيرِ ذلك من الأعمالِ الصَّالحةِ، ثمَّ لا يستطيعُ فعلَ ذلك لسببٍ ما، فهذا يُبلِّغُه اللهُ ما نوى، ويُؤجَر على ما همَّ به.

أما من هَمَّ بفِعْلِ السُّوءِ وفَعَلَه، كُتِبَتْ عليه سيئةٌ واحدةٌ فقطْ رحمةً بالعبادِ.

ولكن لو همَّ بسيئةٍ ثم لم يفعلْها، فهنا حالتانِ:

الأولى: من هَمَّ وعزمَ وجزمَ على فعلِ السيئةِ كالزنا وشُربِ الخمرِ وغيرِ ذلك، ثم تركَها خوفًا من الفَضيحةِ أو لينالَ مدحَ النَّاسِ، أو لم يستطعِ الوصولَ إلى معصيتِه، فهذا محاسبٌ عليها، وكُتِبَتْ عليه سيئةٌ. وقد جاء في روايةٍ عند أحمدَ والطبرانيِّ، عَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ الْأَسَدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: «وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، فَعَلِمَ اللهُ أَنَّهُ قَدْ أَشْعَرَهَا قَلْبَهُ، وَحَرَصَ عَلَيْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً» الحديثُ. وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ بالهمِّ هنا هو العزمُ والحِرصُ على العملِ، لا أنَّه مُجردُ خاطرةٍ خطرَتْ بدونِ عزمٍ أو تصميمٍ.

الثانيةُ: من همّ وعزمَ وجزمَ على فعلِ السيئةِ، ثم تركَها لله، فإنَّما تُكتبُ له حسنةٌ. أخرج مسلم روايةً، جاء فيها أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ

أَبْصَرُ بِهِ (يعني: ربنا أعلم به) فَقَالَ: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ». يعني: من أجلي. وهذا يدُلُّ على أن ترْكَها لا بُدَّ أن يكونَ لله ليُؤجَرَ عليها.

٣- ومن المراتبِ كذلك مرتبةُ العزمِ، وهو قُوَّةُ القصدِ والجزمِ به، وهذا يُؤاخذُ عليه العبدُ، لقوله تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور ١٩]، وللحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي بَكرةَ رَضِيَ الله عَنهُ، أن رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا؛ فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ». وفي رواية عند البخاري: «إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ». فكان جزاؤُه النارُ مع أنه مقتولٌ وليس قاتلًا، وما ذاكَ إلا لإرادتِه وحِرصِه وعزمِه على فعلِ السُّوءِ، وهذا من عملِ القلبِ الذي يُحاسَبُ عليه العبدُ.

ولذلك قال أهلُ العلمِ بإثمِ من مشى إلى الحرامِ، مع أنَّ المشيَ مباحٌ، لكنَّ عزمَه وقصدَه فِعْلَ الحرام، جعل مشيَه معصيةً كُتِبَتْ عليه. قال الإمامُ النوويُّ: «وَقَدْ تَظَاهَرَتْ نُصُوصُ الشَّرْعِ وَإِجْمَاعُ الْعُلَمَاءِ، عَلَى تَحْرِيمِ الْحَسَدِ وَاحْتِقَارِ الْمُسْلِمِينَ وَإِرَادَةِ الْمَكْرُوهِ بِهِمْ». وقالَ أهلُ العلم: ومن ذلك الشَّكُّ في وحدانيةِ الله وفي النُّبوةِ والبعثِ، فهذا كلّه يُعاقَبُ عليه العبدُ، ويصيرُ بذلك كافرًا ومنافقًا، ويُلحقُ بهذا القسمِ سائرُ المعاصي المتعلِّقةُ بالقلوبِ، كمحبَّةِ ما يُبغِضُهُ الله، وبغضِ ما يحبُّه الله، والكِبْرِ، والعُجْبِ.

واستِطْرادُ أهلِ العلمِ في بيانِ ذلك، فيه فائدةٌ نفيسةٌ لنا بأنْ يحرِصَ الواحدُ منَّا على دَفعِ الخواطرِ من مبتدئِها، ولْيحرِصْ على عدمِ الاسترسالِ معها، حتى لا يَقودُه ذلك إلى ما هو أبعدُ منه.

والآيةُ جاء فيها أن الله تعالى يغفِرُ لمن يشاءُ ويعذِّبُ من يشاءُ ليبقى الواحدُ منَّا بين الخوفِ والرَّجاءِ؛ يرجو رحمةَ ربِّه ويخشى عذابَه، وليَحرِصَ كلٌّ منا على أعمالِ القلوبِ كما يحرِصُ على أعمالِ الجوارحِ، فإنَّ الأمرَ جِدٌّ، وبالله العونُ وعليه التُّكلانُ.

ولا يفوتُنا أن نُذكِّرَ من ابتُلِيَ بشيءٍ من خواطرِ السُّوءِ ووَساوسِه، ألَّا يخافَ من ذلك، بل يتابعُ أمرَ دينِه ويمضي في طاعتِه وعُبوديَّتِه، ويستعينُ بأهلِ العلمِ الثِّقاتِ في ذلك، فإنَّ وصاياهم نورٌ يستعينُ به السَّائرونَ إلى الله.

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ختامٌ للآية يُؤكِّدُ عِظَمَ قُدرةِ الله تعالى وإحاطتَه بما خلقَ.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾

الآيتانِ القادِمتان هُما آخرُ آيتينِ من سورةِ البقرةِ، وهُما من كنوزِ كتابِ الله التي دلَّتْ على فضلِهما أحاديثُ عِدَّةٌ:

فقد أخرج البخاري عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ». أي: حفِظتاه من الشرِّ والمكروهِ فيها، أو من شرِّ الشَّيطانِ. ومن أهلِ العلمِ من قال: المقصودُ كفتاه عن قيامِ الليلِ كلِّهِ بالقرآنِ، مُستدِلِّينَ بما أخرجه الطبرانيُّ عن أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيَّ، قَالَ: «مَنْ قَرَأَ خَاتِمَةَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، أَجْزَأَتْ عَنْهُ قِرَاءَةَ لَيْلَةٍ».

وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ الله عَنهُ، قَالَ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا»، قَالَ: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ [النجم ١٦]، قَالَ: «فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ»، قَالَ: «فَأُعْطِيَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِالله مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحِمَاتُ». أي: الكبائرُ التي تُقحِمُ وتُدخِلُ فاعلَها النَّار.

وأخرجَ مُسلمٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنهُمَا، قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ».

وهذه الأحاديثُ من تأمَّلها وجدَ بينها تعارضًا ظاهريًّا في زمانِ نُزولِ هاتين الآيتينِ ومكانِهما، خاصَّةً مع استحضارِ الحديثِ الذي ذكرناه في الآيةِ السَّابقةِ، في بيانِ تحرُّجِ الصحابةِ من نُزولِ الآيةِ السَّابقةِ حتى نزلَتْ هاتان الآيتانِ مُوضِّحتَين.

وأكثرُ أهلِ العلمِ أنَّ الآيتينِ مدنيَّتانِ نزلتا بعدَ الهجرةِ، وأنَّ إعطاءَ الله تعالى هذه الآيات لنبيِّه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلةَ المعراجِ، يحتملُ أنَّه أُوحى بهما إليهِ بلا واسطةٍ، ثم نزلتا مرَّةً أخرى في المدينةِ، أو أنَّ الله بشَّره بنزولِ هذه الآياتِ عليه، ثم نزلتا حقيقةً في المدينةِ.

ومن الأحاديثِ الدَّالَّةِ على فضلِها كذلك، ما أخرجه أحمدُ والحاكم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي».

وأخرجَ الترمذيُّ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يخلق السموات وَالْأَرْض بِأَلْفَيْ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ ختم بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ».

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ إخبارٌ من الله تعالى عن أهلِ الإيمانِ الحقِّ الذي لا يُقبلُ غيرُه ولا يُرتَضى سِواه.

والآيةُ فيها مدحٌ للمؤمنين وثناءٌ عليهم، ابتداءً من محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن تقومَ الساعةُ. لا يُقبلُ إيمانُ عبدٍ بالله تعالى، ولا يُسمَّى مسلمًا إلا بأن يُؤمنَ بالله ربًّا وإلهًا واحدًا لا إلهَ إلا هو بلا شكٍّ أو تردُّدٍ، ويؤمنَ بأسمائِه وصفاتِه التي علِمْناها، ويصرفَ عبادَتَهُ له سبحانه لا يشركُ به شيئًا، ويستسلمَ لأمرِه ويرضى بقدَرِه، ويؤمنَ بالملائكة وما علِمْنا من صفاتِهم ووظائِفِهم، ويؤمنَ بالكُتُبِ كلِّها وبآخرِها والمُهيمنِ عليها القرآنِ الكريم وما جاءَ فيه.

ويؤمنَ بالنَّبيينَ المبلِّغينَ عن الله تعالى بما أُوحيَ إليهم، دونَ تفريقٍ بين رسولٍ ورسولٍ، فإنَّه من كفَرَ برسولٍ من رُسُلِ الله تعالى، فقد كفَرَ بالله العظيم ولا يكونُ مُسلمًا ولا مؤمنًا، كما هو حالُ اليهودِ والنَّصارى الذين آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء ١٥٠-١٥١].

﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ ومِمَّا امتدحَ الله تعالى به أهلَ الإيمانِ أنهم يُسارعونَ لامتثالِ أمرِ الله تعالى بعد سماعِه، ويُطيعونَه فيما أمرَ بحُبٍّ ورضًا وطواعيةٍ ورغبةٍ في الثَّوابِ.

﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إنما نرجو من طاعتِكَ، أن تَغفِرَ لنا ذُنوبَنا وترحَمَنا، فإنَّ مصيرَنا إليكَ، ونحن سائرونَ في حياتِنا حتى نقفَ بين يديكَ، فالطُفْ بنا وبحالِنا.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾

هذه الآيةُ هي التي هوَّنَت على أصحابِ النبيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولَ الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ ، وهي آيةٌ تدلُّ على لُطفِ الله تعالى بعبادِه ورأفتِه وإحسانِه إليهم، فإنَّه سبحانَه وإن حاسبَ عبادَه وسألَهم عما أخفوه في نفوسِهم، إلا أنه لا يُعذِّبُهم إلا بما يملِكونَه، فكان العفوُ عن وسوسةِ النُّفوسِ وخواطِرِها السَّيئةِ من نِعَمِ الله تعالى وفضلِه.

الله سبحانَه لا يُكلِّفُ النفسَ إلا ما يَدْخل في طاقتِها وقُدْرتِها، ولا يشُقُّ عليها مشقةً غيرَ معتادةٍ، وهذا مما امتازَتْ به شريعتُنا حتى كان من قواعدِها الكبرى «المشقةُ تَجلِبُ التَّيسيرَ». قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج ٧٨]، وقال جلَّ جلالُه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة ١٨٥].

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ كلُّ نفسٍ مكلفةٍ لها ما كسبَتْ من أقوالِ الخيرِ، وكذا من أفعالِ الجوارحِ والقُلوبِ، وعليها إثمُ ما عمِلَتْ من شرٍّ وسُوءٍ مما في وُسْعِها تركُهُ.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إرشادٌ من الله تعالى لعبادِه المؤمنينَ إلى دعواتٍ نافعةٍ لهم، جامعةٍ لخيري الدنيا والآخرةِ، وهذه الدعواتُ من أسرارِ خواتيم سورةِ البقرةِ، حتى كانت سببًا لتعلُّقِ كثيرٍ من المؤمنين بهذه الآياتِ، ويكادُ قلبُ داعيها أنْ ينخلِعَ من عظمةِ كلماتِها. علَّم الله المؤمنين كيف يدعو الواحدُ منهم ربَّه بدلًا من خوفِه المُقعِدِ له عن العملِ.

يا رب، لا تؤاخِذْنا ولا تحاسبنا ولا تعاقِبنا على ما نسينا فعلَه مما افترَضْتَه علينا، ولا تُؤاخِذْنا ولا تُحاسِبْنا ولا تُعاقِبنا على ما اقترفناه من ذنوبٍ عن غيرِ قصدٍ منا، أو ما جهلناه من أحكامِ شرعِك ودينِك.

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب ٥]. وأخرج ابن ماجه والبيهقي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الله وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ».

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ الإصرُ هو التكليفُ الشَّاقُّ الذي يَصعُبُ الوفاءُ به.

المؤمنون يدعون ربَّهم بألا يُكلِّفَهم بأعمالٍ تشُقُّ عليهم، لئلا يُقصِّروا فيُعاقَبوا بتركِهم ونقضِهم الميثاقَ والعهدَ. وهذا كما جرى مع بني إسرائيل الذين وُضعت عليهم التكاليفُ الشديدة بسبب خصالِهم وتعنُّتِهم، فعجِزَ كثيرٌ منهم عن القيام بما كُلفوا، فاستحقوا العذابَ الشَّديد.

ومن كرم الله تعالى على هذه الأمة أنْ استجابَ الله لها دعاءَها، فجعلَ شرعَه لها مبنيًّا على التيسيرِ ورفعِ الحرج. قال الله تعالى فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف ١٥٧].

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ يا رب، لا تَبتلينا بما لا نقدِرُ أو نصبرُ عليه من المصائبِ، ولا تكلفنْا من الأعمالِ ما لا نطيقُ، ولا تعاقبْنا بما لا نستطيعُ حَمْلَه.

﴿ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ ﴾ اعفُ عنَّا، أي: لا تؤاخِذْنا وأسقطْ عنا العقوبةَ والعذابَ، ولا تؤاخِذْنا بتقصيرِنا.

﴿ وَٱغۡفِرۡ لَنَا ﴾ أيْ: استرْ علينا، ولا تفضحْنا ولا تُطلع عبادَك على مساوينا وَأَعْمَالِنَا الْقَبِيحَةِ.

﴿ وَٱرۡحَمۡنَآۚ ﴾ أيْ: أكرمنا بزيادةِ الحسناتِ والصَّفحِ عن السيئات، ولا توقِعنا بتوفيقٍ منك في ذنوبٍ قادمةٍ، ولا تبتلينا في دينِنا.

هذه الدعواتُ الثلاثُ الأخيرةُ تجمعُ ما يريدُه مَنْ وقعَ في الذنبِ إذا صدقَ الله تعالى في توبتِه، وامتلأ قلبُه بتعظيمِ الربِّ وخشيتِه وحُبِّه والشوقِ إلى لقائِه: اللهمَّ لا تُعذبْنا ولا تفضَحنا وثبتْنا فيما يأتي.

﴿ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا ﴾ أيْ: أَنْتَ وَلِيُّنَا وَنَاصِرُنَا وحافظُنا، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِكَ.

﴿ فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ يا ربِّ، أيِّدنا وأعِنّا وقوِّنا على من جَحَدُوا دِينَكَ، وَأَنْكَرُوا وَحْدَانِيَّتَكَ، وَرِسَالَةَ نَبِيِّكَ، وَعَبَدُوا غَيْرَكَ، وَأَشْرَكُوا مَعَكَ مِنْ عِبَادِكَ، انْصُرْنَا وَاجْعَلْ لَنَا الْعَاقِبَةَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

روى أهلُ التفسيرِ بأسانيدِهم، أَنَّ مُعَاذًا رَضِيَ الله عَنهُ، كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿ فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾، قَالَ: آمِينَ.

وقبل أن أختِمَ تفسيرَ سورةِ البقرة وتفسيرَ هذه الآياتِ، أُبشِّرُكُم أنَّ الله تعالى تكفَّلَ بإجابةِ دعواتِ المؤمنينَ التي أرشدَهم إلى قولِها في هذه الآية، فقدْ أخرج أبو عوانة والطحاوي في شرح مشكل الآثار، والطبراني في الأوسط، والبيهقيُّ في شُعَبِ الإيمان، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾، قَرَأَهَا رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا ﴾، قَالَ الله: قَدْ غَفَرْتُ لَكَ. قَالَ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ ﴾ قَالَ الله: لَا أُؤَاخِذُكُمْ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿ وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ ﴾ قَالَ: لَا أَحْمِلُ عَلَيْكُمْ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿ وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ قَالَ: لَا أُحَمِّلُكُمْ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا ﴾ قَالَ الله: قَدْ عَفَوْتُ عَنْكُمْ وَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿ وَٱرۡحَمۡنَآ ﴾ قَالَ: قَدْ رَحِمْتُكُمْ، قَالَ: ﴿ فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ قَالَ: قَدْ نَصَرْتُكُمْ». وفي رواية: قَالَ الله: «قَدْ فَعَلْتُ».

حتى إنَّ أهلَ العلمِ ذكروا لفتةً كريمةً تُوزَنُ بالذهبِ في هذه الدَّعواتِ، وهي خُلُوُّها من ياءِ النِّداءِ التي تُستعملُ للبعيدِ، يعني: لا يوجدُ يا ربَّنا، بل: ربَّنا؛ وهذا فيه دلالةٌ ظاهرةٌ على قُربِ الله من عبادِه المؤمنينَ، واستجابةِ دعواتِهم ما صدقوا.

اللهمَّ تقبَّلْ منا كتابةً وقراءةً وفهمًا، واجعلْ هذه السورةَ من شُفعائِنا بين يديكَ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

التفسير الوعظي لسورتي الفاتحة والبقرة

+962 6 56 58 787
darfan.com